المحاضرات الأخلاقيّة



مواضيع تربويّة في تنمية الذات والمجتمع من فكر الإمام علي (عليه السلام)

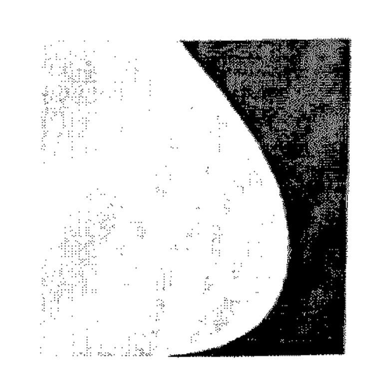
السيد
حسين نجيب محمّد

مكتبة دار المجتبى
العراق - النجف الأشرف

مصورات
حسين الخزاعي
لعام ٢٠١٢م

المحاضرات الأخلاقية

١٤٣٢هـ / ٢٠١١م



للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
هاتف: ٠٣/٩٤٦١٦١ - ٠٣/١١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٢٧٦٩٨٨
http://www.Dar-Alamira.com
e-mail:info@dar-alamira.com



مكتبة دار المجتبى
العراق - النجف الأشرف - سوق الحويش
تلفون: [illegible] - [illegible]

المحاضرات الأخلاقية

مواضيع تربوية في تنمية الذات والمجتمع
من فكر الإمام علي عليه السلام

السيد حسين نجيب محمد




بسم الله الرحمن الرحيم

كلام علي

كلامٌ علي

وما قاله المرتضى

مرتضى

المقدمة

كلام الإمام... إمام الكلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الَّذي خلق الإنسان وعلَّمه البيان، والصلاة والسلام على سيِّد الأنام وآله الكرام، وبعد

الكلام:

في البدء كانت الكلمة...

فبها أوجد الله تعالىٰ المخلوقات. قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٧].

وبها عرَّف الله تعالىٰ نفسه لعباده وأرسل الرُّسل.

فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّ الله لم يبعث رُسله حين بعثها ومعها فضَّة ولا ذهب ولكن بعثها بالكلام، وإنَّما عرَّف الله نفسه إلى خلقه بالكلام والدلالات عليه والاعلام».

وبها يتمّ الإسلام، فقد بُعث النَّبيّ محمَّد ﷺ وأمر النَّاس أن

يقولوا: «لاَ إلٰه إلّا الله» قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

والكلمة هي ذلك الرابط بين عالم الأفكار وعالم الحقائق والمعاني، وهي الرمز الَّذي يختصر ويعتصر بحراً من المعاني في عدد من الحروف.

الكلام الإلٰهي:

لا شكّ بأنَّ أعظم الكلام هو الكلام الإلٰهي، وهو على نحوين:

الأوَّل: الكلام اللفظي: وهو إظهار مراده تعالىٰ بالحروف والكلمات وخلقها في الموجودات، قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورىٰ: ٥١].

قيل: إنَّ أحد كبار الفلاسفة سأل النَّبيّ موسى عليه السلام قائلاً: أنت الَّذي تزعم أنَّ علَّة العلل كلَّمك؟ فقال عليه السلام: نعم، قال الفيلسوف: كيف كلَّمك؟ فقال عليه السلام: من كلّ الجهات وبكلّ الجهات.

فكان كلام الله تعالىٰ: «من كلّ الجهات» مُحيطاً بموسى عليه السلام، وذلك لأنَّه صادر من مجرَّد عن المادَّة والجهة، فهو لا يتحدَّد بهما عكس الأصوات المادّيَّة الَّتي تنطلق من جهة لتقطع مسافة معيَّنة متجهة إلى جهة خاصَّة.

وكان كلامه تعالىٰ «بكلّ الجهات»، فهو جامع لشتَّىٰ العلوم والفنون والكمالات عكس كلماتنا الَّتي تعكس في تركيبها علم الطب دون الهندسة أو الفلك دون الفلسفة، أو النحو دون الفيزياء، أمَّا كلامه

تعالى فهو، بالإضافة إلى كونه طبّاً فهو نحوٌ وصرفٌ وحكمةٌ وفلسفةٌ ومعرفةٌ(١).

وقد تجسَّد الكلام الإلٰهي في عالم الدُّنيا بالقرآن الكريم بعد أن تنزَّل من الكتاب المكنون في عالم الغيب قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠].

ولا شكّ بأنَّ لهذا الكتاب الكريم تأثيراً بيّناً على جميع المخلوقات قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: ٣١].

كما تجسَّد الكلام الإلٰهي بما يُعرف بـ«الحديث القدسي» وللوقوف على الأحاديث القدسية راجع كتاب «كلمة الله».

الثاني: الكلام الفعلي أو التكويني: وهو إيجاد الله تعالى للأشياء الخارجية وإظهارها من العدم، وهو شامل لكلّ الموجودات الكونيَّة قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

---

(١) مقالات: ص٨١.

وقد سُمِّيت بالكلمات لدلالتها على الخالق ـ كالكلام الَّذي يدلُّ على المتكلِّم ـ.

ولا شكَّ بأنَّ أبرز وأعظم الكلام الفعلي ما كان له الدلالة الأوضح على الله تعالى، وهذا ما ينطبق على الأنبياء، ولذا قال تعالى عن المسيح عليه السلام: ﴿...إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وهو ما ينطبق على النَّبيّ محمَّد والأئمَّة عليهم السلام، ولذا جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] إنَّ الكلمات هي أهل الكساء الخمسة «محمَّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام» فقد ورد في الحديث: «إنَّ آدم رأى مكتوباً على العرش أسماءً مُعظَّمة مُكرَّمة فسأل عنها، فقيل له: هذه أسماء أجلّ الخلق منزلة عند الله تعالى والأسماء: محمَّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين، فتوسَّل آدم عليه السلام إلى ربّه بهم في قبول توبته ورفع منزلته»[١].

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥] إنَّ الكلمة الطَّيِّبة هم النَّبيّ والأئمَّة عليهم السلام فعن الإمام الصَّادق عليه السلام في الآية أنَّه قال: «رسول الله أصلها، وأمير المؤمنين فرعها، والأئمَّة من ذرِّيَّتهما أغصانها، وعلم الأئمَّة ثمرها، وشيعتهم المؤمنون ورقها» وفي رواية أُخرى: «الشجرة الطِّيبة رسول الله وعلي وفاطمة وبنوها، والشجرة الخبيثة بنو أُميَّة»[٢].

---

(١) الوهابيّة: ص١٧١.

(٢) الأمثل: ج٧، ص٤٤٦.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤] عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «هي الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه»[1].

وجاء في بعض الأحاديث أنّ قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] مكتوب على العضد الأيمن للمعصومين عليهم السلام فعن الإمام الصّادق عليه السلام: «إنّ الإمام ليسمع في بطن أُمّه، فإذا وُلد خُطّ بين كتفيه ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]»[2].

وفي حديث المعراج أنّ الله تعالى خاطب النّبيّ محمّداً صلى الله عليه وآله قائلاً: «عليّ كلمتي الّتي ألزمتُها المتّقين».

يقول آية الله السيّد الخوئي رحمه الله: «ابتدأ الله كتابه التدويني بذكر اسمه، كما ابتدأ في كتابه التكويني باسمه الأتم، فخلق الحقيقة المحمّديّة ونور النّبيّ الأكرم قبل سائر المخلوقين.

وإيضاح هذا المعنىٰ: أنّ الاسم ما دلّ علىٰ الذّات، وبهذا الاعتبار تنقسم الأسماء الإلٰهيّة إلىٰ قسمين: تكوينيّة، وجعليّة.

فالأسماء الجعليّة هي الألفاظ الّتي وُضعت للدلالة علىٰ الذّات المقدّسة، أو علىٰ صفة من صفاتها الجماليّة والجلاليّة.

والأسماء التكوينيّة هي الممكنات الدالّة علىٰ وجود خالقها وعلىٰ توحيده: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥].

---

(١) رسالة الإنسانية: ص٣٤٢.

(٢) نور الثقلين: ج١، ص٧٦٠.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ففي كلّ شيء دلالة علىٰ وجود خالقه وتوحيده.

وكما تختلف الأسماء الإلٰهيّة اللفظيّة من حيث دلالتها، فيدلُّ بعضها علىٰ نفس الذّات بما لها من صفات الكمال، ويدلُّ بعضها علىٰ جهة خاصّة من كمالاتها علىٰ اختلاف في العظمة والرفعة، فكذلك تختلف الأسماء التكوينيّة من هذه الجهة، وإن اشترك جميعها في الكشف عن الوجود والتوحيد وعن العلم والقدرة وسائر الصفات الكماليّة.

ومنشأ اختلافها: أنَّ الموجود إذا كان أتمّ، كانت دلالته أقوىٰ، ومن هنا صحَّ إطلاق الأسماء الحسنىٰ علىٰ الأئمّة الهُداة، كما في بعض الروايات، فالواجب جلَّ جلاله قد ابتدأ في أكمل كتاب من كتبه التدوينيّة، بأشرف الألفاظ وأقربها إلىٰ اسمه الأعظم، من ناظر بعين إلىٰ بياضها، كما بدأ في كتابه التكويني باسمه الأعظم في عالم الوجود العيني»[١].

الكلام البشري:

خلق الله الإنسان وعلّمه البيان ليستقيم اجتماعه المدني ويتمّ تواصله مع الآخرين قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمٰن: ١-٤] وعن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «للإنسان فضيلتان: عقل ومنطق، فبالعقل يستفيد وبالمنطق يفيد»[٢].

---

(١) البيان: ص٤٣٣.

(٢) عيون الحكم والمواعظ، ص٤٠٣.

فالكلام هو الأداة الَّتي يستخدمها الإنسان للتعبير عن أفكاره ومشاعره واحتياجاته، فعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «مغرس الكلام القلب، ومستودعه الفكر، ومقومه العقل، ومبديه اللِّسان، وجسمه الحروف وروحه المعنىٰ، وحليته الاعراب، ونظامه الصواب»[١].

ومن هنا كان الكلام دالاً علىٰ حقيقة الإنسان، لذا ورد عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «تكلَّموا تُعرفوا فإنَّ المرء مخبوء تحت لسانه».

وعنه عليه السلام: «اللِّسان ترجمان الجنان».

وعنه عليه السلام: «يُستدل علىٰ عقل كلّ امرىء بما يجري علىٰ لسانه»[٢]. وعليه فإذا وصل الإنسان إلى أعلى مراتب الكمال فقد صار كلامه نورانياً ومشتملاً على أعلى وأعمق العلوم والمعارف.

فعن الإمام علي عليه السلام: «... فالكلمة من الروح، والروح من النُّور، والنُّور نور السَّموات والأرض»[٣].

ولهذا نجد أن كلمات المعصومين عليهم السلام تميّزت بالنورانية والعلو في شتّى المجالات الدينية والدنيوية.

عظمة كلام المعصومين (ع):

يقول الشيخ حسن زاده آملي: «إنَّ معاجز السفراء الإلٰهيِّين علىٰ قسمين: قوليَّة وفعليَّة.

المعجزات الفعليَّة: هي التصرُّف في الكائنات وتسخيرها والتأثير فيها.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) تصنيف غرر الحكم: ص٢٠٩.

(٣) المستدرك: ج٥، ص١١٨.

والمعجزات القوليَّة والكلامية: هي العلوم والمعارف والحقائق الَّتي نزل بها أُمناء الوحي على المرسلين، فالقرآن الكريم هو رأس قائمة المعجزات القوليَّة تليه المعارف الصادرة عن أهل بيت الوحي، كنهج البلاغة، والصحيفة السجَّاديَّة، وكتب الحديث، **وهي مرتبة القرآن النازلة، كما أنَّ القرآن هو المرتبة الصاعدة للروايات وروحها.**

ومثلما يُعدُّ القرآن الكريم أفضل حجَّة علىٰ رسالة النَّبيّ محمَّد، فكذلك تُعدُّ روايات أوصيائه ﷺ أفضل حجَّة علىٰ كونهم حجج الله، فلو أنَّ أحداً تدبَّر في روايات الأئمَّة ﷺ وفي خطبهم وكتبهم ورسائلهم، وخاصَّة في أدعيتهم ومناجاتهم لاعترف بأنَّ هذه الحقائق لا تصدر إلَّا عن النُّفوس المُؤيّدة بروح القدس، وهذا كافٍ لإثبات إمامتهم وخلافتهم» انتهى (بتصرُّف)[(١)].

ويقول: «إنَّ الروايات هي مرتبة دُنيا من الآيات وهي ظلّ القرآن، فنهج البلاغة والصحيفة السجَّاديَّة هما ظلّ القرآن»[(٢)].

عن الإمام علي عليه السلام: «وإنَّا لأُمراء الكلام وفينا نشبت عروقه وعلينا تهدَّلت غصونه»[(٣)].

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «أُعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة...»[(٤)].

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «فإنَّ لكلامنا حقيقة وعليه نور، فما لا حقيقة له ولا نور عليه فذلك قول الشَّيطان»[(٥)].

---

(١) الإنسان الكامل: ص٦ ـ ٧ ـ ٨.
(٢) في سماء المعرفة: ص٧١.
(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٢٣١.
(٤) أهل البيت: ص١٦٧.
(٥) مفاهيم إنسانية: ص٦.

عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «إنَّ لكلام الله فضلاً علىٰ الكلام كفضل الله علىٰ خلقه، ولكلامنا فضل علىٰ كلام النَّاس كفضلنا عليهم»(١).

إنَّ لكلامهم عليهم السلام خصائص ومميزات فهو:

عميق الدلالة وله أبعاد ومعان وبطون، فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «أنتم أفقه النَّاس إذا عرفتم معاني كلامنا، إنَّ الكلمة لتنصرف علىٰ وجوه»(٢).

وهو دقيق للغاية، فقد ورد عنهم عليهم السلام: «لو زدتم في السؤال حرفاً واحداً لزدنا في الجواب، وإن نقصتم نقصنا»(٣).

وهو أبلغ الكلام لأنَّه مختصر مفيد، فعن الإمام علي عليه السلام: «أحسن الكلام ما زانه حُسن النظام وفهمه الخاص والعام» وعنه عليه السلام: «خير الكلام ما لا يُملّ ولا يقلّ»(٤).

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «من عرف شيئاً قلَّ كلامه فيه، وإنَّما سُمِّي البليغ بليغاً لأنَّه يبلغ حاجته بأهون سعيه».

عظمة الكلام العلوي:

يُعتبر كلام الإمام علي عليه السلام من أعظم الكلام فصاحة وبلاغة، فهو «فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق».

---

(١) حياة الإمام العسكري عليه السلام: ص٣٩.
(٢) الفصول المهمة في أصول الأئمة، ج١، ص٥٧٣.
(٣) السلوك إلىٰ الله للرشتي: ص١١٣.
(٤) تصنيف غرر الحكم: ص٢١٠.

وهذا ما اتفق عليه جميع النَّاس على اختلاف عقائدهم وقوميَّاتهم، حتَّى إنَّا نجد أعداء الإمام علي عليه السلام يعترفون بذلك.

يقول معاوية: «إن كنَّا لنتحدَّث أنَّه ما جرت المواسي[١] علىٰ رأس رجل من قريش أفصح من عليّ»[٢].

ولمَّا قال مِحفن بن أبي مِحفن لمعاوية: جئتك من عند أعيىٰ النَّاس، قال له: «ويحك، كيف يكون أعيىٰ النَّاس! فوالله ما سنَّ الفصاحة لقريش غيره».

يقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: «وأمَّا الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفُصحاء، وسيِّد البُلغاء، وفي كلامه قيل: «دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين، ومنه تعلَّم النَّاس الخطابة والكتابة».

قال عبد الحميد بن يحيى: «حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع، ففاضت ثمَّ فاضت».

وقال ابن نباتة: «حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلَّا سعة وكثرة، حفظت مائة فصل من مواعظ عليّ بن أبي طالب».

ويعود السبب إلى عظمة الكلام العلوي كونه صادراً من قلب «وعىٰ القرآن» فكما أنَّ القرآن الكريم «الصامت» جامع لكلّ شيء، كذلك الإمام علي عليه السلام الَّذي وُصف بأنَّه «القرآن الناطق».

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «عليٌّ مع القرآن والقرآن مع عليّ».

---

(١) المواسي: الَّذي يحلق به، والمراد: من جرت عليه المواسي: من بلغ الحلم (لسان العرب: ٦/ ٢٢٤).

(٢) تاريخ دمشق: ٤٢/ ٤١٤، جواهر المطالب: ١/ ٢٩٧.

ومن أراد أن يُدرك هذا المعنىٰ فليُلاحظ كلام الإمام عليه السلام فهو مقتبس ـ لفظاً ومعنى ـ من القرآن الكريم ومشابه له من عدَّة أوجه.

يقول الشيخ المطهري: «إنَّ الكلمة مرآة الرُّوح الإنسانية، ولذلك فإنَّ كل كلمة تتعلَّق بنفس العالم الَّذي يرتبط به روح صاحبها، فالكلمات الَّتي تتعلَّق بعوالم عديدة تكون علامة على تلك الروح الَّتي لم تنحصر في عالم واحد. وحيث إنَّ روح الإمام عليه السلام لا تتحدَّد بعالم خاص بل هو ذلك الإنسان الكامل الجامع لجميع مراتب الإنسانية والروحيَّة والمعنوية، فلا تختصّ كلماته أيضاً بعالم واحد. إنَّ من مميزات كلام الإمام عليه السلام أنَّه ذو أبعادٍ متعددة وليس ذا بُعد واحد.

وإنّ هذه الخصيصة: ـ خصيصة الشمول والاستيعاب في كلام الإمام عليه السلام ـ ليس ممَّا اكتشف حديثاً، بل هو أمر كان يبعث علىٰ العجب منذ أكثر من ألف عام. فهذا السيِّد الشريف الرضي الَّذي هو من علماء الإمامية في المئة الرابعة أي قبل ألف سنة، يلتفت إلىٰ هذه النقطة فيعجب بها ويقول:

ومن عجائبه الَّتي انفرد بها، وأمرنا المشاركة فيها: أنَّ كلامه الوارد في الزهد والمواعظ والتذكير والزواجر إذا تأمَّله المتأمّل وفكَّر فيه المفكّر، وخلع من قلبه: أنَّه كلام مثله ممَّن عظم قدره ونفذ أمره وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشكّ في أنَّه كلام من لا حظّ له في غير الزهادة، ولا شغل له بغير العبادة، قد قبع في كسر بيت أو انقطع إلى سفح جبل، لا يسمع إلَّا حسّه ولا يرى إلَّا نفسه. ولا يكاد يوقن بأنَّه كلام من ينغمس في الحرب مصلتاً سيفه فيقطّ الرقاب ويجدل الأبطال ويعود به ينطف دماً ويقطر مهجاً، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد وبدل الأبدال! وهذه من فضائله العجيبة وخصائصه اللطيفة الَّتي جمع

بها بين الأضداد وألّف بين الأشتات. وكثيراً ما ذكر الإخوان بها واستخرج عجبهم منها. وهي موضع العبرة بها والفكر فيها»[١].

ولعظمة الكلام العلوي النابع من الرجل القدسي نجد أنَّ له تأثيراً ووقعاً في القلوب لا تجده في غير كلامه عليه السلام.

قال ابن أبي الحديد في ذيل الخطبة ٩١: «أقسم إنَّ هذا الكلام إذا تأمّله اللبيب اقشعرَّ جلده ورجف قلبه، واستشعر عظمة الله العظيم في روعه وخلده وهام نحوه وغلب الوجد عليه، وكاد أن يخرج من مُسكه شوقاً وأن يفارق هيكله صبابةً ووجداً»[٢].

وقال في ذيل الخطبة ١٠٩: «من أراد أن يتعلَّم الفصاحة والبلاغة ويعرف فضل الكلام بعضه على بعض فليتأمَّل هذه الخطبة، فإنَّ نسبتها إلىٰ كلّ فصيح من الكلام ـ عدا كلام الله ورسوله ـ نسبة الكواكب المنيرة الفلكيَّة إلى الحجارة المظلمة الأرضية، ثمَّ لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء والجلالة والرواء والديباجة، وما تحدثه من الروعة والرهبة والمخافة والخشية، حتَّىٰ لو تُليت على زنديق مُلحد مصمِّم على اعتقاد نفي البعث والنشور؛ لهدَّت قواه وأرعبت قلبه وأضعفت علىٰ نفسه وزلزلت اعتقاده، فجزىٰ الله قائلها عن الإسلام أفضل ما جزىٰ به وليّاً من أوليائه، فما أبلغ نصرته له تارةً بيده وسيفه وتارةً بلسانه ونطقه وتارةً بقلبه وفكره، إن قيل: جهاد وحرب فهو سيِّد المجاهدين والمحاربين، وإن قيل: وعظ وتذكير فهو أبلغ الواعظين والمذكِّرين، وإن قيل: فقه وتفسير فهو رئيس الفقهاء والمفسِّرين، وإن قيل: عدل وتوحيد فهو إمام أهل العدل والموحِّدين:

---

(١) في رحاب نهج البلاغة.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٤٢٥.

ليس على اللَّه بمُستنكرٍ أن يجمع العالَمَ في واحدِ»[١]

وقال في ذيل الخطبة ٢٢١: «من أراد أن يعظ ويخوِّف ويقرع صَفاةَ القلب، ويعرِّف النَّاس قدر الدُّنيا وتصرُّفها بأهلها، فليأتِ بمثل هذه الموعظة في مثل هذا الكلام الفصيح وإلَّا فليمسك، فإنَّ السكوت أستر، والعيّ خير من منطق يفضح صاحبه. ومن تأمَّل هذا الفصل علم صدق معاوية في قوله فيه: «والله ما سنَّ الفصاحة لقريش غيره» وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبةً في مجلس وتُلِيَ عليهم أن يسجدوا له».

وقال في ذيل الخطبة ٢٢١: «وأُقسم بمن تُقسم الأُمم كلّها به، لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلىٰ الآن أكثر من ألف مرَّة، ما قرأتُها قطّ إلّا وأحدثتْ عندي روعةً وخوفاً وعِظةً، وأثَّرت في قلبي وجيباً[٢] وفي أعضائي رِعدةً، ولا تأمَّلتُها إلّا وذكرتُ الموتى من أهلي وأقاربي وأرباب ودِّي، وخيّلت في نفسي أنّي أنا ذلك الشخص الَّذي وصف عليه السلام حاله.

وكم قال الواعظون والخطباء والفصحاء في هذا المعنىٰ، وكم وقفت على ما قالوه وتكرَّر وقوفي عليه، فلم أجد لشيء منه مثل تأثير هذا الكلام في نفسي، فإمَّا أن يكون ذلك لعقيدتي في قائله، أو كانت نيَّة القائل صالحة، ويقينه كان ثابتاً، وإخلاصه كان محضاً خالصاً، فكان تأثير قوله في النُّفوس أعظم، وسريان موعظته في القلوب أبلغ»[٣].

نهج البلاغة:

منْ أراد أن يعرف عظمة كلام الإمام علي عليه السلام فليرجع إلىٰ كتاب

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٧/ ٢٠٢.

(٢) وَجَبَ القلبُ يَجِب وَجباً ووجِيباً ووجُوباً ووَجَباناً: خَفَق واضطرَبَ (لسان العرب: ١/ ٧٩٤).

(٣) شرح نهج البلاغة: ١١/ ١٥٢.

«نهج البلاغة» فسيجد فيه أدقّ المعاني وأعمقها وأبدعها بأحلىٰ الألفاظ وأعذبها وأروعها.

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي: «إذا تأمّلت نهج البلاغة وجدته ماءً واحداً ونفساً واحداً وأسلوباً واحداً، كالجسم البسيط الَّذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز أوّله كوسطه وأوسطه كآخره».

ويقول الشريف الرضي جامع نهج البلاغة: «كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه ظهر مكنونها، وعنه أُخذت قوانينها، وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كلّ واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصّروا، وقد تقدّم وتأخّروا، لأنَّ كلامه عليه مسحة من العلم الإلٰهي وفيه عبقة من الكلام النبوي».

وفي الحقيقة فإنَّ نهج البلاغة هو نهج الكمال الإنساني، ونهج السعادة البشرية، إنَّه نهج لمنْ أراد الفصاحة والبلاغة، ولمنْ أراد العبادة، ولمنْ أراد القيادة وهكذا... يقول أحدهم عن نهج البلاغة:

كتاب كأنَّ الله رصَّع لفظه بجوهر آيات الكتاب المنزّل
حوىٰ حكماً كالدرّ ينطق صادقاً فلا فرق إلّا أنَّه غير منزّل

من هنا ـ وبعيداً عن النصوص القرآنيَّة والنبويَّة والتاريخيَّة الدالَّة على ولاية الإمام علي عليه السلام ـ فإنَّ كتاب نهج البلاغة دليل واضح على إمامة الإمام علي عليه السلام.

يقول السيِّد محمَّد صادق الصدر رحمه الله: «**وإذا كان القرآن الكريم هو معجزة «النُّبوَّة» فإنَّ «نهج البلاغة» معجزة «الإمامة» فوالله، وبالله،**

وتالله: لو لم يكن «للوصيّ» دليل على إمامته من كتاب أو سُنَّة لكفانا نهج البلاغة دليلاً على إمامة أبي الحسنين علي عليه السلام»[١].

كيف نتدبَّر كلام الامام علي (ع)؟

من الطبيعي أن نجد في كلّ بيت من بيوت المسلمين كتاب «نهج البلاغة» ومع ذلك فقلَّما نجد منْ يعرفه حقَّ المعرفة، ولتقريب الفكرة نأتي بالمثال التالي: لنفرض أنَّنا نعيش في مكان ما وبجوارنا رجل نراه في كلّ يوم ونُسلِّم عليه وفق المجاملات العرفية إلَّا أنَّنا لا نعرف ما يتمتع به من خصائص باطنية وعلمية، ففي هكذا حال لا نستطيع أن نستفيد منه الفائدة المطلوبة، حتَّىٰ إذا جلسنا معه وتعرَّفنا على أفكاره ومعارفه، فحينئذٍ سننشدّ إليه ونطلب منه أن يعلِّمنا ويفيدنا بما عنده بحيث إنَّنا سنتلقَّىٰ منه كلّ كلمة وموقف بالقبول والتحليل والتطبيق العملي، وهكذا حالنا مع كتاب «نهج البلاغة» فهو معنا دائماً إلَّا أنَّنا لا نعرفه، ولذلك لا ننشدّ إليه وإنَّما نتغنَّىٰ به فحسب، من هنا كان من الضروري تصحيح التعامل مع نهج البلاغة من خلال الأُمور التالية:

أولاً: المعرفة:

فهو كلام خرج من فم عديل القرآن والموصوف بأنَّه «الكتاب الناطق» وهو الكلام الَّذي يقول عنه البعض إنَّه «أعلى من كلام المخلوق ودون كلام الخالق».

وهو جامع لكلّ ما يحتاجه الإنسان من علوم ومعارف عقائديَّة وسلوكيَّة وتربويَّة واجتماعيَّة وأخلاقيَّة...

وتتمّ معرفته من خلال الرجوع إلىٰ معاجم اللغة والشروح ومن

---

(١) حياة أمير المؤمنين عليه السلام: ص٤٠٢.

أفضلها: «منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة» للشيخ حبيب الله الخوئي.

ثانياً: الحفظ:

وهو ضروري لكلِّ إنسان وخصوصاً الخطباء، ومن الضروري الاهتمام بتحفيظه للصغار.

يقول عبد الحميد بن يحيى: «حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ففاضت ثمّ فاضت».

ويقول ابن نباتة: «حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلّا سعة وكثرة، حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب عليه السلام».

ثالثاً: التدبُّر:

وذلك بأن يختار الإنسان كلمة ويتفكّر فيها في كلّ الأوقات، عن الإمام علي عليه السلام: «من أكثر الفكر فيما تعلّم، أتقن علمه وفهم ما لم يكن يفهم»(١).

رابعاً: التذوق:

ويتمّ ذلك من خلال التأمُّل والتفكُّر في كلمات الإمام عليه السلام بعد صفاء الفكر وخشوع القلب والتركيز على الكلمات، ولهذا قال الإمام عليّ عليه السلام في وصيته لولده الإمام الحسن عليه السلام: «فإذا أيقنت أنَّ قد صفا قلبك فخشع، وتمَّ رأيك فاجتمع، وكان همّك في ذلك همّاً واحداً فانظر فيما فسَّرت لك، وإن أنت لم يجتمع لك ما تُحبّ من نفسك

---

(١) إدارة المؤسسات للصفّار: ص٣٣٥.

وفراغ نظرك وفكرك فاعلم أنَّك إنَّما تخبط العشواء وتتورط الظلماء، وليس طالب الدِّين من خبط أو خلط، والإمساك عن ذلك أمثل».

ومن كلام له ﷺ: «استمعوا من ربَّانيّكم، واحضروه قلوبكم، واستيقظوا إن هتف بكم»[1].

هذا الكتاب:

وإسهاماً منِّي بنشر كلمات الإمام علي ﷺ فقد قمت باختيار أجمل الكلمات مع شرحها بأسلوب المحاضرة والخطابة لتكون مادَّة جاهزة لكلّ خطيب ومحاضر.

هذا وقد يُلاحظ التكرار في بعض النصوص أو المواضيع، إلَّا أنَّ طبيعة الكتاب تقتضي ذلك لأنَّه لم يتناول موضوعاً واحداً وإنَّما عدَّة موضوعات، ومن الطبيعي حصول التداخل في المواضيع المطروحة.

أسأل الله تعالىٰ أن يرزقني محبّته ورضاه وأن يجعلني من أتباع الإمام علي ﷺ وأولاده المعصومين ﷺ علنّي أحظىٰ بشفاعتهم يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون.

بقلم:

حسين بن نجيب محمَّد الموسوي العاملي

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٨.

البداية والنهاية

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«رحم الله من عرف: من أين، وفي أين، وإلى أين»[(١)].

* * *

فطرية السؤال:

خُلق الإنسان مفطوراً على السؤال والمعرفة، فهو منذ طفولته يسأل عمَّا يرى ويسمع ليصل إلى معرفته، ولو أنَّ إنساناً أُغمي عليه وأُخذ إلى المستشفى فبمجرَّد أن يفتح عينيه يسأل: أين أنا؟ ولماذا هنا؟ وماذا جرى عليَّ؟ ومتى أخرج؟

إنَّ مثل الإنسان في الدُّنيا كرجل غاب عن الوعي، ثمَّ فتح عينيه فوجد نفسه في قطار ينطلق به سريعاً بين الجبال والأودية والسهول، ولكن هذا الإنسان صار يتشاغل بالنظر إلى الطبيعة من دون أن يسأل: إلى أين المصير والمحطة الأخيرة؟ ومن الَّذي يقوده؟ ولماذا جيء به؟.

فالدُّنيا قطار يسير بنا ليلاً ونهاراً قاطعاً الفيافي والقفار ونحن

---

(١) ميزان الحكمة: مادَّة «المعرفة».

مشغولون بالنظر إلى زخارف الدُّنيا، ومنغمسون في اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر.

ولم تستطع العقول البشرية المنغمسة في المادَّة، الإجابة عن هذه التساؤلات. فها هم الماديون يتخبّطون في حياتهم لا يدرون من أين جاؤوا ولا إلى أين هم ذاهبون، كما في طلاسم إيليا أبو ماضي[(١)]... وإنَّما الَّذي استطاع الإجابة هم الأنبياء والرُّسل ﷺ وذلك من خلال اتصالهم بالوحي...

أهمية معرفة النَّفس:

وفي الحقيقة فإنَّ الإجابة عن هذه التساؤلات هي الَّتي تحدِّد فلسفة الوجود وهدفية الحياة وإلَّا كانت الحياة عبثاً، ولهذا قال الإمام علي عليه السلام: «رحم الله من عرف...» فبمعرفة الإجابة تنزل الرحمة الإلٰهية، ويُؤيد الإنسان بنور يسير به في حياته الدنيوية، وعن الإمام علي عليه السلام: «معرفة النَّفس أنفع المعارف» ثمَّ يقول:

«من أين؟»:

يُستفاد من الروايات والنصوص الدينية أنَّ الإنسان خُلق من أمرين:

عالم الأجساد:

١ ـ عالم المادَّة والدُّنيا: وهو التُّراب والماء وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ [طه: ٥٥].

---

(١) يقول: نحن خلقنا في هذه الدُّنيا لماذا؟... جئت لا أعلم من أين... ولكنِّي أتيت؟
ولقد أبصرت للدُّنيا طريقاً... فمشيت... وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت...
كيف جئت لست أدري؟... أين أذهب لست أدري؟... لم جئت لست أدري؟...
ضياع وهذيان وأعمار تضيع...

قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١] وفي الواقع فإنَّ هذا الجسد ليس حقيقة الإنسان إنَّما هو آلة الرُّوح ولذا نجد أنَّه تعالىٰ عبَّر عنه بأنَّه «صورة» ومن الواضح أنَّ صورة الإنسان في المرآة ليست حقيقته وإنَّما هي انعكاس له، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ١١] وقال تعالىٰ: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٨].

ومن الروايات الشريفة في هذا المجال أنَّه سُئل الإمام علي عليه السلام: هل رأيت في الدُّنيا رجلاً؟ فقال: رأيت رجلاً وأنا إلى الآن أسأل عنه فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا الطين فقلت: من أين؟ فقال من الطين، فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى الطين فقلت: من أنا؟ فقال: أبو تراب، فقلت له: أنا أنت؟ فقال: حاشاك، حاشاك. هذا من الدِّين في الدِّين أنا أنا، وأنا أنا، أنا ذات الذَّوات، والذَّوات في الذَّوات للذَّوات، فقال: عرفت؟ فقلت: نعم، قال: أمسك[1].

يقول الشيخ النراقي رحمه الله في شرح الحديث:

كأنَّ هذا الخطاب هو ما بين الرُّوح الملكوتيَّة للإمام علي عليه السلام مع جسده التُّرابي، وحاصله أنَّه سأل الجسد، فقال من التُّراب وإلى التُّراب، وقال له الجسد أنت أبو تراب، أي قيّم البدن ومربّيه، ولمَّا قد يُتوهّم الاتحاد بين الرُّوح والجسد، قال: أنت أنا فقال: حاشاك حاشاك أي أنت منزَّه عن أن تكون مثلي، إذ النُّور لا يكون ظلمة، ثمَّ أكّد ذلك بأنَّه مع ذات الذَّوات أي متحد مع الذَّات المحمَّديَّة الَّتي هي

(١) مشكلات العلوم: ص٢١٣.

أصل الوجود وهو مخلوق للذّات الإلٰهيَّة، ثمَّ قال: عرفت أنَّ عليّاً مخلوق لله تعالىٰ ولكنَّه أشرف المخلوقات وأوّلها لاتحاده مع رسول الله ﷺ[١] انتهى بتصرف.

عالم الأرواح:

٢ ـ عالم الرُّوح: وهي مخلوق مجرَّد من عالم المادَّة، ولا يجري عليها ما يجري على المادة من التجزئة والتقسيم والانحلال، وقد أوجدها الله تعالى في عالم قبل عالمنا ثمَّ أهبطها إلى عالمنا الدنيوي وأدخلها في بدن الإنسان ليحصل تكامله بهما.

ففي الروايات عن المعصومين عليهم السلام: «إنَّ الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام»[٢].

وفي الرواية عن عبد الله بن فضل الهاشمي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: لأيّ علّة جعل الله تعالىٰ الأرواح في الأبدان بعد كونها في الملكوت الأعلى في أرفع محل؟

فقال عليه السلام: «إنَّ الله تبارك وتعالى علم أنَّ الأرواح في شرفها وعلوها، متى تركت على حالها نزع أكثرها إلى دعوى الربوبيَّة دونه عزَّ وجلَّ فجعلها بقدرته في الأبدان...»[٣].

أقول: وإلى ذلك تشير بعض الآيات منها: قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

---

(١) راجع مشكلات العلوم: ص٢١٣.
(٢) لاحظ بحار الأنوار: ج٦١، ص١٣١.
(٣) المصدر نفسه: ص١٣٣.

حيث صرَّحت الآيات الكريمة بأنَّ النَّفس (يُعبّر عن الرُّوح بالنَّفس إذا حلَّت بالبدن) ترجع إلى ربّها بعد الموت، والرجوع هو العود إلى المكان الَّذي جاء الإنسان منه، ممَّا يعني أنَّ النَّفس تعود إلى عالمها اللائق بها بعد أن تركته وهبطت إلى عالم الدُّنيا[١].

ويدلُّ على ذلك روايات عالم الذرّ، والأظلَّة، والميثاق، ومجملها أنَّ الله تعالى أخذ الإقرار من النَّاس على التوحيد قبل خلقهم في عالم الدُّنيا، وكذا روايات خلق النَّبي والأئمَّة عليهم السلام في عالم الأنوار.

وقد عبَّر الفقهاء المتخصصون بدراسة القرآن الكريم وأقوال النَّبي والأئمَّة عليهم السلام عن بداية تكوين الجنين في رحم أُمِّه بـ«ولوج الرُّوح فيه» أي دخولها فيه بعد أن لم تكن.

يقول الشيخ ابن سينا عن الروح:

هبطت إليك من المحلّ الأرفع ... ورقاء ذات تعزّز وتمنّع
وصلت على كره إليك وربَّما ... كرهت فراقك وهي ذات تفجّع

وتبقى الروح مع البدن حتَّى يأتيه الموت حيث تفارقه وتنتقل إلى عالم آخر يُعبّر عنه بالبرزخ.

أصالة الرُّوح:

وفي الواقع إنَّ حقيقة الإنسان هي الروح لا الجسد فهي الَّتي تدرك

---

(١) يقول الشيخ البهائي رحمه الله في الكشكول ج١، ص٣٠٥: «التجريد سرعة العود إلى الوطن الأصلي والاتصال بالعالم الفعلي وهو المراد بقوله صلى الله عليه وآله: «حب الوطن من الإيمان» وإليه يشير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠] وإيَّاك أن تفهم من الوطن دمشق وبغداد وما ضاهاهما فإنَّهما من الدُّنيا وقد قال سيِّد الكلّ في الكل صلى الله عليه وآله: «حبُّ الدُّنيا رأس كلّ خطيئة».

وتشعر وتبصر وتسمع وتفرح وتحزن وتحب وتبغض وتتعلَّم، وما الجسد المادي إلَّا آلة لإدراكها وحركتها.

عن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام: «... إنَّ جميع جوارح الجسد شرط للقلب، وتراجمة له مؤدِّية عنه، الأذنان، والعينان، والأنف، واليدان، والرجلان، والفرج، فإنَّ القلب إذا همَّ بالنظر فتح الرجل عينيه وإذا همَّ بالاستماع حرَّك أذنيه، وفتح مسامعه فسمع، وإذا همَّ القلب بالشمّ استنشق بأنفه فأدَّىٰ تلك الرائحة إلى القلب، وإذا همَّ بالنُّطق تكلَّم اللِّسان...»[1].

كلُّ ذلك من غير أن تكون الرُّوح جزءاً من البدن أو عرضاً من أعراضه وإنَّما حالها معه كحال القبطان مع السفينة، فلولا القبطان لما تحرَّكت السفينة مع أنَّ حقيقة القبطان تختلف عن حقيقة السفينة.

عن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام: «مثل روح الإنسان وبدنه كجوهرة في صندوق إذا خرجت الجوهرة طُرح الصندوق ولم يُعبأ به وقال: إنَّ الأرواح لا تمازح البدن ولا تواكله (وفي نسخة لا تداخل) وإنَّما هي كلل للبدن محيطة به»[2].

ولذلك فإنَّ الرُّوح إذا خرجت من الجسد لم يعد الجسد جسداً وإنَّما يصير جثَّة، فيُقال: هذه جثَّة فلان.

ويدلُّ على وجود الرُّوح الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، والأدلَّة الفلسفيَّة والأبحاث العلميَّة «الپاراسيكولوجيَّة» كالأحلام والتنويم المغناطيسي والتنبؤ، والتخاطر، والحاسَّة السادسة، والخوارق البشريَّة

---

(١) بحار الأنوار: ج٦١، ص٢٤٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٦١، ص٣٠.

وغيرها من الظواهر الروحيَّة. وللوقوف على التفصيل راجع كتابنا «الرُّوح بين العلم والعقيدة».

«وفي أين؟»:

أي رحم الله من عرف في أي عالم هو؟

والجواب على ذلك من القرآن الكريم، وهو أنّنا في عالم الدُّنيا كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥] وهو أدنى العوالم الوجودية.

فقد خلق الله تعالىٰ عوالم متعددة بعضها أرفع من بعض، **فخلق العالم العلوي** وهو «العالم المشتمل على حقائق الأشياء وكلياتها من غير مادَّة طبيعيَّة ولا صورة» وإليه أشارت الآية المباركة: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨٣] عن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام: «إنَّ الله خلق مُلكه على مثال ملكوته، وأسَّس ملكوته على مثال جبروته ليستدلّ بملكه على ملكوته وبملكوته على جبروته»[١] وهو المُعبّر عنه في كلمات البعض بعالم «العقل».

ثمَّ خلق العالم المثالي وهو «العالم المشتمل على صور الأشياء دون موادها».

وإليه أشار الإمام علي عليه السلام بقوله: «صور عارية عن المواد عالية عن القوَّة والاستعداد، تجلّىٰ لها فأشرقت وطالعها فتلألأت، وألقى في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله، وخلق الإنسان ذا نفس ناطقة إن زكّاها بالعلم والعمل فقد شابهت جواهر أوائل عللها، وإذا اعتدل مزاجها وفارقت الأضداد فقد شارك بها السبع الشداد»[٢].

---

(١) الإنسان الكامل: ص١٣٢.

(٢) معرفة المعاد: ج٣، ص١٠٨.

واستُدلّ عليه بما ورد عن الأئمّة عليهم السلام: «إنَّ في العرش صور جميع الموجودات» وبما ورد في شرح دعاء «يا من أظهر الجميل وستر القبيح»: «إنَّ العبد إذا فعل فعلاً ستر الله تلك الصورة بستار لئلّا يطّلع عليها الملائكة»[١].

ويُسمّىٰ هذا العالم بـ«البرزخ النزولي» لتوسطه بين عالمي العقل والمادّة، ولتنزله من العالم العلوي مقابل «البرزخ الصعودي».

ثمّ خلق العالم الدنيوي المعبّر عنه بعالم «الطبيعة» أو «الناسوت» وهو أدنىٰ العوالم الوجوديّة، فعن الإمام علي عليه السلام: «إنّما سُمّيت الدُّنيا دُنيا لأنّها أدنى من كلّ شيء...»[٢].

وهذه الدُّنيا هي دار اللهو واللعب، والفساد والفناء، والتغيُّر والانحلال، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

عن الإمام علي عليه السلام: «لا تغرنّكم الدُّنيا، فإنّها دار بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة، فكلُّ ما فيها إلى زوال، وهي بين أهلها دول وسجال، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم من شرّها نزّالها، بينا أهلها منها في رخاء وسرور إذا هم منها في بلاء وغرور، أحوال مختلفة، وتارات متصرّمة، العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا

---

(١) مواهب الرّحمٰن: ج١، ص١٥٥، وبحار الأنوار: ج٦١، ص٥٣.
(٢) ميزان الحكمة باب الدُّنيا.

يدوم، وإنَّما أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها، وتغنيهم بحمامها»[١].

ورُويَ أنَّه ﷺ مرَّ على مزبلة فقال: «هذا ما كنتم تتنافسون عليه بالأمس»[٢].

والهدف من وجودنا في الدُّنيا أن نكون خلفاء الله في الأرض وأن نعمل على الوصول إلى الكمال الإنساني من خلال العبادة قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]. وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «... خلقهم لينفعهم ويوصلهم إلى نعيم الأبد».

وأن نتخذ الدُّنيا مزرعة ومتجراً للآخرة، عن الإمام علي عليه السلام: «الدُّنيا دار تجارة، وربحها أو خسرها الآخرة، فالسعيد مَنْ كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة»[٣].

وعليه فلا بدَّ من الاهتمام بالآخرة والزهد بالدُّنيا فلا نأخذ منها إلّا ما يعين على الآخرة.

«وإلى أين؟»:

أي إلى أين النهاية والمصير؟

والجواب ـ على ضوء النصوص الدِّينيَّة ـ إنَّنا سائرون إلى الموت الَّذي هو بوّابة العبور إلى الآخرة للقاء الله تعالىٰ، وهذا هو هدف الخلق وفلسفة الوجود قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق: ٨] وقال تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [القيامة: ٣٠].

---

(١) الدُّنيا الفانية: ص٥٦.
(٢) المستدرك: ج١٠، ص١٨٦.
(٣) مستدرك نهج البلاغة: ج٢، ص٢٠٠.

فمَنْ أيقن أنَّ مسيره إلى الله جلَّ جلاله، فإنَّه يعمل لملاقاته جلَّ جلاله. قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

يقول السيِّد السبزواري رحمه الله: «إنَّ هبوط الإنسان من المحل الأرفع الأعلى إلى الحضيض الأسفل لا يوجب أن ينسى ما نزل منه وأن يتدنس بما وقع فيه، ولا بدَّ له من التفكُّر بالعروج والصعود وهذا هو الاسترجاع العملي ولا ينفع مجرَّد الاسترجاع القولي ـ أي إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ـ»(١).

النتيجة:

إنَّ من عرف الهدف من وجوده في هذه الدُّنيا عمل له ليلاً ونهاراً، ولم يشتغل بغيره كالتفاخر والتكاثر فإنَّه ملهاة عن الهدف كما قال تعالىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ [التكاثر: ١] وقد فُسِّر اللهو بأنَّه كلّ ما يُلهي الإنسان ويشغله عن هدفه، لذلك يُقال للتلميذ الَّذي يترك درسه ويضيِّع وقته باللعب بأنَّه يلهو.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: «وجدت علم النَّاس كلّهم في أربع: أن تعرف ربّك، أن تعرف ما صنع بك، أن تعرف ما أراد منك، أن تعرف ما يخرجك من دينك»(٢).

---

(١) مواهب الرَّحمٰن: ج٢، ص١٧٢.
(٢) عدة الداعي، ص٧٣.

معرفة الله تعالى

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«ما يسرني لو متّ طفلاً وأُدخلت الجنَّة ولم أكبر فأعرف ربِّي»[(١)].

* * *

جاء في النصوص الدينية أنَّ الأطفال إذا ماتوا أدخلهم الله تعالى إلى الجنَّة، ففي الحديث أنَّ النبي موسى عليه السلام سأل ربه: «أي الأعمال أفضل عندك؟ فقال الله تعالى: حبُّ الأطفال، فإنِّي فطرتهم على توحيدي، فإن أُمتُّهم أدخلتهم برحمتي جنَّتي»[(٢)].

لذلك فقد يتمنَّى الكثير من النَّاس أنَّهم قد ماتوا في الطفولة ولم يتعرَّضوا للآلام والأحزان في حياتهم، إلَّا أنَّ الإمام علي عليه السلام يبيِّن لنا في هذه الكلمة القيِّمة أنَّ الهدف من الوجود ليس الجنَّة، وإنَّما شيء أعلى من ذلك، ألا وهو معرفة الله تعالى، وما تيمة الجنَّة من دون المعرفة؟

إنَّ الجنَّة المشتملة على ملذَّات الطعام والشراب هي درجة دانية،

(١) موسوعة الإمام علي عليه السلام: ج١٠، ص٦٩.
(٢) كلمة الله: ص٣٦.

أمّا جنّة المعرفة فهي أعلى الجنان، يقول تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

وجاء في مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام: «إلٰهي من ذا الّذي ذاق حلاوة محبّتك فرام منك بدلاً، ومن ذا الّذي أنس بقربك فابتغى عنك حولاً».

ولا يعرف أهمية نعمة جنّة المعرفة إلّا من ذاق طعمها، أمّا غيره فلا يبالي بها، ومثله كالحيوان الّذي يأكل الحشائش ولا يعلم أنّ في الوجود طعاماً أفضل منه.

وللوقوف على شرح الحديث لا بدّ من بيان أهمية المعرفة وثمرتها.

أهمية المعرفة ونتائجها:

١ ـ المعرفة ثمرة الحياة:

إنّ من أسوأ الأُمور على الإطلاق هو أن يدخل الإنسان إلى عالم الدُّنيا ثمّ يعيش عمراً طويلاً وينتقل بعده إلى العالم الآخر وهو جاهل بسرّ حياته وهدف وجوده، أمّا من عرف «من أين وفي أين وإلى أين» ومن عرف نفسه وربّه فقد حقّق الفوز في الدُّنيا والآخرة.

عن الإمام الحسين عليه السلام: «إنّ الله عزّ وجلّ ما خلق العباد إلّا ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه»[١].

---

(١) الأمثل: ج١٧، ص١٣٤.

٢ ـ المعرفة شكر للخالق:

من البديهي أنَّ من يحضر وليمة فعليه أن يتعرَّف على صاحبها حتَّى يقوم بأداء شكره فكيف والإنسان يأكل ويشرب ويتنعَّم في مُلك الله تعالى؟!

وهذا ما أشار إليه الحديث عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ما أقبح بالرجل يأتي عليه سبعون سنة أو ثمانون سنة يعيش في مُلك الله يأكل ويشرب من نعمة الله ولا يعرف حقَّ الله»[١].

٣ ـ المعرفة أوَّل الدِّين:

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «أوَّل الدِّين معرفته» فلو شبَّهنا الدِّين ببناء مؤلّف من جدران وأبواب ونوافذ وقواعد أساسية، فإنَّ كل ما في الدِّين من عبادات ومعاملات وأخلاقيات إنَّما يقوم على أساس وهو معرفة الله تعالى، فمعرفة الله تعالى أوَّل الدِّين ووسطه وآخره[٢].

ومن هنا ندرك أنَّ ما يقوم به النَّاس من طقوس دينيَّة ـ كالصلاة والصوم والحج ـ لا يرقى إلى المستوى المطلوب وذلك لأنَّ المعرفة ناقصة.

٤ ـ المعرفة كمال الإنسان:

إنَّ من يصل إلى معرفة الله تعالى فإنَّه يصير إلى مستوى الكمال، فيتحلَّىٰ بالعلم والقدرة وبالتالي لا يرى للدُّنيا أيَّة قيمة، عن الإمام الكاظم عليه السلام أنَّه قال: «لو يعلم النَّاس ما في فضل معرفة الله عزَّ وجلَّ ما مدُّوا أعينهم إلى ما متَّع الله به الأعداء من زهرة الحياة الدُّنيا ونعيمها

(١) سفينة البحار: مادة «المعرفة».
(٢) المواعظ والحكم لمطهري: ص١١.

وكانت دُنياهم أقلّ عندهم ممّا يطأُونه بأرجلهم ولنعموا بمعرفة الله عزّ وجلّ وتلذّذوا بها تلذُّذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله، إنّ معرفة الله عزّ وجلّ أنس من كل وحشة، وصاحب من كل وحدة، ونور من كل ظلمة، وقوّة من كل ضعف، وشفاء من كل سقم»[(١)].

النتيجة:

يُستفاد ممّا تقدّم أُمور:

أ ـ إنّ الإنسان يدخل إلى الدُّنيا ليتكامل ويصل إلى معرفة الله تعالى الّتي هي ثمرة الوجود، أمّا الّذي يموت طفلاً فإنّه لا ينال هذه النتيجة في دار الدُّنيا، وبالتالي فإنّ مستواه في الآخرة أقلّ من مستوى الكبير.

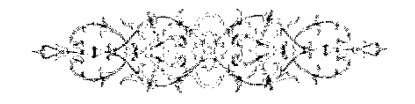
ب ـ إنّ معرفة الله تعالى هدف الوجود وكمال الإنسان، فمن وصل إلى هذه الدرجة لا ينظر إلى ما دونها، ولذا فإنّ الأولياء عليهم السلام يجعلون هدفهم الجنّة فحسب بل لهم همّ أكبر من ذلك وهو معرفة الله تعالى، ولذا كان الإمام علي عليه السلام يفضّل الجلوس في المسجد على الجلوس في الجنّة ويقول: «الجلوس في المسجد مرضاة ربِّي، وفي الجنّة مرضاة نفسي ومرضاة ربِّي أولى من مرضاة نفسي».

د ـ ضرورة القيام بواجب العبودية لله تعالى، ففي وصية الإمام علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام أنّه قال: «فإذا عرفت ذلك فافعل كما ينبغي لمثلك أن يفعله في صغر خطره، وقلّة مقدرته، وكثرة عجزه، وعظيم حاجته إلى ربّه في طلب طاعته والخشية من عقوبته والشفقة من سخطه».

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «معرفة» ج٣، ص١٨٨٦.

ج ـ أن يرى العبد ما يجري في الكون وما يجري عليه من أحوال إنَّما هو في سبيل هدف الوصول إلى معرفة الله تعالى، فإذا تنفَّس الصبح فهو تذكير بالله، وإذا أصيب بوجع في رأسه فهو تذكير بالله تعالى، وهكذا في بقية الأُمور.



الآخرة هدف خلق الإنسان

عن الإمام علي عليه السلام:

«إنَّك مخلوق للآخرة فاعمل لها، إنَّك لم تُخلق للدُّنيا فازهد فيها»[١].

* * *

ما هو هدفك؟

سؤال يطرح نفسه على كلِّ إنسان ـ خصوصاً في ساعات الشِّدَّة والبلاء ـ: لماذا خُلقنا في الدُّنيا؟ ما هو الهدف من وجودنا؟

في بعض الإحصائيات إنَّ نسبة الَّذين يحدّدون أهدافهم لا تصل إلى ٣٪ من مجموع النَّاس والباقي لا يعرفون لماذا خُلقوا، وإنَّما يعيشون «روتين الأيَّام» من الصباح إلى المساء وما بينهما من الشغل والتسلية واللهو...

عندما يكون الإنسان صغيراً يلقنه الأبوان بضرورة أن يعيش حلم المستقبل، كأن يصير دكتوراً أو مهندساً أو مجاهداً وغير ذلك. إلَّا أنَّ

(١) ميزان الحكمة مادة «خلق».

هذا الحُلم هو هدف متوسط. ولكن ما هو الهدف الأعلى وسرّ الخلق والوجود؟

عن النبي محمَّد ﷺ: «ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلَّا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات:

يقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يُخلقوا.

ويقول الآخر: يا ليتهم إذ خُلقوا علموا لِمَ خُلقوا.

ويقول الآخر: ويا ليتهم إذ لم يعلموا لما خُلقوا تجالسوا فتذاكروا ما علموا.

ويقول الآخر: ويا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا ممَّا عملوا»[١].

إنَّ الَّذين يحددون أهم أهدافهم هم السعداء المرحومون الناجحون فعن الإمام علي عليه السلام: «رحم الله من عرف من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟»[٢].

أمَّا الَّذين لا يحددون أهدافهم فهم تائهون يتخبطون في ملذَّات الحياة ويعيشون الفراغ والإحباط واليأس... جاءت أُمّ تشكو ابنتها إلى الطبيب النفساني قائلة: إنّها لا تستيقظ إلَّا عند الظهر فقال لها الطبيب: لو أنَّك موعودة برحلة سياحية فمتى تستيقظين؟ فقالت: عند شروق الشَّمس، فقال الطبيب: إنَّها لم تحدّد هدفاً ليومها فنامت حتَّى الظهر، ولو حدَّدت هدفاً فستستيقظ للعمل له...

---

(١) تزكية النَّفس: ص٢٣٦.

(٢) ميزان الحكمة: مادَّة «المعرفة».

لماذا خلقنا الله؟

من البديهي أنَّ الله تعالىٰ لم يخلق عباده عبثاً ولهواً، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩] كما أنَّه لم يخلقهم لحاجة إليهم، كما عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق الخلق غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم».

وإنَّما خلقهم بالحق «أي الفعل ذي الهدف القيِّم اللائق بالفاعل، مقابل اللهو واللعب والباطل والعبث»[1] قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الرُّوم: ٨].

يقول الشيخ محمَّد الحسين كاشف الغطاء: «أشهد أنَّ الموت حق ليس معناه أنَّ الموت أمر واقع، فتكون شهادة تافهة باردة لأنَّه أمر محسوس لا ينكره أحد بل المراد أنَّ الموت حق لازم موافق للحكمة وحقيقة لا بدَّ منها»[2].

وهنا نسأل: ما هو الحق والهدف الَّذي من أجله خُلقنا؟

الجواب: إنَّ الله تعالى خلق الإنسان للوصول إلى كماله اللائق به في الدُّنيا والآخرة، فكما أنَّ كمال البذرة الوصول إلى الثمرة ثمَّ الفناء في الإنسان، فإنَّ كمال الإنسان هو الفناء في الله تعالىٰ، في الحديث القدسي: «يابن آدم خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي».

ولذا عبَّر الله تعالىٰ عن فلسفة الخلق بـ«الرَّحمة» قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ

---

(١) معارف القرآن: ج١، ص٢٢١.

(٢) الفردوس الأعلى: ص٢٠٣.

شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

ولنيل تلك الرَّحمة لا بدَّ من عبادة الله تعالىٰ، والنجاح في الاختبار الإلٰهي، ولذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢] (١)(٢).

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّ الله تبارك وتعالىٰ لم يخلق خلقه عبثاً ولم يتركهم سُدىً بل خلقهم لإظهار قدرته، ويكلِّفهم طاعته فيستوجبوا بذلك رضوانه، وما خلقهم ليجلب منهم منفعة ولا ليدفع بهم مضرَّة، بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم إلى نعيم الأبد».

عن الإمام علي عليه السلام: «ما يسرني لو متّ طفلاً وأُدخلت الجنَّة ولم أكبر فاعرف ربِّي»(٣).

الآخرة هدف الخليقة:

فإذا كان خلق الإنسان لهدف كبير وهو الرَّحمة الإلٰهيَّة، فمن الضروري أن يخلق الله تعالىٰ عالماً آخر يرحل إليه الإنسان بعد الموت، وهو المُسمَّىٰ بعالم الآخرة، وهذا ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام بقوله: «إنَّك مخلوق للآخرة...».

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] فنلاحظ في الآية أنَّه تعالىٰ

---

(١) يظنُّ البعض أنَّ الآيات الَّتي تتحدَّث عن فلسفة الخلق متعارضة، ولكن التدبُّر فيها ينتج أنَّها تتحدَّث عن أهداف طولية وليس عرضية.

(٢) معارف القرآن: ج١، ص٢٣١.

(٣) موسوعة أمير المؤمنين عليه السلام ج١٠ ص٦٩..

ربط بين الخلق واليوم الآخر ليلفت أنظارنا إلى الهدف ألا وهو الآخرة، ولولاها لكان الوجود عبثاً.

عن الإمام علي عليه السلام أنَه قال: «الدُّنيا خُلقت لغيرها ولم تُخلق لنفسها»[١].

النتيجة:

إذا كان الإنسان مخلوقاً لهدف معين وهو «العالم الآخر» فلا بدَّ له من أُمور:

أوّلاً: تحديد الأهداف الآخروية: كأن يضع نصب عينيه الوصول إلى أعلىٰ مراتب الجنان ومجاورة النبي محمَّد وآله الكرام عليهم السلام.

ثانياً: مخطّط الأهداف: فتحديد الهدف من دون تخطيط للعمل لا يثمر النتائج الكبيرة، وهذا يقتضي التعرُّف على الطرق الموصلة إلى الجنَّة كالعبادة، والذكر، والتفكُّر، وخدمة النَّاس وغير ذلك ممَّا تجده في موضوع «الطريق إلى الجنَّة» المذكور في هذا الكتاب.

ثالثاً: العمل للآخرة ليلاً ونهاراً، فعن الإمام علي عليه السلام: «إنَّك مخلوق للآخرة فاعمل لها» وعنه عليه السلام: «فليصدق رائد أهله وليحضر عقله، وليكن من أبناء الآخرة، فإنَّه منها قدم وإليها ينقلب».

رابعاً: إنَّ كلّ ما أعطاه الله تعالىٰ: من متاع الدُّنيا إنَّما هو وسيلة لعمارة الآخرة فـ «الدُّنيا مزرعة الآخرة» فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «... فليتزوّد العبد من دُنياه لآخرته، ومن حياته لموته، ومن شبابه لهرمه، فإنَّ الدُّنيا خُلقت لكم، وأنتم خُلقتم للآخرة»[٢].

ومن دعاء للإمام علي عليه السلام: «اللَّهمَّ إنِّي أسألك من الدُّنيا وما فيها

---

(١) ميزان الحكمة: مادّة «دُنيا»، ج٢ ص٨٩١.
(٢) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

ما أسدّد به لساني وأحصّن به فرجي، وأؤدي به عن أمانتي، وأصل به رحمي، وأتجر به لآخرتي».

وهو ما قاله النّاس لقارون: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧].

وجاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿...وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧] عن الإمام علي عليه السلام: «لا تنسَ صحتك وقوّتك وفراغك وشبابك ونشاطك أن تطلب بها الآخرة»[١].

وطلب الآخرة لا يتنافى مع إعمار الدُّنيا إذا كان الهدف منها إعمار الآخرة، ولذا قال الإمام علي عليه السلام لأحد أصحابه عندما رأى سعة داره: «ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدُّنيا وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج؟ وبلى، إن شئت بلغت بها الآخرة، تقري بها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة»[٢].

وعنه عليه السلام: «من آتاه الله مالاً فليصل به القرابة، وليحسن منه الضيافة، وليفك به الأسير والعاني، وليعط منه الفقير والخادم، وليصبر نفسه على الحقوق والنوائب ابتغاء الثواب، فإنَّ فوزاً بهذه الخصال شرف مكارم الدُّنيا ودرك فضائل الآخرة إن شاء الله»[٣].

خامساً: الربط بين الدُّنيا والآخرة: بحيث إنَّه إذا أراد الإقدام على فعل من الأفعال نظر إلى نتائجه في الدُّنيا والآخرة ثواباً أو عقاباً.

سادساً: الزهد في الدُّنيا: وهو ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام

---

(١) مستدرك نهج البلاغة: ج٩، ص٨.
(٢) نهج البلاغة: الحكمة رقم ٢٠٩.
(٣) نهج البلاغة: ج٢٤، ص٣٣.

بقوله: «إنَّك لم تُخلق للدُّنيا فازهد فيها» فما دام الإنسان لم يُخلق ليبقى في الدُّنيا، وما دامت الدنيا دار ممر، ومزرعة لأعمال النَّاس، فلماذا يعمل العاقل لها؟.

عن الإمام علي عليه السلام: «انظروا إلى الدُّنيا نظر الزاهدين فيها، فإنَّها عن قليل تزيل الساكن وتفجع المترف»(١).

إنَّ الدُّنيا دار البلاء والتعب والنكد وأمَّا الآخرة فهي دار الحياة والرضوان والنعيم، أوحى الله تعالىٰ إلى موسى عليه السلام: «إنَّ عبادي الصَّالحين زهدوا فيها بقدر علمهم بي، وسائرهم من خلقي رغبوا فيها بقدر جهلهم بي، وما من أحد من خلقي عظَّمها فقرَّت عينه»(٢).

إنَّ مصير الدُّنيا إلى فناء وزوال فكيف لا يُزهد فيها؟ رُوي أنَّ الإمام الكاظم عليه السلام مرَّ على قبر فقال: «إنَّ شيئاً هذا آخره لحقيق أن يُزهد في أوَّله»(٣).

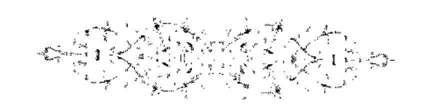
وأمَّا الآخرة فهي باقية لا انقطاع فيها فكيف لا يُعمل لها؟ عن الإمام علي عليه السلام في مضمون كلامه: «لو علمت أنَّ الدُّنيا ذهب زائل والآخرة خزف باقٍ لآثرت الآخرة على الدُّنيا».

لذلك كان النبي والأئمَّة عليهم السلام يزهدون في الدُّنيا ويرفضون كلّ ما يذكِّر بها فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله - كما يصفه الإمام علي عليه السلام -: «كان يأكل على الأرض، ويخصف نعله بيده، ويكون ستره على باب بيته فيكون فيه التصاوير فينادي إحدى زوجاته قائلاً: يا فلانة غيِّبيه عن عيني فإنِّي إذا نظرت إليه ذكرت الدُّنيا وزخارفها، فأعرض عن الدُّنيا بقلبه

---

(١) دستور معالم الحكم، ص٤٨.
(٢) بحار الأنوار: ج١٣، ص٣٣٩.
(٣) المصدر نفسه: ج٧٨، ص٣٢٠.

وأمات ذكرها من نفسه، وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينه، لئلا يتخذ منها رياشاً ولا يعتقدها قراراً، ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النَّفس وأشخصها عن القلب وغيبها عن البصر، خرج من الدُّنيا خميصاً وورد الآخرة سليماً، لم يضع حجراً على حجر حتَّى مضى لسبيله وأجاب داعي ربّه»[1].



(١) بحار الأنوار: ج١٦، ص٢٨٥.

القلب السليم

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«سكّنوا في أنفسكم ما تعبدون حتَّى ينفعكم ما تحركون من الجوارح بعبادة من تعرفون»[(١)].

* * *

القلوب أوعية:

الإنسان مخلوق مركَّب من أمرين هما: الجسد والنَّفس، ويُطلق على النفس اسم: الروح والقلب.

وفي الواقع فإنَّ النَّفس هي المحرّك الأساسي للجسد، وعليها تقع كافَّة الانفعالات الإنسانية وسائر المدركات العقلية، وبها يصل الإنسان إلى قمة الكمال الإنساني أو يتسافل إلى درجة الحيوانية قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّنٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَنٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠].

وهي صفحة بيضاء فارغة من كلّ شيء وكما قال الإمام علي عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام: «وإنَّما قلب الحدث كالأرض الخالية، ما

---

(١) المستدرك: ج١٠، ص٤٠٣.

أُلقي فيها من شيء إلّا قبلته». فما يُلقى في النّفس سيسكن فيها ويحرّكها نحو الخير أو الشّر.

وهي وعاء فارغ من كلّ شيء، وكما عن الإمام علي عليه السلام: «إنّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها».

فكما أنَّ أفضل الآنية ما كان نظيفاً وصافياً ورقيقاً وفيه الطّيب الطاهر، فإنَّ خير القلوب ما كان طاهراً سليماً من الآفات ويتسع لأفضل الأُمور، ومن هنا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّ لله في الأرض أواني، ألا وهي القلوب، فأحبّها إلى الله أرقّها وأصفاها وأصلبها»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله: «إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٢].

قلب المؤمن عرش الله:

فإذا كانت النّفس صفحة خالية، فلا بدَّ أن يُسكن فيها ما يحرّكها نحو الخير والصلاح والفلاح، وهذا ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام بقوله: «سكّنوا في أنفسكم ما تعبدون» أي فليسكن الله في قلوبكم لا غيره من الأموال والشهوات والماديات[٣]، وذلك لأنَّ القلب لا يتّسع إلّا لشيء واحد قال تعالىٰ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤].

إنَّ نفس الإنسان هي مسكن الله تعالىٰ ـ أي محلٌّ لظهور أفعال الله

(١) ميزان الحكمة: مادّة «القلوب».
(٢) شرح مائة كلمة، ص٣٦.
(٣) قد يسكن الجن في جسد إنسان فيحوله إلى إنسان فاسد وتائه، ولا إرادة له.

تعالىٰ لا لسكنه المادي فإنَّه تعالىٰ منزَّه عن الماديات فهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] ـ ففي الحديث القدسي: «لم يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»[١].

وعن رسول الله ﷺ: «ناجى داود ربّه فقال: «إلٰهي لكلّ ملك خزانة فأين خزانتك؟ فقال تعالى: لي خزانة أعظم من العرش وأوسع من الكرسي وأطيب من الجنَّة، وأزين من الملكوت، أرضها المعرفة وسماؤها الإيمان، وشمسها الشوق، وقمرها المحبة، ونجومها الخواطر، وسحابها العقل، ومطرها الرحمة، وأثمارها الطاعة، وثمرها الحكمة، ولها أبواب أربعة: العلم والحلم والصبر والرضا، ألا وهي القلب»[٢].

وفي الدُّعاء: «اللَّهمَّ املأ قلبي حبّاً لك وخشيةً منك وتصديقاً لك وإيماناً بك وفرقاً منك وشوقاً إليك يا ذا الجلال والإكرام».

وإذا أردنا أن نقرِّب المعنى المتقدّم بمثال حسِّي فلا نجد أفضل من الشَّمس وأشعتها عندما تشرق وتدخل إلى البيوت، فكل فرد يستفيد منها من خلال ارتباطه المباشر بأشعتها لا بذاتها، وبمقدار سعة النافذة وضيقها، فكذلك الإنسان في علاقته بالله تعالىٰ فهو يرتبط بالله تعالىٰ من خلال النُّور الَّذي يدخل إلى قلبه، ولذا تختلف العلاقة به تعالىٰ من شخص لآخر ومن مذهب لآخر»[٣].

وقد جاء في بعض النصوص بأنَّ «قلب المؤمن عرش الرَّحمٰن»، وكما أنَّ العرش هو محلٌ لصدور الأوامر الإلٰهيَّة الَّتي تصدر إلى عالم الوجود كذلك الحال في بعض العباد الصالحين فإنَّهم يتحولون إلى مركز

---

(١) الأربعون حديثاً: ص٤١٦.

(٢) حقيقة القلوب للعلوي: ص١٥.

(٣) التوحيد والشهود الوجداني: ص٢٦٧.

الإرادة والمشيئة. . . في الحديث: «قلب المؤمن بين إصبعي الرَّحمٰن يقلِّبه كيف يشاء»[١].

وإذا اتصل العبد ـ من خلال الدُّعاء ـ بالعرش فإنَّ دعاءه يرفع إلى الله تعالى. . . ولارتباط القلب بالعرش فإنَّ ما يجري على قلب اليتيم والمظلوم ينعكس على العرش، ولذا ورد أنَّ عرش الرَّحمٰن يهتزّ لبكاء اليتيم أو للطلاق.

وإذا فرغ القلب من الله تعالى صار محلّاً لسكون غيره من الأُمور الدنيوية، فقد سُئل الإمام علي عليه السلام عن العشق، فقال: «قلوب خلت من ذكر الله فأذاقها الله حبّ غيره».

قيل: إنَّ شاباً عشق فتاة فطلب الزواج بها فاشترطت عليه أن يصلّي صلاة اللّيل أربعين ليلة، وبعد تمام الأربعين لم يتقدَّم لخطبتها فبعثت إليه تسأله عن السبب فقال: لقد عشقت الفتاة عندما كان قلبي فارغاً ولكنَّه الآن امتلأ بحبّ آخر.

ولذا كانت «زليخا» عاشقة للنبي يوسف عليه السلام حتَّى إذا دخل الإيمان إلى قلبها في آخر عمرها طلبها النَّبي يوسف عليه السلام للزواج وعندما أراد الدخول عليها امتنعت وقالت: لقد كان قلبي لا يرى سواك أمَّا الآن فإنَّه لا يرى سوى الله عزَّ وجلَّ»[٢].

وعن السيِّد المسيح عليه السلام: «اجعلوا قلوبكم بيوتاً للتقوى ولا تجعلوا قلوبكم مأوى للشهوات»[٣].

---

(١) الأربعون: ص٥٥.
(٢) الذكر معراج الرُّوح: ص٢٠٧.
(٣) ميزان الحكمة: مادّة «القلب».

كيف نحقق السكنى؟

ولسُكنىٰ الله تعالى في قلب الإنسان شروط، أهمها: **الطهارة، والصفاء، ودوام الذكر**.

عن الإمام علي عليه السلام: «قلوب العباد الطاهرة مواضع نظر الله، فمن طهر قلبه نظر إليه»[(١)].

وفي وصيته لولده عليهما السلام: «أُوصيك بتقوى الله... وعمارة قلبك بذكره».

ومنها: الزهد في الدُّنيا: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾﴾ [طه: ١١-١٢] أن ينزع موسى عليه السلام حبّ أهله وأولاده من قلبه وأن لا يخاف عليهم من الضياع.

رُوي أنَّ الإمام عليّاً عليه السلام كان في إحدى المعارك فعطش فطلب الماء فجيء له بعسل وماء فشرب منه وقال: «هذا هو العسل الطائفي فقيل له: أما شغلك ما نحن فيه عن علم هذا؟ فقال عليه السلام: إنَّه والله يا بنيَّ ما ملأ صدر عمك شيء قطّ من أمر الدُّنيا»[(٢)].

أقول: ومن هنا ندرك أنَّ قلب الإنسان الفارغ من حبّ الدُّنيا والمملوء بعظمة الله تعالىٰ يكون محلاً للسعة والإحاطة بالموجودات.

عن الإمام علي عليه السلام: «ونحن من قوم قلوبهم في الجنان وأبدانهم في العمل».

ومنها: المحافظة على القلوب من التلوث بالنجاسات المادية والمعنوية، لأنَّها تتأثر بالعوامل الخارجية، فقد رُوي أنَّ الإمام عليّاً عليه السلام

---

(١) ميزان الحكمة مادة «القلب».

(٢) مستدرك نهج البلاغة: ج١، ص٣٥٧.

سمع رجلاً يغتاب عند ولده الإمام الحسن عليه السلام فقال لولده: يا بنيَّ نزّه نفسك وسمعك عنه، فإنَّه نظر إلى أخبث ما في وعائه فأفرغه في وعائك»(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة، إنَّ القلب ليواقع الخطيئة فلا تزال به حتَّىٰ تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله»(٢).

وكلَّما كان القلب رقيقاً وصافياً كان تأثره في الأُمور الحياتية أشدّ وأكثر، ومن هنا ذهب البعض في تفسير قوله صلى الله عليه وآله: «إنَّه ليغان على قلبي وإنِّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرَّة» إلى ما يلي: لمَّا كان قلب النَّبي صلى الله عليه وآله أتمّ القلوب صفاءً وأكثرها ضياءً وكان مع ذلك مضطراً لمعاشرة الخلق لأجل التبليغ، فكان إذا تعاطى شيئاً من الأُمور الدنيوية أسرعت كدورته إلى قلبه لكمال رقّته وفرط نورانيته، فإنَّ الشيء كلَّما كان أرقّ وأصفى كان ورود المكَدرات عليه أبين وأظهر، فكان صلى الله عليه وآله إذا أحسّ بشيء من ذلك عدّه ذنباً فاستغفر منه»(٣).

أثار الإسكان:

إذا كان الساكن في النَّفس هو الَّذي يحرِّكها فلا بدَّ أن تظهر آثاره على الجوارح، فإذا كان الله تعالى هو الساكن كانت الآثار بارزة والَّتي منها:

أوَّلاً: الانتفاع بعبادة الجوارح فإنَّ قبولها متوقف على مقدار

---

(١) مستدرك نهج البلاغة: ج١٠، ص١٩٩.
(٢) الأربعون حديثاً: ص١٦٢.
(٣) الأربعون حديثاً: ص١٦٢.

المعرفة وإليه الإشارة بحديث الإمام علي عليه السلام: «... حتّى ينفعكم ما تحركون من الجوارح بعبادة من تعرفون».

ومن الطبيعي أنَّ خشوع القلب سينعكس على الجوارح، فعن الإمام علي عليه السلام: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبصر رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال: إنَّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»[١].

ثانياً: إنَّ كلّ شيء يتحرَّك لأجله الإنسان، سيكون لأجل الساكن وكما قال الإمام علي عليه السلام: «ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله معه وقبله وبعده وفيه».

ثالثاً: سيصل الإنسان إلى مرحلة يرى بعين الله ويسمع بأذنه ويبطش بيده.

في الحديث القدسي: «ما تقرَّب إليَّ عبد بشيء أفضل ممَّا افترضت عليه، ولا يزال يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الَّذي يسمع به، وبصره الَّذي يبصر به، ويده الَّتي يبطش بها، ورجله الَّتي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر، وبي يبطش وبي يمشي».

ولتوضيح هذا الحديث القدسي يقول بعض المحقِّقين: تارة يكون العبد في مرحلة يكون الله تعالى سمعه وبصره ويده، وأُخرى يكون في مقام أعلى بحيث يكون هو عين الله وسمعه، ولتقريب ذلك يضرب مثالاً فيقول: افرض أنَّ لك طفلاً لا يعرف الآداب الاجتماعية فيكون حضوره في المجلس تبعاً لك، وإذا سأله أحد سؤالاً فأنت تجيبه لأنَّ الطفل لا يعرف الإجابة. وإذا أعطاه أحد شيئاً فأنت تشكره وهكذا، ففي هذه

---

(١) الصلاة: ص٨٤.

المرحلة تكون نائباً عنه في كلّ شيء، فإذا بلغ مرحلة الكمال وعرف آداب المعاشرة فقد ينعكس الأمر بحيث إنّه يزور عنك ويُعزّي نيابة عنك وهكذا، ففي مرحلة الطفولة كنت لسانه ويده... وأمّا في مرحلة الكمال فإنّه يصير لسانك ويدك.. وهكذا حال العبد مع الله تعالى فكلّما تقرّب إلى الله تعالى صار الله يده ولسانه.. حتّى إذا وصل إلى أعلى الدرجات صار بنفسه يدَ وعين الله ولسانه.. ولهذا ورد في حقّ الإمام علي عليه السلام: «السلام عليك يا عين الله الناظرة، ويده الباسطة، وأُذنه الواعية...»[1].

وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «قلوبنا أوعية لمشيئة الله».

رابعاً: أنّه سيتحول إلى محط لنورانية القلب، جاء في الحديث حول نبوة النبي محمّد صلى الله عليه وآله: «فلما استكمل أربعين سنة، ونظر الله إلى قلبه فوجده أفضل القلوب وأجلّها، وأطوعها، وأخشعها، وأخضعها، أذن لأبواب السماء ففُتحت»[2]. ورُوي أنّ النّبي موسى عليه السلام سأل ربّه: أين أجدك؟ فقال تعالىٰ: تجدني عند القبور المندرسة والقلوب المنكسرة»[3].

وجاء في تفسير القلوب المنكسرة: أي الّتي كسرها حبّ الله تعالىٰ فكسرت الهيبة الإيمانية جميع الحجب الظُّلمانيَّة فاتصلت بمعدن العظمة.

ويؤيده ما رُوي عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «إنّ لله عباداً كسرت قلوبهم خشية الله فاستنكفوا عن المنطق وإنّهم لفُصحاء بُلغاء ألِبّاء،

---

(١) لاحظ دروس في التفسير للسيِّد الفهري: ج٢، ص١٤١.
(٢) بحار الأنوار ج١٧ ص٣٠٩.
(٣) مواهب الرّحمٰن: ج٥، ص٢٦٦.

يستبقون بالأعمال الزاكية، لا يستكثرون له القليل ولا يرضون له القليل، يرون أنفسهم أنّهم أشرار وأنّهم الأكياس الأبرار»[١].

خامساً: سيرى الإنسان الدنيا حقيرة وصغيرة ذلك لأنَّ الساكن قلبه أعظم من كلّ شيء، وكما قال الإمام علي عليه السلام في صفة المتّقين: «عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم».

ومن هنا قالت السيِّدة زينب عليها السلام ليزيد: «إنّي لأستصغر قدرك...».

سادساً: سيكون الإنسان في يوم القيامة من الفرحين الفائزين بنعيم الآخرة، فعن الإمام الصّادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعَراء: ٨٩] أنّه قال: «القلب السليم الّذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه، وكلّ قلب فيه شك أو شرك فهو ساقط»[٢].

ماذا في القلب؟

إنَّ قلب الإنسان هو الوعاء الّذي يحوي رغبات الإنسان وتفكيره وهمّه.. وهو المرآة الّتي تعكس حقيقته الباطنية وليس أعماله وأقواله... فالّذي يعشق فتاة أو يسعى وراء المال يتحول قلبه وباطنه إلى تحقيق سعيه والتقرُّب إلى الفتاة... وأهل الباطن لا ينظرون إلى الشكل الخارجي للنّاس وإنّما إلى حقائقهم من خلال الاطلاع على ما في قلوبهم... والشواهد في هذا المجال كثيرة من أرادها فليطالع حياة العرفاء أمثال الشيخ رجب الخياط والسيِّد القاضي وغيرهما.

---

(١) مستدرك نهج البلاغة: ج٩، ص٣٣.
(٢) ميزان الحكمة: مادّة «القلب»، ج٢، ص٢٦٠٣.

لذلك لا بدَّ أن نسأل أنفسنا: ماذا في قلوبنا؟ هل حبّ المال والنِّساء والأولاد هو المسيطر على قلوبنا، أم حبّ الله؟

جاء في الحديث القدسي: «يابن آدم كم تقول الله الله، وفي قلبك غير الله، ولسانك يذكر الله وتخاف غير الله وترجو غير الله، ولو عرفت الله ما أهمك غير الله».

وفي حديث آخر: «يابن آدم أخرج حبّ الدُّنيا من قلبك فإنَّه لا يجتمع حبّ الدُّنيا وحبي في قلب واحد أبداً»[1].



(١) كلمة الله: ص٤٥٢.

عبادة الله تعالىٰ

عن الإمام علي عليه السلام:

«إلٰهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنَّتك، ولكنِّي وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك».

* * *

الإنسان مخلوق مُكرَّم:

خلق الله تعالىٰ الإنسان، وميَّزه عن سائر مخلوقاته، بأن نفخ فيه من روحه، وأضافه إليه، وأمر ملائكته بالسجود له تكريماً.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩].

بالإضافة إلى هذا فقد وهبه الله تعالىٰ عقلاً يرتفع به عن سائر المخلوقات من الحيوانات والنباتات.

قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السّجدة: ٩].

ثمَّ لم يقف التكريم الإلٰهي للإنسان عند هذا الحدّ بل تعدَّاه إلى أن سخَّر الله له البرَّ والبحر، ورزقه من الطيِّبات، وبذلك يكون قد فضَّله على كثير ممَّن خلق.

قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقد صرَّحت بعض الآيات أنَّ الله تعالىٰ خلق ما في الأرض لأجل خدمة الإنسان.

قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٣].

سرّ الخليقة:

هنا يُطرح التساؤل التالي:

إذا كرَّم الله تعالىٰ الإنسان بروحه وعقله وحواسه وخلق له ما في السَّموات والأرض، فلماذا خلقه؟

الجواب: يُصرِّح القرآن الكريم بأنَّ هدف خلق الإنسان هو «عبادة الله تعالىٰ».

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

يقول المفسِّر الكبير السيِّد الطباطبائي (قدِّس سرُّه): «قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ اللّام فيه للغرض إذ إنّه استثناء من النفي، ولا ريب في ظهوره في أنَّ للخِلقة غرضاً، وأنَّ الغرض العبادة بمعنى كونهم عابدين لله تعالىٰ، لا كونه معبوداً، فقد قال: «ليعبدون» ولم يقل: «لأُعبَد» أو «لأكون معبوداً لهم» فالعبادة غرض لخلقة الإنسان وكمال عائد إليه».

وفي الحديث القدسي: «يابن آدم خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي»[١].

---

(١) كلمة الله: ص١٦٩.

وفي الحديث القدسي: «يابن آدم، ما خلقتكم لتجمعوا الدُّنيا بعضكم لبعض، بل خلقتكم لتعبدوني عبادة الأذلاء طويلاً، وتشكروني جزيلاً، وتسبِّحوني بُكرةً وأصيلاً»(١).

عن الإمام الحسين عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ ما خلق العباد إلَّا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه»(٢).

وروى المؤرِّخون أنَّ شخصاً مرَّ بالإمام الحسن العسكري عليه السلام وهو واقف مع أترابه الصبيان، فقال له: أشتري لك ما تلعب به؟ فردَّ عليه الإمام عليه السلام: لا، ما للعب خُلقنا، فقال له: لماذا خُلقنا؟ قال عليه السلام للعلم والعبادة، قال الرجل: من أين لك هذا؟ فقال عليه السلام: من قوله تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥](٣).

سؤال: لماذا خلق الله الإنسان للعبادة؟

الجواب: خلق الله الإنسان للعبادة، لأنَّها هي الطريق لوصوله إلى الكمال والسعادة المنشودين في الدُّنيا والآخرة.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّ الله تبارك وتعالىٰ لم يخلق خلقه عبثاً ولم يتركهم سُدىً بل خلقهم لإظهار قدرته، ويكلِّفهم طاعته فيستوجبوا بذلك رضوانه، وما خلقهم ليجلب منهم منفعة ولا ليدفع بهم مضرَّة، بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم إلى نعيم الأبد».

---

(١) كلمة الله: ص٤٨٤.
(٢) الأمثل: ج١٧، ص١٣٤.
(٣) حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام: ص٢٢.

أهمية العبادة:

إذا كانت العبادة غاية خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض، فلا شكّ أنَّ لها الأثر الكبير في حياته وبعد مماته.

ونستطيع أن نلّخص أهمية العبادة بالتالي:

١ ـ أساس التكامل البشري.

٢ ـ شعور الإنسان بارتباطه بالمُطلق الَّذي بيده الخلق والرِّزق وتدبير الأُمور. وهذا الشعور يجعل من العبودية عزّاً وفخراً كما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «إلٰهي كفى بي عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً».

دواعي العبادة:

يختلف الدافع إلى العبادة باختلاف الأشخاص وحالاتهم ومراتبهم وهي أحد أُمور ثلاث:

عبادة التجَّار:

الأوَّل: الطمع في الأجر والثواب: حسبما وعد تعالىٰ في كتابه بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩] وهي عبادة «التجّار» كما في حديث عن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ قوماً عبدوا الله رغبةً ـ في الثواب ـ فتلك عبادة التجّار».

وقد شبَّه الإمام عليه السلام عبادة البعض بالتجّار لأنَّهم لا يعطون من أنفسهم الصلاة والصوم وغيرهما إلَّا لتوقّع الأجر والثواب، كالتاجر الَّذي لا يعطي مالاً إلَّا لتوقّع العوض، فالعبادة بهذا المعنىٰ هي نوع من العمل، ومثله كما لو قلنا للطفل اكتب دروسك ولك كذا من المال،

فالطفل يكتب بدافع الحصول على المال، ولو عرف بطريق ما أنّه لن يحصل على المال فسيتقاعس عن واجباته المدرسية وهكذا نجد أنّنا عندما نرى أنَّ لهذا الدُّعاء الكذائي ثواباً وأجراً وقضاء حاجة وغير ذلك فإنَّنا نقرأه، لكنَّا لو رأينا دعاءً آخر لم يُذكر فيه الثواب فإنَّنا نتقاعس عن قراءته، ولهذا نجد أنفسنا نقرأ الدُّعاء ـ للحصول على قضاء الحاجة ـ مع كامل الآداب كالوضوء واستقبال القبلة، والخشوع، وغير ذلك، بينما لا نقرأه بهذه الحالة لمجرَّد القُرب من الله تعالىٰ.

وقد اعتبر بعض العرفاء أنَّ عبادة التجَّار هي «توجّه إلى الله لحصول مشتهى النَّفس، ففيه جُعل الله تعالىٰ واسطة لحصول المشتهىٰ والواسطة من حيث هي واسطة غير مقصودة إلّا بالتبع والعرْض، فهي بالحقيقة ليست إلَّا عبادة للشهوة»[١].

يقول السيِّد الخميني رحمه الله: «إنِّي أحكِّمكم في هذا السؤال الَّذي أطرحه، وأريد منكم الجواب عليه بإنصاف ـ بعد إعمال الفكر والتأمُّل ـ. والسؤال هو أنَّه إذا أخبركم الرَّسول الأكرم صلوات الله عليه وآله، وهو الصَّادق المصدّق، أنَّكم إذا عبدتم الله طوال عمركم وأطعتم أوامره وتركتم شهوات النَّفس ورغباتها، أو تركتم عبادته وعملتم على خلاف توجيهاته سبحانه وتعالىٰ وعلى أساس رغبات النَّفس وشهواتها طيلة حياتكم وإذا أخبركم الرَّسول ﷺ بأنَّكم سيَّان ـ في كلتا الحالتين ـ لن تختلف درجاتكم في الآخرة. إنَّكم على كلِّ حال الناجون وستذهبون إلى الجنَّة وتأمنون من العذاب، فلا فرق ـ حسب الفرض ـ بين أن تصلُّوا أو تزنوا، ولكن مع ذلك يكون رضا الله تعالىٰ في عبادته والثناء عليه وحمده، والابتعاد عن الشهوات والرغبات النفسانية في هذا

---

(١) رسالة الولاية للطباطبائي: ص٧٢.

العالم، مع عدم الإثابة على الطاعة، فهل كنتم تصبحون من أهل المعصية أو من أهل العبادة؟ هل كنتم تتركون الشهوات وتحرمون على أنفسكم اللذَّات النفسانية من أجل رضا الله تعالىٰ والرغبة فيه، أو لا؟ هل كنتم باقين من المتوسلين إليه تعالىٰ بالمستحبات والجمعة والجماعات؟ أو كنتم تغرقون في الشهوات وتلازمون اللهو واللعب والملاهي وغير ذلك؟ أجيبوا بإنصاف ودون تظاهر ورياء، إنَّني أعلن عن نفسي وعمَّن هو على شاكلتي بأنَّا نصبح من أهل المعصية ونترك الطاعات ونعمل بالشهوات النفسانية» ويقول:

«وبعدما تقدَّم نستنتج أنَّ جميع أعمالنا هي من أجل اللذَّات النفسانية ومن أجل الاهتمام بالبطن والفرج، إنَّنا عُبَّاد للبطن وعُبَّاد للشهوة، ونترك لذَّة صغيرة، للذَّة أعظم، وإنَّ وجهة أنظارنا وقبلة آمالنا هي فتح بساط الشهوة، إنَّ الصلاة الَّتي هي معراج القرب إلى الله نؤدِّيها قربة لنساء الجنَّة ولا علاقة لها بالقرب إلى الله، ولا علاقة لها بطاعة الأمر، وهي بعيدة آلاف الفراسخ عن رضا الله» ويقول:

«أيُّها المسكين الغافل عن المعارف الإلٰهيَّة، يا مَنْ لا تفهم سوى إرادة شهوتك وغضبك، أنت المتوسل بالأذكار والأوراد والمستحبات والواجبات، والتارك للمكروهات والمحرَّمات والمتخلق بالأخلاق الحسنة، والمتجنب لسيِّئات الأخلاق، ضع أعمالك أمام عين الإنصاف، أتقوم بها لأجل الوصول إلى الشهوات النفسانية والجلوس على سُرر مطعَّمة بالزبرجد، ومعانقة الضحوكات والدعوبات في الجنَّة، وارتداء الحرير والإستبرق، والسكنى في القصور الفارهة الجميلة، والوصول إلى الأمان النفسي؟ أفينبغي أن تمنّ بهذه الأعمال وهي جميعاً لأجل النَّفس ومن أجل عبادتها على الله وتعدّها عبادة الله؟ هل يختلف حالكم عن ذلك الأجير الَّذي ينجز عملاً من أجل الأجر، ثمَّ

يقول: إنَّني أنجزت ذلك العمل لأجل صاحب العمل فحسب، أفلا تكذبوه؟

ألستم كاذبين حينما تقولون: إنَّنا نصلِّي تقرُّباً إلى الله تعالىٰ؟ ألأجل التقرُّب إلى الله هذه الصلاة أو لأجل التقرُّب لنساء الجنَّة وإشباع الشهوة»[١].

عبادة العبيد:

الثاني: الخوف من عذاب الآخرة.

وهي عبادة «العبيد» فكما أنَّ العبد لا يقوم بواجباته اليومية إلَّا بالتهديد والوعيد، كذلك بعض العباد فإنَّهم لا يعبدون الله تعالىٰ إلَّا خوفاً من العذاب.

وفي الواقع فإنَّ أغلب النَّاس يعبدون خوفاً من العذاب، ولذا نجد أنَّ القرآن الكريم أكثر من الآيات الَّتي تذكر العذاب في يوم القيامة.

فقد ذكر القرآن الكريم ما يقارب ١٤٠٠ آية، حول المعاد من أصل ٦٦٦٦ آية أي ما يُقارب خُمس القرآن الكريم.

كما نجد أنَّ النبي والأئمَّة عليهم السلام أكثروا من الخطب والمواعظ الَّتي تُخوِّف النَّاس وتحذِّرهم من عذاب الآخرة.

وقد ذهب البعض إلى بطلان العبادة إذا كانت بداعي الطمع أو الخوف، ولكن قولهم مردود لأنَّ الله تعالىٰ مدح الَّذين يعبدون كذلك بقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦] وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا

---

(١) الأربعون حديثاً: ص٧٨.

وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦]...

وقد جاء في كلام أهل البيت عليهم السلام لما تصدَّقوا على المسكين واليتيم والأسير قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ٩-١٠].

عبادة الأحرار:

الثالث: لأنَّ الله تعالىٰ أهل للعبادة: يقول السيِّد الخوئي رحمه الله: «وهذا القسم لا يتحقَّق إلَّا ممَّن اندكَّت نفسيته فلم يرَ لذاته إنيَّة إزاء خالقه ليقصد بها خيراً أو يحذر لها من عقوبة، وإنَّما ينظر إلى صانعه وموجده ولا يتوجه إلَّا إليه»[1].

ولا يصل الإنسان إلى هذه المرتبة العالية إلَّا إذا عرف الله تعالىٰ حقَّ معرفته الجماليَّة والجلاليَّة فذاب في حبِّ الله تعالىٰ إلى درجة لم ينظر فيها إلى الجنَّة أو النَّار، بل كان خوفه لقاء الله تعالىٰ، كما في دعاء كميل: «وهبني صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك؟».

فالجنَّة بنظر الإمام علي عليه السلام هي القرب من الله تعالىٰ، ولذا ورد عنه عليه السلام أنَّه قال: «لو أدخلتني نارك لم أقل إنَّها نار، وأقول إنَّها جنَّتي لأنَّ جنَّتي رضاك، فأينما أنزلتني أعرف أنَّ رضاك فيه»[2].

ومن كلامه عليه السلام: «الجلوس في المسجد أحبّ من الجلوس في الجنَّة لأنَّ في الأوَّل رضا ربِّي وفي الثاني رضاي»[3].

---

(١) البيان: ص٤٧٧.

(٢) نفْس الرَّحمٰن: ص٣٢٧.

(٣) بهج الصباغة: ج١٢، ص٣١٦. مستدرك الوسائل: ج٣، ص٣٥٨.

نلاحظ في هاتين الفقرتين أنَّ الإمام عليّاً عليه‌السلام لم يفكِّر في دخول الجنَّة أو النَّار وإنَّما هدفه الله تعالىٰ.

ومن كلام له عليه‌السلام: «فأنت لا غيرك مرادي.. يا نعيمي ويا دُنياي وآخرتي» ولهؤلاء العبَّاد درجة ومرتبة عالية في جنَّات الخُلد.

رُوي أنَّ السيِّد المسيح عليه‌السلام مرَّ بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيَّرت ألوانهم فقال: ما الَّذي أرى بكم؟ فقالوا: الخوف من النَّار، فقال عليه‌السلام: حق على الله أن يؤمن مَنْ يخافه، ثمَّ مرَّ على ثلاثة آخرين فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيُّراً فقال: ما الَّذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الشوق إلى الجنَّة فقال عليه‌السلام: حق على الله أن يُعطي من رجاه، ثمَّ مرَّ على ثلاثة آخرين فإذا هم أشدّ نحولاً وعلى وجوههم مثل المرائي من النُّور فقال: ما الَّذي بلغ بكم؟ قالوا: حبّ الله عزَّ وجلَّ فقال ثلاث مرَّات: أنتم المقرَّبون»[(١)].

عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: «بكى شعيب من حب الله عزَّ وجلَّ حتَّى عمي فردَّ الله عليه بصره، ثمَّ بكىٰ حتَّىٰ عمي فردَّ الله عليه بصره، ثمَّ بكىٰ حتَّىٰ عمي فردَّ الله عليه بصره، فلمَّا كانت الرابعة أوحىٰ الله إليه: يا شعيب إلى متى يكون هذا أبداً منك؟ إن يكن هذا خوفاً من النَّار فقد أجرتك وإن يكن شوقاً إلى الجنَّة فقد أبحتك فقال: إلٰهي وسيِّدي أنت تعلم أنِّي ما بكيت خوفاً من نارك ولا شوقاً إلى جنَّتك ولكن عقد حبّك على قلبي فلست أصبر أو أراك، فأوحى الله إليه: أمَّا إذا كان هذا هكذا، فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران»[(٢)].

النتيجة:

إذا كانت نتائج الأفعال تُقاس بالنوايا والدواعي فلا شكّ أنَّ أرفع

(١) بهج الصباغة: ج١٢، ص٣١٦.
(٢) كلمة الله: ص١٣٧.

العبادة ما كان بدافع الحب والقُرب إلى الله تعالى، ولذا فمن المناسب أن نصلِّي لله تعالىٰ ركعتين بنيَّة القُرب منه لا الخوف ولا الطمع، أو أن نهلِّله ونسبِّحه ونحمده بهذه النيَّة، فإنَّ العمل القليل بهذه النيَّة خير من العمل الكثير بنيَّة الخوف أو الطمع[1].

وإذا عبد الإنسان بهذه النيَّة فإنَّه سيصل إلى لذَّة، ما بعدها لذَّة.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «... ألا وإنَّك لو وجدت حلاوة عبادة الله، ورأيت بركاتها، واستضأت بنورها، لم تصبر عنها ساعة واحدة، ولو قُطِّعت إرباً إرباً»[2].

وعنه عليه السلام: «لو يعلم النَّاس ما في فضل معرفة الله تعالىٰ[3] ما مدوا أعينهم إلى ما مُتِّع به الأعداء من زهرة الحياة الدُّنيا ونعيمها، وكانت دُنْياهم أقل عندهم ممَّا يطأونه بأرجلهم، ولنعموا بمعرفة الله تعالى وتلذَّذُوا بها تلذُّذ مَنْ لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله، إنَّ معرفة الله أُنس من كلِّ وحشة، وصاحبٌ من كلِّ وحدة، ونورٌ من كلِّ ظلمة، وقوَّة من كلِّ ضعف، وشفاءٌ من كلِّ سقم»[4].



---

(١) السير على درب الحبيب: ص١٨٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٦٩.

(٣) الرواية ذكرت: معرفة الله إلَّا إنَّها مناسبة لمبحث «العبادة» باعتبار أنَّ المعرفة مقدِّمة للعبادة لذا ورد في تفسير آية ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] أي ليعرفون.

(٤) الوافي: ج١، ص٤٢.

رؤية الله تعالى

عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال:

«جاء حبر إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربّك حين عبدته؟ فقال عليه السلام: ويلك ما كنت أعبد ربّاً لم أره، فقال الرجل: وكيف رأيته؟ قال عليه السلام: ويلك لا تدركه العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»[١].

* * *

الرؤية:

نجد في هذا الحديث الشريف أنَّ الإمام علي عليه السلام يؤكد على ضرورة رؤية الله تعالى الَّذي نعبده، ويعتبر أنَّ هذه الرؤية ليست ممكنة فحسب بل هي ضرورية ويجب على كل فرد يعبد الله تعالى أن يراه، لأنَّ العبادة بدون رؤية ليست عبادة حقيقية.

وهذا الأمر يجعلنا نقف مع أنفسنا لنبحث عن أعمالنا العبادية، فهل رأينا الله تعالى الَّذي نعبده؟ ألسنا نقول أشهد أن لا إله إلَّا الله؟

(١) التوحيد للصدوق ص١٠٩.

والشهادة تقتضي الرؤية والمعرفة ـ فمن شهد على أمر ما فقد رآه ـ فهل رأينا ربّنا تعالىٰ؟

وهنا نتساءل: ما هي الرؤية؟ وكيف نرىٰ الله تعالىٰ؟

معنى الرؤية:

الرؤية هي إدراك الشيء، والإدراك تارة يكون بإحدىٰ الحواس الخمس، وأُخرى بالذهن، وثالثة بالقلب والرُّوح. ورؤيا الله تعالى إنَّما تكون بالقلب دون الحواس، وبيان ذلك:

أقسام الرؤية:

لرؤية الله تعالى معنيان:

الأوَّل: الرؤية البصرية:

وهي أمر مستحيل فقد أجمع الشيعة على استحالة رؤية الله تعالى بالعين الباصرة سواء في الدُّنيا أم في الآخرة. وعليه فإنَّ هذا المعنى ليس مراد الإمام علي عليه السلام.

وتعميماً للفائدة لا بدَّ من إلقاء الضوء باختصار على استحالة رؤية الله تعالى بالبصر، وقد استدل العلماء على الاستحالة من خلال العقل والنقل:

أمَّا العقل: فإنَّه يحكم بأنَّ الإبصار بالعين متوقف على حصول المقابلة بين العين والمرئي كما في رؤية الصورة في المرآة، فلا يمكن تحققه ووقوعه فيما إذا تنزَّه الشيء عن المقابلة، وعليه فيستحيل رؤية الله تعالى لأنَّه ليس بجسم ولا جسماني.

ثمَّ إنّه لو وقعت الرؤية، فإمّا أن تقع على الذات الإلهية كلّها أو

على بعضها فإن وقعت على الذات كلّها لزم أن يكون المرئي محدوداً ومتناهياً ومحصوراً في ناحية، وبالتالي تكون النواحي الأخرى خالية منه، وإن وقعت الرؤية على بعض الذات لزم أن يكون المرئي مركّباً وذا جهة، وجميع ذلك مستحيل في حقّ الله تعالى.

وأمّا النقل: فصريح القرآن الكريم والروايات الشريفة استحالة الرؤية، قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

والإدراك هو اللحوق والوصول، وله مصاديق كثيرة، فالإدراك بالبصر التحاق من الرائي بالمرئي، والإدراك بالمشي التحاق المتقدم بالمشي، فإذا قال سبحانه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فإنّه يعني لا تصل إليه الأبصار.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فإنّ الآية تصرح بالنفي المطلق للرؤية سواء في الدُّنيا أو الآخرة، وذلك لأنَّ الطبيعة البشرية لا تحتمل ذلك الأمر العظيم، فإنّه تعالى تجلّى للجبل بأفعاله وآثاره فاندكَّ الجبل وخرَّ موسى صعقاً[1] فكيف الحال بتجلّي الذات.

وإذا كانت الجبال لا تستطيع تحمُّل كلام الله تعالى كما في الآية

---

(١) لتقريب فكرة التجلي بالأفعال نأتي بالمثال التالي: إنّ الصاعقة ـ الّتي هي عبارة عن تبادل كهربائي بين قطع الغيوم والأرض ـ تؤدّي إلى دمار هائل في الأرض، وهي فعل من أفعال الله تعالى، فكيف بذاته؟ لاحظ الأمثل: ج٥، ص١٩٣.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]. فكيف بتحملها لرؤيته تعالىٰ.

قد يُقال: لو كانت الرؤية ممتنعة لما سألها النبي موسى عليه السلام.

الجواب: إنَّ القرائن تدلُّ على أنَّ النبي موسى عليه السلام إنَّما طلب الرؤية على لسان قومه حيث كانوا مصرِّين على ذلك.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦] قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وتوضيح ذلك جاء على لسان الإمام علي الرِّضا عليه السلام:

فقد قال عليّ بن محمَّد بن الجهم: حضرت مجلس المأمون وعنده الرِّضا عليّ بن موسى عليه السلام، فقال له المأمون: يابن رسول الله أليس من قولك أنَّ الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، فسأله عن آيات من القرآن، فكان فيما سأله أن قال له: فما معنىٰ قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] كيف يجوز أن يكون كليم الله موسى بن عمران عليه السلام لا يعلم أنَّ الله ـ تعالى ذكره ـ لا تجوز عليه الرؤية حتَّى يسأله هذا السؤال؟

فقال الرِّضا عليه السلام: «إنَّ كليم الله موسى بن عمران عليه السلام علم أنَّ الله

تعالى عن أن يُرىٰ بالأبصار، ولكنّه لما كلّمه الله عزّ وجلّ وقرّبه نجيّاً، رجع إلى قومه فأخبرهم أنّ الله عزّ وجلّ كلّمه وقرّبه وناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتّى نسمع كلامه كما سمعت، وكان القوم سبعمائة ألف رجل، فاختار منهم سبعين ألفاً، ثمّ اختار منهم سبعة آلاف ثمّ اختار منهم سبعمائة ثمّ اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربّه، فخرج بهم إلى طور سيناء، فأقامهم في سفح الجبل، وصعد موسىٰ عليه السلام إلى الطور وسأل الله تبارك وتعالى أن يكلّمه ويسمعهم كلامه، فكلّمه الله تعالى ذكره وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام، لأنّ الله عزّ وجلّ أحدَثَه في الشجرة، ثمّ جعله منبعثاً منها حتّى سمعوه من جميع الوجوه.

فقالوا: لن نؤمن لك بأنّ هذا الّذي سمعناه كلامَ الله حتّى نرىٰ الله جهرةً، فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا بعث الله عزّ وجلّ عليهم صاعقةً فأخذتهم بظلمهم فماتوا، فقال موسى: يا ربّ ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعتُ إليهم وقالوا: إنّك ذهبت بهم فقتلتهم لأنّك لم تكن صادقاً فيما ادّعيت من مناجاة الله إيّاك، فأحياهم الله وبعثهم معه.

فقالوا: إنّك لو سألت الله أن يريك أن تنظر إليه لأجابك وكنت تخبرنا كيف هو فنعرفه حقّ معرفته، فقال موسى عليه السلام: يا قوم إنّ الله لا يُرىٰ بالأبصار ولا كيفية له، وإنّما يُعرف بآياته ويُعلم بإعلامه، فقالوا: لن نؤمن لك حتّى تسأله، فقال موسىٰ عليه السلام: يا ربّ إنّك قد سمعت مقالة بني إسرائيل وأنت أعلم بصلاحهم، فأوحى الله جلّ جلاله إليه: يا موسىٰ اسألني ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسىٰ عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] (بآية من آياته) ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]

(يقول: رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي) ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] منهم بأنّك لا تُرىٰ».

فقال المأمون: لله درّك يا أبا الحسن[1].

قد يُقال: إذا كانت الرؤية ممتنعة فكيف تفسّرون الآية الّتي ظاهرها الرؤية وهي قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القِيامَة: ٢٢-٢٣].

إنّ الآية تبيّن أنّ في الآخرة وجوهاً تنظر إلى فضله تعالى ورحمته وكرمه أو تتوقع النظر إلى رحمته تعالى بخلاف ما تتوقعه وتنتظره الوجوه الباسرة من العذاب الفاقر ألسنا نجد هذا التعبير في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿...فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النّمل: ٣٥] أي منتظرة.

عن الإمام علي عليه السلام أنه قال في الآية: إنّما يعني بالنظر إليه النظر إلى ثوابه تعالى....».

الثاني: الرؤية القلبية:

وهو ما أثبتته الرواية الشريفة عن لسان الإمام علي عليه السلام بقوله: «ولكن رأته القلوب» وهو أمر متفق عليه عند الشيعة تبعاً لما جاء في الروايات الشريفة.

عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «... إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يرَ الله رأي العين أبداً، إنَّ المشاهدة نوعان: المشاهدة القلبية والمشاهدة البصرية، فمن قال بالمشاهدة القلبية فقد صدق، ومن قال بالمشاهدة البصرية فقد كذب وكفر بالله وبآياته»[2].

---

(١) الصدوق، التوحيد: ١٢١ برقم ٢٤ باب ما جاء في الرؤية.

(٢) الأمثل: ج٤، ص٣٨٣.

عن عبد الله بن سنان عن أبيه قال: حضرت أبا جعفر (محمَّد الباقر) عليه السلام فدخل عليه رجل من الخوارج فقال له: يا أبا جعفر أيّ شيء تَعبد؟ قال: «الله»، قال: رأيته؟ قال: «لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يُعرف بالقياس، ولا يُدرك بالحواس، ولا يُشبه بالنَّاس، موصوف بالآيات، معروف بالعلامات، لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إلٰه إلَّا هو»، قال: فخرج الرجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته[١].

وعن يعقوب بن إسحاق، قال: كتبت إلى أبي محمَّد (الحسن العسكري) عليه السلام أسأله كيف يعبد ربّه وهو لا يراه؟ فوقَّع عليه السلام: «يا أبا يوسف جلَّ سيِّدي ومولاي والمنعم عليَّ وعلى آبائي أن يُرىٰ»، قال: وسألته هل رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله ربّه؟ فوقَّع عليه السلام: «إنَّ الله تبارك وتعالى أرىٰ رسوله بقلبه من نور عظمته ما أحبّ»[٢].

عن ابن أبي نصر البزنطي عن أبي الحسن الرِّضا عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لما أُسري بي إلى السَّماء بلغ بي جبرئيل مكاناً لم يطأه جبرئيل قطُّ، فكشف لي فأراني الله عزَّ وجلَّ من نور عظمته ما أُحبّ»[٣].

عن عبيد بن زرارة عن أبيه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك الغشية الَّتي كانت تصيب رسول الله إذا نزل عليه الوحي، فقال: «ذاك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد، ذاك إذا تجلَّى الله له»، قال: ثمَّ قال: «تلك النُّبوَّة يا زرارة وأقبل يتخشَّع»[٤].

---

(١) الصدوق، التوحيد: باب ما جاء في الرؤية، الحديث ٥.
(٢) الصدوق، كتاب التوحيد، باب ما جاء في الرؤية، الحديث ٣، ٤، ١٥.
(٣) الصدوق، كتاب التوحيد، باب ما جاء في الرؤية، الحديث ٣، ٤، ١٥.
(٤) الصدوق، كتاب التوحيد، باب ما جاء في الرؤية، الحديث ٣، ٤، ١٥.

عن محمّد بن الفضيل قال: سألت أبا الحسن عليه السلام: هل رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ربّه عزّ وجلّ، فقال: «رآه بقلبه، أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ [النّجم: ١١]، أي لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد».

عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في جواب سؤال شخص عن رؤية الله يوم القيامة، فقال في ذيل الجواب: «وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالى الله عمّا يصفه المشبِّهون والملحدون»[(١)].

والرؤية القلبية هي الإحساس القلبي والشعور الوجداني بوجود الله تعالى، وتوضيح ذلك: إنَّ العلم الَّذي يحصل لدى الإنسان على قسمين:

الأوَّل: علم حصولي أي حصول صورة المعلوم في الذهن من خلال الحواس والأفكار الذهنية.

والثاني: علم حضوري أي حضور العلم في النَّفس من دون مقدمات خارجية كالعلم بالألم والعطش والحب والكره وما أشبه.

ومن الطبيعي أنَّ العلم الحضوري أقوى وأشد من العلم الحصولي لأنَّه إدراك وجداني وليس تصوراً ذهنياً، كما أنَّه حضور لنفس العلوم وليس لصورته فقط.

فرؤية الله تعالى هي من العلم الحضوري والإحساس الوجداني من دون واسطة الحواس المادية.

يقول السيِّد الطباطبائي رحمه الله: «إنَّه تعالى يُثبت في كلامه قسماً من الرؤية والمشاهدة وراء الرؤية البصرية الحسِّيَّة، وهي نوع شعور في

---

(١) الصدوق، كتاب التوحيد، باب ما جاء في الرؤية، الحديث ١٧ ـ ٢٠.

الإنسان، يشعر بالشيء بنفسه من غير استعمال آلة حسيَّة أو فكريَّة، وفي ضوء ذلك إنَّ للإنسان شعوراً بربّه غير ما يعتقد بوجوده عن طريق الفكر واستخدام الدليل، بل يجد وجداناً من غير أن يحجبه عنه حاجب ولا يجرَّه إلى الغفلة عنه اشتغاله بنفسه ومعاصيه الَّتي اكتسبها، والَّذي يتجلَّىٰ من كلامه سبحانه إنَّ هذا العلم المُسمَّى بالرؤية واللقاء يتمّ للصالحين من عباد الله يوم القيامة، فهناك مواطن التشرُّف بهذا التشريف، وأمَّا في هذه الدُّنيا والإنسان مشتغل ببدنه ومنغمر في غمرات حوائجه الطبيعية وهو سالك لطريق اللقاء فهو بعدُ في طريق هذا العلم لم يتم له حتَّى يلقىٰ ربّه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: ٦].

فهذا هو العلم الضروري الخاص الَّذي أثبته الله تعالى لنفسه وسمَّاه رؤية ولقاء، ولا يهمّنا البحث عن أنَّها على نحو الحقيقة أو المجاز، والقرآن أوَّل كاشف عن هذه الحقيقة على هذا الوجه البديع، فالكتب السَّماويَّة السابقة على ما بأيدينا ساكتة عن إثبات هذا النوع من العلم بالله وتخلو عن الأبحاث المأثورة عن الفلاسفة الباحثين عن هذه المسائل، فإنَّ العلم الحضوري عندهم كان منحصراً في علم الشيء بنفسه حتَّى يكشف عنه في الإسلام، فللقرآن المِنَّة في تنقيح المعارف الإلٰهيَّة»[١].

وفسَّر البعض الرؤية بأنّها هي ظهور آثار عظمته وكبريائه وملكوته وسلطانه فيظهر هذا يوم القيامة أشد الظهور عندما ترتفع حجب المادة والأوهام[٢].

---

(١) الطباطبائي، الميزان ٨: ٢٥٢ _ ٢٥٣.
(٢) رسالات علوية: ص١٨٤.

يقول الشيخ الصدوق: «ومعنى الرؤية الواردة في الأخبار: العلم، وذلك أنَّ الدُّنيا دار شكوك وارتياب وخطرات، فإذا كان يومُ القيامة كُشف للعباد من آيات الله وأُموره في ثوابه وعقابه، ما يزول به الشكوك، وتُعلم حقيقة قدرة الله عزَّ وجلَّ، وتصديقُ ذلك في كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [قَ: ٢٢] فمعنى ما روى في الحديث أنَّه عزَّ وجلَّ يُرىٰ أي يعلم علماً يقينياً».

إنَّ الرؤية القلبية هي أهم الأدلة على وجود الله تعالى، فعندما نتدبَّر في المنهج القرآني في الاستدلال على وجود الله تعالىٰ نجد أنَّه يركِّز على وجود الله تعالى في وجدان الإنسان وفي قلبه وروحه وأمَّا الآيات الَّتي تتحدَّث عن العقل فيُراد بها العقل الوجداني المستقر في القلب لا في الدماغ[1] قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحَج: ٤٦].

وفي ذلك تشير الكلمات المروية عن الإمام الحسين عليه السلام في دعاء يوم عرفه: «**إلٰهي... أنت الَّذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتَّى عرفوك ووجدوك وأنت الَّذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبَّائِكَ حتَّى لم يحبُّوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك**».

متى تحصل الرؤية:

ولا يمكن للإنسان أن يحصل إلى رؤية الله تعالىٰ إلَّا إذا رفع

---

(١) التوحيد والشهود الوجداني: ص٢٦٠.

الحُجب المادية الدنيوية فإنَّه تعالى كما يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «اللَّهمَّ إنَّك لا تحتجب عن خلقك إلَّا أن تحجبهم الآجال دونك».

ولهذا فإنَّ الرؤية تظهر في عالم الحقائق الَّذي هو الآخرة، وعند النَّاس الَّذين كُشف لهم الغطاء كالإمام علي عليه السلام.

مراتب الرؤية:

تختلف مراتب الرؤية لدى النَّاس لاختلاف درجاتهم ويمكننا حصرها في مرتين:

الأُولى: رؤيته تعالى بواسطة مخلوقاته: إنَّ الناظر إلى الأشياء المادية لا يستطيع أن يراها إلَّا بواسطة الضوء وكذلك الناظر إلى الوجود بكلِّ ما فيه ومن فيه فإنَّه لا يستطيع أن يراه على ما هو عليه إلَّا بنور الله تعالى، والنظر إلى الله تعالىٰ لا يتحقق إلَّا بعد النظر إلى الوجود بنور الله تعالىٰ.

ومن أعظم الأُمور الَّتي يتجلَّىٰ بها الله تعالى هو القرآن الكريم، ولذا ورد عن الإمام علي عليه السلام: «فتجلَّىٰ لهم في كتابه ـ من غير أن يكونوا رأوه ـ بما أراهم من قدرته»(١).

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «لقد تجلَّىٰ الله لخلقه في كلامه ولكنَّهم لا يبصرون»(٢).

وعن الإمام الحسين عليه السلام: «تجلَّىٰ لعباده في كتابه، بل في كلّ شيء، وأراهم نفسه في خطابه بل في كلّ نور»(٣).

الثانية: رؤيته تعالى في القلب والرُّوح: فيشعر الإنسان بوجود الله

---

(١) نهج البلاغة: ص١٤٧.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٢، ص١٠٧.

(٣) جامع السعادات: ج٣، ص٣٧٦.

تعالى معه في كل أحواله، وتتجلّى هذه الحالة لدى البعض في حالة الدُّعاء والتضرُّع أو المرض والاضطرار. . .

وأبرز مصداق لذلك هم الأولياء المعصومون عليهم السلام وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام الّذي كان يقول: «ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله ومعه وبعده».

يقول السيِّد الخميني رحمه الله: «فليعلم أنَّ القلب بحسب فطرته وجبلته إذا تعلَّق بشيء وأحبه يكون ذلك المحبوب قبلة لتوجهه، وإن شغله أمر ومنعه عن التفكُّر في حال المحبوب وجمال المطلوب، فبمجرد أن يخف الاشتغال ويرتفع ذلك المانع يطير القلب شطر محبوبه فوراً ويتعلَّق بذيله، فأهل المعارف وأرباب الجذبة الإلٰهيَّة إذا كانت قلوبهم قوية وصاروا متمكنين في الجذبة والحب فيشاهدون في كل مرآة جمال المحبوب وفي كل موجود كمال المطلوب ويقولون «ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله فيه ومعه»[(١)].

إنَّ الفرق بين إيمان الأنبياء والأولياء عليهم السلام وبين إيمان الفلاسفة هو أنَّ إيمان الفلاسفة كان حصيلة البحث الفكري والاستدلال النظري أمّا إيمان الأولياء فهو نتيجة الرؤية القلبية وهذا الأمر ينتج الاختلاف في نوعية العلاقة، فعلاقة الأولياء هي علاقة المحبة، والعشق، والتوكُّل، والحضور، والمناجاة، والمجالسة، أمّا علاقة الفلاسفة فهي من نوع العلاقة العلمية والذهنية»[(٢)].

يقول الشيخ الشبستري: «ليس الإيمان بأن يكون للشخص عقيدة بأنَّ لهذا العالم خالق، فهذه عقيدة ولكنَّها ليست إيماناً، . . الإيمان هو

---

(١) الآداب المعنوية للصلاة.
(٢) التوحيد: ص٢٤٩.

أن يقع الإنسان مخاطباً لله تعالىٰ، ومن يسمع هذا الخطاب الإلٰهي هو المؤمن، لا من يجمع سلسلة من أُصول العقائد الجافة في الذهن... وأساساً فلم تردّ كلمة «عقيدة» في القرآن، ولو تصفَّحت حالات المؤمنين في القرآن لرأيت أنَّه يتحدَّث عن حالات وجوديَّة»[١].

كيف نعبد الله؟

عن رسول الله ﷺ: «**اعبد الله كأنَّك تراه، وإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**»[٢].

من المفارقات العجيبة في حياة المتدينين أنَّهم يمضون حياتهم في الصلاة وتلاوة القرآن وقراءة الدُّعاء وغير ذلك من العبادات ثمَّ يختموا حياتهم كما بدأوها، وكأنَّ هذه العبادات لم تكن إلّا مجرَّد طقوس دينية وإسقاطاً للواجب فكما أنَّ البدن لا يرتوي إلّا بالماء الحقيقي دون مجرد الاسم فكذلك القلب لا يرتوي بمجرد الكلمات وإنَّما بما وراء الكلمات من المعاني والحقائق، ولمعالجة هذه الحالة لا بدَّ من تصحيح العبادة، ويتم ذلك بأُمور أهمها:

أوَّلاً: الشعور بالحضور بين يدي الله تعالىٰ أثناء العبادة وخارجها، وهذا الشعور يستدعي الإحساس بجلال الله وجماله وعظمته وكبريائه ومحبته، وبالتالي يشعر العابد أنَّه يرى الله تعالىٰ في كل أحواله وتقلباته.. ومثاله في حياتنا اليومية أن يحضر الإنسان أمام السلطان والحاكم.. وإلى هذا المعنى يشير الحديث الشريف: «اعبد الله كأنَّك تراه».

عن أبي حمزة الثمالي: «رأيت علي بن الحسين عليه السلام يصلّي

---

(١) المصدر نفسه: ٢٥٠.

(٢) الآداب المعنوية للصلاة: ص٨٠.

فسقط رداؤه عن منكبه فلم يسوّه حتّى فرغ من صلاته فسألته: فقال عليه السلام: ويحك أتدري بين يدي من كنت؟»[١].

وإن لم يتمكن من هذا الإحساس يتنزل إلى الدرجة الثانية وهي:

ثانياً: الشعور بحضور الله تعالى عنده وهو تعالى الحاضر في كل مكان، وما هذا الكون إلّا محضر لله تعالى قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنعام: ٣].

وهذا المعنى يقتضي الإحساس برقابة الله تعالى في كل الأحوال ومثاله في حياتنا أن يشعر الإنسان أنَّ هناك من يراقبه في أحواله وتقلباته، فكما أنَّه يستحي من النَّاس فليستحِ من ربّه.

رُوِيَ أنَّ زليخا لما همَّت بيوسف عليه السلام طرحت ثوباً على صنم كان في الغرفة فقال لها يوسف عليه السلام: ما صنعت؟ قالت: طرحت عليه ثوباً لأنّي أستحي أن يرانا فقال عليه السلام: فأنت تستحين من صنمك ولا أستحي من ربّي»[٢].

وإلى هذا المعنى يشير الحديث الشريف: «وإن لم تكن تراه فإنَّه يراك».

ويشبه هذا الحديث ما جاء عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «خفِ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك»[٣].

---

(١) الآداب المعنوية للصلاة: ص٨٠.
(٢) ميزان الحكمة: مادة «عبادة»، ج٣، ص١٧٩٩.
(٣) دروس في التفسير للفهري: ج٢، ص١٢٥.

الحذر من النِّعم الإلٰهيَّة

عن الإمام علي عليه السلام :

«أيُّها النَّاس ليركم الله في النعمة وجلين كما يراكم من النقمة فرقين، إنَّه من وُسّع عليه في ذات يده فلم يرَ ذلك استدراجاً فقد آمن مخوفاً، ومن ضُيِّق عليه في ذات يده فلم يرَ ذلك اختباراً فقد ضيَّع مأمولاً»(١).

❊ ❊ ❊

الدعوة إلى الحذر:

الغالب أن يكون الخطاب في مناسبات العزاء والحزن مشتملاً علىٰ معنى الابتلاء بالمصائب، وكيفيَّة مواجهتها، والصَّبر عليها، . . ومن النادر أن يكون الكلام عن معنىٰ الابتلاء بالنِّعم الإلٰهيَّة وكيفيَّة مواجهتها، مع أنَّها لا تقل خطورة عن الابتلاء بالمصائب. . .

من هنا جاءت كلمة الإمام علي عليه السلام : «أيُّها النَّاس ليركم الله في النعمة وجلين. كما يراكم من النقمة فرقين».

---

(١) نهج البلاغة: قصار الحكم رقم ٣٥٨.

فهو عليه السلام يقول للنَّاس: كما تخافون من عقوبة الله تعالىٰ عند نزول البلاء كذلك فلتخافوا من عقوبة الله تعالىٰ عند نزول النعم، فقد تكون النعم الإلٰهيَّة نقمة وعذاباً واستدراجاً...

لذلك ينبغي أن نقف عند النعم الإلٰهيَّة لنتعرَّف علىٰ حقيقتها وكيفيَّة مواجهتها والتصرُّف حيالها...

أقسام النعم:

تنقسم النعم الإلٰهيَّة إلى قسمين:

الأوَّل: النعم المعنوية: وهي المتعلقة بالجانب الروحي الَّذي يوصل الإنسان إلىٰ كماله وسعادته كنعمة الإسلام، والقرآن، والولاية، والتقوى والمحبة...

فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ما أنعم الله عزَّ وجلَّ على عبد أجلّ من أن لا يكون في قلبه مع الله غيره»[١].

الثاني: النعم المادّيَّة: وهي المتعلقة بالجانب المادي، كالأكل والشرب، والصحَّة، والأمن، وما أشبه قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾ [فاطر: ٣].

ولا شكّ أنَّ النِعم الَّتي يُخاف منها هي «النعم المادّيَّة» أمَّا النعم المعنوية فهي ممَّا يفرح بها الإنسان لأنَّها هدف وجوده علىٰ الأرض.

لذا جاء في بلاء النعم: قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [الأنفال: ٢٨].

---

(١) عدة الداعي، ص٢١٩.

وعن رسول الله ﷺ: «ثلاث فاتنات، الشعر الحسن، والوجه الحسن، والصوت الحسن»[1].

من هنا يُدرك الإنسان أنَّ النعم الإلٰهيَّة ليست دليلاً علىٰ رضى الله عنه، بل قد تكون غضباً من الله عليه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

سبب الحذر من النعم:

قد يُقال: لماذا الخوف من النعم الإلٰهيَّة؟

الجواب: لعدَّة أُمور:

أوَّلاً: إنَّ ما نراه نعمة في الظاهر قد يكون نقمة في الواقع، فقد تكون الأموال والأولاد ـ في الظاهر ـ زينة ونعمة، ولكنَّها في الواقع سبباً للوقوع في الفساد والحرام، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

ثانياً: أن يكون هناك تقصير في مقابلة النعمة بـ«الشُّكر» فغالباً ما ينسىٰ الإنسان شكر الله تعالى في الرخاء، وكما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

---

(١) ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٣٦٣.

ومن أخوف الآيات قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء: ٨٣] فهذا الإنسان المغرور يُعرض عن ربّه عند النعم ولا يلتفت إلى عبادته وشكره، والحري به أن يشكره.

يُروى أنّه عندما توفّيت زوجة سلمان الفارسي حزن عليها، فكتب له الإمام علي عليه السلام: «بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم، قد بلغني يا أبا عبد الله سلمان مصيبتك بأهلك، وأوجعني بعض ما أوجعك، ولعمري لمصيبةٌ تُقدِّم أجرها خير من نعمةٍ تُسأل عن شكرها ولعلَّك لا تقوم بها، والسلام عليك»[1].

ثالثاً: أن لا يُحافظ على الحدود الشرعية كالخمس والزكاة ومساعدة المحتاجين.

عن الإمام علي عليه السلام: «يابن آدم إذا رأيت ربّك يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره».

رابعاً: إنَّ النعم قد تُلهي الإنسان عن ربّه، وتخدِّره فلا ينتبه لآخرته... فقد جعل الله تعالى الألم والوجع ليكونا تحذيراً وإعلاماً بوجود المرض ليذهب المريض إلى الطبيب فيتداوىٰ، هذا في الأمراض الجسديَّة، أمَّا الأمراض النفسيَّة فليست مصحوبة بالألم مباشرة ولعلَّ الإنسان مع كلّ ذلك يشعر باللذَّة والفرح... وهنا تكمن الخطورة حيث يتفاقم البلاء وتمرض الرُّوح وتموت.

خامساً: أن لا يُبتلى بالاستدراج، وهو التوسعة وزيادة النعم عقوبة على المعصية، فكما أنَّ الإنسان يستدرج الحيوان من خلال

(١) مستدرك نهج البلاغة: ج١٠، ص١٤.

الطعام الطيب فإنَّ الله تعالىٰ يستدرج الكافر من خلال ما يعطيه من مال ومتاع دنيوي، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨].

عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «الاستدراج من الله سبحانه لعبده أن يسبغ عليه النعم ويسلبه الشُّكر»[١].

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام في الاستدراج: «هو العبد يذنب الذَّنب فتجدّد له النعمة معه فتلهيه تلك النعمة عن الاستغفار من ذلك الذَّنب»[٢].

ولهذا قالت السيِّدة زينب عليها السلام في خطابها ليزيد: «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السَّماء أنَّ بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة؟ وإنَّ ذلك لعظم خطرك عنده؟.. فمهلاً مهلاً أنسيت قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨].

سادساً: أن لا نُبتلى بالغرور.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «كم من مغرور بما قد أنعم الله عليه...»[٣].

لهذا كلّه كان تحذير الإمام علي عليه السلام من الفرح بالنعم... جاء في الحديث القدسي: «يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً فقُلْ: مرحباً بشعار الصَّالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عُجّلت عقوبته»[٤].

---

(١) ميزان الحكمة: مادَّة «نعمة»، ج٤، ص٣٣١٦.
(٢) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص١٠٦.
(٤) نهج الصباغة: ج١٤، ص٥٩٤.

الضيافة الإلٰهيَّة

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«إنَّكم وما تأمُلون من هذه الدُّنيا أثوياء مؤجَّلون»[١].

* * *

الضيافة الإلٰهيَّة:

من البديهي أنَّ لكلّ ضيافة أركاناً ثلاثة هي: ١ ـ المضيف، ٢ ـ والضيوف، ٣ ـ والمأدبة... فلو أنَّ ملكاً أراد أن يُكرم إنساناً فإنَّه يهيىء له أسباب الضيافة من المأكول والمشروب والاستراحة وما أشبه ثمَّ يدعوه فيُحسن استضافته.

وقد أراد الله تعالى أن يُكرم عباده فخلق لهم الجنَّة ودعاهم إليها وكما عن الإمام علي عليه السلام: «خلقْتَ داراً ـ أي دار الآخرة ـ وجعلت فيها مأدبة، مشرباً، ومطعماً، وأزواجاً، وخدماً، وقصوراً، وأنهاراً، وزروعاً، وثماراً، ثمَّ أرسلت داعياً يدعو إليها»[٢].

ويتمثَّل الدَّاعي إلىٰ الجنَّة بالأنبياء والأولياء عليهم السلام وعلىٰ رأسهم

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «الدُّنيا».
(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٧.

سيِّدهم وخاتمهم النَّبيّ محمَّد ﷺ ففي الحديث أنَّ «مثله كمثل من بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً، فمن أجاب الدَّاعي دخل الدَّار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الدَّاعي لم يدخل الدَّار ولم يأكل من المأدبة، فالدَّار الجنَّة والدَّاعي محمَّد ﷺ»[(١)].

ولكنَّه سبحانه وتعالىٰ جعل محطةً مؤقتة يمرُّ بها ضيوفه ليختبرهم في استحقاقهم الدخول في الضيافة الكبرىٰ، وهذه المحطة هي دار الدُّنيا، فلنفترض أنَّ ملكاً دعا جماعة إلىٰ قرية ليسكنوا فيها ويتنعَّموا بما احتوت من قصور وأشجار ثمَّ وقبل وصولهم إلى تلك القرية اختار لهم مكاناً ينزلون فيه، فإن أحسنوا الضيافة في هذا المكان المؤقت استحقوا الدخول إلىٰ القرية، وإن أساؤوا ذلك وانشغلوا بهذا المكان عن القرية فلن يستحقوا الدخول إليها...

وهكذا حالنا في الدخول إلىٰ الجنَّة الَّتي هي الضيافة الكبرى، فقد خلق الله تعالىٰ لنا محطة مؤقتة ليختبرنا فيها وهي دار الدُّنيا، فعن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «أيُّها النَّاس إنَّ منْ في الدُّنيا ضيف وما في أيديهم عارية، وإنَّ الضيف مرتحل، والعارية مردودة...»[(٢)].

وعن الإمام علي عليه السلام: «إنَّكم وما تأملون من هذه الدُّنيا أثوياء مُؤجلّون»[(٣)]. أثوياء: أي ضيوف، ومنه ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ [يُوسُف: ٢١] أي ضيافته فإنّ أحسنّا الضيافة في الدنيا فزنا بحُسن الضيافة في الآخرة.

أقسام الضيافة:

تنقسم ضيافة الدُّنيا إلى قسمين:

---

(١) حياة أمير المؤمنين للصدر: ص٣١٧.

(٢) ميزان الحكمة: مادَّة «الدُّنيا».

(٣) المصدر نفسه.

الضيافة العامَّة: وهي شاملة لكلِّ النَّاس ـ وقد جعل فيها سبحانه مأدبة عامَّة للجميع، وهذه المأدبة على أنواع:

ماديَّة، كالطعام والشراب واللّباس وزينة الحياة الدُّنيا.

ومعنوية: وهي القرآن الكريم، فعن رسول الله ﷺ: «إنَّ هذا القرآن مأدبة الله فتعلَّموا مأدبته ما استطعتم»[١].

والصلاة: فعن رسول الله ﷺ: «ألا إنَّ الصلاة مأدبة الله في الأرض، قد هنأها لأهل رحمته في كل يوم خمس مرَّات»[٢].

ولهذه الضيافة شروط وآداب، أهمها: معرفة الله تعالىٰ: فلو أنَّ إنساناً دُعي بصحبة صديقه إلىٰ مأدبة لا يعرف صاحبها ثمَّ وجد مائدة ضخمة وحفاوة وتكريماً فإنَّه سيسعى للتعرُّف إلىٰ صاحب الدعوة كي يقدِّم له الشُّكر... فكيف بنا وقد دُعينا إلىٰ مائدة الدُّنيا وبما فيها من ملذَّات وشهوات أفلا ينبغي لنا أن نتعرَّف إلىٰ خالقها وموجدها والدَّاعي إليها..؟! ثمَّ نقوم بعد ذلك بما يأمرنا به وينهانا عنه لنحسن بذلك الضيافة، في الحديث القدسي: «أهل طاعتي في ضيافتي، وأهل شكري في زيادتي».

فإن أحسن الإنسان الضيافة الصغرى فقد استحقّ الضيافة الكبرى، وإن أساء الضيافة الصغرىٰ ونسي الضيافة الكبرى وانشغل بالملذَّات والشهوات والصراع مع النَّاس وغير ذلك فقد حُرم الجنَّة...

الضيافة الخاصَّة:

ولأنَّ رحمة الله تعالىٰ واسعة فقد جعل محطات خاصَّة للعصاة ولغيرهم من الأولياء ليتقربوا إلى ربّهم عزّ وجلّ، وهذه المحطات هي:

---

(١) الوسائل: ج٦، ص١٦٨.

(٢) الصلاة: ص٢٨.

الضيافة الخاصَّة: وتتمثَّل بـ:

أ ـ **الضيافة المكانيَّة**: كالمساجد والمقامات المقدَّسة، وأهمها: «الكعبة المشرَّفة» قال تعالىٰ: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] فالحج إلى بيت الله الحرام مكان للضيافة الإلٰهيَّة، فعن الإمام علي عليه السلام: «الحاج والمُعتمر وفد الله، وحق على الله أن يُكرم وفده ويحبوه المغفرة».

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّ ضيفان الله عزَّ وجلَّ رجل حجَّ واعتمر فهو ضيف الله حتَّى يرجع إلى منزله».

وكان الإمام الحسن عليه السلام إذا دخل المسجد وقف بالباب وقال عليه السلام: «إلٰهي ضيفك ببابك، يا محسن قد أتاك المسيء».

ب ـ **الضيافة الزَّمانيَّة**: كليلة الجمعة، وشهر رمضان المبارك..

ولذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «هو شهر دُعيتم فيه إلىٰ ضيافة الله».

وبالمقارنة بين الضيافة المكانيَّة والضيافة الزَّمانيَّة نجد أنَّ بينهما تشابهاً كبيراً، ففيهما يجب علىٰ العبد أن يمتنع عن المحرمات وعن بعض المباحات كترك الطعام والشراب والجماع في شهر رمضان، وترك النكاح وشمّ الطيب وقتل الهوام والنظر في المرآة في الحج.

وفي نهاية كلّ منهما ينال الإنسان جائزة الضيافة وهي: «العتق من النَّار» ويقع ذلك في يوم عيد الفطر ـ الَّذي هو نهاية الضيافة الزَّمانيَّة ـ وفي يوم عيد الأضحىٰ ـ الَّذي هو نهاية الضيافة المكانيَّة ـ.

ضيافة القبر:

وبعد الانتهاء من الضيافة الصغرىٰ تبدأ مرحلة الضيافة الكبرىٰ

وذلك بـ«الموت» الَّذي هو بوّابة الدخول إلىٰ القيامة الكبرىٰ، ومنه يدخل الإنسان في «ضيافة القبر» الَّذي هو برزخ بين الضيافتين.

قال الإمام علي عليه السلام في مناجاة الله تعالىٰ: «إلٰهي كأنِّي بنفسي وقد أُضجعت في حفرتها، وانصرف عنها المشيِّعون من جيرتها، وبكىٰ الغريب عليها لغربتها، وجاد بالدموع عليها المشفقون من عشيرتها، وناداها من شفير القبر ذوو مودَّتها، ورحمها المعادي لها في الحياة عند صرعتها، ولم يخف على الناظرين إليها عند ذلك ضرّ فاقتها، ولا علىٰ من رآها قد توسَّدت الثَّرىٰ عجز حيلتها.

فقلتَ: ملائكتي، فريد نأىٰ عنه الأقربون، ووحيد جفاه الأهلون، نزل بي قريباً، وأصبح في اللحد غريباً، وقد كان لي في دار الدُّنيا داعياً، ولنظري إليه في هذا اليوم راجياً، **فتحسن عند ذلك ضيافتي،** وتكون أرحم بي من أهلي وقرابتي»[١].

وقال عليه السلام: «إلٰهي لقد رجوت ممَّن ألبسني بين الأحياء ثوب عافيته، ألَّا يُعرّيني منه بين الأموات بجود رأفته، ولقد رجوت ممَّن تولَّاني في حياتي بإحسانه أن يشفعه لي عند وفاتي بغفرانه.

يا أنيس كلّ غريب آنس في القبر غربتي، ويا ثاني كلّ وحيد ارحم في القبر وحدتي، ويا عالم السرّ والنجوى، ويا كاشف الضُّرّ والبلوى، كيف نظرك لي من بين سكَّان الثَّرىٰ؟! وكيف صنيعك إليَّ في دار الوحشة والبلىٰ؟! فقد كنتَ بي لطيفاً أيَّام حياة الدُّنيا»[٢].

قيل: إنَّ الإمام علي عليه السلام كتب على كفن سلمان الفارسي هذه الأبيات لتكون أماناً من عذاب القبر:

---

(١) موسوعة الإمام عليه السلام: ص٢٥٤.

(٢) المصدر السابق.

يا قاهراً بالمنايا كلّ قهّار   بنور وجهك اعتقني من النّار
إليك أسلمني من كان يعضدني   من أهل ودّي وأصحابي وأنصاري
في قعر قبر مظلمة غبراء موحشة   فرداً وحيداً غريباً تحت أحجار[١]

يُقال: إنَّ أعرابياً تُوفّاه الله فشرع أولاده يغسّلونه ويكفّنونه إلّا أنّهم لم يعرفوا الصلاة عليه، وبينما هم في حيرة من أمرهم، وإذا بأعرابي راكباً على جمل، فطلبوا منه الصلاة على الجنازة، فتقدَّم وصلّىٰ ثمَّ دفنوا الميت. وفي اللّيل رأىٰ أحد أبناء الرجل والده في المنام فسأله عن أحواله بعد الموت فقال: نفعتني صلاة الأعرابي فاستيقظ الولد وأخذ يبحث عن الأعرابي ليسأله عن الصلاة: فلما وجده سأله عنها، فقال الأعرابي: الحقيقة أنّي لا أعرف كيفيَّة الصلاة ولكنّي وقفت وقلت: يا ربّ إنَّك كريم وهذا ضيفك الفقير... لو نزل عندي لقدَّمت له كلّ ما أملك وذبحت له جملي هذا مع أنّي لا أملك سواه، وأنت أكرم منّي وأنت أرحم الرَّاحمين».

ضيافة الجنَّة:

بعد التوفيق والفوز بضيافة الدُّنيا تأتي النتيجة وهي: إكرام العبد بالضيافة الكبرىٰ في الجنَّة قال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥﴾ [المعارج: ٣٥].

عن رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة ينادي المنادي: أين أضياف الله؟ فيؤتى بالصائمين، ويُنادي: أين رعاة الشَّمس والقمر؟ فيؤتى بالمؤذّنين فيُحملون علىٰ نُجب من نور وعلى رؤوسهم تاج الكرامة ويُذهب بهم إلى الجنَّة»[٢].

---

(١) الكشكول العجيب: ج١، ص٦٨.
(٢) المستدرك: ج٤، ص٢٢.

الضيافة في رحاب الإمام الحسين (ع):

عن الإمام الصادق عليه السلام: «... وما من عبد يُحشر إلّا وعيناه باكية إلّا الباكين على جدي فإنّه يُحشر وعينه قريرة والبشارة تلقّاه، والسرور على وجهه، والخلق يُعرضون وهم حداث الحسين عليه السلام تحت العرش وفي ظل العرش لا يخافون سوء الحساب يُقال لهم: ادخلوا الجنّة، فيأبون ويختارون مجلسه وحديثه، وإنّ الحور لترسل إليهم إنّا قد اشتقناكم مع الولدان المخلّدين فما يرفعون رؤوسهم لما يرون في مجلسهم من السرور والكرامة»[١].



(١) منهاج البراعة ج٦ ص١٢٠.

المُلك

سمع الإمام علي عليه السلام رجلاً يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون فقال عليه السلام:

«يا هذا إنّ قولنا: إنّا لله إقرار على أنفسنا بالمُلك وقولنا: إنّا إليه راجعون إقرار على أنفسنا بالهلاك»[1].

* * *

تُعتبر هذه الكلمة من الكلمات العظيمة لما فيها من الإقرار والاعتراف بالمبدأ والمعاد، ولهذا قال النّبيّ محمّد صلى الله عليه وآله: «أُعطيت هذه الأُمّة شيئاً لم يعطه الأنبياء قبلها وهو إنّا لله وإنّا إليه راجعون»[2] وللوقوف على معناها نتكلّم في ثلاثة أُمور:

أوّلاً: الإقرار والتسليم:

إنّ هذه الكلمة تُقال ـ عادة ـ عند المصائب والابتلاءات،

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم ٩٩.
(٢) مواهب الرّحمٰن: ج٢، ص١٧١.

ليستحضر العبد من خلالها أنّه مملوك لله تعالى، وليس له أن يعترض على مالكه، بل هو مُسلّم له ومقرّ بملكيته وربوبيته.

عن النَّبيِّ محمّد ﷺ أنّه قال: «أربع من كنَّ فيه كان في نور الله الأعظم: من كان عصمة أمره شهادة أن لَا إِلٰهَ إِلَّا الله وأنِّي رسول الله، ومن إذا أصابته مصيبة قال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ومن إذا أصاب خيراً قال: الحمد لله، ومن إذا أصاب خطيئة قال: أستغفر الله وأتوب إليه»[١].

وعن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالىٰ لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك، واسترجع، فيقول الله تعالىٰ: ابنوا لعبدي بيتاً في الجَنَّة، وسموه بيت الحمد»[٢].

وعن بعضهم قال: خرجت أنا وصديق لي إلى البادية، فضللنا الطريق، فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق فقصدنا نحوها فسلَّمنا، فإذا بامرأة تردُّ علينا السَّلام، وقالت: ما أنتم؟ قلنا: ضالون، فأتيناكم فاستأنسنا بكم، فقالت: يا هؤلاء، ولُّوا وجوهكم عنِّي، حتَّى أقضي من حقكم ما أنتم له أهل، ففعلنا، فألقت لنا مسحاً، وقالت: اجلسوا عليه إلى أن يأتي ابني.

ثمَّ جعلت ترفع طرف الخيمة وتردَّها، إلى أن رفعته مرَّة فقالت: أسأل الله بركة المقبل، أمَّا البعير فبعير ابني، وأمَّا الراكب فليس هو به، قال: فوقف الراكب عليها، وقال: يا أُمّ عقيل، عظَّم الله أجرك في عقيل ولدك، فقالت: ويحك مات!؟ قال: نعم، قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر فقالت: انزل واقض ذمام القوم،

---

(١) مسكن الفؤاد: ص١٠١.

(٢) المصدر السابق: ص١٠٢.

ودفعت إليه كبشاً فذبحه وأصلحه، وقرب إلينا الطعام، فجعلنا نأكل، ونتعجب من صبرها.

فلمّا فرغنا خرجت إلينا وقالت: يا قوم، هل فيكم منْ يحسن من كتاب الله شيئاً؟ فقلت: نعم، قالت: فاقرأ عليَّ آيات أتعزَّىٰ بها عن ولدي، فقلت: يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]. قالت: بالله إنَّها في كتاب الله هكذا؟ قلت: والله إنَّها لفي كتاب الله هكذا، فقالت: السَّلام عليكم، ثمَّ صفَّت قدميها وصلَّت ركعات، ثمَّ قالت: اللَّهمَّ إنِّي قد فعلت ما أمرتني به، فأنجز لي ما وعدتني به، ولو بقي أحدٌ لأحدٍ ـ قال: فقلت في نفسي تقول: لبقي ابني لحاجتي إليه، فقالت ـ: لبقي محمَّد ﷺ لأُمَّته.

ولكي ينال الإنسان أجر وثواب هذه الكلمة لا بدَّ أن يُدرك معناها وهو:

«إنَّا لله»:

إقرار ملكية الله تعالى لعباده ـ وهو عين التوحيد في المالكية ـ فالإنسان وما عنده من أموال ومتاع والدُّنيا وما فيها هو ملك لله تعالىٰ.

فعن الإمام علي عليه السلام: «إنَّا لا نملك مع الله تبارك وتعالىٰ شيئاً، ولا نملك إلَّا ما ملَّكنا، فمتى ملَّكنا ما هو أملك به مِنَّا كلَّفنا، ومتى أخذه منَّا وضع تكليفه عنَّا»[1].

---

(١) نهج البلاغة: حكمة ٤٠٤.

وهذه الكلمة إقرار بملكية الله تعالى للآخرة أيضاً، فهو تعالىٰ: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤] وهو الّذي يقول بعد فناء الخلق: ﴿...لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ويتفرع عن ذلك الانقياد والطاعة والتسليم لله تعالى، فالعبد لا يعترض على مالكه.

من هنا قال الإمام الحسين عليه السلام لرجلٍ عاصٍ يريد موعظة: «افعل خمسة أشياء وأذنب ما شئت.

فأوّل ذلك: لا تأكل من رزق الله وأذنب ما شئت.

والثاني: أخرج من ولاية الله وأذنب ما شئت.

والثالث: أُطلب موضعاً لا يراك الله وأذنب ما شئت.

والرابع: إذا جاء ملك الموت ليقبض روحك فادفعه عن نفسك وأذنب ما شئت.

والخامس: إذا أدخلك مالكٌ في النّار فلا تدخل في النّار وأذنب ما شئت»[١].

وسُئل الإمام الصّادق عليه السلام عن حقيقة العبودية، فقال عليه السلام: «ثلاثة أشياء: ١ ـ أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله مُلكاً، لأنَّ العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المالَ مالُ الله يضعونه حيث أمرهم الله به. ٢ ـ ولا يدبِّر العبد لنفسه تدبيراً. ٣ ـ وجملة اشتغاله فيما أمره الله به ونهاه عنه»[٢].

ورُوي أنَّ الإمام موسى الكاظم عليه السلام مرَّ يوماً بباب دار بشر

---

(١) لُمعات الحسين عليه السلام: ص١٦.

(٢) بحار الأنوار: ج١، ص٢٢٤.

الحافي ببغداد فسمع أصداء آلاتٍ وأصوات رقص وغناء تخرج من البيت، واتُفق أنَّ جارية خرجت من الدار وفي يدها مكنسة طرحتها على الباب، فسألها عليه السلام: صاحب هذه الدار حرٌّ أم عبد؟

قالت: هو حُرّ.

قال: حقّاً ما قلت؟! فلو كان عبداً لخشي من سيِّده.

فلمَّا رجعت سألها بشر عن تأخرها فقصَّت عليه ما جرى، فما كان منه إلَّا أن خرج حافياً حتَّى أدرك الإمام واعتذر وبكى وتاب على يديه[١].

يُروى أنَّ السببَ في يقظة أحد العظماء من نوم الغفلة هوكلامٌ سمعه من غلامه. فقد رأى في السوق غلاماً وأراد شراءه.

فتقدَّم منه وسأله عن اسمه.

فقال الغلام: سمِّني ما شئت.

فسأله: أتريد أن أشتريك؟

قال الغلام: إذا شئت.

قال: وماذا تأكل؟

أجاب الغلام: أيما تطعمني.

فقال: وماذا تلبس؟

قال الغلام: أيما تلبسني.

فقال: ما هذه الأجوبة الَّتي تقول؟!

فقال الغلام: سيِّدي... وما شأن العبد بما يريد وما لا يريد؟

فتنبَّه الرجل وضرب على رأسه وقال: يا ليتني كنت هكذا مع مولاي الحقيقي يوماً واحداً.

---

(١) منتهى الآمال: ج٢، ص٢٤٩.

«وإنَّا إليه راجعون»:

إقرار بالهُلك والعود إلى الله تعالىٰ في يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨].

فكلّ شيء هالك إلّا وجه الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦-٢٧].

رُويَ عن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام: «يموت أهل الأرض حتَّى لا يبقى أحد، ثمَّ يموت أهل السَّماء حتَّى لا يبقى أحد إلّا ملك الموت، وحملة العرش، وجبرائيل، وميكائيل.

فيجيء ملك الموت حتَّى يقوم بين يدي الله تعالىٰ، فيقول له: من بقي؟ وهو أعلم.

فيقول: يا ربِّ، لم يبقَ إلّا ملك الموت، وحملة العرش، وجبرائيل وميكائيل، فيقول: قل لجبرائيل وميكائيل، فليموتا؛ ثمَّ يجيء ملك الموت حتَّى يقف بين يدي الله فيُقال له: مَنْ بقي؟ وهو أعلم، فيقول: يا ربِّ لم يبقَ إلّا ملك الموت، وحملة العرش، فيقول: قل لحملة لعرش: فليموتوا. ثمَّ يجيء مكتئباً حزيناً، لا يرفع طرفه، فيُقال له: مَنْ بقي؟ فيقول: يا ربِّ، لم يبقَ إلّا ملك الموت، فيُقال له: مُتْ يا ملكَ الموت، فيموت، ثمَّ يأخذ الأرض بيمينه والسَّماوات ويقول: أين الَّذين كانوا يدعون معي شركاً؟ أين الَّذين كانوا يجعلون معي إلٰهاً آخر»[١].

---

(١) نور الثقلين: ج١، ص٤١٨.

ثمَّ يعود النَّاس إلى الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [الغَاشِيَة: ٢٥].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ [العَلَق: ٨].

يقول السيِّد السبزواري رحمه الله: «والرجوع إلى الله تعالىٰ إمَّا غير اختياري أو اختياري، والأوَّل هو المعاد والثاني هو أن يهيىء الإنسان نفسه للحضور لدى الحي القيُّوم العالم بالسرائر والضمائر حضور مجازاة لما فعل، لا مطلق الحضور، إذ الجميع حاضر لديه تعالىٰ بهذا النحو من الحضور»[1].

فإذا أدرك الإنسان أنَّه راجع إلى الله تعالىٰ فلا بدَّ له من العمل الصالح في الدُّنيا ليقدِّمه بين يدي مولاه، ولهذا لا يكفي مجرَّد الاسترجاع بالقول بل لا بدَّ من الاسترجاع العملي.

فائدة إذا كان الرجوع إلى الله تعالى هو غاية الخلق، فمن العيب على الإنسان أن يقول: ربِّ ارجعني إلى الدنيا.



(١) مواهب الرَّحمٰن: ج١، ص١٧٢.

همّ الدُّنيا والآخرة

جاء في وصية الإمام علي عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام:

«فإذا أيقنت أنَّ قد صفا قلبك فخشع، وتمّ رأيك فاجتمع، وكان همّك في ذلك همّاً واحداً فانظر فيما فسَّرت لك»(١).

* * *

ما هو همّك؟

قد يُطرح أمامنا السؤال التالي: ما هي الأشياء الَّتي تهتم بها وتجعلها محوراً في حياتك؟

وعند التدبُّر في الإجابة سنجد أنَّ الأشياء الَّتي نعيش همّها هي أُمور مادية كالطعام والشراب والمسكن والملبس والمركوب والأولاد وما أشبه، وقلَّما نعيش همّ الأُمور الآخروية كنيل الدرجات العُليا في الجنَّة وجوار النَّبي وآله عليهم السلام . . .

من هنا كان من الضروري تصحيح هذه النظرة الضيقة للحياة

(١) نهج البلاغة، من كلام له (٣١).

وتوجيه الهمَّة نحو معالي الأُمور وما فيها خير الدُّنيا والآخرة، ولذا كان هذا البحث:

قيمة الإنسان:

لا شكَّ أنَّ علوَّ الهمَّة، من الأخلاق الرفيعة الَّتي تتحلَّى بها النُّفوس العظيمة، وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية» و«قدر الرجل على قدر همَّته»[١].

فما من إنسان بلغ مبالغ العظمة والكمال إلَّا وكان يتحلَّىٰ بهمة عالية تميِّزه عن غيره من بقية الرِّجال، وإلَّا فما الَّذي ميَّز بعض النَّاس بالوصول إلى مراتب القيادة والرئاسة والعظمة في مختلف مجالات الحياة.

ويُقابل هؤلاء مَنْ كان يعيش هموماً دنيئة، فإنَّ صفاتهم وأحوالهم ستكون بقدر همَّتهم. وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «من كانت همَّته بطنه فقيمته ما يخرج منه».

ومن هنا، فقد حثَّت الشريعة الإسلامية على أن يعيش النَّاس الهِمَمَ العالية حتَّى يصلوا بأجمعهم إلى مصاف العظماء والكبار.

عن الإمام علي عليه السلام: «قبيح بذي العقل أن يكون بهيمة وقد أمكنه أن يكون إنساناً، وأن يكون إنساناً وقد أمكنه أن يكون ملكاً، وأن يرضى لنفسه بقنية معارة وحياة مستردة وله أن يتخذ قنية مخلدة وحياة مؤبدة»[٢].

---

(١) ميزان الحكمة: مادَّة «الهمَّة»، ج٤، ص٣٤٦٨.

(٢) ألف حكمة: ص٩٩.

الهمم الدُّنيا والهمم العُليا:

من الطبيعي أنَّ الإنسان يحمل هِمَماً متعددة: فمنها المهم، ومنها الأهم، ومنها الداني ومنها العالي، ومنها الدنيوي ومنها الأخروي.

ولأنَّ الإنسان لا يستطيع أن يحقِّق كلّ ما يتمناه، فلا بدَّ أن يلاحظ الأُمور التالية:

أوَّلاً: ترتيب الأُمور حسب الأهمية: فعن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ رأيك لا يتسع لكلّ شيء ففرِّغه للمهم» وعنه عليه السلام: «من اشتغل بغير ضرورته فوَّته ذلك منفعته» و«من اشتغل بغير المهم ضيَّع الأهم» و«لا قربة بالنوافل إذا أضرَّت بالفرائض».

ثانياً: التركيز على الأمر الأهم: فعن الإمام علي عليه السلام: «... فإذا أيقنت أنَّ قد صفا قلبك فخشع وتمّ أمرك فاجتمع وصار همّك همّاً واحداً فانظر...».

ويقابل ذلك تشتُّت الأفكار والأهداف والهمم، ألَّا نرى أنَّ أشعة الشَّمس حين يتم تركيزها على شيء قابل للاشتعال من خلال الزجاج كيف تؤدِّي إلى احتراقه؟ بينما هي عاجزة عن ذلك بدون التركيز، وهكذا نجد البعض يحمل همّ الوصول إلى مراتب عالية في عدَّة مجالات، ولكنَّه لا يصل، وما ذلك إلَّا لتشتت أهدافه.

همّ الدُّنيا:

يعيش معظم النَّاس همّ الدُّنيا إلى درجة أنَّهم لا يفكِّرون ولا يقولون ولا يعملون إلَّا لها، فهي قبلتهم ومعشوقتهم ومحور حياتهم... فهم دائبون ليلاً ونهاراً على التفكُّر في البيع والشراء وقضاء الشهوات. هؤلاء هم الَّذين يقول الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران:

١٥٤] فلا همّ لهم إلّا ذواتهم وأموالهم وهم يقولون: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح: ١١].

هؤلاء المهتمون بالدُّنيا يعيشون الضيق والضنك في حياتهم وبعد مماتهم، فعن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «من أصبح والدُّنيا أكبر همّه فليس من الله في شيء، وألزم قلبه أربع خصال: همّاً لا ينقطع عنه أبداً، وشغلاً لا يخرج منه أبداً، وفقراً لا يبلغ غناه أبداً، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً»[1] وعن الإمام علي عليه السلام: «من كانت الدُّنيا همّه اشتدَّت حسرته عند فراقها» وعنه عليه السلام: «من كانت الدُّنيا أكبر همّه طال شقاؤه وغمّه».

إنَّ هؤلاء ظالمون لأنفسهم، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «شرار أُمَّتي الَّذين وُلدوا في النعيم وغُذوا به، همَّتُهم ألوان الطعام وألوان الثياب يتشدقون في الكلام»[2].

إنَّنا نرى بالعيان أنَّ الَّذين يتحولون إلى آلة للانتاج والاستهلاك ويشتغلون ليلاً نهاراً يؤذون أنفسهم ومحيطهم العائلي بسبب:

أ ـ **إهمالهم لأنفسهم** من الناحية الروحية والجسدية، فتجد البعض يُصاب بالأمراض الجسدية لكنَّه لا يذهب إلى الطبيب لأنَّه مستغرق بعمله، فضلاً عمَّا إذا أُصيب بالأمراض الروحية.

ب ـ **إهمال العائلة**، فالبعض لا يجد وقتاً للجلوس مع عائلته ومعرفة أحوالها ومشاكلها ممَّا ينعكس سلباً عليها.

حُكى أنَّه دخل طفل على والده الَّذي أنهكه العمل، فمن الصباح

---

(١) ميزان الحكمة مادة «الدُّنيا».

(٢) التنمية الاقتصادية: ص٥٧١.

إلى المساء وهو يتابع مشاريعه ومقاولاته، فليس عنده وقت للمكوث في البيت إلّا للأكل أو النوم.

فقال الطفل: لماذا يا أبي لم تعد تلاعبني، وتروي لي القصص؟ فقد اشتقت إليك. فما رأيك لو تعود إلى سابق عهدك معي اليوم؟

قال الأب: يا ولدي، لم يعد عندي وقت للَعب وضياع الوقت، فعندي من الأعمال الشيء الكثير ووقتي ثمين.

قال الطفل: أعطني فقط ساعة من وقتك، فأنا مشتاق إليك يا أبي.

فقال الأب: يا ولدي الحبيب أنا أعمل وأكدح من أجلكم، والساعة الّتي تريدني أن أقضيها معكم أستطيع أن أكسب فيها ما لا يقلّ عن مائة ريال، فليس لدي وقت لأضيعه معك، هيا اذهب والعب مع أُمّك.

تمضي الأيّام ويزداد انشغال الأب وفي أحد الأيّام يرى الطفل باب المكتب مفتوحاً فيدخل على أبيه.

يقول الطفل: أعطني يا أبي ٥ ريالات.

فيقول الأب: لماذا؟ فأنا أعطيك كلّ يوم فسحة خمس ريالات، ماذا تصنع بها؟ . . . هيا أغرب عن وجهي، لن أعطيك الآن شيئاً.

يذهب الابن وهو حزين، ويجلس الأب يفكّر في ما فعله مع ابنه، ويقرر أن يذهب إلى غرفته لكي يراضيه، ويعطيه الـ ٥ ريالات.

فرح الطفل بهذه الريالات فرحاً عظيماً، حيث توجه إلى سريره ورفع وسادته، وجمع النقود الّتي تحتها، وبدأ ويعدّها!

عندها تساءل الأب في دهشة، قائلاً: كيف تسألني نقوداً وعندك كلّ هذه النقود؟

فقال الطفل: كنت أجمع ما تعطيني للفسحة، ولم يبق إلّا خمس ريالات لتكتمل المائة، والآن خذ يا أبي هذه المائة ريال وأعطني ساعة من وقتك!![١].

همّ الآخرة:

ولأنَّ همّ الدُّنيا لا نفع فيه بل هو مشتمل على أضرار كثيرة، فلا بدَّ من توجيه الهمّ نحو معالي الأُمور وما فيه الحياة السعيدة والكريمة، والبقاء والخلود في الحياة، «من صحَّت معرفته انصرفت عن العالم الفاني نفسه وهمته» كما عن الإمام علي عليه السلام لهذا حثَّت الأحاديث الشريفة على أن يكون الهمّ تجاه الأُمور التالية:

أوَّلاً: تحصيل رضى الله وقربه ومحبته ومعرفته.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أصبح من أُمَّتي وهمّه غير الله فليس من الله»[٢].

عن الإمام علي عليه السلام: «من لم يكن همّه ما عند الله سبحانه لم يدرك مُناه».

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «القلب ثلاثة أنواع: قلب مشغول بالدُّنيا وقلب مشغول بالعُقبىٰ وقلب مشغول بالمولى، أمَّا القلب المشغول بالدُّنيا فله الشِّدَّة والبلاء، وأمَّا القلب المشغول بالعُقبىٰ فله الدرجات العُلى، وأمَّا القلب المشغول بالمولى فله الدُّنيا والعُقبىٰ والمولىٰ»[٣].

(١) نقلاً عن مجلة «الأبعاد الخفيَّة».
(٢) أسرار الصلاة: ص٨٥.
(٣) ميزان الحكمة: مادَّة «الهمَّة»، ج٤، ص٣٤٧٤.

ثانياً: الآخرة: قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩].

عن الإمام علي عليه السلام: «اجعل همّك لآخرتك وحزنك على نفسك، فكم من حزين وفد به حزنه على سرور الأبد، وكم من مهموم أدرك أمله» وعنه عليه السلام: «واشغلوا أنفسكم من أمر الآخرة بما لا بدَّ لكم منه».

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «اقبلوا على ما كلفتموه من إصلاح آخرتكم، واصرفوا همّتكم بالقرب إلى طاعته».

وكان أبو ذرّ يقول: «... يا مبتغي العلم لا يشغلك أهل ولا مال عن نفسك»[(١)].

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «بكى أبو ذرّ من خشية الله تعالى حتَّى اشتكى بصره، فقيل له: يا أبا ذرّ لو دعوت الله أن يشفي بصرك فقال: إنِّي لمشغول وما هو أكبر همِّي قالوا: وما يشغلك عنه؟ قال: العظيمتان الجنَّة والنَّار».

ثالثاً: مجاورة النَّبيّ وآله في أعلى الدرجات.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله نزل على رجل بالطائف قبل الإسلام فأكرمه، فلمَّا أن بعث الله محمَّداً صلى الله عليه وآله إلى النَّاس قيل للرَّجل: أتدري من الَّذي أرسله الله عزَّ وجلَّ إلى النَّاس؟ قال: لا، قالوا له: هو محمَّد بن عبد الله يتيم أبي طالب وهو الَّذي كان نزل بك بالطائف يوم كذا وكذا فأكرمته.

قال: فقدم الرَّجل على رسول الله صلى الله عليه وآله وأسلم، ثمَّ قال له:

---

(١) ميزان الحكمة: مادّة «دُنيا»، ج٢، ص٩٢٠.

أتعرفني يا رسول الله؟ قال: من أنت؟ قال: أنا ربُّ المنزل الَّذي نزلت به بالطائف في الجاهليَّة يوم كذا وكذا فأكرمتك.

فقال له رسول الله ﷺ: مرحباً بك سل حاجتك، فقال: أسألك مائتي شاة برعاتها، فأمر له رسول الله ﷺ بما سأل.

ثمَّ قال لأصحابه: ما كان على هذا الرجل أن يسألني سؤال عجوز بني إسرائيل لموسى عليه السلام.

فقالوا: وما سألت عجوز بني إسرائيل لموسى؟ فقال: إنَّ الله عزَّ ذكره أوحى إلىٰ موسىٰ أن احمل عظام يوسف من مصر قبل أن تخرج منها إلى الأرض المقدَّسة بالشام فسأل موسى عن قبر يوسف عليه السلام فجاءه شيخ فقال: إن كان أحد يعرف قبره ففلانة، فأرسل موسى عليه السلام إليها فلمَّا جاءته قال: تعلمين موضع قبر يوسف عليه السلام؟ قالت: نعم قال فدلّيني عليه ولك ما سألت. قالت: لا أدلُّك عليه إلَّا بحكمي، قال: فلك الجنَّة، قالت: لا إلَّا بحكمي عليك، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى موسى لا يكبر عليك أن تجعل لها حكمها، فقال لها موسى: فلك حكمك، قالت: فإنَّ حكمي أن أكون معك في درجتك الَّتي تكون فيها يوم القيامة في الجنَّة.

فقال رسول الله ﷺ: ما كان على هذا لو سألني ما سألت عجوز من بني إسرائيل»[١].

رابعاً: تحصيل الأجر والثواب: فعن الإمام علي عليه السلام: «لا تهتمنَّ إلَّا فيما يكسبك أجراً ولا تسعَ إلَّا في اغتنام مثوبة»[٢].

(١) ميزان الحكمة: مادَّة «همَّة»، ج٤، ص٣٤٧٢.
(٢) غرر الحكم.

فإذا جعل الإنسان همَّه نحو الآخرة فقد وصل إلى معالي الأُمور وحاز السعادتين. فعن رسول الله ﷺ: «من أصبح وأمسىٰ والآخرة أكبر همَّه جعل الله الغنى في قلبه، وجمع له أمره، ولم يخرج من الدُّنيا حتَّى يستكمل رزقه» وفي حديث آخر: «وأتته الدُّنيا وهي راغمة».

الهمّ الأكبر:

كما تحمل الأُمّ همّ ولدها المفقود وتفكِّر فيه دائماً، وتسأل وتتحدَّث عنه في كلّ الأوقات، فينبغي أن يكون في قلوب المؤمنين نار متقدة نحو الله تعالىٰ كما يقول الإمام علي عليه السلام: «ولأبكينَّ عليك بكاء الفاقدين» كذلك نحو الآخرة بحيث لا يغفلون عنها لحظة بل يذكرونها دائماً ويسعون إليها، ويعملون لها.

واعتبر أخي القارىء بهذا المثال:

لو أنَّ رجلاً فقد مالاً فتراه يبحث عنه، حتَّى إذا يئس من العثور عليه تركه. ولو أنَّ قطة سرقت قطعة لحم فإنَّ الرجل يلحق بها حتَّى إذا صارت خارج الدار تركها، ولكن لو أنَّ رجلاً خُطِفَ ابنه فإنَّه سيلاحق الخاطفين، ويقضي أيّامه ولياليه بحثاً عنه؛ ولا ييأس مهما قطع المسافات ومهما بذل من مال وجهد... فلاحظ أنَّ الاهتمام بالشيء والبحث عنه يختلف باختلاف حبنا له وتعلّقنا واهتمامنا به... فهل نهتم بالدِّين والآخرة بهذه الدرجة؟!

لنطالع في حياة العظماء والأولياء كيف عاشوا وجاهدوا وضحوا وصبروا من أجل الله تعالى.

فهذا رسول الله ﷺ كانت له همة لا توازي الجبال فاستطاع بناء الأُمَّة الإسلامية في مرحلة زمنيَّة قصيرة.

وهذا الإمام علي عليه السلام كان يقف للصلاة فينزعون السهام من قدميه ولا يشعر بالألم «لأنَّ النَّفس عندما تلتفت بصورة تامَّة إلى شيء تغفل عن مُلك البدن وتتوقف القوى الحسية عن العمل وتتحول الهموم إلى هم واحد»[١].

لقد كان للعلَّامة الحلي همَّة عالية في الوصول إلى درجة الاجتهاد فكان يُتعب نفسه ليلاً ونهاراً فسأله والده عن ذلك فقال: أُريد أن أكون مثلك فقال له: لن تصل إلَّا إذا جعلت مثلك الأعلى هو أعلىٰ منِّي درجة، لأنَّ من طلب شيئاً نال ما دونه.

في الدُّعاء: «واجعلنا من الَّذين أسرعت أرواحهم في العُلى، وخططت هممهم في عزّ الورىٰ، فلم تزل قلوبهم والهة حتَّى أناخوا في رياض النعيم».



(١) الأربعون: ص٣٩٠.

اليوم الأخير في حياة الإنسان

رُوي عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«انظر العمل الَّذي يسرُّك أن يأتيك الموت وأنت عليه فافعله الآن، فلست تأمن أنَّ الموت الآن»(١).

* * *

ماذا لو بقي يوم واحد؟

سؤال يطرح نفسه على كلّ إنسان: لو بقي من عمرك يوم واحد لتستقبل الآخرة وتودع الدُّنيا، فماذا تفعل؟

الإجابة تختلف باختلاف النَّاس ومعارفهم وأعمالهم.

فمنهم مَنْ يقول: سأرتاح من هموم الدُّنيا وأحزانها وأمراضها وانتقل إلى عالم الرحمة والكمال.

ومنهم منْ يقول: إنِّي أخاف، لأنِّي لم أعمل شيئاً لآخرتي، ولا أدري ما سيحدث لي.

ومنهم مَنْ يقول: لا أُبالي أوقع الموت عليَّ أم وقعت على

(١) ألف حكمة: ص١٦٨.

الموت، ونستطيع أن نشبّه ذلك بحال المسجونين الّذين يعلمون أنّهم سيخرجون من السجن بعد يوم واحد، فإنَّ بعضهم يتمنّى الإسراع بالخروج لأنَّه يرى خلاصه بذلك، وبعضهم يخاف الخروج لما سيلاقيه من شماتة النَّاس به[١].

سرّ إخفاء يوم الوفاة:

وقبل الدخول في الجواب، لا بدَّ من تفسير السرّ في إخفاء اليوم الأخير من حياة الإنسان، والجواب على ذلك بما ورد عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: «تأمَّل الآن يا مُفضّل ما سُتر على الإنسان علمه من مدة حياته، فإنَّه لو عرف مقدار عمره وكان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش مع ترقب الموت وتوقعه لوقت قد عرفه... وكان طويل العمر ثمَّ عرف ذلك، وثق بالبقاء وانهمك باللذّات والمعاصي وعمل على أن يبلغ من ذلك شهوته، ثمَّ يتوب في آخر عمره»[٢].

ولتقريب الفكرة نأتي بالمثال التالي: لو كان الإنسان يعيش في دار يعلم أنَّه سوف ينتقل منها إلى دار أُخرى يعيش فيها أبداً، ولكنَّه لا يعلم متى يكون هذا الانتقال، فهو يعمل على إعمار كلا الدارين، بخلاف ما لو كان يعلم أنَّه سينتقل من الدار الأولى في القريب العاجل فإنَّه سوف يهملها ويعمل للثانية، والعكس كذلك[٣].

عن الإمام علي عليه السلام: «لو عُرف الأجل قصُر الأمل»[٤].

والآن لندخل في تفاصيل الإجابة.

---

(١) هذا معنى حديث «الدُّنيا سجن المؤمن» بين يدي الأستاذ: ص٦٧.
(٢) توحيد المفضل.
(٣) في رحاب نهج البلاغة: ص٢١١.
(٤) موسوعة الإمام علي عليه السلام: ج٦، ص١٠٢.

حال الإنسان عندما يعلم بوفاته:

الواقع أنَّ الإنسان الَّذي يعلم أنَّه سيموت بعد يوم سيبدأ بالتساؤل: لماذا أموت؟ كيف أموت؟ متى أموت؟ ما الَّذي سيجري عليَّ؟ هل صحيح ما قاله الأنبياء؟ أين سأدُفن؟ كيف سيكون حال عائلتي وأولادي؟ إلى آخره...

ثمَّ يبدأ بإعادة الحساب مع الذَّات، فيوبّخ نفسه ويلومها ويؤنّبها على ما أسلفت، ويتمنَّى لو أنَّه لم يفعل كذا، ولو فعل كذا.

ثمَّ يتحول إلى النَّاس، ليتسامح منهم، ويردّ حقوقهم، ويصلهم ـ إذا كان قاطعاً لهم ـ وقد حدثني أحد الاخوة أنَّ حالتهم الأسرية تحولت إلى الأحسن عندما علموا أنَّ أباهم مُصاب بمرض السرطان.

قيل: إنَّ ملكاً أُصيب بمرض خطير واقترب منه الموت فاستشار وزيره في العمل المناسب فقال له الوزير: أكثر من إطعام النَّاس والمحتاجين، فمُدَّت الموائد والسُّفر في كلّ يوم، وبذلك تمَّ الشفاء للملك، لأنَّ النَّاس كانوا يدعون له بعد الانتهاء من الطعام بقولهم: اللَّهمَّ أطِل عمره وعافه...

ولو عرض على هكذا إنسان بأن يذهب إلى الحفلات الغنائية، وأجواء الفرح والطرب، فإنَّه سيرفض ذلك، بل سيقتصر طعامه وشرابه على الأُمور الضرورية.

قيل: إنَّ الشيخ البهائي سمع قبل وفاته صوتاً من قبر «باباً ركن الدِّين» فصار ينشغل بالبكاء والتضرُّع والتوجُّه إلى الآخرة وقال لأصحابه: إنِّي أُخبرت باستعداد الموت، وبعد ستة أشهر تُوفِّي[1].

قيل: كانت امرأة تعمل في مساعدة النساء العجائز في أواخر

---

(١) سفينة البحار مادة «بهاء».

حياتهن، وكثير من النِّساء مُتن وهن بين يديها، ويوماً أحست بوجع في جسدها، فذهبت إلى الطبيب فتبيَّن أنَّها مصابة بمرض السرطان، عندها شعرت بالموت.

فكم من حالات الموت جرت أمامها إلَّا أنَّها لم تتأثر إلَّا عندما أُصيبت بمرض الموت.

تقول: تبدلت رؤيتي للحياة فصرت أرى كلّ شيء وكأنَّني لم أره من قبل، كالمطر والأشجار والسَّماء... وصرت أرى الله في كلّ شيء... بدأت أهتم بالنَّاس المرضى والمحتاجين في كلّ العالم، وكتبت مذكراتها تحت عنوان «يوميات امرأة محتضرة».

كيف نستقبل الموت؟

من خلال النصوص الدينية نستطيع أن نوجز أهم الأُمور الَّتي ينبغي فعلها، وهي:

أوَّلاً: أن يعمل الإنسان عمل منْ يموت غداً: فعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «اعمل لدُنياك كأنَّك تعيش أبداً، وأعمل لآخرتك كأنَّك تموت غداً»[١].

إنَّ هذا الحديث يدعو إلى العمل من أجل الدُّنيا والآخرة معاً، فلا يقتصر الإنسان على العمل لأحدهما دون الآخر، فإن كان يعمل للدُّنيا فليعمل عمل منْ يرى نفسه أنَّه يُخلّد فيها، وبذلك فإنَّه يتقن العمل لما يدخله من الأمل، عن الإمام علي عليه السلام: «لو رأى العبد الأجل ومسيره لأبغض الأمل وغروره»[٢].

فلنفترض أنَّ رجلاً يريد أن يبني مؤسسة أو يؤلِّف كتاباً، فإن كان

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج٢ ص١٦.
(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٣٣٤.

يرى ويعلم أنَّ عمره قصير فإنَّه لن يندفع للعمل، فلذلك لا بدَّ أن يضع نصب عينيه طول العمر.

وإن كان يريد العمل للآخرة فليضع نصب عينيه أنَّه سيموت غداً، فلا يتهاون ويؤجّل العمل، بل ليُسرع بالعمل فإنَّ «من ارتقب الموت سارع في الخيرات».

وإلى هذا المعنى يشير الحديث عن رسول الله ﷺ: «إنَّ هذا الدِّين لمتين فأوغل فيه برفق... فأحرثْ حرْث مَنْ يظن أنَّه لا يموت، واعمل عمل من يخاف أنَّه يموت غداً»[١].

ولذا جاء في الحديث: «صلِّ صلاة مودِّع»[٢] أي اعتبر كلّ صلاة أنَّها آخر صلاة، فصلِّها بخشوع وخضوع، وعليك أن تطيل الصلاة لأنَّ الذي يودِّع حبيبه لا يسرع إلى فراقه بل يطيل توديعه.

عن الإمام علي عليه السلام: «مَنِ ارتقب الموت سارع في الخيرات»[٣].
وقال عليه السلام: «اعمل لآخرتك كأنَّك تموت غداً»[٤].

قيل: أُتي أمير المؤمنين عليه السلام بمال عند المساء فقال: اقسموا هذا المال، فقالوا: قد أمسينا يا أمير المؤمنين فأخِّره إلى غد، فقال لهم: تقبلون أن أعيش إلى غد؟ فقالوا: ماذا بأيدينا؟ قال: فلا تؤخِّروه حتَّى تقسموه»[٥].

رُويَ أنَّ الإمام محمَّد الباقر عليه السلام كان يمشي ليلاً متوكئاً على

---

(١) بحار الأنوار: ج١٥، باب ٢٩.
(٢) المصدر نفسه: ج٦٩، ص٤٨.
(٣) غرر الحكم: ص١٥٠.
(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج٢، ص١٦.
(٥) بحار الأنوار: ج٤١، ص١٠٧.

غلامين له، وذلك في ساعة حارة جداً، فجاء رجل إليه وهو يرى أنَّه يريد موعظة الإمام عليه السلام فقال له: أصلحك الله! شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدُّنيا لو جاءك الموت وأنت على هذه الحال؟! فخلّىٰ الإمام عليه السلام، عن الغلامين، ثمَّ تساند وقال: «لو جاءني والله الموت وأنا في هذا الحال، جاءني وأتاني في طاعة من طاعات الله تعالى أكفّ بها نفسي عنك وعن النَّاس، وإنَّما كنت أخافُ الموت لو جاءني وأنا على معصية من معاصي الله»[1].

ثانياً: أن يجدِّد التوبة: فإنَّ الموت يأتي بغتة.

قيل لعمر بن عبد العزيز: ما كان سبب توبتك فقال: أردت أن أضرب خادمي فقال لي: أذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة.

ثالثاً: أن يُحاسب نفسه كلّ ليلة: فإنَّ النوم أخو الموت، وكم من نائم لم يستيقظ وكان نومه موته؟

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «واجعل كلّ نومك آخر عهدك من الدُّنيا»[2].

رابعاً: أن يوصي بما عليه من حقوق لربِّه وللنَّاس: عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا ينبغي للمسلم أن يبيت إلَّا ووصيته تحت رأسه».

يقول الشيخ المامقاني في وصيته لولده: «وقد اتفق لي مراراً في الشتاء في غاية البرد أنِّي آويت إلى الفراش للنوم فذكرت أنِّي استقرضت في أوَّل اللَّيل من شخص درهماً أو درهمين وأعطيته لمن استعطى

---

(١) منتهى الآمال: ج٢، ص١٢٠.

(٢) دار السلام: ج٣، ص٣٠٦.

ونسيت أن أكتبه، وخفت مفاجأة الموت قبل الانتباه، فقمت في ذلك البرد وأشعلت السراج وكتبت ذلك».

خامساً: أن لا يطيل الأمل في الدُّنيا: فعن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ أمراً لا يعلم متى يفاجئك، ينبغي أنْ تستعد له قبل أن يغشاك».

وعنه عليه السلام: «من يأمل أن يعيش غداً فإنَّه يأمل أن يعيش أبداً، ومن يأمل أن يعيش أبداً يقسو قلبه ويرغب في دُنياه ويزهد فيما وعده ربّه تبارك وتعالىٰ»[١].

سادساً: أن يرى الموت وجهاً لوجه في كلّ لحظة.

رُوي أنَّ الإمام زين العابدين عليه السلام مرَّ بالحسن البصري وهو يعظ النَّاس بمنى فوقف عليه ثمَّ قال له:

امسك، أسألك عن الحال الَّتي أنت عليها مقيم، أترضاها لنفسك فيما بينك وبين الله للموت إذا نزل بك غداً؟

قال: لا.

قال عليه السلام: أفتحدِّث نفسك بالتحوّل والانتقال عن الحال الَّتي لا ترضاها لنفسك إلى الحال الَّتي ترضاها؟

قال: فأطرق مليّاً ثمَّ قال: إنِّي أقول ذلك بلا حقيقة.

قال: أفترجو نبيّاً بعد محمَّد صلى الله عليه وآله يكون لك معه سابقة؟

قال: لا، قال: أفترجو داراً غير الدَّار الَّتي أنت فيها فتردّ إليها فتعمل فيها؟

قال: لا.

---

(١) مستدرك نهج البلاغة: ج٩، ص٢٤.

قال: أفرأيت أحداً به مسكة عقل رضي لنفسه من نفسه بهذا، إنَّك على حال لا ترضاها ولا تحدِّث نفسك بالانتقال إلى حال ترضاها على حقيقة ولا ترجو نبيّاً بعد محمَّد ﷺ ولا داراً غير الدَّار الَّتي أنت فيها فتردّ إليها فتعمل فيها وأنت تعظ النَّاس؟!

قال: فلمَّا ولّى عليه السلام قال الحسن البصري من هذا؟ قالوا: عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: أهل بيت علم، فما شوهد الحسن بعد ذلك يعظ النَّاس[١].

سابعاً: الاستعداد الدائم للموت: وذلك كمَنْ يرتقب السفر إلى بلد ما، فهو على استعداد لركوب الطائرة في أية ساعة، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «إذا أصبحت فلا تُحدِّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تُحدِّث نفسك بالصباح، وخُذْ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنَّك لا تدري ما اسمك غداً»[٢].

ثامناً: تغيير النَّفس نحو الأفضل: هناك بعض الأشخاص يعاهدون أنفسهم على التغيير بعد خروجهم من السجن أو أصابتهم بمرض أو بلاء عظيم إلَّا أنَّهم سرعان ما يعودون إلى سيرتهم الأولى، فمن الحري بنا أن لا نكون كذلك، فقد ذمّ الله تعالىٰ الَّذين يقولون: ﴿...رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

فالآن ما دام المجال مفتوحاً، ومن قبلِ أن يُغلق الكتاب... فلنعدّ أنفسنا من الموتى...

رُويَ عن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: «بلغ أمير المؤمنين موت رجل من أصحابه، ثمَّ جاء خبر آخر أنَّه لم يمت فكتب إليه: «بسم

---

(١) منهاج البراعة: ج١٤، ص٥.
(٢) المحجَّة البيضاء: ج٨، ص٣٤٤.

الله الرَّحمٰن الرَّحيم، أمّا بعد، فإنّه قد كان أتانا خبر ارتاع له إخوانك، ثمَّ جاء تكذيب الخبر الأوّل، فأنعم ذلك سرورنا، وإنَّ السرور يوشك على الانقطاع يبلغه عمّا قليل تصديق الخبر الأوّل، فهل أنت كائن كرجل قد ذاق الموت وعاين ما بعده، يسأل الرجعة فأسعف بطلبته، فهو متأهب دائب ينقل بأسره من ماله إلى دار قراره لا يرى أنَّ له مالاً غيره، واعلم أنَّ اللّيل والنَّهار لا يزالان دائبين في قصر الأعمال وإنفاذ الأموال وطيء الآجال.

هيهات هيهات قد صبحا عاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً، فأصبحوا لا يبليهما، قد أمرا به، مستعدان لمن بقي بمثل ما أصابا فيه من مضى. واعلم إنّما أنت نظير أخوانك وأشباهك كمثل الجسد قد نزعت قوّته فلم يبق إلّا حشاشة نفسه ينتظر الداعي، فنعوذ بالله ممّا نعظ به ثمَّ نقصر عنه»[١].

هكذا استقبلوا الموت:

عندما نتصفح التاريخ نجد أنَّ الأولياء يستغلون آخر لحظات العمر للتزود للعالم الآخر كما فعل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه فإنّهم امضوا ليلة العاشر من المحرَّم في عبادة وصلاة ودعاء وذكر وتلاوة القرآن.

هكذا تكلَّموا حال الاحتضار:

إنَّ رهبة الموت تكشف الإنسان تماماً بحيث لا تترك أمامه مجالاً للمجاملة، ولذا نجد أنَّ لحظة الاحتضار هي الوقت الَّذي يبوح الإنسان فيه بمكنون أسراره، وما يختلج في نفسه.

---

(١) معرفة المعاد: للطهراني، ج١، ص١٤٩.

كلام الفجّار:

يقول الله تعالىٰ عن الكافرين من المحتضرين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩].

قيل: ولمَّا حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة، نظر إلى غسَّالٍ بجانب دمشق، يلوي ثوباً بيده ثمَّ يضرب به المغسلة. فقال عبد الملك: ليتني كنتُ غسَّالاً آكل من كسب يدي يوماً بيومٍ، ولم أتولَّ من أمرِ الدُّنيا شيئاً.

فبلغ ذلك أبا حازم فقال: الحمد لله الَّذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنّون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمنَّ ما هم فيه.

وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الَّذي مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟

قال: أجدني كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقال معاوية حين حضرته الوفاة:

أَلاَ لَيتَني لم أغنَ في المُلْكِ ساعةً ... ولم أَكُ في اللَّذَّات أعْشَى النواظِرِ
وكُنتُ كذِي طِمْرَيْنِ عاش بِبُلْغَةٍ ... ليالِيَ حتَّىٰ زار ضَنْك المَقابِر

قيل: بعد أن عاد المأمون من غزوته للروم، نزل على عين البديدون المعروفة بالقشيرة، فأعجبه ماؤها وصفاؤه وبياضه فجلس عندها على خشب صُنع له كهيئة الجسر يتأمَّل في صفاء الماء، وبينما هو كذلك إذ لاحت سمكة كأنَّها سبيكة فضة فجعل لمن يخرجها مالاً، فنزل أحد أعوانه فأخذها وصعد بها ولما صارت على الخشب الَّذي

يجلس عليه المأمون وأفلتت من يده، ووقعت في الماء، فرُشَّ منه على صدر المأمون.

فأخذته الرعدة من ساعته، ولم يقدر على الحراك من مكانه، فغُطي باللُّحف وهو يرتعد ويصيح: البرد البرد.

وجيء له بالسمكة ليأكلها، فلم يقدر على الذوق منها، واشتدَّ عليه الأمر، فَقَدَمِ إليه الأطباء ليعالجوه فوجدوا أنَّ علامات الموت قد دنت منه.

فلما علم أنَّ هذا المكان هو الرقَّة اضطرب وعلم بموته، لأنَّه مسبوق بعلمه بموته في الرقَّة (وهو اسم عين البديدون بالرومية).

فقال لأعوانه: أخرجوني حتَّى أشرف على عسكري، وأنظر إلى رجالي، وأتبين ملكي ـ وكان ذلك ليلاً ـ فلما أشرف عليهم قال:

يا منْ لا يزول ملكه، ارحم منْ قد زال ملكه.

ثمَّ رُدَّ إلى مرقده، فرمى بطرْفه نحو السَّماء، وقد اغرورقت عيناه بالدَّمع وقال: يا منْ لا يموت ارحم منْ يموت، وقضى من ساعته[1].

كلام الأبرار:

وأمَّا المحتضرون من الأولياء المُخلصين والعباد الصالحين فإنَّهم كانوا على استعداد للآخرة، ولذلك استبشروا بالموت وتكلَّموا بما يُنبيء عن نفوس مطمئنة وقلوب هادئة.

فكان رسول الله ﷺ يقول: «إلى الرفيق الأعلى، إلى الرفيق الأعلى».

---

(١) مروج الذهب: ج٤، ص٥٠.

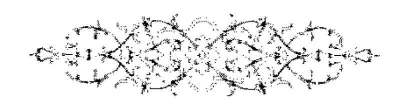
وكان الإمام علي عليه السلام يقول: «إلٰهي أسألك مرافقة الأنبياء والأوصياء، وأعلى درجات جنّة المأوى».

يقول السيِّد موسى الصدر: «كان عليه السلام يتكلَّم على فراش موته كما كان يتكلَّم يوم استلامه الخلافة والحكم... وهذا يؤكّد أنَّ الإمام لا يشعر بالفرق بين أن يكون حاكماً أو على فراش الموت إن لم نقل إنَّه كان في الثاني أسعد حظّاً وأكثر ارتياحاً وهو القائل: «والله إنَّ ابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمّه»[1].

يُنسب إلى الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

«إلٰهي تركت الخلق طرّاً في هواك   وأيتمت العيال لكي أراكا
فلو قطعتني في الحب إرباً   لما حنَّ الفؤاد إلى سواكا

وكان الإمام زين العابدين يردِّد: «الحمد لله الَّذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنَّة حيث نشاء، فنِعْم أجر العاملين»[2].



(١) مسيرة الإمام موسى الصدر: ج١١، ص١٦٥.
(٢) منتهى الآمال، ج٢ ص٥٦.

الفرصة الأخيرة من العمر

عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال:

«بقية عمر المرء لا ثمن لها، يُدرك بها ما فات، ويُحيي بها ما أمات»[١].

* * *

سن التقاعد:

في هذه العبارة يُسلِّط الإمام عليه السلام الضوء على المرحلة الأخيرة من العمر، والبقية الباقية من الحياة... ويعتبرها الفرصة الأخيرة لإصلاح النَّفس... وهي المرحلة الَّتي تُعرف بـ«سن التقاعد» وفيها يتخلى الإنسان عن مسؤوليات الحياة بعد مسيرة العمل والكفاح، والَّتي غالباً ما يقضيها بتضييع الوقت منتظراً حلول الأجل.

وللوقوف على معان وأبعاد الكلمة لا بدَّ من مقدِّمة، وهي:

العمر الكامل:

إنَّ رأسمال العمر هو ساعة الخروج من رحم الأُمّ إلى عالم الدُّنيا.

وذلك لأنَّ المولود من بطن أُمّه، أكبر ما يكون في عمره، حتّىٰ إذا

---

(١) منهاج البراعة: ج١٤.

مرَّ عليه الزَّمان ـ الدقيقة والساعة واليوم والشهر والسنة ـ بدأ عمره بالتناقص، فمثله كمثل الكتلة المحمّاة الَّتي تكون في بدء اشتعالها في أعلى درجات الحرارة ثمَّ تتناقص حتَّى تفقد حرارتها وتصل إلى برودة الموت.

ولتقريب المعنىٰ نقول: عندما يكون الإنسان جنيناً في رحم الأُمّ فإنَّه يكبر شيئاً فشيئاً إلى أن يصل إلى الأجل المحدود لولادته، فيخرج إلى عالم الدُّنيا ليبدأ العدّ العكسي، فإذا كان من المقدَّر للمولود أن يبعش مائة سنة ومضىٰ على ولادته سنة، فإنَّ الباقي من عمره هو تسع وتسعون سنة وهكذا كلَّما مضت عليه سنة فإنَّ رأسمال العمر ينقص ويضمحل، ومن هنا ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه قال: «أكبر ما يكون ابن آدم اليوم الَّذي يُولد من أُمِّه»[١].

وهذا يعني أنَّه إذا كان الإنسان يوم ولادته أكبر ما يكون فإنَّه يوم مماته أصغر ما يكون، فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «أكبر ما يكون الإنسان يوم وُلد، وأصغر ما يكون يوم يموت»[٢].

ومن هنا ورد عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «ما ينقص ساعة من دهرك إلَّا بساعة من عمرك»[٣].

وكما أنَّ كلّ ساعة تؤدِّي إلى نقص العمر كذلك فإنَّ كلّ نَفَسْ يخرج من الرئتين يؤدِّي إلى نقصان العمر، وذلك لأنَّ لكلِّ إنسان مقداراً محدوداً من الهواء. فعن الإمام علي عليه السلام: «نفسْ المرء خُطاه إلى أجله»[٤].

---

(١) الشهادة: ج٣، ص٤٤٠.
(٢) فقه الصادق عليه السلام، ج٢٤ ص٣١٠.
(٣) غرر الحكم.
(٤) نهج البلاغة، الحكمة (٧٤).

وعنه ﷺ: «رحم الله امرأً علم أنَّ نَفَسه خُطاه إلى أجله فبادر عمله وقصَّر أمله»(١).

وسُئل ﷺ عن قوله تعالى: «﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤] فقال ﷺ: الأنفاس منهم تُعدُّ حتَّى تعلم الحفظة كم نفس لهم في دار الدُّنيا، ثمَّ قال ﷺ: إنَّ ملك الموت يُعدّ أنفاسك ويتَّبع آثارك فلو انقضى أجلك وانقطعت من الدُّنيا مدَّتك نزل بك ملك الموت فلا يقبلُ منك بديلاً، ولا يأخذ كفيلاً، ولا يدعُ صغيراً ولا كبيراً»(٢).

وممَّا يُنسب إليه ﷺ:

حياتك أنفاس تعدّ فكلَّما ... مضى نفس منها انتقصت به جزءا
فتصبح في نقص وتمسي بمثله ... وما لك من عقل تحسّ به رزءا

أطوار الحياة:

وهذا العمر المُقدَّر ينقضي على النحو التالي كما في الشعر المنسوب للإمام علي ﷺ:

إذا عاش امرؤ ستين عاماً ... فنصف العمر تمحقه اللَّيالي
ونصف النصف يذهب ليس يدري، ... لغفلته يميناً عن شمال
وثلث النصف أمالٌ وحرصٌ ... وشغلٌ بالمكاسب والعيال
وباقي العمر أسقام وشيب ... وهمّ بارتحال وانتقال
فحبّ المرء طول العمر جهل ... وقسمته على هذا النوال

ففي مرحلة الطفولة ينقضي العمر باللهو واللعب، وفي مرحلة الشباب ينقضي بالغفلة واتباع الشهوات، وفي مرحلة الكهولة ينقضي في

---

(١) غرر الحكم.
(٢) مستدرك نهج البلاغة: ج٩، ص٢٣.

القيام بالواجبات الأسرية والاجتماعية، وبعد ذلك يضعف الجسد عن العمل وتنتهي المسؤوليات الَّتي كانت مُلقاة على العاتق.

جاء في رسالة الإمام علي ﷺ إلى معاوية: «فإن حالك اليوم كحال الثوب المهيل الَّذي لا يصلح من جانب إلَّا فسد من آخر»[١].

عن الإمام علي ﷺ: «يوجد عقل ابن آدم وعمره في حسابه، فإذا بلغ من السنين عشراً استدار في المحافل كاستدارة عقد العشرة، فإذا بلغ العشرين توسط المحافل كتوسط الإبهام بين المسبحة والوسطى، فإذا بلغ الثلاثين انقفلت لحيته كانقفال الأشياء، وإذا بلغ الأربعين اعتمد عليه أهله كاعتماد الإبهام على المسبحة، فإذا بلغ الخمسين انحنى كانحناء الإبهام، فإذا بلغ الستين ركبه من كان يعتمد عليه كركوب المسبحة للإبهام، فإذا بلغ السبعين لصق بالأرض، فإذا بلغ الثمانين أخذ العصا، فإذا بلغ التسعين ضاقت عليه الأرض بحذافيرها، فإذا بلغ المئة عاد كيومه في العشرة»[٢].

وقيل: «الشيب داعي الموت، وناعي الفوت، الشيب يأذن بالفراق ويخبر بالتلاق، وهو كسل في كسل، وعلل في علل، وملل في ملل، آخره تقريب الأجل وقطع الأمل، وما بقاء الشيخ في الدَّهر إلَّا كبقاء الشَّمس على القصر في وقت العصر».

«كنَّا صبياناً فلعبنا، فصرنا شباناً فسكرنا، فصرنا كهولاً فكسلنا، فصرنا شيوخاً فعجزنا، فمتى نعبد الله ربّنا؟»[٣].

---

(١) مستدرك: ج٤، ص٢٠٠.
(٢) آداب النَّفس: ص١٧٤.
(٣) مصباح الأنظار: ص٥٤.

مرحلة الشباب:

من هنا فقد حثَّت الروايات الشريفة على اغتنام فرصة الشباب والصحَّة والقوَّة، عن رسول الله ﷺ: «إذا أصبحت فلا تحدِّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدِّث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، وحياتك قبل موتك، فإنَّك لا تدري ما اسمك غداً».

ونلاحظ في وصايا السيِّد الخميني رحمه الله أنَّه يركِّز على العمل في فترة الشباب. فيقول في بعض وصاياه: «إنَّ إصلاح النَّفس وتربيتها يتمّ بسرعة أكبر عند الشباب، فإنَّ آلاف الشباب هم أقرب إلى أُفق الملكوت، يُوفّقون لذلك ولا يُوفّق هرم واحد، والقيود والأغلال والأقفال الشيطانيَّة إذا غفل عنها في مرحلة الشباب تضرب جذورها في كلّ يوم يمضي من العمر».

والمعروف، أنَّ بداية عمر الكهولة إنذار للمرء، ففيه تضعف القوى الشهوية وتظهر علامات الضعف، فإذا لم تتدارك الحال كان الخسران.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «إذا بلغ الرجل أربعين سنة نادى منادٍ من السَّماء: قد دنا الرحيل فأعدّ الزاد».

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّ العبد لفي فسحة من أمره ما بينه وبين أربعين سنة، فإذا بلغ أربعين سنة أوحى الله إلى ملكيه إنِّي قد عمَّرت عبدي عمراً، فغلّظا وشدّدا وتحفظا، واكتبا عليه قليل عمله وكثيره وصغيره وكبيره»[١].

بقيَّة العمر:

وإذا قصَّر الإنسان في فترة الشباب والكهولة فقد ترك الله تعالىٰ له

---

(١) الجواهر السنية، ص٣٣٩.

فسحة من العمر ليصلح ما فسد ويُحيي ما مات، ولهذا كانت المرحلة الأخيرة ذات أهمية كبيرة.

من رحمة الله تعالى أنَّه جعل للإنسان في وقت احتضاره فترة تُسمَّىٰ بـ«صحوة الموت» وفيها يعود إلى المريض رشده وعقله ليوصي بما عليه، فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ما من ميت تحضره الوفاة إلَّا ردَّ الله عليه من بصره وسمعه وعقله للوصيَّة، آخذ للوصية أو تارك وهي الراحة الَّتي يُقال لها راحة الموت»(١).

وهذا ما عبَّر عنه الإمام علي عليه السلام بقوله: «بقية العمر لا ثمن لها» وفي كلمة أُخرى: «لا يعرف ما بقي من عمر المؤمن إلَّا نبيّ أو صدِّيق» وعنه عليه السلام: «ليس شيء أعزّ من الكبريت الأحمر إلَّا ما بقي من عمر المؤمن» وعنه عليه السلام: «لو اعتبرت ما أضعت من ماضي عمرك لحفظت ما بقي»(٢).

فإذا أدركنا أهمية هذه المرحلة الأخيرة يأتي السؤال: ماذا نصنع بها؟

كيف نتصرف في هذه المرحلة؟:

إنَّ الكثير من النَّاس يترك العمل والسعي ويضيّع وقته بما لا يعود عليه بالنفع، وهذا من سلبيات ما يُعرف بـ«سن التقاعد».

كما أنَّ بعضهم يُبتلى بطول الأمل والحرص على الدُّنيا ففي الحديث الشريف: «يهرم ابن آدم ويشبّ فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل».

---

(١) ما وراء الفقه: ج٥، ص٢١١.
(٢) ميزان الحكمة، ج٣، ص١٨١.

وعن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «كلّ معجّل يسأل الإنظار وكلّ مؤجّلٍ يتعلّل بالتسويف»(١).

أي أنَّ كلّ من عجّل موته لكبره في السن يطلب طول العمر والبقاء وكلّ شاب مُؤجّل موته يترك الإسراع في الخير متعللاً بأنّني سوف أفعل كذا وكذا في المستقبل.

وفي هذه المرحلة الخطيرة ينبغي العمل على إصلاح ما فسد في العمر وأهم ما يُعمل لذلك:

أوّلاً: يُحيي قلبه من خلال التوبة إلى الله تعالى، فمن كلام الإمام علي عليه السلام لمعاوية: «فأَقلع عمّا أنت عليه من الغيّ والضلال على كبر سنّك وفناء عمرك، فإنَّ حالك اليوم كحال الثوب المهيل الّذي لا يصلح من جانب إلّا فسد من آخر»(٢).

ثانياً: يتدارك ما فاته من صلاة وصيام وحج وعبادات ومعاملات...

ثالثاً: أن يكثر من الاستغفار كما كان النّبي محمّد صلى الله عليه وآله يفعل آخر عمره.

عن أُمّ سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله بالآخرة لا يقوم ولا يقعد، ولا يجيء ولا يذهب، إلّا قال: «سبحان الله وبحمده، استغفر الله وأتوب إليه» فسألنا عن ذلك فقال النّبيّ صلى الله عليه وآله: أُمرت بها. ثمَّ قرأ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النّصر: ١].

قال السيد الفهري: «فيا حبّذا بأتباع الرّسول الأعظم الّذين

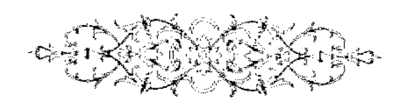
(١) ظلال نهج البلاغة: ج٤، ص٣٨٨.
(٢) مستدرك نهج البلاغة: ج٤، ص٢٠٠.

اتخذوه أسوة لأنفسهم أن يتأسُّوا برسول الله إذا ظنُّوا أنَّهم في السنين الأخيرة من عمرهم، فيستعدوا للقاء الله، وإن كان كبر السن ليس معياراً لقرب الأجل، ولكن احتمال الموت في الشيوخ أقرب وأكثر من الشباب، فينبغي لمن يظنُّ بنفاد أيَّامه واقتراب أجله المداومة على هذا الذكر الشريف تأسّياً برسول الله ﷺ»[1].

فإذا أدَّىٰ ما عليه غفر الله تعالىٰ ذنوبه وهو أرحم الرَّاحمين.

عن رسول الله ﷺ: «من أحسن فيما بقي من عمره لم يُؤاخذ بما مضى من ذنبه، ومن أساء فيما بقي من عمره أُخذ بالأوَّل والآخر»[2].

إنَّ هذه الفسحة الأخيرة من العمر لئلا يأتي يوم الحسرة والندامة، فـ«الآن الآن من قبل الندم ومن قبل أن تقول نفس: يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله... الآن الآن ما دام الوثاق مطلقاً والسراج منيراً وباب التوبة مفتوحاً، من قبل أن يجفّ القلم وتُطوى الصحف».



---

(١) دروس في التفسير: ج١، ص٢٢٣.
(٢) الشباب الفلسفي: ج٢، ص٢٢٣.

الباقي والفاني

عن الإمام علي عليه السلام:

«وتمييز الباقي من الفاني من أشرف النظر»[١].

* * *

ما هو الباقي؟:

الباقي في اللغة: هو الوجود المستمر وجوده، ويقابله الفاني وهو المعدوم بعد الإيجاد.

ومن المقطوع به في علم الكلام أنّ الموجود المستمر الوجود بلا انقطاع ولا زوال واضمحلال هو الله تعالى، من هنا نجد في الأسماء الحُسنى لله اسم «الباقي».

كما ورد في القرآن المجيد لفظ «الأبقى» وأريد به الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣] وكما أريد به ما عند الله تعالى من الخزائن الإلٰهيَّة كالرِّزق والثواب، والجنَّة والنَّار... قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الشورى: ٣٦].

ومن الواضح أنَّ هذا العالم الدنيوي المادي، وما فيه من سماء،

---

(١) ميزان الحكمة: مادّة «الفكر».

وأرض، وجماد وحيوان، وإنسان كلّه إلى زوال وفناء، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرّحمن: ٢٦-٢٧].

وكذا ما عند النّاس من أموال وبنين، وقصور، وزينة... قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وأمّا العالم الأخروي فهو باقٍ لا ينفد قال تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧].

والإنسان في ذلك العالم باقٍ بأمر الله تعالى ولذا ورد: «وإنّا خلقنا وإيّاكم للبقاء لا للفناء»[(١)].

نعم، إنّ ما يبقى ـ ممّا عند الإنسان ـ هو ما كان له علاقة وارتباط بالباقي الّذي لا فناء له، فبمقدار ما يحصل الفناء والذوبان في الله تعالى، يكتب له البقاء، من هنا ورد في القرآن الكريم استثناء صعقة القيامة لبعض العباد المخلَصين قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: ٦٨] وبتعبير العرفاء: المستثنون من الصعق هم من وصلوا إلى مرحلة الفناء في الله، فحصلوا على البقاء بالله تعالى، ومنهم خاتم الأنبياء والأئمّة المعصومون عليهم السلام.

الباقيات الصالحات:

وهكذا حال الأعمال الصالحة فإنّها لا تفنى، لارتباطها بالله تعالى قال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦] وفي آية أخرى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: ٧٦].

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨، ص٢١٤.

والباقيات الصالحات: هي كلّ عقيدة، أو فكرة، أو عمل صالح يعمله الإنسان في حياته، أو يبقى أثره بعد مماته، ومنها:

أ ـ **حب أهل البيت** عليهم السلام: فعن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام: «لا تستصغر مودَّتنا فإنَّها من الباقيات الصالحات».

ب ـ **الحكمة**: فعن الإمام علي عليه السلام: «ليس الموسر من كان يساره باقياً عنده زماناً يسيراً وكان يمكن أن يغتصبه غيره منه ولا يبقى بعد موته له، لكن اليسار على الحقيقة هو الباقي دائماً على مالكه ولا يمكن أن يُؤخذ منه ويبقى له بعد موته وذلك هو الحكمة»(١).

ج ـ **صلاة اللَّيل**: عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّ من الباقيات الصالحات القيام باللَّيل لصلاة اللَّيل».

د ـ **التسبيحات الأربع**: عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن عجزتم عن اللَّيل أن تكابدوه، وعن العدو أن تجاهدوه فلا تهجروا عن قول: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر» فإنَّهنَّ من الباقيات الصالحات فقولوها.

هـ ـ **الصدقات**: في الحديث القدسي: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلَّا ما أكلت فأفنيت، أو ما لبست فأبليت، أو ما قدَّمت فأبقيت».

وروي أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله ذبح شاةً وأخذ يوزِّع لحمها حتَّى لم يبق منها شيء يُذكر، فقالت إحدىٰ زوجاته: يا رسول الله لم يبق منها إلَّا الرقبة فقال صلى الله عليه وآله: لم يفنَ منها إلَّا الرقبة».

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٤، ص٥٣٣.

فما يصرفه الإنسان من ماله يفنى أمَّا ما يقدِّمه في سبيل الله فهو الباقي.

في الحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلَّا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به من بعده أو ولد صالح يدعو له»[1].

لقد تبرعت امرأة علوية بما تملك من حلي وأساور لطباعة كتاب «حياة أمير المؤمنين» فذهبت هي وذهب مالها، وبقي ما تبرعت لأجله.

وتبرعت امرأة في الكويت بميراثها من أبيها في بناء حسينية ما زالت قائمة إلى الآن.

واستطاع شخص يبيع «السماور» في مشهد أن يبني ١٤ حسينية باسم أربعة عشر معصوماً.

وكان في الكويت رجل يعمل «حمَّالاً» ويقتطع ثلث ماله للإمام الحسين عليه السلام فاشترى أرضاً وبنى عليها حسينية ما زالت قائمة...

لقد رحل الأشخاص وبقيت أعمالهم وبقي الثواب والأجر إلىٰ يوم القيامة.

النتيجة:

بعد هذا البيان المتقدم، نقول:

من الحري بكلِّ إنسان يعلم بأنَّ الدُّنيا فانية، وبأنَّ ما يحصل عليه الإنسان من مال أو جاه وأولاد هو فانٍ، وبأنَّ لذَّة الطعام والشراب والنكاح تزول، بل قد تتحوَّل إلى منغّصات وآلام، أن لا يستغرق في اللهث وراء الدُّنيا، وليسعَ في تهيئة الزاد إلى العالم الآخر الَّذي لا

---

(١) الصدقة، ص٨٧.

زوال فيه ولا اضمحلال، وكم فرق بين دار يعيش فيها الإنسان سنوات معدودة يمضيها بالأوجاع والأحزان والمصائب، وبين دار لا لغو فيها ولا تكدير مع خلود دائم لا انقطاع فيه.

بل لو كانت الآخرة أقل ممَّا وصفه الله تعالى في كتابه، لوجب السعي للعمل إليها لعلمنا بخلودها، مقابل الدُّنيا الفانية، فكيف والحال أنَّ الله يقول عن نعيمها: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدَة: ١٧].

من أقوال أمير المؤمنين عليه السلام: «عجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء».

و«خذ ما يبقى لك، ممَّا لا تبقى له، وتيسر لسفرك» «لا تكن ممَّن ينافس فيما يبقى ويتسامح فيما يفنى».

وكان يخرج إلى السوق ويقول:

تفنى اللذاذة ممَّن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء في مغبتها ... لا خير في لذَّة من بعدها النَّار

دعاء:

إلٰهي أنت الباقي وأنا الفاني، وهل يرحم الفاني إلَّا الباقي، اللَّهمَّ فارحمنا برحمتك، واشملنا بعفوك بحقِّ محمَّد وآله الطاهرين.





من هم الأحياء والأموات؟

عن الإمام علي عليه السلام في صفة الزُّهاد:

«. . . ويرون أهل الدُّنيا يعظِّمون موت أجسادهم، وهم أشدّ إعظاماً لموت قلوب أحيائهم»[(١)].

* * *

معيار الحياة والموت:

يعتبر النَّاس أن الَّذي يُدفن في التُّراب هو «ميِّت» وأنَّ الَّذي يتحرَّك ويمشي ويأكل هو «حيّ»، فهل هذا اعتبار صحيح من خلال المفهوم القرآني والإسلامي؟

للإجابة عن ذلك، لا بدَّ أن نحدِّد مقياس الحياة والموت، فهل هو حياة الجسد أم حياة الرُّوح؟

يقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ففي هذه الآية توجيه الخطاب للنَّاس بأن يستجيبوا لما

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٢٣٠.

يحييهم، وهذا يعني أنَّهم وإن كانوا يتحرّكون إلَّا أنَّهم ليسوا بأحياء، ولصيرورتهم أحياء ـ في الحقيقة ـ لا بدَّ أن يعملوا على حياة أُخرى غير الحياة الجسدية، أي حياة الرُّوح والقلب.

فمن كان قلبه نورانياً فهو الحي... ومن كان قلبه مظلماً فهو الميت وإن كان يمشي على رجلين، لذا يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وعن الإمام علي عليه السلام في صفة الفاسق أنَّه قال: «فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان... وذلك ميت الأحياء»(١).

من هم الأموات؟

بهذا الاعتبار نجد أنَّ بعض النَّاس ينطبق عليهم أنَّهم موتى وإن كانوا يعيشون في القصور المضيئة والمزخرفة بزينة الدُّنيا، كالكافرين والظالمين، والغافلين، والَّذين رضوا بالذلّ والعبودية،.. فهم أموات نفسياً وروحياً...

فكما أنَّ الميت لا سمع له ـ من الناحية الجسدية ـ ولا يستطيع أن يدافع عن جسده إذا أُهين، كذلك حال الكافر والذليل...

ومن ينطبق عليهم القول، أنَّهم موتى ـ كما ورد في النصوص الدينية ـ هم:

١ ـ الكفَّار: قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ٢٢].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٨٥.

٢ ـ **الجهلاء**: عن الإمام علي عليه السلام: «من استحكمت لي فيه خصلة من خصال الخير احتملته عليها واغتفرت له فَقَدَ ما سواها، ولا اغتفر فقْدَ عقلٍ ولا دين، لأنَّ مفارقة الدِّين مفارقة الأمن، فلا يتهنَّأ بحياة مع مخافة، وفقدُ العقل فقدُ الحياة، ولا يُقاس إلَّا بالأموات»[1].

٣ ـ **الأذلاء**: عن الإمام علي عليه السلام: «... فالموت في حياتكم مقهورين ـ أي مغلوبين ـ والحياة في موتكم قاهرين»[2].

قال السيِّد محسن الأمين:

لا أطلبن سوى الحياة هنيئة فالموت في ظل السيوف حياة
كم ميتين، حياتهم طول المدى بقيت، وأحياؤهم أموات

٤ ـ **الكذَّابون**: فعن الإمام علي عليه السلام: «الكذَّاب والميت سواء لأنَّ فضيلة الحي على الميت الثقة به، فإذا لم يُوثق بكلامه فقد بطلت حياته»[3].

٥ ـ **الأشقياء**: قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميِّت إنَّما الميت ميت الأحياء
إنَّما الميت من يعيش شقيّاً كاسفاً باله قليل الرجاء

إنَّ هؤلاء الموتى لا قيمة لهم على الله تعالىٰ إذ إنَّهم لا يعقلون ولا يسمعون الدعوة الدينية، لذا قال تعالىٰ لنبيه محمَّد صلى الله عليه وآله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: ١٩-٢٣].

---

(١) الكافي: ج١، ص٢٧.
(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٥١.
(٣) غرر الحكم.

وهذه الآيات ردّ على من يقول: إنَّ الموتى لا يسمعون تلقينهم الشهادة من الأحياء، فإنَّ المراد هنا موتى الأحياء لا موتى القبور، وذلك لأنَّ أرواحهم ميتة ومقبورة في أجسادهم المادية، ولذا ورد عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «من لم يقبر جسده كان جسده قبراً لنفسه»(١).

من هم الأحياء؟

وبهذا الاعتبار نجد أنَّ بعض النَّاس ينطبق عليهم أنَّهم أحياء، سواء أكانوا يمشون على الأرض أم دُفنوا تحت التُّراب ـ وهم العدد القليل من النَّاس ـ، ومنهم:

١ ـ **الشُّهداء**: قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤].

٢ ـ **العلماء**: فعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «هلك خُزَّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدَّهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة»(٢).

٣ ـ **الأولياء**: جاء في بعض الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي فلينظر إلى علي بن أبي طالب».

وبهذا الاعتبار ـ أيضاً ـ فقد يكون عمر الإنسان مقسماً بين الحياة والموت، فلو انقضى نصف عمره في الغفلة والبُعد عن الله تعالىٰ، فإنَّه في تلك الحال ميت، حتَّى إذا دخل نور الإيمان إلى قلبه صار حيّاً.

---

(١) ألف حكمة ص١٧.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ١٤٧.

طرق الحياة:

للوصول إلى هذه الدرجة من الحياة لا بدَّ من موت الشهوات والنَّفس الأمَّارة بالسوء، فبموت النَّفس حياة القلب.

لذا ورد في الحديث الشريف: «موتوا قبل أن تموتوا»[١].

وعن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ أولياء الله هم الَّذين نظروا إلى باطن الدُّنيا إذا نظر النَّاس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل النَّاس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا أنَّه سيتركهم»[٢].

وفي الحديث القدسي: «يابن آدم لا يخلص عملك حتَّى تذوق أربع موتات: الموت الأحمر، والموت الأصفر، والموت الأسود، والموت الأبيض.

الموت الأحمر: احتمال الجفاء وكفّ الأذى.

والموت الأصفر: الجوع والإعسار.

والموت الأسود: مخالفة النَّفس والهوى فلا تتبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله.

والموت الأبيض: العزلة»[٣].

كما لا بدَّ من إعمال الفكر والحكمة وذكر الله تعالىٰ.

عن الإمام علي عليه السلام: «وإنَّما ذلك بمنزلة الحكمة الَّتي هي حياة للقلب الميّت»[٤]. وعنه عليه السلام: «أحي قلبك بالموعظة».

---

(١) الرُّوح: ص٩١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة ١٣١.

النتيجة:

ممَّا تقدّم ندرك أهمية إعادة النظر في معنى الحياة والموت، ومعرفة من هم الأحياء ومَنْ هم الأموات، وبالتالي لا ننظر إلى ظاهر النَّاس وإنَّما إلى باطنهم، فكم من جميل الوجه ثري المال ولكن روحه ميتة والعكس صحيح!؟ وكم من قصور هي قبور مظلمة!؟ وكم من قبور هي أجمل من القصور؟ جاء في التوراة: «يا عبيد الدنيا إنّما مثلكم كالقبور المُجصّصة يُرى ظاهرها مليحاً وباطنها قبيحاً»[١].

فلْيكن تعظيماً لأهل الحياة وإن كانوا موتى ومعزولين ومحرومين... فإنَّ كلامهم حياة، ومجالستهم حياة...

إنَّ الَّذين ينظرون إلى ظاهر الأُمور يعظِّمون موتى الأجساد ويبكون عليهم، ويقيمون لهم المجالس... كما أنَّهم لا يبالون بما يموت من ضمير الإنسان وأخلاقه، بل يألفون ذلك، حتَّى إذا مات الجسد هربوا منه خوفاً.

أمَّا الَّذين ينظرون إلى باطن الأُمور ـ وهم الزُّهاد ـ فتعظيمهم يكون لموت قلوب الأحياء كما قال ﷺ، لذلك فإنَّهم يسعون جاهدين كي لا يُصاب الأحياء بموت القلوب، فيضعون لهم العلاجات الروحية المناسبة لهم، حتَّى إذا لم تنفع العلاجات وحصل الموت فإنَّهم لا يقتربون منهم لئلا يُصابوا بعدوى الموت.

وكما قال الشاعر:

وإذا أصيب النَّاس بأخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلا

فالحري بنا أن نسرع إلى معالجة مرضى النُّفوس ـ سواء كانوا

---

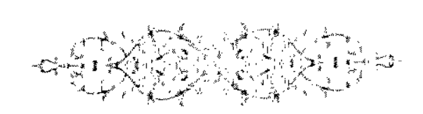
(١) كلمة الله، ص٤١٨.

أولادنا أم أرحامنا أم أصدقاءنا ـ لئلا يُصابوا بالموت وبالتالي نخسرهم وهم لا يزالون أحياء بيننا.

كما لا بدَّ من إعادة النظر في حياتنا... فهل نعيش الحيوية في طعامنا وشرابنا ومعاملاتنا وعلاقاتنا... أم إنَّ الموت محيط بنا من كل جانب؟!. أليس طعامنا ميتاً؟ أليس شرابنا ميتاً؟ أليس مَنْ حولنا من الأصدقاء أمواتاً؟

عن رسول الله ﷺ: «أربع مفسدة للقلوب... ومجالسة الموتى فقيل له: وما مجالسة الموتى؟ فقال ﷺ: مجالسة كلّ ضال عن الإيمان وجائر في الأحكام». وفي رواية: «كلّ غني مترف»[1].

لذلك، لنتوجه إلى مجالسة الأحياء... لتحيى قلوبنا... وبالتالي نشرب ماء الحياة... فنحيا في دار الحياة ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]... فنكون مع النَّبيِّن والصدِّيقين والشُّهداء حيث هم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].



(١) بحار الأنوار، ج١ ص٢٠٣.

الطريق إلى الجنَّة

عن الإمام علي عليه السلام:

«الفرائض الفرائض أدّوها إلى الله تؤدكم إلى الجنَّة»(١).

* * *

آدم والجنَّة:

خلق الله تعالى الإنسان وأسكنه الجنَّة ليعيش حياة سعيدة آمنة بلا خوف ولا جوع ولا عري ولا حاجة ولا نقص، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله عن آدم ـ الَّذي تمثلت به الإنسانية ـ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ١١٨-١١٩].

وعاش آدم عليه السلام في الجنَّة حتَّى أكل من ثمار الشجرة الَّتي نهاه الله تعالىٰ عن الاقتراب منها، فكان جزاؤه الخروج من الجنَّة والعيش على الأرض، قال تعالىٰ: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٦٧.

ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: ١٩-٢٤].

وهبط الإنسان الأوّل إلى الأرض ليعيش في عالم النقص، والجوع، والبلاء، والاختبار... إلّا أنّه ما زال يحنُّ إلى العالم الّذي جاء منه، ولذلك فهو يسعى بشتى الطرق للرجوع إليه... ولكنَّه مع ذلك قد يضيِّع الطريق أو يسقط فيها، ولذلك كان من الضروري في بداية الرجوع إلى الجنَّة من تحديد الطريق إليها، والدليل عليها، والزاد المناسب لها، والحذر من قطّاع الطريق...

حدِّد الهدف:

إنَّ ما يحتاجه الإنسان في البداية هو تحديد الهدف لأنَّ السير من دون هدف لا يُوصل الإنسان إلّا إلى الهاوية... وفي القصص الشعبية أنَّ رجلاً وصل إلى مفترق طرق ووقف حائراً أي الطرق يسلك فسأل رجلاً: أي طريق أسلك؟ فقال له: حدِّد أوّلاً ما هو هدفك حتّى أدلك على الطريق عن الإمام علي عليه السلام: «إن لم تعلم من أين جئت لم تعلم إلى أين تذهب»، لذلك يلزمنا في البداية تحديد الهدف وهو الوصول إلى الجنَّة، لأنَّنا من دون هدف سنضيع ونسقط في النّار، لأنَّ طريق الجنّة واحد والباقي طرق إلى النّار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩].

ما هو الطريق:

إنَّ الطريق إلى الجنَّة هو واحد لا يتعدد، وقد عبَّر عنه القرآن الكريم بأنَّه «الصِّراط المستقيم» فمن هدي إلى الصِّراط وسعى فيه فسيصل إلى الجنَّة، فإن كان الإنسان في الدُّنيا فطريقه إلى الجنَّة هو اتباع الإسلام والقرآن والنبي وأهل بيته عليهم السلام، وإن صار إلى الآخرة فطريقه هو الجسر الَّذي يُوضع فوق جهنَّم، فإن نجا في المرور عليه فقد فاز، وإلَّا سقط في النار.

فقد سُئل الإمام الصَّادق عليه السلام عن الصِّراط فقال: «هو الطريق إلى معرفة الله عزَّ وجلَّ وهما صراطان: صراط في الدُّنيا وصراط في الآخرة، فأمَّا الصِّراط في الدُّنيا فهو الإمام المفترض الطاعة، مَنْ عرفه في الدُّنيا واقتدى بهداه مرَّ على الصِّراط الَّذي هو جسر جهنَّم في الآخرة، ومَنْ لم يعرفه في الدُّنيا زلَّت قدمه عن الصِّراط في الآخرة فتردَّىٰ في نار جهنَّم»[1].

وعن الإمام العسكري عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] أنَّه قال: «... وأمَّا الطريق الآخر فهو طريق المؤمنين إلى الجنَّة الَّذي هو مستقيم»[2].

ومن الطبيعي أنَّ بين الطريقين ترابطاً وتناسباً، فمن اهتدى إلى الصِّراط الدنيوي فقد اهتدى إلى الصِّراط الأخروي، بل قد يُقال: إنَّ بينهما تلازماً، إذ الثاني هو انعكاس للأوَّل، قال السيِّد الطهراني رحمه الله: «حقيقة الدُّنيا ستظهر يوم القيامة وتتجلَّى في هيئة جهنَّم، وكلّ

---

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٦٦.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج١ ص٢٢.

النَّاس وُلدوا في الدُّنيا وسيمّرون على الصِّراط فوق جهنَّم كي يصلوا إلى الجنَّة» انتهى بتصرف[١].

الدليل إلى طريق الجنَّة:

إذا كان لكلّ طريق دليل يقود إليها، فإنَّ لطريق الجنَّة دليلاً، ويتمثَّل بالأنبياء والأولياء عليهم السلام ولذا عبَّر الله تعالى عنهم بأنَّهم «الهداة» قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وفي الحديث القدسي: «كما لا تهتدون السبيل إلّا بالدليل فكذلك لا تهتدون طريق الجنَّة إلّا بالعلم»[٢].

قطَّاع الطريق:

كما يوجد قطَّاع طريق يسلبون النَّاس أموالهم وأرزاقهم، ففي الطريق إلى الجنَّة قطَّاع يسلبون النَّاس عقولهم ليضلّوهم عن الطريق، وهؤلاء هم شياطين الجن والإنس، ولذا حذَّر الله تعالى منهم وذكَّرنا بأنَّ الشيطان هو الَّذي أنزل آدم من الجنَّة وهو الَّذي يقطع على النَّاس طريق الرجوع إليها، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

مخاطر الطريق إلى الجنَّة:

إنَّ الطريق إلى الجنَّة محفوف بالمخاطر والمكاره والبلاء، فمن جهة هناك الشَّيطان الَّذي يأتي من اليمين والشمال، ومن جهة أُخرى النَّفس

---

(١) معرفة المعاد: ج٨، ص١٠ ـ ١١.
(٢) كلمة الله: ص٤٢٠.

الأمَّارة بالسوء، والشهوات الَّتي تجذب إلى الدُّنيا ومن جهة ثالثة البلاء المحيط بالإنسان منذ الولادة حتَّى الوفاة...

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

عن رسول الله ﷺ: «الجنَّة محفوفة بالمكاره والصَّبر، فمن صبر على المكاره في الدُّنيا دخل الجنَّة، وجهنَّم محفوفة باللَّذَّات والشهوات فمن أعطى نفسه لذَّتها وشهوتها دخل النَّار»[1].

سُئل الإمام زين العابدين عليه السلام: كيف أصبحت يابن رسول الله؟ فقال عليه السلام: «أصبحت مطلوباً بثماني خصال: الله يطلبني بالفرائض، والنبي بالسُّنَّة، والعيال بالقوت، والنَّفس بالشهوة، والشيطان بالمعصية، والحافظان بصدق العمل، وملك الموت بالرُّوح، والقبر بالجسد، فأنا بين هذه الخصال مطلوب»[2].

يقول أحدهم: «إنَّ الطريق شاخ فيه نوح، وذُبح فيه يحيى، ونُشر فيه زكريَّا، وعُذِّب فيه محمَّد ﷺ وأنت تريده سهلاً؟!».

الطريق إلى الجنَّة؟

إنَّ الطريق إلى الجنَّة طويل حيث يمرُّ الإنسان بعوالم متعددة، لذلك لا بدَّ أن يهيىء الزاد المتناسب مع طول الطريق ووحشته، ولهذا فإنَّ ما ينبغي أن يوجد في داخل الإنسان هو الشوق إلى الجنَّة ففي بعض النصوص: «شوِّقوا أنفسكم إلى الجنَّة».

---

(١) معرفة المعاد: ج١، ص٩٥.

(٢) ميزان الحكمة، ج٢ ص١٥٥١.

ثمَّ العزم والإرادة، لأنَّ الَّذي أنزل آدم عليه السلام هو كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]. وعن الإمام علي عليه السلام: «لا تحصل الجنَّة بالتمني».

ثمَّ بعد ذلك اتباع الأدلّاء على الطريق والعمل بأوامرهم.

وبالرجوع إلى قصة آدم عليه السلام نجد أنَّه عليه السلام عاد إلى الجنَّة من خلال الأمور التالية:

١ ـ التوبة:

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّ آدم قام على باب الكعبة فقال: اللَّهمَّ أقلني عثرتي واغفر ذنبي وأعدني إلى الدَّار الَّتي أخرجتني منها، فقال الله تعالى: قد أقلتك عثرتك وغفرت ذنبك وسأعيدك إلى الدَّار الَّتي أخرجتك منها»(١).

عن ابن عبَّاس قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الكلمات الَّتي تلقى آدم عليه السلام من ربِّه فتاب عليه، قال: «سأل بحقِّ محمَّدٍ وعليٍّ وفاطمة والحسن والحسين ألّا تبت عليَّ؟ فتاب عليه».

٢ ـ ذكر الله تعالى:

وذلك لأنَّ الإعراض عن ذكر الله سبحانه وتعالىٰ هو السبب في الضياع والضلال قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

كما أنَّ نسيان آدم عليه السلام للعهد هو الَّذي أدّىٰ به إلى الخروج من

---

(١) كلمة الله: ص٥٧.

الجنَّة. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥].

وكما أنَّ الشيطان كان سبباً في نسيان آدم عليه السلام للعهد فهو جعل ذلك بالإنسان قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يُوسُف: ٤٢] وعليه، فمن الضروري ذكر الله تعالى في القلب وعلى اللِّسان وفي كلِّ الأحوال.

عن محمَّد بن مسلم، عن الإمام الباقر عليه السلام، سألته عن الكلمات الَّتي تلقَّاها آدم عليه السلام من ربّه فتاب عليه وهدى، قال: «**سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك إنِّي عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنَّك أنت الغفور الرَّحيم، اللَّهمَّ إنَّه لا إله إلَّا أنت سبحانك وبحمدك إنِّي عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي وأنت خير الغافرين، اللَّهمَّ إنَّه لا إله إلَّا أنت سبحانك وبحمدك إنِّي عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنَّك أنت الغفور الرَّحيم**».

٣ ـ التوسُّل بالنبي وآله (ع):

عن الإمام علي عليه السلام قال: «الكلمات الَّتي تلقاها آدم عليه السلام من ربِّه: «يا ربِّ أسألك بحقِّ محمَّدٍ لما تبت عليَّ» قال: وما علمك بمحمَّد؟ قال الله تعالىٰ: رأيته في سرادقك الأعظم مكتوباً وأنا في الجنَّة».

٤ ـ الصلاة:

عن الإمام الصَّادق عليه السلام لما هبط آدم عليه السلام من الجنَّة ظهرت فيه شامة سوداء من قرنه إلى قدمه، فبكى آدم عليه السلام فنزل إليه جبرئيل عليه السلام

وسأله: ما يبكيك؟ أجاب: هذه الشامة الَّتي في وجهي، فلما جاء وقت أوّل صلاة قال له جبرئيل عليه السلام: هذه أوّل صلاة فقم صلِّ، فصلَّى آدم عليه السلام الصلاة الأُولى فانحطت الشامة من قرنه إلى صدره، فلما جاء وقت الصلاة الثانية قال له جبرئيل عليه السلام: يا آدم هذا وقت الصلاة الثانية فصلِّها، فصلَّاها فانحطت الشامة من صدره إلى سره، فلما جاء وقت الصلاة الثالثة قال له: يا آدم هذا وقت الصلاة الثالثة قم صلِّ فانحطت إلى ركبته، فلما جاء وقت الصلاة الرابعة انحطت إلى رجله، فلما جاء وقت الصلاة الخامسة صلَّاها فخرجت تلك الشامة[١].

٥ ـ الحج:

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «أنَّ آدم عليه السلام بقي على الصفا أربعين صباحاً ساجداً يبكي على الجنَّة وعلى خروجه من جوار الله عزَّ وجلَّ، فنزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال: يا آدم عليه السلام ما لك تبكي؟ قال: يا جبرئيل ما لي لا أبكي وقد أخرجني الله من جواره وأهبطني إلى الدُّنيا، قال: يا آدم عليه السلام تب إليه، قال: وكيف أتوب إليه؟ فأنزل الله عليه قبَّة من نور في موضع البيت فسطع نورها في جبال مكَّة فهو الحرم فأمر الله تعالىٰ جبرئيل عليه السلام أن يضع عليه الأعلام»[٢].

وقد ذكرت النصوص جملة من الأعمال الَّتي تدخل الجنَّة منها:

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: ما عملٌ إن عملت به دخلت الجنَّة؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اشتر سقاء جديداً ثمَّ اسق فيها حتَّى تخرقها فإنَّك لا تخرقها حتَّى تبلغ عمل الجنَّة»[٣].

---

(١) الرواية منقولة بالمعنى. وللتفصيل راجع «علل الشرائع».

(٢) مستدرك الوسائل ٩: ٣٢٩/١١٠١٨.

(٣) ميزان الحكمة: مادة «جنَّة».

عن الإمام علي عليه السلام: «ضمنت لستة الجنَّة: رجلٌ خرج بصدقةٍ فمات فله الجنَّة، ورجلٌ خرج يعود مريضاً فمات فله الجنَّة، ورجلٌ خرج مجاهداً في سبيل الله فمات فله الجنَّة، ورجلٌ خرج حاجاً فمات فله الجنَة، ورجلٌ خرج إلى الجمعة فمات فله الجنَّة، ورجلٌ خرج في جنازة رجل مسلم فمات فله الجنَّة»[١].

الشوق إلى الجنَّة:

إنَّ الشوق إلى الجنَّة يولِّد في النَّفس السعي للعمل لها، والابتعاد عن العمل للدُّنيا، فالشوق إلى رؤية بهاء النَّبي محمَّد صلى الله عليه وآله يُنسي زينة الدُّنيا والشوق إلى رضوان الله تعالىٰ يزهّد في رضى النَّاس، عن الإمام علي عليه السلام: «من اشتاق إلى الجنَّة سلا عن الشهوات».

وعنه عليه السلام في وصف الجنَّة: «فلو شغلت قلبك إليها المستمتع بالوصول إلى ما يهيم عليك من تلك المناظر المونقة لزهقت نفسك شوقاً إليها».

ولهذا رأينا أصحاب الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء يتسارعون إلى الشهادة وشعارهم «أفلا نروح إلى الآخرة».

من دعاء للإمام علي عليه السلام: «اللَّهمَّ أنت دللت سُؤَّالك على الجنَّة قبل معرفتها، فأقبلت النَّفس بعد العرفان على مسألتها، أفتدلُّ على خيرك السّؤال ثمَّ تمنعهم النَّوال، وأنت الكريم المحمود في كلّ ما تصنعه يا ذا الجلال والإكرام»[٢].

---

(١) مستدرك نهج البلاغة: ج٩، ص٣٢٧.

(٢) الصحيفة العلوية: ص١٠٨.

الإنسان بين الدُّنيا والآخرة أو بين المنام واليقظة

عن الإمام علي عليه السلام:

«الدُّنيا حلم، والآخرة يقظة، ونحن بينهما أضغاث أحلام»[١].

* * *

هل يمكن أن تكون هذه الدُّنيا الَّتي نعيش فيها مجرَّد وهم أو خيال أو منام لا حقيقة له...؟ هل الدُّنيا هي دار الخداع والزيف والسراب...؟ هل يأتي يوم ندرك فيه أنَّ ما نحن فيه لا يستحق التهالك عليه، وأنَّ الآخرة هي دار الحق والحياة؟

إنَّ هذا الحديث العلوي يسلِّط الضوء على حقيقة الدُّنيا والآخرة فيقول:

«الدُّنيا حلم»:

فكما أنَّ الحلم لا واقع له فكذلك لا واقع للدُّنيا بما فيها من أفراح وأتراح وملذَّات ومُنغصِّات، فكلّ ذلك إلى زوال.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٤، ص٥٦٣.

عن الإمام الحسين عليه السلام «واعلموا أنَّ الدُّنيا بحلوها ومرّها حلم».

وكما أنَّ مدّة الحلم قصيرة ـ أطول حلم لا يتجاوز دقائق معدودة ـ كذلك الدُّنيا. قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧].

وكما أنَّ للحلم بداية ونهاية كذلك الدُّنيا، رُوي أنَّ جبرئيل عليه السلام قال لنوح عليه السلام: «يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدُّنيا؟ قال عليه السلام: كدار لها بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر»(١).

يقول أحدهم: «ما الدُّنيا من أوَّلها إلى آخرها إلَّا كرجل نام فرأى في نومه بعض ما يُحبّ ثمَّ انتبه فلم يرَ شيئاً».

يقول الشاعر:

إنَّما الدُّنيا كظلّ زائل أو كضيف بات ليلاً فارتحل
أو كحلم قد رآه نائم فإذا ما ذهب اللَّيل بطل

النَّاس نيام:

والنَّاس في عالم الحُلم ـ أي الدُّنيا ـ مستغرقون، لا ينتبهون إلى حقيقة الحياة الدُّنيا والحياة الحقيقية الأُخرى، وعلى حدّ تعبير الإمام علي عليه السلام: «النَّاس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»(٢).

فالإمام عليه السلام يعبِّر عن النَّاس بأنّهم نيام لأنَّهم مشغولون بالتكاثر والتفاخر، ومستغرقون في الدُّنيا الَّتي هي حلم زائل... فصحيح أنَّهم

(١) ميزان الحكمة: مادة «الدُّنيا».
(٢) عوالي اللئالي، ج٤ ص٧٣.

يمشون على الأرض وآذانهم تسمع وعيونهم مفتَّحة، إلَّا أنَّهم نيام لا يشعرون، لأنَّ قلوبهم وأرواحهم في نومٍ عميق، فهم كالنيام الَّذين يمشون وهم في غيبوبة.

وعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «أهل الدُّنيا كركب يُسار بهم وهم نِيام»[١].

فكما أنَّ النائم في القطار أو السفينة مستغرق في أحلامه حتَّىٰ وصول القطار إلى هدفه، كذلك أهل الدُّنيا فإنَّهم مستغرقون في دُنياهم حتَّىٰ يأتيهم الموت.

يُقابل هؤلاء: الرِّجال العظماء الَّذين ينامون وقلوبهم مفتوحة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «تنام عيني ولا ينام قلبي».

ويقول السيِّد السبزواري رحمه الله عن بعض أساتذته أنَّه كان أثناء بحث التفسير ينام مع أنَّه كان مشغولاً بالتدريس ومن النَّاس من يُصاب بنوم فتجري على لسانه أسرار وأنوار، ولا استبعاد في ذلك بعد ثبوت ذلك في التنويم المغناطيسي.

المجتمع النائم:

من الطبيعي أنَّ نوم النَّاس وغفلتهم ينعكس على حياتهم الاجتماعية فيتفرقون ويتنابذون ويتقاتلون... وذلك لأنَّ كلّ فرد من أفراد المجتمع سيستغرق في أحلامه الخاصَّة عند النوم، وبالتالي يعيش في ذاته وفرديته، لذا يقول الفيلسوف هيرقليطس: «إنَّ الأشياء في نظر أهل اليقظة تنظيم واحد مشترك، أمَّا الغارقون في النوم فإنَّ كلاً منهم مستغرق في عالمه الذاتي الخاص».

---

(١) ميزان الحكمة: ص٦٢.

ويساعد على ذلك وجود بعض الأفراد الَّذين يعمدون إلى تنويم النَّاس وتخديرهم اجتماعياً بشتى الطرق الدينية ـ كبني أُميَّة الَّذين أشاعوا فكرة التسليم بالقضاء والقدر للسيطرة على حياة النَّاس ـ والسياسية والاقتصادية والفكرية، ليطول بذلك ليل النَّاس وبقاءهم في الظلام.

ولكن التاريخ شاهد على وجود قلَّة نادرة تبقى مستيقظة دائماً في وسط المجتمع النائم، فكما أنَّ الأُم تستيقظ لتسهر على سلامة ولدها، فإنَّ العظماء يسهرون على سلامة المجتمع وهم الأنبياء والأولياء والمصلحون والشُّهداء وغيرهم من أصحاب العقول المتوقدة، ومهمتهم هي تنبيه النيام وإيقاظهم من سُباتهم، ولذا تراهم ينادون النَّاس بالقول: استيقظوا، انتبهوا، تفكَّروا احذروا تفكَّروا، وكما عن الإمام علي عليه السلام: «ألا مستيقظ من غفلته قبل نفاد مدَّته؟!» و«ألا منتبه من رقدته قبل حين منيته؟!».

وإذا لم ينتفع النَّاس بالكلام لاستغراقهم في التنويم والتخدير فإنَّ الأمر يحتاج إلى ما يشبه الهزَّة والصدمة العنيفة، وهنا يأتي دور الجهاد والشهادة لتكون دماء الشُّهداء بمثابة الضربة الَّتي توقظ المجتمع من غفلته.

وإذا لم يستيقظ بأية طريقة فإنَّهم في النهاية سيستيقظون عند الموت. ولذا، قال عليه السلام: «إذا ماتوا انتبهوا» و«استيقظوا».

فالموت هو بوابة الدخول إلى عالم الآخرة الَّذي هو عالم الحقيقة ومن هنا قال عليه السلام:

«والآخرة يقظة»:

فكما أنَّ النائم يستيقظ فتزول أحلامه الوهمية ويفتح عينيه على

عالم الدُّنيا كذلك الحال في الموت فإنَّه يقظة الإنسان من حلم الدُّنيا وانفتاحه على عالم الحقيقة والواقع، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

«ونحن بينهما أضغاث أحلام»:

والأضغاث مجموعة من العشب اليابس والأخضر، قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [الأنبياء: ٥] فكما أنَّ الأحلام تشتمل على الخير والشَّر والنافع والضَّارُّ، فإنَّنا في الدُّنيا أضغاث أحلام، فإمَّا أن نكون كالحلم الجميل أو القبيح.

النتيجة:

إذا كانت الدُّنيا حلماً والآخرة يقظة فحريّ بنا:

١ ـ **أن لا نستغرق في أحلام الدُّنيا**، لأنَّنا بذلك نخسر الآخرة.

عن رسول الله ﷺ: «الدُّنيا ساعة فاجعلوها طاعة».

عن الإمام علي عليه السلام: «ضادّوا الغفلة باليقظة».

٢ ـ أن نطلب الآخرة ليلاً ونهاراً وقد وصف الإمام علي عليه السلام جماعة بأنَّهم «باعوا الآخرة بنومة»[1].

٣ ـ **أن ننظر بعين البصيرة إلى الدُّنيا** لنميِّز ما فيها من خير أو من شرّ، فعن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ أولياء الله هم الَّذين نظروا إلى باطن الدُّنيا إذا نظر النَّاس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل النَّاس

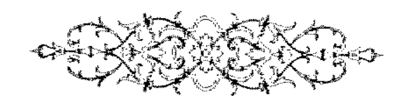
(١) شرح ابن أبي الحديد: ج٤، ص٥٧٢.

بعاجلها، فأماتوا معها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنَّه سيتركهم».

٤ ـ **أن نستيقظ من نومنا**، فإنَّ الأولياء عليهم السلام يقولون لنا: «موتوا قبل أن تموتوا» أي استيقظوا بإرادتكم قبل أن تستيقظوا بغير إرادتكم بعد الموت.

فائدة: إذا دُعينا إلى نوم الدُّنيا فلْنرفضه، ولكن إذا دُعينا إلى نوم الآخرة فلنسرع إليه، لأنَّ في ذلك النوم حياة ويقظة يقول أحدهم: «إنَّ الطفل يتمرَّد حين تحين ساعة النوم وحين تناديه أُمّه للرقاد، ولكنَّه يعلم في قرارة نفسه أنَّه لن يلبث أن يتغلب عليه، وأنَّ الفراش نعمة لا تُقدَّر، فهل سنعترض على الموت عندما يحين وقته ويأتينا ملك الموت أم سنشتاق إليه اشتياقنا للرقاد في الفراش...؟».

عن الإمام الباقر عليه السلام: «إذا وُضع الرجل في قبره أتاه ملكان (إلى أن قال) فيقولان له: نم نومة لا حُلم فيها»[1].



---

(١) دار السلام: ج١، ص٣٤.

باب الجنّة

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«الموت باب الآخرة».

* * *

الأبواب:

من الطبيعي أنَّ لكل شيء «باب» يُدخل منه إلى المقصود، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لكلِّ شيء باب».

وهذا الباب مناسب للشيء الَّذي تريده، فإن كان الَّذي يُراد الدخول إليه مادياً كالبيوت والرجال وما أشبه كان بابه مادياً، وإن كان المراد معنوياً كان بابه معنوياً.

قال تعالى: ﴿...وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ومن مصاديق الأبواب المادية والمعنوية:

باب البيوت:

وهو المصداق الأبرز لمعنى الأبواب، حيث اعتاد النَّاس على جعل أبواب لبيوتهم وقصورهم وحدائقهم، وقد تغيَّرت الأبواب عبر التاريخ لاختلاف الأمكنة والقرى.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿...وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩] إنَّ المُحرِمين للحج في الجاهلية كانوا لا يدخلون بيوتهم من أبوابها وإنَّما كانوا ينقِّبون في مؤخرها فيدخلون ويخرجون، فنهُوا عن ذلك(١).

ولا شك أنَّ للأبواب حرمة تبعاً للبيوت، ولهذا كان النبي محمَّد ﷺ يظهر تعظيمه لأهل البيت عليهم السلام فكان يقف على باب بيتهم ويسلِّم عليهم ويقول: «السَّلام عليكم يا أهل بيت النُّبوَّة» ثمَّ يقرأ آية التطهير وهي قوله تعالى: ﴿...إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقد أمر النبي محمَّد ﷺ بسدّ الأبواب إلى المسجد إلَّا باب بيت الإمام علي عليه السلام فقد تركه مفتوحاً إلى المسجد بأمر الله تعالى.

باب الله تعالى:

جاء في تفسير الآية المباركة: ﴿...وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩] عن الإمام الباقر عليه السلام أنَّه قال: «يعني أن يأتي الأمر من وجهه، أيّ الأُمور كان»(٢).

فإذا أراد العبد الدخول إلى رحاب الله تعالى فلا بدَّ له أن يأتي من وجهه وبابه، وإلَّا كانت عبادته مرفوضة مهما فعل.

وهذه الأبواب إلى الله تعالىٰ موجودة في كل زمان ومكان، ففي

(١) معرفة الإمام: ج١١، ص٤٣.
(٢) معرفة الإمام: ج١١، ص٤٥.

بداية الخلق كان آدم عليه السلام باب الله تعالى، بحيث إنَّ الله تعالى لم يقبل إبليس لأنَّه لم يدخل إليه من باب آدم، ففي الرواية أنَّ إبليس لما رفض السجود لآدم عليه السلام قال: يا رب اعفني من السجود لآدم وأنا أعبدك عبادة لم يعبدكها ملك مقرَّب ولا نبي مرسل، فقال الله عزَّ وجلَّ: لا حاجة لي إلى عبادتك إنَّما أريد أن أُعبد من حيث أُريد لا من حيث تُريد».

وبعد ذلك كان نوح عليه السلام باب الله في زمانه، وبعده إبراهيم عليه السلام وبعده موسى عليه السلام وبعده عيسى عليه السلام، ففي رواية أنَّ عابداً من بني إسرائيل تفرّغ للعبادة أربعين يوماً وهو يدعو فلم يُستجب له فشكا إلى عيسى عليه السلام، فتطهَّر عيسى وصلَّى ثمَّ دعا الله تعالى فأوحى الله إليه «يا عيسى إنَّ عبدي أتاني من غير الباب الَّذي أُوتي منه، إنَّه دعاني وفي قلبه شك منك».

وبعد عيسى كان النبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم باب الله تعالى وبعده الإمام علي عليه السلام وأولاده المعصومون عليهم السلام، فعن الإمام الباقر عليه السلام: «آل محمَّد أبواب الله وسبيله والدعاة إلى الجنَّة».

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «الأوصياء هم أبواب الله الَّتي يُؤتى منها ولولاهم ما عُرف الله» وورد أنَّهم عليهم السلام: «باب الإيمان» «باب النجاة» وباب الهُدى» و«باب الجنَّة».

مما تقدم نستفيد ما يلي:

أوَّلاً: أنَّ الدخول إلى الدِّين الإسلامي ومعرفة الله والقرآن والنبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم إنَّما هو منحصر بالإمام علي وأولاده المعصومين عليهم السلام لأنَّهم من أهل العصمة والطهارة والعلم والكمال، فمن دخل في الإسلام من غير هذا الباب فقد تاه عن الصراط لأنَّ الأبواب الأُخرى لا توصل إلى

الإسلام الحقيقي بل إلى الإسلام المشوّه، ولهذا وجدنا أنَّ الَّذين أرادوا التعرف على الإسلام من الأبواب الأُخرى وعبر كتب الحديث والتاريخ والتفسير المخالفة للأئمَّة عليهم السلام قد حملوا صورة مشوَّهة عن الإسلام والنبي محمَّد صلى الله عليه وآله، فحكموا على الإسلام بأنَّه دين الإرهاب والسيف، وحكموا على النبي الأعظم صلى الله عليه وآله بأنَّه رجل الحرب والنِّساء والعياذ بالله، وما الكتب الَّتي تحارب الإسلام وتشوّه صورة النبي محمَّد صلى الله عليه وآله إلَّا انعكاس لما في الأبواب المخالفة لأهل البيت عليهم السلام.

فإذا أردنا أن نعرِّف العالم على الإسلام وعلى نبينا محمَّد صلى الله عليه وآله فلنعرِّفهم على الأئمَّة عليهم السلام فهم الصورة الناصعة الَّتي تعكس الدِّين الحق، عن الإمام الباقر عليه السلام: «من أتى آل محمَّد أتى عيناً صاخبة تجري بعلم الله ليس لها نفادٌ ولا انقطاع» وعنه عليه السلام: «كل ما لم يخرج من هذا البيت فهو باطل».

إنَّ من يريد التعرف على الإسلام فعليه أن يتعرف على أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن أراد أن يعرف رسول الله صلى الله عليه وآله فعليه أن يعرف الإمام علي عليه السلام فقد كان عليه السلام يتبع النبي محمَّداً صلى الله عليه وآله في حلّه وترحاله ويقظته ومنامه حتَّى أنَّ من أراد التقرُّب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته كان يتقرَّب إلى الإمام علي عليه السلام، ومن أراد أن يعرف رسول الله صلى الله عليه وآله حقَّ معرفته كان ينظر إلى الإمام علي عليه السلام.

عن عائشة: «أيُّها النَّاس انظروا إلى علي بن أبي طالب كأنَّه رسول الله صلى الله عليه وآله بين أصحابه».

عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب».

وعنه ﷺ: أنَّه قال: «أنا مدينة الحكمة وعليٌّ بابها، وأنا دار الحكمة وعليٌّ مفتاحها».

ومن لطيف ما نُقل أنَّ أعرابياً دخل المسجد فبدأ بالسلام على الإمام علي عليه السلام فضحك الحاضرون، وقالوا له في ذلك، فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها» وفعلت كما أمر النبي ﷺ(١).

ثانياً: أنَّ الدخول إلى الدِّين الإسلامي من باب ولاية الإمام علي عليه السلام يقتضي الطاعة المطلقة له عليه السلام في كل الأقوال والأفعال، فمثله عليه السلام كباب حطّة.

وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [البقرة: ٥٨].

إنَّ بني إسرائيل دخلوا الباب خاضعين خاشعين، وهو الدخول المناسب للأرض المقدَّسة، ويصح تعدِّيه إلى كل مكان مقدَّس ـ كالكعبة والنجف الأشرف ـ ولكل إنسان مقدَّس.

ولذا ورد عن رسول الله ﷺ: «لكل أُمَّة صدِّيق وفاروق، وصدِّيق هذه الأُمَّة وفاروقها علي بن أبي طالب، إنَّ علياً سفينة النجاة وباب حطتها».

ثالثاً: إنَّ الباب الموصل إلى الله تعالى في عصرنا الحاضر هو الإمام المهدي عليه السلام ففي دعاء الندبة: «أين باب الله الَّذي منه يُؤتى».

---

(١) سفينة البحار: مادة «أبواب».

رابعاً: إنَّ من يعتدي على أبواب الله تعالى هو كافر وظالم... فكيف بمن يحرقها عليهم؟!

خامساً: إنَّ من يريد التقرُّب إلى الله تعالى لقضاء حوائجه فعليه أن يتوسَّل بأهل البيت عليهم السلام وخصوصاً الإمام الكاظم عليه السلام فهو المعروف بـ«باب الحوائج إلى الله تعالى».

باب العبادة:

لقد منح الله تعالى عباده أبواباً إلى رحمته وعفوه أهمها: باب «**التوبة**» ففي المناجاة: «إلٰهي أنت الَّذي فتحت لعبادك باباً إلى عفوك ورحمتك سمَّيته التوبة».

وباب «**العبادة**» ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لكلِّ شيء باب، وباب العبادة التوبة».

وما دامت الأبواب مفتوحة فينبغي لنا أن نقف عندها كثيراً ونطرقها فإنَّ من قرع الباب أوشك أن يُفتح له، فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «أكثر من الدُّعاء فإنَّه مفتاح كل رحمة، ونجاح كل حاجة، ولا يُنال ما عند الله إلَّا بالدُّعاء، وليس باب يكثر قرعه إلَّا يوشك أن يُفتح لصاحبه»[١].

قيل: إنَّ رجلاً كان يسرق أموال النَّاس، ويصلِّي الصلوات الواجبة فقيل له: إنَّ الله تعالى لن يقبل صلاتك، فقال: إنَّ بيني وبين الله أبواباً مغلقة فأحببت أن أترك باباً مفتوحاً، ومرَّت الأيَّام وإذا به يتحول إلى تائب عابد.

قال أحدهم: «طرقت الأبواب إلى الله تعالىٰ وكلَّما طرقت باباً

---

(١) ميزان الحكمة: باب «الدُّعاء»، ج٢ ص٨٧٣.

وجدت عليه آلافاً من النَّاس، فطرقت باب الصَّلاة فوجدت عليه الآلاف وهكذا الحال في باب الصيام والزكاة وقيام اللَّيل، فطرقت باب الذُّلّ فوجدته فارغاً لا يدخله إلَّا القليل فدخلت منه».

جاء في مناجاة الخائفين: «إلٰهي لا تغلق على موحِّديك أبواب رحمتك».

باب السَّماء:

قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾ [النَبإ: ١٩].

باب الجنَّة:

ذكر الله تعالى في كتابه أنَّ للجنَّة أبواباً، منها قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزُمَر: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ [صَ: ٥٠].

ولم يذكر القرآن الكريم عدد الأبواب، وإنَّما جاء في الروايات أنَّ عددها ثمانية.

ولعلَّ هذا العدد إشارة إلى أنَّ الوصول إلى الجنَّة يتمثل بطرق عديدة. ومن أبرزها: الولاية لآل محمَّد ﷺ ثمَّ العمل الصالح فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنَّه قال لعلي: «أنا مدينة الجنَّة وأنت بابها».

وعنه ﷺ: «ألا وإنَّ الحسين باب من أبواب الجنَّة من عانده حرَّم الله عليه ريح الجنَّة»[1].

---

(١) سفينة البحار: مادة «أبواب».

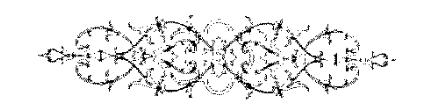
عن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ الجهاد باب من أبواب الجنَّة فتحه الله لخاصة أوليائه».

باب الآخرة:

عن الإمام علي عليه السلام: «الموت باب الآخرة».

إنَّ هذا الحديث يعني أنَّ الموت ليس فناءً وعدماً ـ كما يدّعي الماديون ـ وإنَّما هو نافذة يطل الإنسان من خلالها على عالم الآخرة، ولذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «ما خُلقتم للفناء بل خُلقتم للبقاء، وإنَّما تنتقلون من دار إلى دار».

وعن الإمام الحسين عليه السلام أنَّه قال لأصحابه: «صبراً يا كرام فما الموت إلَّا قنطرة تعبر بكم من البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائم».



الحسنات زاد الآخرة

عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال لكميل بن زياد:

«يا كميل إنَّ الله لا يسألك إلَّا عمَّا فرض، وإنَّما قدَّمنا عمل النوافل بين أيدينا للأهوال العظام والطامة يوم القيامة»[١].

* * *

السفر إلى الآخرة:

السفر على قسمين: سفر في الدُّنيا وسفر من الدُّنيا

والسفر الأوَّل: من أرض إلى أرض.

والسفر الثاني: من عالم إلى عالم... من عالم الدُّنيا إلى عالم القبر، ومن القبر إلى الحشر، ومن الحشر إلى النشر، ومن النشر إلى الموقف، ومن الموقف إلى الحساب، وإلى الميزان وإلى الصراط، ثمَّ إلى حيث «قُضي الأمر».

والسفر الأوَّل فيه رجوع إلى الوطن والأهل.

(١) موسوعة الإمام علي عليه السلام للقرشي: ج٦، ص٥٧.

والسفر الثاني لا رجوع فيه. رُويَ أنَّ الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام مرَّ بقوم مات لهم ميِّت، فوقف عليهم فعزَّاهم قائلاً: «يا هؤلاء، إنَّ الموت ليس بكم بدأ، ولا بكم انتهى، فهل كان ميِّتكم يسافر؟ قالوا: نعم، قال: فعدُّوا هذه من بعض أسفاره، فإن قدم عليكم، وإلَّا فأنتم قادمون».

وللسفر إلى عالم الآخرة هدف وغاية هو «لقاء الله تعالى».

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: ٦]. فالإنسان منذ ولادته كُتب عليه السير بتعبٍ «وهو معنىٰ الكدح» إلى ملاقاة الله تعالىٰ، وهذا هو الهدف والغاية من الخلق.

أهوال السفر:

وسيلاقي الإنسان في هذا السفر إلى عالم الآخرة أهوالاً عظيمة ومخيفة، كأهوال القبر وما فيه من ألوان العذاب، وأهوال الآخرة وما فيها من نشر وحشر وسؤال وحساب وميزان وصراط وغير ذلك ممَّا عُبِّر عنه في النصوص الشريفة بـ«الطامة الكبرى» و«الفزع الأكبر».

رُوي أنَّ الإمام الحسن عليه السلام كان يبكي عند الموت ويقول: «أبكي لخصلتين: لهول المطلع وفراق الأحبَّة»[(١)].

ومعنى «هول المُطّلع» أي أنَّ الإنسان سينكشف له الغطاء بعد موته عن العالم الآخر ويطّلع على أُمور غيبية مخيفة، فيأخذه الهول والفزع، ولذا فقد ورد عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: «لا تفدح ميتك بالقبر، ولكن ضعه أسفل منه بذراعين أو ثلاثة حتَّى يأخذ أهبته»[(٢)].

---

(١) الوسائل: ج٢، ص١٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٨.

وفي حديث المعراج عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «فقلتُ: يا عزرائيلُ أرِني صورتَك الَّتي تقبضُ فيها أرواح الأشقياء.

فقالَ: يا مُحمَّد إنَّكَ لا تستطيع ذلك.

قلتُ: أقسمتُ عليكَ إلَّا أريتني ذلكَ.

قالَ: فتجلَّى عزرائيلُ، فإذا الدُّنيا قد صارت في قبضتِهِ كالدِّرهم في يَدِ أحدكُم يُقلِّبُهُ كيف شاء، فطارَ عقلي، وذُهِلَ لبِّي، وارتعدت فرائصي، وغشي على بصري، فمرَّ جبرائيلُ بجناحيهِ على فؤادي ووجهي فأفقتُ.

وقلتُ: يا جبرائيلُ ما أشدَّ ملَكَ الموتِ وأهوالِهِ.

فقالَ: يا مُحمَّد وأهولُ مِنْهُ منكرٌ ونكيرٌ، وأشدُّ منها هَوْلُ المُطَّلع، فهو أعظمُ الأهوال.

قلتُ: وما هو المُطَّلع؟

قالَ: هَوْلٌ عظيمٌ، وهو أنَّ المرْءَ إذا ماتَ مغضُوباً عليه مِنَ الله، ووُضِعَ علىٰ سريره، وأُنْزِلَ إلىٰ حفيرتِهِ، يرىٰ وادياً مَهُولاً لا يعرفُ أوَّلَهُ مِنْ آخرِهِ، فيهِ حيَّاتٌ كالنَّخلِ، وعقارب كالبغالِ، فاتحاتٍ أفواهَهُنَّ، يُرِدْنَ ابتلاعَهُ، فينظرُ يميناً وشمالاً فلا يرى أحداً يؤانِسهُ إلَّا تلكَ الحيَّاتِ والعقارب، كُلٌّ منها يُريدُهُ لِنفْسهِ، فيُنادي من فزعِهِ برفيعِ صوتِهِ: واأبعدَكُم يا أهلي عنِّي»![1].

زاد السفر:

ولبعد السفر، وأهواله، لا بدَّ للإنسان أن يُقدِّم زاداً يعينه في

---

(١) الإسراء والمعراج.

مسيرته قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨﴾ [الحشر: ١٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠].

عن الإمام الصّادق عليه السلام: «إنّنا شفعاؤكم يوم القيامة، ولكن تزودوا لبرزخكم»[١].

وهذا الزّاد هو زاد معنوي وليس مادياً، وهو يتقوم بأمرين:

الأوّل: تقوى الله تعالى: أي فعل الواجبات وترك المحرمات قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

الثاني: الحسنات: وهو ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام بقوله: «إنّما قدّمنا عمل النوافل بين أيدينا للأهوال العظام والطامّة يوم القيامة» فالنوافل هي الحسنات والمثوبات وما هو زائد عن الواجبات والفرائض[٢].

قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ۝٨٩﴾ [النمل: ٨٩].

عن سويد بن غفلة: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام يوماً وليس في داره سوى حصير رثّ وهو جالس عليه فقلت: يا أمير المؤمنين أنت ملك المسلمين والحاكم عليهم وعلى بيت المال وتأتيك الوفود وليس في بيتك سوى هذا الحصير؟! فبكى عليه السلام وقال: «يا سُويد إنّ اللبيب لا يتأثّث في

---

(١) الأربعون حديثاً: ص٤٣٣.

(٢) جعل الإسلام لكلِّ فريضة من الفرائض نوافل من جنسها فللصلاة نوافل، وللزكاة نوافل وللصيام نوافل وهكذا وبهذه النوافل يصل الإنسان إلى المقامات العُليا قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩].

دار النُقلة، وأمامنا دار المُقامة قد نقلنا إليها، ونحن منقلبون إليها عن قريب»[١].

وقيل: دخل رجل على سلمان الفارسي فلم يجد في بيته إلَّا سيفاً ومصحفاً فقال له: ما في بيتك إلَّا ما أرى؟ فقال (رض): إنَّ أمامنا عقبة كؤوداً وإنَّنا قدَّمنا متاعنا إلى المنزل أوَّلاً فأوَّلاً»[٢].

أهمية الحسنات:

والسبب في أهمية الحسنات للنجاة في الآخرة هو لأنَّها:

١ ـ تذهب السيِّئات: قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤]، فكما أنَّ السيِّئات تجتمع ـ كاجتماع الحطب الصغير ـ فمثلاً في اليوم الواحد قد يحدث كذب وغيبة وظلم وأذية وسماع الأغاني إلى ما هنالك ممَّا يُعدّ مِنْ السيِّئات، كذلك فإنَّ الحسنات تجتمع وتمحو السيِّئات، كالاستغفار والذكر وصلة الرحم ومساعدة النَّاس وغيرها ممَّا يُدرج في الإيجابيات.

عن الإمام علي عليه السلام: «سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: آية في كتاب الله ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤] يا علي والَّذي بعثني بالحق بشيراً ونذيراً إنَّ أحدكم ليقوم إلى وضوئه فتساقط عن جوارحه الذُّنوب، فإذا استقبل الله بقلبه ووجهه لم ينفتل وعليه من ذنوبه شيء كما ولدته أُمّه... ثمَّ قال: يا علي إنَّما منزلة الصلوات الخمس لأُمَّتي كنهر جار على باب أحدكم، فما يظن أحدكم إذا كان في جسده درن ثمَّ اغتسل

---

(١) مستدرك نهج البلاغة: ج١، ص٦٤٦.

(٢) نفس الرَّحمٰن: ص٥٥٤.

في ذلك النهر خمس مرّات كان يبقى في جسده درن؟ فكذلك والله الصلوات الخمس لأُمّتي».

٢ ـ **ثقل الميزان**: فكُلّ إنسان يحتاج في ذلك العالم إلى حسنات تثقل ميزانه لقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ٦-١١].

عن النَّبيّ ﷺ: «إنَّ الخلائق إذا عاينوا القيامة ودقّة الحساب وأليم العذاب، فإنَّ الأب يومئذٍ يتعلّق بولده فيقول: إي بني.. أيّ أب كنت لك في دار الدُّنيا؟ ألم أربّك وأغذّك وأطعمك من كدّي، وأكسك وأعلّمك الحكم والآداب وأدرّسك آيات الكتاب، وأزوّجك كريمة من قومي؟؟ أما أنفقت عليك وعلى زوجتك في حياتي، وآثرتك على نفسي بما لي بعد وفاتي؟ فيقول: صدقت في ما قلت يا أبي، فما حاجتك؟

فيقول: يا بني إنَّ ميزاني قد خفَّ ورجحت سيّئاتي على حسناتي، وقالت الملائكة: تحتاج كفّة حسناتك إلى حسنة واحدة حتّى ترجح بها، وإنّي أريد أن تهب لي حسنة واحدة أثقل بها ميزاني في هذا اليوم العظيم خطره.

فيقول الولد: لا والله، لا يا أبي، إنّي أخاف ممّا خفته، ولا أطيق أن أعطيك من حسناتي شيئاً. قال: فيذهب عنه الأب باكياً ندماً على ما كان أسدى إليه في دار الدُّنيا.

وكذلك الأُمّ تلقى ولدها في ذلك اليوم فتقول: يا بني ألم يكن بطني لك وعاء؟! فيقول: بلى يا أُمّاه، فتقول: ألم يكن ثدياي لك سقاء؟ فيقول: بلى يا أُمّاه، فتقول له: إنَّ ذنوبي أثقلتني فأريد أن تحمل عنّي ذنباً واحداً فيقول: إليك عنّي يا أُمّاه فإنّي مشغول بنفسي. فترجع عنه باكية.

وذلك تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

قال: ويتعلّق الزوج بزوجته فيقول: يا فلانة: أي زوج كنت لك في الدُّنيا فتثني عليه خيراً؟ فتقول: نِعمَ الزوج كنت لي، فيقول لها: أطلب منك حسنة واحدة لعلّي أنجو بها ممّا تريني من دقّة الحساب وخفَّة الميزان والجواز على الصِّراط، فتقول له: لا والله إنِّي لا أطيق ذلك، وإنِّي لأخاف مثلما تخاف أنت. فيذهب عنها بقلب حزين حيران. وذلك تأويل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]. يعني أنَّ النَّفس المثقلة بالذُّنوب تسأل أهلها وقرابتها أن يحملوا عنها شيئاً من أحمالها وذنوبها، فإنَّهم لا يحملونه، بل يكون حالهم يوم القيامة نفسي نفسي. كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس: ٣٤-٣٧][1].

ومن هنا ورد أنَّ أكثر ما يتمنّاه الموتى في قبورهم هو مزيد من الحسنات.

عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «مثل الميّت في قبره مثل الغريق يتعلّق بكلِّ شيء، ينتظر دعوة من ولده أو والد أو أخ أو قريب، وإنّه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال، وهو للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء، فيدخل الملك على الميِّت معه طبق من نور عليه منديل من نور فيقول: هذه هدية لك من عند أخيك فلان، من عند قريبك فلان، فيفرح كما يفرح الحيّ بالهدية»[2].

---

(١) دروس في تفسير القرآن: ج١، ص١٢٣.

(٢) الفضيلة الإسلامية: ص٧٢.

وعنه ﷺ: «عباد الله أطيعوا الله في أداء الصلوات المكتوبات والزكوات المفروضات، وتقرَّبوا بعد ذلك إلى الله بنوافل الطاعات، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يعظِّم به المثوبات.

والَّذي بعثني بالحقِّ نبيّاً إنَّ عبداً من عباد الله ليقف يوم القيامة موقفاً يخرج عليه من لهب النَّار أعظم من جميع جبال الدُّنيا حتَّىٰ ما يكون بينه وبينها حائل، بينما هو كذلك إذ تطاير من الهواء رغيف أو حبَّة فضَّة قد واسى بها أخاً مؤمناً على إضافته فتنزل حواليه فتصير كأعظم الجبال مستديراً حواليه، وتصدُّ عنه ذلك اللَّهب، فلا يصيبه من حرِّها ولا دُخانها شيء إلى أن يدخل الجنَّة.

قيل: يا رسول الله وعلى هذا يقع مواساته لأخيه المؤمن؟! فقال رسول الله ﷺ: والَّذي بعثني بالحقِّ نبيّاً إنَّه لينفع بعض المؤمنين بأعظم من هذا، وربَّما جاء يوم القيامة من تمثّل له سيِّئاته وحسناته وإساءته إلى إخوانه المؤمنين ـ وهي الَّتي تعظم وتتضاعف فتمتلىء بها صحائفه ـ وتفرَّق حسناته على خصمائه المؤمنين المظلومين بيده ولسانه، فيتحيَّر ويحتاج إلى حسنات توازي سيِّئاته، فيأتيه أخ له مؤمن قد كان أحسن إليه في الدُّنيا فيقول له: قد وهبت لك جميع حسناتي بإزاء ما كان منك إليَّ في الدُّنيا، فيغفر الله له بها، ويقول لهذا المؤمن: فأنت بماذا تدخل جنَّتي؟ فيقول: برحمتك يا ربّ: فيقول الله: جدت عليه بجميع حسناتك ونحن أولى بالجود منك والكرم، وقد تقبَّلتها عن أخيك وقد رددتها عليك وأضعفتها لك، فهو أفضل أهل الجنان»[1].

ولذا نجد في حياة الأولياء أنَّهم كانوا يعملون على جمع المزيد من الحسنات، فقد رُوي أنَّ الإمام عليّاً عليه السلام ومرثداً أرادا أن يُركبا النبي

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص٣٠٠.

محمَّد ﷺ على الجمل ويمشيا إلى جانبه، في معركة بدر، فقال ﷺ: ما أنتما بأقوى منِّي ولا أنا بأغني عن الأجر منكما»[١].

ورُويَ أنَّ النَّبي عيسى عليه السلام سأل أُمّه بعد موتها: أتحبين الرجوع إلى الدُّنيا؟ فقالت: نعم! لأقيم الصلاة لله في ليل قارس، وأصوم في نهار قارض أي: بني، إنَّ هذا الطريق مخوف هائل».

وقام أبو ذر عند الكعبة فقال: أنا جندب بن سكن فاكتنفه النَّاس، فقال: لو أنَّ أحدكم أراد سفراً لاتخذ فيه من الزَّاد ما يصلحه، فسفر يوم القيامة، أما ترون فيه ما يصلحكم؟ فقام إليه رجل، فقال: أرشدنا.

قال: صم يوماً شديد الحر للنشور، وحجّ حجَّة لعظائم الأُمور، وصلِّ ركعتين في سواد اللَّيل لوحشة القبور، كلمة خير تقولها، وكلمة شرّ تسكت عنها، أو صدقة على مسكين، لعلَّك تنجو بها يا مسكين في يوم عسير.

اجعل الدُّنيا درهمين: درهم أنفقته على عيالك، ودرهم قدمته لآخرتك والثالث يضرُّ ولا ينفع فلا تردّه.

اجعل الدُّنيا كلمتين: كلمة في طلب الحلال، وكلمة للآخرة والثالثة تضرُّ ولا تنفع فلا تردّها».

كيف تكسب الحسنات:

ولهذه الخطورة والضرورة كان من الضروري الالتفات إلى ما يلي:

١ ـ **الاهتمام الدائم بنيل الحسنات**: وعدم تضييع الوقت هدراً،

(١) أخلاق الحرب عند الإمام علي عليه السلام: ص١٤.

فعن الإمام علي عليه السلام: «لا تهتمنَّ إلَّا فيما يكسبك أجراً ولا تسعَ إلَّا في اغتنام مثوبة»[١] لذلك لا بدَّ من السعي إلى كلّ عمل فيه ثواب، كالسعي لبناء مسجد وتنظيفه وإسراجه، ومساعدة المجاهدين والعجائز والمرضى.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «من أغاث أخاه المؤمن اللهفان عند جهده فنفَّس كربته وأعانه على نجاح حاجته كانت له بذلك عند الله اثنتان وسبعون رحمة لله من الله يعجِّل له منها واحدة يصلح بها معيشته ويدخِّر له إحدى وسبعين رحمة لأفزاع يوم القيامة وأهواله»[٢].

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إذا بعث الله المؤمن من قبره خرج معه مثالٌ يقدم أمامه كلَّما يرىٰ المؤمن هولاً من أهوال يوم القيامة يقول له المثال: لا تفزع ولا تحزن وأبشر بالسرور والكرامة من الله عزَّ وجلَّ حتَّى يقف بين يدي الله عزَّ وجلَّ فيحاسبه حساباً يسيراً ويأمر به إلى الجنَّة والمثال أمامه فيقول له المؤمن: يرحمك الله نِعْم الخارج، خرجت معي من قبري، وما زلت تبشِّرني بالسرور والكرامة من الله حتَّى رأيت ذلك، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا السرور الَّذي كنت أدخلته على أخيك المؤمن في الدُّنيا خلقني الله عزَّ وجلَّ منه لأُبشِّرك»[٣].

٢ ـ المشاركة في كلّ أعمال الخير تقرُّباً إلى الله تعالىٰ: فإنَّ الإنسان المادي لا يعمل شيئاً تجاه الآخرين إلَّا بما يعود لمصلحته، أمَّا المؤمن فإنَّه يعمل للثواب والأجر الأخرويين. من لطيف ما سمعت أنَّ

---

(١) غرر الحكم.
(٢) منازل الآخرة: ص٩٧.
(٣) الأربعون: ص٣٩٧.

امرأة كلَّما سمعت عن بناء مسجد ترسل أربعة عشر حجراً باسم أربعة عشر معصوماً لتوضع في المسجد حتى تشهد لها في يوم القيامة.

٣ ـ **ذكر الله تعالىٰ في كلِّ الأحوال**: قياماً وقعوداً، ومشياً واستراحة، علماً وعملاً وهكذا، عن النَّبي ﷺ: «إنَّ أهل الجنَّة لا يتحسرون على شيء من الدُّنيا كتحسرهم على ساعة مرَّت من غير ذكر الله»[١].

٤ ـ **عدم استصغار أية حسنة**: فقد يكون بها نجاتك، فعن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: «ولا تصِّغر شيئاً من الخير فإنَّك تراه غداً حيث يسرّك، ولا تصغِّر شيئاً من الشَّر فإنَّك تراه غداً حيث يسوؤك»[٢].

٥ ـ **إكثار الحسنات بعمل واحد**: فمثلاً إذا أردت الذهاب إلى المسجد فانوِ الصلاة جماعة، ومُلاقاة الاخوان، والابتعاد عن المعاصي.. وإذا أردت الخروج من المنزل فانوِ العمل تقرُّباً إلى الله تعالىٰ، والتوسعة على العيال، ومساعدة الفقراء...

٦ ـ **المحافظة على الحسنات وعدم الإتيان بمعصية تمحوها**: فقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «ما النَّار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد»[٣].

وفي الرواية أنَّه لمَّا قال النَّبي ﷺ لأصحابه: «من قال: «سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلَّا الله والله أكبر» غرس الله له بها شجرة في الجنَّة قيل: ما أكثر أشجارنا، فقال ﷺ: إيَّاكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها»[٤].

---

(١) مستدرك سفينة البحار، ج٨ ص٧.
(٢) نور الثقلين: ج٢، ص٤٢.
(٣) الأربعون: ص٢٨٧.
(٤) ثواب الأعمال: ص٢٢.

٧ ـ **فِعْلُ الخيرات في كلِّ الأحوال:** فإنَّ الله تعالى يثيب العباد على النوايا الحسنة وإن لم يفعلها فعن رسول الله ﷺ: «يهمّ العبد بالحسنة فيعملها، فإن هو لم يعملها كتب الله له حسنة بحسن نيته»(١).

٨ ـ **عملُ الخير يبقى أثره بعد الموت.**

يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢].

والمراد بالآية: إنَّ الله يكتب في كتاب أعمال الإنسان ما قدَّمه من عمل في حياته، وما تركه بعد مماته من خير يُعمل به، أو شرّ يعمل به؛ وهذا معنى قوله: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

ورد عن رسول الله ﷺ: «منْ سَنَّ سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر منْ عمل بها من بعده من غير أنْ ينقص من أجورهم شيء، ومن سَنَّ سُنَّة سيِّئة كان عليه وزرها ووزر منْ عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيء، ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

دعاء الإمام السجّاد عليه السلام: «اللَّهمَّ اجعل همسات قلوبنا وحركات أعضائنا ولمحات أعيننا ولهجات ألسنتنا في موجبات ثوابك».



(١) نور الثقلين: ج٢، ص٤٠١.

الجنَّة والنَّار

عن الإمام علي عليه السلام:

«. . . وكلّ شيء من الدُّنيا سماعُهُ أعظم من عيانه، وكلُّ شيء من الآخرة عيانُهُ أعظم من سماعه، فلْيكفكم من العيان السماع، ومن الغيب الخبر. . .»[١].

* * *

إدراك الأُمور:

من الطبيعي أنَّ معرفة الإنسان بالأشياء الَّتي حوله تختلف باختلاف أدوات الإدراك، فليس «منْ رأى كمنْ سمع».

فالرؤية تكشف حقائق الأُمور كما هي، لذا فـ«الحق أن تقول رأيت»، بخلاف السمع، لأنَّ الإنسان عندما يسمع عن شيء ما فإنَّه يكوِّن في ذهنه صورة قد لا تكون مطابقة له مئة بالمئة[٢]

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١١٤.

(٢) من هنا نجد أنَّ الإنسان يتصور أشياء ثمّ يتفاجأ بواقعها، فقد يتصور الشيء هيّناً ثمَّ يبدو عظيماً كما حصل مع الجنّ الّذين قالوا: سمعنا قرآناً عجباً. . . وقد يتصور الشيء عظيماً ثمَّ يراه هيّناً كبعض الشخصيات الدنيويّة.

ولذلك فكلّ ما نسمع عنه من أُمور الدُّنيا ونتصوره عظيماً تتبدل النظرة إليه إذا حصلت الرؤية والمعاينة ـ سواء أكانت الرؤية والمعاينة في الدُّنيا أو بعد الموت ـ. . . فالكلام في الأُمور الدنيوية أكبر من الحقيقة والواقع ولذا قال عليه السلام: «وكلّ شيء من الدُّنيا سماعُهُ أعظم من عيانه».

أمَّا ما يُسمع عنه من أُمور الآخرة والجنَّة والنَّار فإنَّ الكلام فيه لا يعكس الحقيقة كما هي، وإنَّما يقرِّب الصورة، وذلك لأنَّ الآخرة أعظم من أن تُصوَّر بالذهن.

ولذا نجد أنَّ الله تعالىٰ عندما يصف الجنَّة فإنَّه يضرب الأمثال للنَّاس لعلَّهم يعقلون. قال تعالىٰ: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرّعد: ٣٥] وفي بعض الآيات يقول تعالى عن بعض أوصاف القيامة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ [الحاقّة: ٣].

ولتقريب الفكرة: لو أنَّ جنيناً أُعطي عقلاً وذكاءً فحدَّثناه عن الدُّنيا وما فيها من بيوت وقصور وأنهار و. . . فإنَّه لن يستطيع أن يدرك ما يسمعه على حقيقته إلَّا إذا خرج من عالم الرحم إلى عالم الدُّنيا. . . وهكذا نحن فلن نستطيع أن ندرك حقيقة عالم الآخرة إلَّا إذا خرجنا من عالم الدُّنيا. . .

مثال آخر: عندما يرى أحدنا رؤيا تشتمل على الأنوار والألوان ويريد أن يحدِّث بما رأى، فتراه يحتار في إيجاد العبارة الَّتي تصف مشاهداته وأحلامه، وهكذا حال الَّذين رأوا عالم الغيب بعد الموت فإنَّهم لا يجدون الكلمات المناسبة لأفهامنا وعقولنا، ولذا يقول الإمام علي عليه السلام: «. . . شاهدوا من أخطار دارهم أفظع ممَّا خافوا، ورأوا

من آياتها أعظم ممَّا قدَّروا... فلو كانوا ينطقون بها لعيُّوا بصفة ما شاهدوا وما عاينوا»[(١)].

وكيف تُدرك حقائق الآخرة والله تعالىٰ يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجدَة: ١٧].

وفي الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصَّالحين ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[(٢)].

فما نسمعه من ثواب الروايات سنرى حقيقته في عالم الآخرة كما هو وسنفاجأ لعظمته، فعن الإمام علي عليه السلام: «اعلموا أنَّه لا يصغر ما ضرّ يوم القيامة، ولا يصغر ما ينفع يوم القيامة، فكونوا فيما أخبركم الله كمن عاين»[(٣)].

ولهذا قال عليه السلام: «وكلُّ شيء من الآخرة عيانهُ أعظم من سماعه» فما نسمعه من نعيم الجنَّة وأنهارها وأشجارها وحورها ليس لنا منه إلَّا الاسم أمَّا حقيقته فتختلف عن حقيقة ما نراه في الدُّنيا.

التصديق بالآخرة:

ولأنَّ المسلم آمن بالغيب والجنَّة والنَّار من دون رؤية بالعين وإنَّما تصديقاً بالنبي والأئمَّة عليهم السلام فإنَّ له ثواباً عظيماً عند الله تعالىٰ، ولذا كان النبي محمَّد صلى الله عليه وآله يشتاق إلى رؤية هؤلاء المؤمنين.

فعن أبي ذرّ: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ها... شوقاً إلى إخواني من بعدي، فقلنا: يا رسول الله أولسنا إخوانك؟ فقال صلى الله عليه وآله: لا، أنتم

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٢١٦.
(٢) تفسير الميزان، ج١ ص٣٠٨.
(٣) مستدرك نهج البلاغة: ج٩، ص٤٧.

أصحابي، أما إخواني فهم يجيئون من بعدي... اعلم يا أبا ذرّ أن للواحد منهم أجر سبعين بدرياً»[١].

ولأنَّ المؤمنين يعيشون حالة التصديق بالآخرة، لذا فهم في خوف من عذاب النَّار وأمل برحمة الله تعالىٰ وجنَّته. ففي خطبة المتَّقين للإمام علي عليه السلام: «فهم والجنَّة كمن قد رآها فهم فيها مُنعّمون، وهم والنَّار كمن قد رآها فهم فيها مُعذَّبون».

نعم قد يتساهل البعض في الاهتمام بأحوال الآخرة أو يتغافل عن ذلك والحال أنَّه لو قيل له: إنَّ في بيتك عقرباً، فهل ينام مطمئناً أم يبقىٰ في حال خوف حتَّى يطمئن إلى موتها؟!

فكيف والقائل هو ربّ العالمين و﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾ [الطارق: ١٣-١٤] وها هي كلمات الأنبياء والأولياء عليهم السلام الَّذين كُشف لهم الغطاء عن الجنَّة والنَّار[٢].

ومن تلك الكلمات الجامعة الرائعة ما قاله الإمام علي عليه السلام في الجنَّة والنَّار.

وصفه الجنَّة:

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها، لعزفت[٣] نفسك من بدائع ما أُخرج إلى الدُّنيا من شهواتها ولذَّاتها، وزخارف مناظرها، ولذهلت بالفكر في اصطفاق أشجارٍ[٤] غيِّبت عروقها في كثبان المسك[٥] على سواحل أنهارها، في

---

(١) ذلكم النبي محمد صلى الله عليه وآله، ص١٩٨.
(٢) لقد عُرج بالنَّبي محمَّد صلى الله عليه وآله إلى السَّماء فرأى النَّار ودخل الجنَّة.
(٣) أي زهدت.
(٤) اهتزازها واضطرابها بحيث يُسمع لها صوت.
(٥) تلال المسك.

تعليق كبائس[١] اللؤلؤ الرطب في عساليجها وأفنانها[٢] وطلوع تلك الثمار مختلفة في غُلف أكمامها، تجنى من غير تكلُّفٍ فتأتي على منية مجتنيها، ويطاف على نزَّالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفقة[٣] والخمور المروَّقة[٤].

قومٌ لم تزل الكرامة تتمادىٰ بهم حتَّى حلُّوا دار القرار، وأمنوا نقلة الأسفار، فلو شغلت قلبك أيُّها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة، لزهقت نفسك شوقاً إليها، ولتحمَّلت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها، جعلنا الله وإيَّاكم ممَّن سعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته»[٥].

وصف النَّار:

قال عليه السلام في وصف النَّار: «واعلموا أنَّه ليس لهذا الجلد الرَّقيق صبرٌ على النَّار، فارحموا نفوسكم، فإنَّكم قد جرَّبتموها في مصائب الدُّنيا، فرأيتم جزع أحدكم من الشَّوكة تصيبه، والعثرة تدميه، والرمضاء تحرقه، فكيف إذا كان بين طابقين من نارٍ، ضجيع حجرٍ، وقرين شيطانٍ.

أعلمتم أنَّ مالكاً إذا غضب على النَّار حطم بعضها بعضاً لغضبه، وإذا زجرها توثَّبت بين أبوابها جزعاً من زجرته، أيُّها اليفن الكبير[٦]

(١) الكباسة هي العذق التام ـ بشماريخه ورطبه ـ.
(٢) أي فروعها وأُصولها.
(٣) أي المتحولة من إناء إلى إناء.
(٤) الصافية.
(٥) نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠.
(٦) أي الشيخ الكبير.

الَّذي قد لهزه القتير[١]، كيف أنت إذا التحمت أطواق النَّار بعظام الأعناق، ونشبت الجوامع حتَّى أكلت لحوم السَّواعد؟

فالله الله! معشر العباد وأنتم سالمون في الصِّحَّة قبل السُّقم، وفي الفسحة قبل الضِّيق، فاسعوا في فكاك رقابكم، من قبل أن تغلق رهائنها، أسهروا عيونكم وأضمروا بطونكم، واستعملوا أقدامكم وأنفقوا أموالكم، وخذوا من أجسادكم تجودوا بها على أنفسكم، ولا تبخلوا بها عنها، فقد قال الله سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ١١] فلم يستنصركم من ذلٍّ، ولم يستقرضكم من قلٍّ، استنصركم وله جنود السَّماوات والأرض وهو العزيز الحكيم، واستقرضكم وله خزائن السَّماوات والأرض وهو الغنيُّ الحميد، أراد أن يبلوكم أيُّكم أحسن عملاً.

فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره، رافق بهم رسله وأزارهم ملائكته وأكرم أسماعهم أن تسمع حسيس نارٍ أبداً، وصان أجسادهم أن تلقى لغوباً ونصباً ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] أقول ما تسمعون، واللَّه المستعان على نفسي وأنفسكم وهو حسبي ونعم الوكيل»[٢].



---

(١) خالطه الشيب.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٨.

الفوز بالشهادة

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال عندما ضُرب على رأسه:

«**فزت وربُّ الكعبة**»[١].

* * *

مقام الشهادة:

تُعتبر الشهادة في سبيل الله تعالىٰ من أرفع المقامات وأعلى المراتب الَّتي ينالها الإنسان في الدُّنيا والآخرة.

عن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ أفضل النَّاس يوم يجمع الله الخلق الرُّسل، وإنَّ من أفضل الرُّسل محمَّد صلى الله عليه وآله ثمَّ إنَّ أفضل كلّ أُمَّة بعد نبيِّها وصيّ نبيِّها حتَّى يدركه نبي، وإن أفضل الأوصياء وصيّ محمَّد صلى الله عليه وآله، **ثمَّ إنَّ أفضل النَّاس بعد الأوصياء الشُّهداء**»[٢].

وهي كرامة من الله تعالىٰ، فعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «كرامتنا من الله الشهادة».

وهي أشرف أنواع القتل، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أشرف الموت

---

(١) الشهادة: ج٤، ص٥١.

(٢) مستدرك نهج البلاغة: ج١، ص٣٧٧.

قتل الشهادة»[١] وعنه ﷺ: «فوق كلّ برّ برّ حتّى يُقتل الرجل في سبيل الله، فإذا قُتل في سبيل الله عزّ وجلّ فليس فوقه برّ».

أجر الشهيد:

ولذا جاء في النصوص الدِّينيَّة أنَّ للشهيد أجراً عظيماً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «للشهيد سبع خصال من الله:

الأولى: أوّل قطرة من دمه مغفور له كلّ ذنب.

والثانية: يقع رأسه في حجر زوجتيه من الحور العين وتمسحان الغبار عن وجهه وتقولان: مرحباً بك، ويقول هو مثل ذلك لهما.

والثالثة: يُكسىٰ من كسوة الجنَّة.

والرابعة: تبتدره خزنة الجنَّة بكلِّ ريح طيِّبة، أيّهم تأخذه معه.

والخامسة: أن يرى منزله في الجنَّة[٢].

والسادسة: يُقال لروحه اسرحي في الجنَّة حيث شئت. والسابعة: أن ينظر في وجه الله وإنَّها لراحة لكلِّ نبي وشهيد»[٣].

«وما من أحد يدخل الجنَّة يُحبّ أن يرجع إلى الدُّنيا ـ وأنَّ له ما

---

(١) الصراع: ص٢٤١.

(٢) يروى أنَّ الإمام أبا عبد الله عليه السلام قد كشف لكلّ من أصحابه في ليلة عاشوراء عن منزله في الجنَّة.

(٣) وسائل الشيعة، المجلد ١١، الحديث ٢٠.

على الأرض من شيء ـ غير الشهيد فإنّه يتمنّىٰ أن يرجع فيُقتل عشر مرّات، لما يرىٰ من الكرامة»[١].

الدُّعاء لنيل الشهادة:

ولذا كان أولياء الله تعالىٰ يتمنون الشهادة ويسألون الله تعالىٰ أن يختم حياتهم بالقتل في سبيله.

فقد رأى رسول الله رجلاً يدعو ويقول: اللّهمَّ إنِّي أسألك خير ما تُسأل فأعطني أفضل ما تُعطي. فقال ﷺ: «إن أستُجيب لك فقد أهريق دمك في سبيل الله»[٢].

ومن كتاب الإمام علي عليه السلام إلى مالك الأشتر: «وأنا أسأل الله... وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، إنّا لله راجعون».

ومن دعاء أمير المؤمنين عليه السلام لهاشم بن عتبة: «اللّهمّ ارزقه الشهادة في سبيلك، والمرافقة لنبيّك»[٣].

وهكذا يعيش الأولياء حالة الدُّعاء للقاء الله تعالىٰ من خلال الشهادة، كما في قصة عمرو بن الجموح، وحنظلة غسيل الملائكة، وعبد الله بن رواحة، وميثم التمّار، وأصحاب الإمام الحسين عليه السلام كعلي الأكبر والقاسم»[٤].

ومن كلام عبد الله بن عفيف الأزدي لعبيد الله بن زياد: الحمد لله ربّ العالمين، أمّا أنّي قد كنت أسأل الله ربِّي أن يرزقني الشهادة من

---

(١) الطموح: ص١٥٠.
(٢) مستدرك الوسائل، المرحوم النوري، المجلد ٢، ص٢٤٣.
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، المجلد ٢، ص١٨٤.
(٤) راجع الطموح إلى الشهادة.

قبل أن تلدك أُمّك، وسألت الله أن يجعل ذلك على يدي ألعن خلقه وأبغضهم إليه. فلما كفّ بصري يئست من الشهادة، والآن فالحمد لله الَّذي رزقنيها بعد اليأس منها وعرَّفني الإجابة منه في قديم دعائي»[1].

وطالما كان الإمام علي عليه السلام يتمنّىٰ الشهادة. ففي الخبر عنه عليه السلام:

«فقلت يا رسول الله، أوليس قد قلت لي يوم «أُحد» حيث استشهد من استشهد من المسلمين، وحيزت عنّي الشهادة فشقّ ذلك عليَّ، فقلت لي: أبشر فإنَّ الشهادة من ورائك؟

فقال لي: إنَّ ذلك لكذلك فكيف صبرك إذاً.

فقلت: يا رسول الله ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرىٰ والشكر».

ومن كلام له عليه السلام: «وإنّي إلى لقاء الله لمشتاق».

وعنه عليه السلام: «الرائح إلى الله كالظمآن يرد الماء».

الفوز بالشهادة:

ولهذا لمَّا ضُرب الإمام علي عليه السلام على رأسه وهو يُصلّي صلاة الصبح قال: «فزت وربِّ الكعبة».

وعند التدبُّر في هذه الكلمة نجد أنَّها تحتوي على معانٍ عميقة، منها:

١ ـ تحقّق الوعد بالفوز بالشهادة.

ولهذا لما خُضبت لحية الإمام بالدِّماء قال: «هذا ما وعدنا الله ورسوله».

---

(١) نفس المهموم: ص٤٠١ ـ ٤١٢ نقلاً عن الملهوف: ص١٤٦ ـ ١٥٠.

٢ ـ الفوز بالشهادة قتلاً وسُمّاً، فإذا كان الحديث يقول: «ما منَّا إلَّا مقتول أو مسموم» فقد جمع الإمام الموت بالقتل والسُّم، وكلَّما تعددت أنواع القتل زاد الفوز بالأجر والثواب.

٣ ـ الفوز بالشهادة في المسجد، وحال الصلاة، وفي شهر رمضان وفي إحدى ليالي القدر، فقد بدأ حياته عَلَيْتِلا بالكعبة وختمها بالمسجد، ولذا قال: «فزت وربِّ الكعبة».

٤ ـ إنَّ الله تعالىٰ جعل الدُّنيا مضماراً لخلقه يستبقون فيها لطاعته، فمنْ عمل فيها بالصالحات فقد فاز، ومنْ عمل بالظُّلمات فقد خسر وخاب، ولمَّا أمضى الإمام علي عَلَيْتِلا حياته في سبيل الله تعالىٰ بالعبادة والجهاد وخدمة النَّاس وغير ذلك فقد فاز بالاختبار والابتلاء والامتحان وبخاتمة حياته وبالجنَّة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

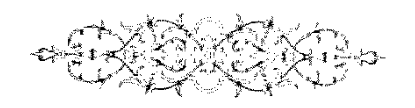
يقول السيِّد محمَّد باقر الصدر: «... لأنَّ علياً حمل دمه على يده منذ طفولته، يذبُّ عن وجه رسول الله وعن دين الله،.. كان أكثر النَّاس عملاً في سبيل الدِّين،.. لم يحصل على شيء من الدُّنيا، ولكنَّه على الرغم من ذلك حينما ضربه عبد الرَّحمٰن بن ملجم على رأسه قال: «فزت وربُّ الكعبة» لو كان يعمل لدُنياه لقال والله إنِّي أتعس إنسان لأنِّي لم أحصل على شيء في مقابل عمر كلّه جهاد وتضحية، لكنَّه لم يقل ذلك بل قال: «فزت وربُّ الكعبة».

أقول: ما أحرانا أن نتدبَّر في أحوالنا وأعمالنا وأقوالنا حتَّى لا نصل إلى خاتمة الحياة ونصطدم بخسارتنا للدُّنيا والآخرة، فمن الخيبة والندامة أن تكون أعمالنا سراباً لا نفع فيها.

لنعش حياة الأولياء والعظماء ولنقتد بهم حتَّى نفوز بمجاورتهم.

لنقل: يا ليتنا في صفك يا علي في صفِّين، يا ليتنا كنَّا معك في كلّ حياتك: في مسجدك، ومحرابك وجهادك، ودعائك... يا ليتنا كنّا معكم فنفوز فوزاً عظيماً.

«اللَّهمَّ إنِّي أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، ومرافقة النَّبي محمَّد وآله الأخيار الطَّيِّبين في أعلىٰ جنَّة الخلد مع النَّبيِّين والشُّهداء والصَّالحين وحسن أولئك رفيقاً»[١].



(١) الصحيفة العلويَّة: ص٥٣٩.

الزلزال الأعظم

من الشعر المنسوب للإمام علي عليه السلام:

إذا قربت ساعةٌ يا لها وزلزلت الأرض زلزالها[١]

* * *

أسماء يوم القيامة:

يُعتبر الإيمان بـ«اليوم الآخر» من أُسس الاعتقاد الدِّيني، فما من نبي أو رسول إلَّا وكان يدعو قومه للإيمان بالله واليوم الآخر، وقد أخبر القرآن الكريم عن إقرار أهل النَّار بإنذار الرُّسل بالمعاد والقيامة فقال تعالى: ﴿...كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [المُلك: ٨-١٠].

وهكذا كثرت النصوص الدِّينيَّة في الكتب المقدَّسة الَّتي تتحدَّث عن القيامة وأوصافها حتَّى ورد في القرآن الكريم ما يقارب ألف وأربعمائة آية من أصل ستة آلاف وستمائة وست وستون، أي ما يقارب خمس القرآن.

---

(١) ديوان أهل البيت عليهم السلام.

والسبب هو عظمة يوم القيامة وما يجري فيه من أهوال وأخطار، ذلك لأنَّ عظمة المُسمَّى تنتج الإكثار من أسمائه وصفاته الَّتي تدلُّ على خصوصياته وأحواله ـ ولذا كثرت الأسماء الحسنى لله تعالى، وأسماء وألقاب النبي محمَّد ﷺ والإمام علي عليه السلام ـ.

ومن أسماء وصفات يوم القيامة كما جاء في القرآن الكريم: يوم القيامة، يوم الحساب، يوم الدِّين، يوم الجمع، يوم الفصل، يوم الخروج، يوم الحسرة، يوم التغابن، يوم التلاق، يوم البعث، يوم الآزفة، يوم القارعة، يوم الصاخة، يوم الحاقة، يوم التناد...

ومن تلك الأسماء يوم «الزلزال الأعظم» وللوقوف على معناه لا بدَّ من بيان معناه وأقسامه:

معنى الزلزال:

هو الاضطراب الشديد وأصله من «زلّ» بمعنى زلق فيُقال: زلَّ عن مكانه، أي زلق، وقد ضُوعف لفظه لمضاعفة معناه، وللمبالغة فيه.

أقسامه:

ينقسم الزلزال إلى قسمين: الصغير والكبير.

والصغير ينطبق على زلزال الأرض في الدُّنيا وعلى زلزلة القلوب عند مشاهدة الأهوال.

والكبير ينطبق على زلزلة الأرض والقلوب في الآخرة.

زلزال القلوب:

عندما يشاهد الإنسان الأخطار والأهوال ويدخل الرعب إلى قلبه

ينعكس ذلك على بدنه، فيخفق قلبه، ويتغير وجهه، وتجحظ عيناه ويرتجف بدنه ويضطرب.

وكلَّما كان القلب ضعيفاً وجباناً كان اضطرابه أكثر، بخلاف ما إذا كان قوياً، ولذا جاء في صفة المؤمن بأنَّه قوي لا يتزلزل أمام الصعاب، فعن الإمام علي عليه السلام: «المؤمن وقور عند الهزاهز، ثبوت عند المكاره»[١].

ولأنَّ الحروب بحاجة إلى رجال لهم قلوب قوية كزبر الحديد، ولهم ثبات في المواقف وعند الهزاهز، فقد جاء في كلام الإمام علي عليه السلام لولده محمَّد عندما أعطاه الراية يوم الجمل: «تزول الجبال ولا تُزلْ، عضّ على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تدِ في الأرض قدمك، ارم ببصرك أقصى القوم، وغضّ بصرك، وأعلم أنَّ النصر من عند الله سبحانه»[٢].

وفي هذه المواقف العصيبة تُعرف جواهر الرِّجال الَّذين يستحقون الدخول إلى الجنَّة قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقد جاء في التفسير أنَّ هذه الآية نزلت في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الخوف والشِّدَّة والزلزلة، فكان فيهم الَّذين سقطوا في الاختبار وإليهم يشير قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ

---

(١) ميزان الحكمة، مادة «المؤمن»، ج١ ص٢٠٦.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١١.

ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٠-١٢].

وكان منهم البطل الَّذي لم يتزلزل وهو الإمام علي عليه السلام، ذلك لأنَّ قلبه كان مستقراً بالإيمان ونفسه ثابتة بالسكينة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

زلزال الأرض:

يعيش الإنسان على سطح الكرة الأرضية الَّتي تحتوي في داخلها مواد مذابة على درجة عالية جداً من الغليان[١]، ولذلك فهو مُعرَّض في أية لحظة للهزَّات الأرضية والثورات البركانية، فإذا وقع زلزال في منطقة ما فإنَّه يتسبَّب في حدوث الدمار والخراب وتشقّق الأرض، وكم حدث في التاريخ من زلازل أدَّت إلى دمار مدن وقُرى بكاملها ويعود السبب في حدوث الزلازل إلى ما يلي:

أوَّلاً: أنَّه آية من آيات الله تعالى، فقد سَئل الإمام الصَّادق عليه السلام عن الزلزلة ما هي؟ فقال عليه السلام: آية.

وفي الخبر: «إنَّ الزلازل والكسوفين والرياح الهائلة من علامات الساعة، فإذا رأيتم شيئاً من ذلك فتذكروا قيام الساعة وافزعوا إلى مساجدكم»[٢].

وإذا كانت الزلازل آية من الآيات الكونية الدالة على عظمة الله

---

(١) القشرة الأرضية رقيقة جداً كرقة قشر التفاح بالنسبة إلى التفاحة كلها، وهذا ما يجعل الإنسان يُصاب بالخوف من حدوث أي زلزال أو بركان.
(٢) مهذب الأحكام: ج٧، ص٢٤٦.

تعالى وحكمته وتدبيره فمن الحري بنا أن نتدبَّر فيها كي لا نكون من الغافلين، ولئلا ينطبق علينا قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥].

ثانياً: نتيجة ذنوب العباد، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

وعن الإمام الرِّضا عليه السلام: «كلَّما أحدث العباد من الذُّنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون»[١].

ومن ذلك ما حدث لقوم يونس حيث كاد العذاب أن ينزل بهم لولا أنَّهم تابوا إلى ربهم.

عن الإمام الرِّضا عليه السلام: «إنَّما جُعلت الكسوف صلاة لأنَّه من آيات الله، لا يُدرى الرحمة ظهرت أم لعذاب، فأحبَّ النبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم أن تفزع أُمَّته إلى خالقها وراحمها عند ذلك ليصرف عنهم شرّها ويقيم مكروهها كما صرف عن قوم يونس حين تضرَّعوا إلى الله».

يقول علم الباطن: «إنَّ في الإنسان أجساماً لا مرئية، هي الأساس في تكوينه، وما الجسد المادي إلَّا الصورة الخارجية، وهذه الأجسام اللامرئية هي بوابة الاتصال بالطاقة الكونية، ومن خلالها يتم التفاعل بين الكون والإنسان، فإذا تطور وعي الإنسان تطورت الطبيعة تبعاً لذلك وإن تدنَّى وعيه حصل الاضطراب والفساد في الطبيعة، فما يحدث في الطبيعة هو انعكاس لخير الإنسان وشرّه، وبالتالي فإنَّ سبب حدوث الزلازل هو فساد الإنسان»[٢].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٧٥.
(٢) مجلة الأبعاد الخفية: عدد ٦٠، ص١٠.

ثالثاً: **إنذار بيوم القيامة**، وتنبيه الإنسان ليعود إلى الله تعالى.

كرامة للإمام علي (ع):

يُصاب الماديون بالخوف والهلع من حدوث الزلزال، ويحتارون في أسبابه وأهدافه، أمَّا الإلٰهيون فإنَّهم آمنوا بأنَّ الزلازل بيد الله تعالى وأنَّه تعالى القادر على رفعها.

عن السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام أنَّها قالت: «أصاب النَّاس زلزلة ففزع النَّاس... إلى أن انتهوا إلى باب علي عليه السلام فخرج إليهم الإمام عليه السلام غير مكترث لما هم فيه، فمضى واتبعه النَّاس حتَّى انتهوا إلى تلعة فقعد عليها وقعدوا حوله وهم ينظرون إلى حيطان المدينة ترتج فقال لهم عليه السلام: كأنَّكم قد هالكم ما ترون؟ قالوا: وكيف لا يهولنا ولم نرَ مثلها قط. فحرَّك شفتيه ثمَّ ضرب الأرض بيده وقال عليه السلام: ما لكِ اسكني فسكنت فعجبوا من ذلك».

أقول: كما خاف النَّاس يوم الأحزاب ثمَّ اطمأنوا بفضل الإمام علي عليه السلام كذلك حصل لهم عند زلزلة الأرض.

الزلزال الأعظم:

إنَّ زلازل الأرض في عالم الدُّنيا هي زلازل خاصة في مكان خاص ولوقت محدود، أمَّا زلزال الآخرة فهو شامل وعام لكلِّ الأرض، ولذا يقول تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة: ١].

ففي الآية تأكيد على عظم الزلزال وهوله من خلال إضافته إلى الضمير في زلزالها مثلاً: إذا قلنا إنَّ الخطيب الفلاني ألقى كلمة أظهر فيه بلاغة فيُفهم أنَّه ألقى كلمة فيها بلاغة، وأمَّا إذا قلنا: إنَّه أظهر فيها بلاغته فإنَّه أتىٰ ما بوسعه من البلاغة، وهكذا عندما تقول الآية «زلزالها»

فإنَّه يعني أنَّها «تتزلزل بما يكمن فيها من قوَّة إلى درجة لا يُتصوَّر فوقها قوَّة».

يقول السيِّد الطباطبائي رحمه الله: «الزلزال مصدر كالزلزلة وإضافته إلى ضمير الأرض تفيد الاختصاص، والمعنى: إذا زُلزلت الأرض زلزالها الخاصَّة بها، فتفيد التعظيم والتضخيم أي أنَّها منتهية في الشِّدَّة والهول».

ولشدَّة هول زلزال الآخرة فقد قال تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١-٢].

وقال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾ [النازعات: ٨].

بين الزلزال الأصغر والزلزال الأكبر:

بالمقارنة بين زلزال الدُّنيا والآخرة نجد:

١ ـ إنَّ الله تعالى هو الَّذي يأمر الأرض بالزلزالين.

٢ ـ تتزلزل الأرض في الدُّنيا فيخرج النَّاس من بيوتهم خوفاً على مصيرهم، وتتزلزل في الآخرة فيخرج النَّاس من قبورهم ليلاقوا مصيرهم.

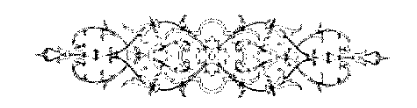
٣ ـ كما تتزلزل الأُم لتُخرِج ما في بطنها كذلك الأرض تتزلزل لتُخرِج أثقالها.

قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ

يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ١-٨].

جاء في الشعر المنسوب للإمام علي عليه السلام:

إِذَا قَرُبَتْ سَاعَةٌ يَا لَهَا	وَزُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا
تَسِيرُ الْجِبَالُ عَلَىٰ سُرْعَةٍ	كَمَرِّ السَّحَابِ تَرَىٰ حَالَهَا
وَتَنْفَطِرُ الأَرْضُ مِنْ نَفْخَةٍ	هُنَالِكَ تُخْرِجُ أَثْقَالَهَا
وَلاَ بُدَّ مِنْ سَائِلٍ قَائِلٍ	مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ مَا لَهَا
تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا رَبَّهَا	وَرَبُّكَ لاَ شَكَّ أَوْحَىٰ لَهَا
وَيَصْدُرُ كُلٌّ إِلَىٰ مَوْقِفٍ	يُقِيمُ الْكُهُولَ وَأَطْفَالَهَا
تَرَىٰ النَّفْسُ مَا عَمِلَتْ مُحْضَراً	وَلَوْ ذَرَّةً كَانَ مِثْقَالَهَا
يُحَاسِبُهَا مَلَكٌ قَادِرٌ	فَإِمَّا عَلَيْهَا وَإِمَّا لَهَا
ذُنُوبِي ثِقَالٌ فَمَا حِيلَتِي	إِذَا كُنْتُ فِي الْبَعْثِ حَمَّالَهَا
تَرَىٰ النَّاسَ سَكْرَىٰ بِلاَ خَمْرَةٍ	وَلَكِنْ تَرَىٰ الْعَيْنُ مَا هَالَهَا
نَسِيتُ الْمَعَادَ فَيَا وَيْلَهَا	وَأَعْطَيْتُ لِلنَّفْسِ آمَالَهَا



تخفَّفوا تلحقوا

من كلام للإمام علي عليه السلام:

«فإنَّ الغاية أمامكم، وإنَّ وراءكم الساعة تحدوكم، تخفَّفوا تلحقوا، فإنَّما ينتظر بأوَّلكم آخركم»[١].

* * *

السفر إلى الله:

تُعتبر هذه الكلمة المنسوبة للإمام علي عليه السلام من أحسن الكلمات الَّتي تصوّر حال الإنسان في سفره إلىٰ الله تعالىٰ، حتَّىٰ قال السيِّد الرضي رحمه الله: «إنَّ هذا الكلام لو وُزِن بعد كلام الله سبحانه وكلام رسوله بكلّ كلام لمال به راجحاً وبرز عليه سابقاً».

ففي هذه الكلمة تشبيه السفر إلىٰ الله تعالىٰ بسفر القوافل، وذلك: إنَّ النَّاس كانت تسافر في القوافل إلىٰ البلدان بهدف التجارة والحجّ وغير ذلك، وكان في القافلة سائق يحدو بالجمال كي تقطع الطريق بسرعة، ومن كان يريد السفر مع القافلة فلا بدَّ أن يلتحق بها عند النداء بالرَّحيل، فمنْ كانت أمتعته خفيفة أسرع باللحوق وإلَّا تخلَّف.

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٢١.

وهكذا حال النَّاس في السفر إلىٰ الله تعالى، فكأنَّهم قافلة تسير إلىٰ غاية ونهاية وهي الموت، ففي الحديث: «الموت غاية المخلوقين»[١] وهذا معنىٰ قوله عليه السلام: «فإنَّ الغاية أمامكم».

والَّذي يحدو بالقافلة البشريَّة هي الساعة، فكلّ ساعة ولحظة من لحظات العُمر تسوق الإنسان إلى الموت كما شرحنا ذلك في قوله عليه السلام: «أكبر ما يكون ابن آدم».

وقيل: إنَّ معنى قوله: «وإنَّ وراءكم الساعة» أي أمامكم كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] أي ومن أمامهم.

وقد سبق قوم إلىٰ الآخرة وهم ينتظرون أصحابهم حتَّىٰ يجتمعوا كلّهم ويستعدُّوا إلىٰ الحشر والنشر، فعلىٰ المتأخِّرين أن يتخفَّفوا ليسرعوا بالالتحاق بالمتقدِّمين.

الثقل والخفَّة في السفر إلى الله تعالى:

وما نريد الوقوف عنده في هذه الكلمة قوله عليه السلام: «تخفَّفوا تلحقوا».

فقوله عليه السلام: «**تخفَّفوا**»: أي تخفَّفوا من الذُّنُوب فإنَّها أوزار ثقيلة علىٰ الظهر تحطُّ الإنسان عن اللحوق بالصَّالحين ففي دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: «أفمع المخفِّين أجوز؟ أم مع المثقلين أحطُّ؟».

وجاء في خطبة النَّبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله لاستقبال شهر رمضان: «وظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخفِّفوا عنها بطول سجودكم».

كما يصحّ معنىٰ «خفِّفوا من علائق الدُّنيا ومقتنياتها وزينتها حتَّىٰ

---

(١) منهاج البراعة: ج٣، ص٣٠١.

تجوزوا عقبات الآخرة بخفَّة وسرعة.. قيل: «إنَّ سلمان الفارسي كان زاهداً في الدُّنيا حتَّىٰ أنَّه لم يكن معه إلَّا عكازة ومطهرة للوضوء، ولمَّا حصل سيل في المدائن وهلع النَّاس وهربوا وهم يقولون: واولداه وامالاه، حمل سلمان ما معه وقال: هكذا ينجو المخفّون يوم القيامة»[1].

ورُويَ أنَّ سلمان الفارسي لمَّا مرض مرضه الَّذي مات فيه أتاه سعد يعوده فقال: كيف أنت يا أبا عبد الله؟ فبكىٰ فقال: ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي حرصاً علىٰ الدُّنيا ولا حبّاً لها، ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً فقال: ليكن بلاغ أحدكم من الدُّنيا كزاد الراكب، فأخشىٰ أن يكون قد جاوزنا أمره وهذه الأساود حولي، وليس حوله إلَّا مطهرة فيها ماء وإجانة وجفنة»[2].

رُوي أنَّ عليّاً عليه السلام وسلمان وأبا ذرّ ومقداداً وعمَّاراً سألوا رسول الله ﷺ يوماً، وقالوا: يا رسول الله كثيراً ما تُحدِّثنا عن الآخرة وحرارتها وموقفنا بين يدي الله فلو علَّمتنا كيف هي وشدّتها؟ فقال ﷺ: يا عليّ خذ هذا الحجر وضعه في الشَّمس ثمَّ أعطاهم أربعة دنانير كلّ واحد ديناراً فلمَّا صار الغد جاؤوا إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: يا عليّ اقلع حذاءك وارق الحجر فسأله الرَّسول: يا عليّ أين دينار الأمس؟ فقال علي عليه السلام: أنفقته لوجه الله يا رسول الله، ثمَّ قال ﷺ: يا سلمان اخلع حذاءك وارق الحجر، فسأله: يا سلمان أين دينار الأمس؟ أجاب أنفقت نصفه، وأدَّيت بنصفه الآخر ديني ولكنه رفع رجله مرَّة ووضعها مرَّة.

---

(١) منهاج البراعة: ج٣، ص٣٠٥.

(٢) نفس المهموم: ص٥٥٤.

فسأل الرّسول ﷺ أبا ذرّ قال له: يا أبا ذر اترك حذاءك وارق الحجر، فسأله: أين دينار الأمس؟ أجاب: بأبي أنت وأُمّي جعلته أثلاثاً: ثلثاً لي وثلثاً لعيالي وثلثاً لأغنامي، ولكن رفع رجله عن الحجر ثلاث مرّات ووضعها.

فسأل ﷺ مقداداً أو عمّاراً أن يخلع حذاءه ويرقىٰ الحجر، فقال له: يا مقداد أين الدينار الّذي أعطيتك الأمس؟ فأجاب: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله جعلته أرباعاً: ربعاً لي، وربعاً لديني أديته، وربعاً لعيالي عندي، ولكن رفع رجله عن الحجر أربع مرّات ووضعها من شدّة حرارة الحجر المصهرة عليه الشّمس.

فعند ذلك قال لهم ﷺ: هذا هو مثالكم وكلّ واحد يوم القيامة أمام محكمة الله، فمن كان عنده نعمة وصرفها أكثر كان هناك جوابه أكثر وموقفه أطول، فالّذي نجا فيكم علي عليه السلام، فقط كلمة واحدة، أنفقت لوجه الله، لهذا فليعمل العاملون ويقتدِ بالأئمّة المقتدون»[١].

وقوله عليه السلام: «**تلحقوا**»: أي تكونوا مع الصالحين في جنات النعيم وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

عن الإمام علي عليه السلام: «العاقل ينافس الصالحين ليلحق بهم، ويحبهم ليشاركهم بمحبته وإن قصّر عن مثل عملهم»[٢].

وعندما نطالع حياة الإمام علي عليه السلام نجد أنّه كان يزهد في الدُّنيا حتّى يلتحق بالنّبيّ محمّد ﷺ.

---

(١) أذكياء العلماء: ص٣٩٦.

(٢) ألف حكمة، ص١٢٣.

عن عقبة بن علقمة قال: دخلت على علي عليه السلام فإذا بين يديه لبن قد آذتني حموضته وكسرة يابسة، فقلت: يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا؟ فقال عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يأكل أيبس من هذا، ويلبس أخشن من هذا، وأخاف إن لم آخذ به أن لا ألحق به»[١].

ورأى أحدهم الإمام عليه السلام وليس عليه ما يكفي من الثياب فقال: يا أمير المؤمنين ألم يجعل الله لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيباً؟ فقال عليه السلام: «إنَّ مسَّ الحصير كان يوجع جنب رسول الله وما شبع هو وأهله قطّ، وقد حيزت له الدُّنيا وما فيها وأنا علىٰ سُنَّته»[٢].

ورُوي أنَّ النَّبيّ محمَّداً صلى الله عليه وآله قال للإمام عليه السلام كيف أنت إذا زهد النَّاس في الآخرة ورغبوا في الدُّنيا، وأكلوا التراث أكلاً لمّاً، وأحبُّوا المال حبّاً جمّاً؟ فقال عليه السلام: «اتركهم وما اختاروا واختار الله ورسوله والدَّار الآخرة واصبر على مصيبات الدُّنيا وبلواها حتَّىٰ ألحق بك إن شاء الله»[٣].

وإذا أردنا أن نلحق بالإمام علي عليه السلام فلا بدَّ أن نقتدي به، بسيرته وهديه.

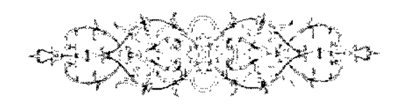
فعنه عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ الله جعلني إماماً لخلقه ففرض عليَّ التقدير في نفسي ومطعمي ومشربي وملبسي كضعفاء النَّاس كي يقتدي الفقير بفقري ولا يطغي الغنيّ غناه»[٤].

---

(١) أخلاقيات أمير المؤمنين: ص٩٢.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص٨٤.
(٤) موسوعة الإمام عليه السلام: ج٩، ص٣٤٣.

وسئل: لِمَ ترقّع ثوبك؟ فقال ﷺ: «ليخشع القلب ويقتدي به المؤمنون»(١).

فمن خفَّت ذنوبه كان سريعاً في الالتحاق بالأولياء الصَّالحين الَّذين ينتظرون بشوق وصول السائرين على الطريق قال تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠].



(١) بحار الأنوار: ج٤١، ص١٦١.

الاشتراك في الثواب والعقاب

ورد عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«أيُّها النَّاس إنَّما يجمع النَّاس الرِّضا والسخط، وإنَّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرِّضا» قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٥٧](١).

* * *

القاسم المشترك بين النَّاس:

يوجد جامع مشترك بين النَّاس مهما اختلفوا في ألوانهم وألسنتهم وهوياتهم، ومهما تباعدوا في الزَّمان والمكان الَّذي يعيشون فيه، وهو «الحب والبغض» أو «الرِّضا والسخط» النابعان من فعل القلب.

وهذا الجامع المشترك يؤدِّي إلى اعتبارهم «أُمَّة واحدة» كما أنَّه يؤدِّي إلى اشتراكهم في جريان السُنن الإلٰهيَّة عليهم، واشتراكهم في نتائج الأعمال الإيجابية أو السلبية باعتبارهم أصبحوا جسماً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

---

(١) نهج البلاغة: ٢/٢٠٧.

عن الإمام علي عليه السلام: «الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وعلى كلّ داخل في باطل إثمان: إثم العمل به والرِّضا به»[(١)].

الاشتراك في العقاب:

إذا ارتكب إنسان أو مجموعة من النَّاس جريمة ورضي بها الآخرون كانوا مشتركين معهم في الإدانة والعقوبة، من هذا المنطلق نسب الله تعالى جرائم الآباء إلى الأبناء عندما رضوا بها.

فنسب إلى اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قتل الأنبياء عليهم السلام مع أنَّهم لم يباشروا القتل لأيِّ نبي، إنَّما رضوا بقتل آبائهم للأنبياء عليهم السلام.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عِمرَان: ١٨١].

عن الإمام الصَّادق عليه السلام في ذيل هذه الآية المباركة: «إنَّ بين القائلين إنَّ الله عهد إلينا وهم الَّذين قالوا: إنَّ الله فقير ونحن أغنياء، وبين القاتلين للأنبياء خمسمائة عام فألزمهم الله القتل برضاهم بما فعلوا».

كما نسب الأئمَّة عليهم السلام قتل الإمام الحسين عليه السلام لكلّ من سمع بمقتله ورضي به.

ففي الرواية: «إنَّ الراضين بقتل الحسين شركاء قتله، ألا وإن قتلته وأعوانهم وأشياعهم والمقتدين بهم براء من دين الله» وفي زيارة وارث نقرأ: «لعن الله أُمَّةً قتلتك، ولعن الله أُمَّةً ظلمتك ولعن الله أُمَّة سمعت بذلك فرضيت به».

وعن محمَّد بن الأرقط عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تنزل الكوفة؟

---

(١) نهج البلاغة: ٢/١٩١.

قلت: نعم. قال عليه السلام: فترون قتلة الحسين بين أظهركم؟

قلت: جعلت فداك ما رأيت منهم أحداً.

قال عليه السلام: «فإذن أنت لا ترى القاتل إلّا من قتل أو من ولي القتل؟ ألم تسمع إلى قول الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣] فأي رسول قتل الَّذين كان محمَّد صلى الله عليه وآله بين أظهرهم؛ ولم يكن بينه وبين عيسى رسول، إنَّما رضوا قتل أُولئك فسمُّوا قاتلين»(١).

عن عبد السلام بن صالح الهروي قال: قلت لأبي الحسن الرِّضا عليه السلام: يابن رسول الله ما تقول في حديث رُوي عن الصَّادق عليه السلام قال: إذا خرج القائم عليه السلام قتل ذراري قتلة الحسين عليه السلام بفعال آبائهم فقال عليه السلام: «هو كذلك، فقلت: قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿...وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ما معناه؟ قال عليه السلام: صدق الله في جميع أقواله ولكن ذراري قتلة الحسين يرضون بفعال آبائهم ويفتخرون بها، ومن رضي شيئاً كان كمن أتاه، ولو أنَّ رجلاً قُتل بالمشرق فرضي بقتله رجل بالمغرب لكان الراضي عند الله شريك القاتل، وإنَّما يقتلهم القائم عليه السلام إذا خرج لرضاهم بفعل آبائهم»(٢).

وقد عاقب الله تعالى جماعات وأُمماً، لرضاهم في الفساد مع أنَّهم لم يشتركوا مباشرة، فأغرق قوم نوح عليه السلام وأنزل العذاب على ثمود.

عن الهروي قال: قلت للرِّضا عليه السلام: لأي علَّة أغرق الله الدُّنيا كلّها في زمن نوح عليه السلام وفيها الأطفال ومن لا ذنب له؟ فقال عليه السلام: «ما

---

(١) البرهان: ١/٣٢٨.

(٢) منهاج البراعة: ١٢، ٣٨٦.

كان فيهم الأطفال لأنَّ الله عزَّ وجلَّ أعقم أصلاب قوم نوح وأرحام نسائهم أربعين عاماً فانقطع نسلهم فغرقوا ولا طفل فيهم، ما كان الله ليهلك بعذابه من لا ذنب له، وأمَّا الباقون من قوم نوح فأُغرقوا بتكذيبهم لنبيَّ الله نوح عليه السلام وسائرهم أُغرقوا برضاهم بتكذيب المكذبين، ومنْ غاب عن أمر فرضي به كان كمن شهده وأتاه».

الاشتراك في الثواب:

كما يشترك النَّاس في العقاب لرضاهم بالحرام، كذلك يشتركون في الثواب وحُسن الجزاء لرضاهم به حتَّى ولو كان بينه وبين القائمين به فاصلة الزمان والمكان.

عن الإمام أبي جعفر الثاني عليه السلام: «منْ شهد أمراً فكرهه كان كمن غاب، ومنْ غاب عن أمر فرضيه كان كمن شهده»[1].

وفي نهج البلاغة أنَّه لما أظفر الله تعالى الإمام علي عليه السلام بأصحاب الجمل قال له بعض أصحابه: وددتُ أن أخي فلاناً كان شاهداً ليرى ما نصرك الله به على أعدائك، فقال عليه السلام: أهوى أخيك معنا؟ قال: نعم. قال عليه السلام: فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا قوم في أصلاب الرجال وأرحام النِّساء سيعرف الزَّمان بهم ويقوى بهم الإيمان».

وانطلاقاً من هذا فقد شاركنا نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام في دعوة التوحيد، وفي تحطيم الأصنام، وشاركنا موسى وعيسى في دعوتهما إلى الله واليوم الآخر ونبذ الأصنام البشرية وترك عبادة المال

---

(١) البحار: ١٠٠/ ٨١.

والشهوات، وشاركنا النبي محمَّداً ﷺ في جهاده ضد الكفر والشرك والنفاق.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «لو أنَّ أهل السَّموات والأرض لم يحبوا أن يكونوا شهدوا مع رسول الله لكانوا من أهل النَّار»[١].

كما شاركنا الإمام علي عليه السلام في حروبه وغزواته، والإمام الحسن عليه السلام في صلحه، والحسين عليه السلام في شهادته، وفي زيارة الأئمَّة عليهم السلام نقول: «فنحن نشهد أنَّا قد شاركنا أولياءكم وأنصاركم المتقدمين في إراقة دماء الناكثين والقاسطين والمارقين، وقتلة أبي عبد الله عليه السلام سيِّد شباب أهل الجنَّة بالنيات والقلوب، والتأسف على فوت تلك المواقع».

عن الإمام الرِّضا عليه السلام أنَّه قال لابن شبيب: «يابن شبيب إنَّ سرّك أن يكون لك من الثواب مثل لمن استشهد مع الحسين عليه السلام فقل متى ذكرته: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً»[٢].

رُوي في كتب السير والتاريخ أنَّ جابر بن عبد الله الأنصاري رحمه الله زار قبر الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه في العشرين من صفر ووقف قائلاً: «والَّذي بعث محمَّداً بالحق نبياً لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه» فقال له خادمه عطية العوفي: كيف!؟ ولم نهبط وادياً ولم نعلُ جبلاً، ولم نضرب بسيف، والقوم قد فُرّق بين رؤوسهم وأبدانهم، وأُيتمت أولادهم وأُرملت أزواجهم. فقال جابر سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: «من أحب قوماً حُشر معهم، ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم».

---

(١) الوسائل: باب ٥، الأمر بالمعروف.

(٢) نفس المهموم: ٣٦.

التضحية في سبيل الدِّين

عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال:

«إذا حضرت بلية فاجعلوا أموالكم دون أنفسكم، وإذا نزلت نازلة فاجعلوا أنفسكم دون دينكم، واعلموا أنَّ الهالك من هلك دينه والحريب من حُرب دينه، ألا وإنَّه لا فقر بعد الجنَّة ألا وإنَّه لا غنى بعد النَّار لا يفكّ أسيرها ولا يبرأ ضريرها»(١).

* * *

معيار الربح والخسارة:

يعتبر الإمام علي عليه السلام في وصيته لأصحابه إنَّ معيار السعادة والشقاء والربح والخسارة هو «الدِّين» فالسعيد هو من ربح الدِّين وبالتالي فاز بالجنَّة، والشقي هو من خسر الدِّين وبالتالي دخل النَّار، وعليه فلا بدَّ للإنسان أن يُقدِّم الدِّين على النَّفس والمال.

ويتمّ توضيح ذلك بالبيان التالي:

تختلف قيمة الأشياء المتعلقة بالإنسان من الناحية المعنوية

(١) بحار الأنوار: ج٦٥، ص٢١٢.

والمادية، ففي عالم الماديات يُعتبر الأخ أغلى من المال، بينما الولد أهم من الأخ، وفي عالم المعنويات الشرف والكرامة أغلى من المال والأخ والولد، ولكن الدِّين والعقيدة أغلى من الشرف والكرامة، وإليه الإشارة بقول الإمام الحسين عليه السلام:

الموت أولىٰ من ركوب العار والعار أولىٰ من دخول النَّار

التضحية في سبيل الدِّين:

وعليه فالإنسان المستقيم هو الَّذي يضحِّي بالمهم من أجل الأهم فيضحِّي بالمال من أجل الولد، ويضحِّي بالمال والولد من أجل الكرامة ويضحِّي بكلِّ ذلك من أجل الدِّين الَّذي هو أغلى ما في الوجود، ولذا جاء في وصية النَّبي محمَّد صلى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام: «... والخامسة: بذلُك مالك ودمك دون دينك»[١].

ولهذا قال عليه السلام: «إذا حضرت...».

رُوي أنَّه عليه السلام خرج على أصحابه محزوناً يتنفَّس فقال: كيف أنتم وزمان قد أظلكم تُعطّل فيه الحدود ويُتَّخذ المال فيه دُولاً ويُعادى فيه أولياء الله ويُوالىٰ فيه أعداء الله؟ فقيل له: فإن أدركنا ذلك الزَّمان فكيف نصنع؟ قال: كونوا كأصحاب عيسى عليه السلام نُشروا بالمناشير وصُلبوا على الخُشُب، موت في طاعة الله عزَّ وجلَّ خير من حياة في معصية الله»[٢].

تضحية العظماء:

إنَّ الَّذي يؤمن بمبدأ وعقيدة هو الَّذي يندفع للتضحية من أجلهما «إنَّ الأئمَّة عليهم السلام آمنوا فقالوا، ولكن القول وحده ليس التعبير الكامل عن

---

(١) الوسائل: ج٦، ص٤٥١.
(٢) مستدرك نهج البلاغة: ج٢، ص٥٥٣.

واقع الفرد، فعملوا، ولكن العمل أيضاً ليس تعبيراً كاملاً فآثروا... ولكن هناك ما هو أكمل فضحّوا، إذ لا يوجد أكمل من التضحية»[١].

وقد كان الإمام علي عليه السلام مستعداً للتضحية في كلّ لحظة من أجل الدِّين، ولذا نجد أنَّه كان يُسرع للاستجابة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في المعارك أو غيرها كالسّكة المحماة. ولعلَّ من أروع الصور الَّتي حكاها التاريخ لنا، موقفه ليلة هجرة النبي محمَّد صلى الله عليه وآله حيث بات عليه السلام على فراشه يفديه بنفسه بعد أن قال له: «أو تسلم يا رسول الله»[٢] فكان همه الوحيد أن يضحِّي بنفسه من أجل الرَّسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ولما قال له النبي صلى الله عليه وآله في آخر خطبة استقبال شهر رمضان إنَّك مقتول قال عليه السلام: «أو في سلامة من ديني؟».

وهكذا كان الإمام الحسين عليه السلام فقد قدَّم كلّ ما يملك في سبيل الدِّين وكان يقول: «إلٰهي إن كان هذا يرضيك فخذ حتَّى ترضىٰ» وقال: «إلٰهي هذي رجالي في رضاك ذبائح».

وقد عبَّر الإمام عليه السلام عن التضحية بالمهم من أجل الأهم بقوله:

فإن تكن الدُّنيا تعدّ نفيسةٌ ... فدار ثوابُ اللّٰه أعلىٰ وأنبلُ
وإن تكن الأبدان للموت أُنشئت ... فقتلُ امرىءٍ في اللّٰه بالسيف أفضل

ولله درّ الشاعر:

قدرٌ مثلما تريد السَّماء ... إن نضحِّي وأن تسيل الدماء
قدرٌ أن بعضنا يقضمُ القيدُ ... يديه وبعضنا شهداء
فاشهدي يا سماء أنَّنا سنبقى ... وسيبقىٰ طريقنا يا سماء
وسنبقى ما دام يصرخ في الدُّنيا ... حسين تضمه كربلاء

---

(١) عاشوراء للسيِّد حسن الشيرازي: ص٣٧.
(٢) للتوسعة راجع: القائد والقيادة والانقياد: ص٢٤١.

وهكذا كان أخوه العبَّاس، فقد قطعت يداه في كربلاء من أجل الدِّين، وقد عبَّر عن تضحيته بالقول:

واللَّه إن قطعتم يميني إنِّي أحامي أبداً عن ديني

وهكذا كان أصحاب النَّبي والأئمَّة عليهم السلام كبلال الحبشي، وعمَّار بن ياسر، ورشيد الهجري، وميثم التمَّار.

قال حجر بن عدي (رض) لقاتله: إن كنت أمرت بقتل ولدي فقدِّمه، فقدَّمه فضُربَ عنقه، فقيل له: تعجَّلت الثكل يا حجر! فقال: خفت أن يرى هول السَّيف على عُنقي فيرجع عن ولاية عليّ عليه السلام، فلا نجتمع في دار المقامة الَّتي وعدها الله الصَّابرين[1].

ورُوي أنَّ معاوية أرسل إلى «أبي الأسود الدؤلي» هديَّة فيها حلواء يريد بذلك استمالته وصرفه عن حبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فدخلت ابنة صغيرة له خُمَاسيٰ أو سُدَاسيٰ عليه فأخذت لقمة من تلك الحلواء وجعلتها في فمها.

فقال لها أبو الأسود: يا ابنتي ألقيه فإنَّه سمٌّ، هذه حلواء أرسلها إلينا معاوية ليخدعنا عن أمير المؤمنين عليه السلام ويردّنا عن محبَّة أهل البيت عليهم السلام.

فقالت الصبيَّة: قبّحه الله، يخدعنا عن السيِّد المطهَّر بالشهد المزعفر، تبّاً لمرسله وآكله، فعالجت نفسها حتَّى قاءت ما أكلته ثمَّ قالت:

أبالشَّهد المزعفرِ يابْنَ هندٍ نبيعُ عليكَ أحساباً ودِينَا
معاذَ اللَّهِ كيفَ يكونُ هذا ومَولانَا أميرُ المؤمِنينَا

---

(١) شواهد المبلغين: ص٦٩.

وكان «ابن السكيت» من علماء النحو واللغة يُعلِّم الصبيان، ثمّ صار يؤدِّب أولاد المتوكل العباسي، وذات يوم وبينما هو مع المتوكل إذ مرَّ بهما المعتزّ والمؤيّد ـ ولدا المتوكل ـ فقال له المتوكل: كيف تنسبني من علي، وتنسب ابنيَّ هذين من ابنيه؟ فقال ابن السكّيت: والله إنَّ قنبر خادم علي خيرٌ منك ومن ولديك، فأمر المتوكل بسّل لسانه فمات.

التضحية بالدِّين في سبيل الذَّات:

يقابل الأشخاص الَّذين ضحّوا من أجل الدِّين، أشخاص ضحّوا بالدِّين من أجل المصالح الذَّاتيَّة، وهم أهل الدُّنيا، وقد عبَّر الإمام الحسين عليه السلام عنهم بأنَّهم «عبيد الدُّنيا» فقال: «النَّاس عبيد الدُّنيا، والدِّين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درَّت معايشهم، فإذا مُحّصوا بالبلاء قلَّ الدَّيانون».

يقول السيِّد حسن الشيرازي رحمه الله: «الإمام الحسين عليه السلام ضحَّىٰ بالكثير والغالي ولكنَّه لم يضحِّ بالأكثر والأغلى، ضحَّى بالمال والأهل والنَّفس ولم يضحِّ بالمُثل والقيَم والدِّين.

ويزيد ضحَّى بالأكثر والأغلى ولم يضحِّ بالكثير والغالي، ضحَّى بالمُثل والقيم والدِّين ولم يضحِّ بالسلطة والأنانية، فأيُّهما ضحَّى وأيُّهما استأثر».

وهؤلاء هم الَّذين باعوا آخرتهم بالدُّنيا أو بدُنيا غيرهم وهم أشقى الخلق فقد سُئل الإمام علي عليه السلام: «أي الخلق أشقى فقال عليه السلام: من باع دينه بدُنيا غيره»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٢، ص٣٠١.

يقول عبد الله البزار النيشابوري: «كان بيني وبين «حميد بن قحطبة» معاملة، فرحلت إليه في بعض الأيّام فبلغه خبر قدومي، فاستحضرني للوقت وعليَّ ثياب السفر لم أغيّرها، وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر.

فلما دخلت عليه رأيته في بيت يجري فيها الماء، فسلَّمت عليه وجلست، فأتى بطشت وإبريق فغسل يديه، ثمَّ أمرني فغسلت يدي، وأحضرت المائدة، وذهب عنِّي أنِّي صائم، وأنِّي في شهر رمضان، ثمَّ تذكرت فأمسكت يدي فقال لي حميد: ما لك لا تأكل؟

فقلت: أيُّها الأمير.. هذا شهر رمضان، ولست بمريض ولا بي علَّة توجب الإفطار، ولعلَّ الأمير له عذر في ذلك أو علَّة توجب الإفطار، فقال: ما بي علَّة توجب الإفطار وإنِّي لصحيح البدن، ثمَّ دمعت عيناه وبكى، فقلت له بعدما فرغ من طعامه: ما يبكيك أيُّها الأمير؟

فقال: أنفذ إليَّ هارون الرشيد حين كان بطوس في بعض اللَّيل أن أجب، فلما دخلت عليه رأيت بين يديه شمعة وسيفاً أخضر مسلولاً، وبين يديه خادم واقف. فلما قمت بين يديه رفع رأسه إليَّ فقال: كيف طاعتك للأمير؟ فقلت: بالنَّفس والمال. فأطرق، ثمَّ أذن لي في الانصراف.

فلم ألبث في منزلي حتَّى عاد الرسول إليَّ وقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت في نفسي: إنَّا لله، أخاف أن يكون قد عزم على قتلي وأنَّه لما رآني استحى منِّي، فعدت بين يديه فرفع رأسه إليَّ فقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ فقالت بالنَّفس والمال والأهل والولد، فتبسم ضاحكاً، ثمَّ أذن لي في الانصراف، فلما دخلت منزلي لم ألبث أن عاد

إليَّ الرسول، فقال: أجب أمير المؤمنين، فصرت بين يديه وهو على حاله، فرفع رأسه إليَّ وقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ فقلت بالنَّفس والمال والأهل والولد والدِّين. فضحك، ثمَّ قال لي: خذ هذا السَّيف وامتثل ما يأمرك به الخادم.

قال: فتناول الخادم السيف وناولنيه، وجاء بي إلى بيت بابه مغلق، ففتحه فإذا فيه بئر، وفي وسطه ثلاثة بيوت أبوابها مغلقة، ففتح باب بيت منها فإذا فيه عشرون نفساً عليهم الشعور والذوائب، شيوخ وكهول وشباب مقيّدون، فقال لي: إنَّ أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، وكانوا كلهم علويَّة من ولد علي وفاطمة عليهما السلام، فجعل يخرج إليَّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه حتَّى أتيت على آخرهم، ثمَّ رمى بأجسادهم ورؤوسهم في تلك البئر.

ثمَّ فتح باب بيت آخر فإذا فيه أيضاً عشرون نفساً من العلويَّة من ولد علي وفاطمة عليهما السلام مقيدون، فقال لي: إنَّ أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، فجعل يخرج إليَّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه ويرمي به في تلك البئر حتَّى أتيت إلى آخرهم.

ثمَّ فتح باب البيت الثالث فإذا فيه عشرون نفساً من ولد علي وفاطمة عليهما السلام مقيدون، عليهم الشعور والذوائب، فقال لي: إنَّ أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء أيضاً، فجعل يخرج إليَّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه ويرمي به في تلك البئر حتَّى أتيت على تسعة عشر نفساً منهم، وبقي شيخ منهم عليه شعر فقال لي:

تباً لك يا ميشوم: أي عذر لك يوم القيامة إذا قدمت على جدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد قتلت من أولاده ستين نفساً قد ولدهم علي وفاطمة عليهما السلام؟

فارتعشت يداي وارتعدت فرائصي فنظر إليّ الخادم مغضباً وزبرني، فأتيت على ذلك الشيخ أيضاً فقتلته ورميت به في تلك البئر، فإذا كان فعلي هذا وقد قتلت ستين نفساً من ولد رسول الله ﷺ، فما ينفعني صومي وصلاتي؟ وأنا لا أشكّ أنّي مخلّد في النّار.

وقد روي أنّ الإمام علي بن موسى الرِّضا عليه السلام بعد أن ورد خراسان دخل عليه عبد الله النيشابوري وقصّ له قصّة هذا اللعين ويأسه من ربّ العالمين فقال عليه السلام: «**إنَّ يأسه من رحمة الله أكبر ذنباً من قتله ستين علويّاً**»[1].



(١) الذُّنوب الكبيرة، ج١ ص٩٨.

فضل الشيعة

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«إنَّ الله تبارك وتعالىٰ اطّلع إلى الأرض فاختارنا واختار لنا شيعة ينصروننا، ويفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا، ويبذلون أموالهم وأنفسهم فينا، أولئك منَّا وإلينا»(١).

* * *

عظمة الخلق:

خلق الله تعالىٰ الكون في أجمل صورة وأبهىٰ منظر، وزيَّنه فأودع فيه من الجبال، والبحار، والأنهار، والأزهار، والأشجار، والطيور، والحيوانات إلى غير ذلك من النعم الَّتي لا تُعدّ ولا تُحصىٰ.

فعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال في خلق الكائنات: «ابتدعهم خلقاً عجيباً من حيوان، وموات، وساكن، وذي حركات، فأقام من شواهد البيِّنات على لطيف صنعته وعظيم قدرته ما انقادت له العقول معترفةً به ومُسلِّمةً له، ونقعت في أسماعنا دلائله على وحدانيته»(٢).

---

(١) الخصال: ص٦٣٥.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٦٤.

كما أنَّه تعالىٰ خلق ما هو خارج عن مألوف العادة والنمط العام ليكون آية بارزة في الدلالة على الإبداع في الخلق، فخلق الورد مميزاً عن بقية النباتات، وخلق النحل مميزاً عن بقية الحشرات، وخلق الطاووس مميزاً عن بقية الطيور وهكذا.

ويمكننا أن نشبِّه هذا الخلق بمصنع ينتج مواداً استهلاكية كلها على نحو واحد وقالب معين، ولكن بين حين وآخر ومن أجل إظهار فنّه للجمهور أو تجسيد أصالته فإنَّه يصوغ بعضاً منها على نحو آخر بحيث إنَّه يباشر صياغته بنفسه ويتعهده بيده ويبدع فيه ويبتكر.

هذا الخلق هو ما يُعرف بالنوعية لا بالكمية وهو فريد لا نظير له، وإنَّما وُجد ليكون النموذج الَّذي يبهر العقول ويسلب الألباب عبر الأزمان، وبتعبير آخر: إنَّ لمثل هذا الموجود بين أفراد نوعه شخصية وخصائص تميزه عن غيره، وهذا ما نراه جلياً في المصنع البشري الَّذي أوجد جدار الصين من بين الأسوار، وذا الفقار من بين السيوف، وسدّ ذي القرنين من بين السدود وهكذا.

قيل: «نوادر الدُّنيا سبع: هاروت وماروت في الملائكة، وعُزير في بني آدم، وولادة سارة في الكبر، وعيسىٰ بلا أب، ونطق عيسىٰ في المهد، وشجاعة علي بن أبي طالب عليه السلام.

وعجائب الدُّنيا سبع: كلب أصحاب الكهف، وحمار عُزير، وعجل السامري، وناقة صالح، وكبش إسماعيل، وحوت يونس، وهدهد سليمان، وسيف علي بن أبي طالب».

الاختيار الإلٰهي:

وكما اختار الله تعالىٰ من بين مخلوقاته الكونية آيات بارزة في

الدلالة على عظمته وتوحيده، فإنَّه عزَّ وجلَّ اختار من خلقه أشياء وأضافها إلى نفسه.

فأضاف الخلق إليه فقال: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١].

وأضاف الرُّوح إليه فقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢].

وأضاف الآيات إليه فقال: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وأضاف المكان إليه فقال عن الكعبة ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وأضاف الزمان إليه فعن الإمام زين العابدين عليه السلام أنَّه قال في شهر رمضان: «السَّلام عليك يا شهر الله الأكبر».

وأضاف الأولياء إليه ولذا جاء في زيارة وارث:

«السَّلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السَّلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السَّلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السَّلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السَّلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السَّلام عليك يا وارث محمَّد حبيب الله».

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «إنَّ الله تبارك وتعالى اختار من كل شيء أربعة: اختار من الملائكة جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت.

واختار من الأنبياء أربعة للسيف: إبراهيم وداود وموسى وأنا.

واختار من البيوتات أربعة، فقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

واختار من البلدان أربعة، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ

سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [التين: ١-٣]، فالتين المدينة، والزيتون بيت المقدس، وطور سنين الكوفة، وهذا البلد الأمين مكة.

واختار من النِّساء أربعاً: مريم وآسية وخديجة وفاطمة.

واختار من الحج أربعة: الثجّ والعجّ والإحرام والطواف. فأمّا الثجّ فالنحر، والعجّ ضجيج النَّاس بالتلبية. واختار من الأشهر أربعة: رجب، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجَّة. واختار من الأيَّام أربعة: يوم الجمعة ويوم التروية ويوم عرفة ويوم النحر»[١].

اختيار الأئمَّة (ع):

اختار الله تعالىٰ أئمَّة بعد خاتم الأنبياء محمَّد ﷺ فجعلهم قادة يهدون بأمره، بعدما امتازوا بأعلىٰ الصفات الكمالية.

عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «يا علي إنَّ الله عزَّ وجلَّ أشرف على الدُّنيا فاختارني منها على رجال العالمين، ثمَّ اطلع الثانية فاختارك على رجال العالمين بعدي، ثمَّ اطلع الثالثة فاختار الأئمَّة من ولدك على رجال العالمين بعدي، ثمَّ اطلع الرابعة فاختار فاطمة على نساء العالمين»[٢].

وعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «... فإنَّا صنائع ربّنا والنَّاس بعد صنائع لنا»[٣].

يقول الشيخ المجلسي في تفسير هذا الحديث: «صنيعة الملك من يصطنعه ويرفع قدره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٤١] أي اخترتك وأخذتك صنيعتي لتتصرف عن إرادتي ومحبتي، فالمعنى

---

(١) الخصال: ص٢٢٥.
(٢) نور الثقلين: ج١، ص٣٢٩.
(٣) نهج البلاغة: ج٢، ص٢٦٠.

أنَّه ليس لأحد من البشر علينا نعمة، بل الله أنعم علينا فليس بيننا وبينه واسطة، والنَّاس بأسرهم صنائعنا، فنحن الوسائط بينهم وبين الله تعالىٰ»[١].

سرّ الاختيار:

قد يُقال: لماذا اختار الله تعالىٰ الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام دون سواهم من بقية الخلق؟

ولتقريب الإجابة نحتاج إلى بيان المثال التالي وهو: لنفترض أنَّ إحدى الدول أرادت أن ترسل رسالة إلى دولة أُخرى، فلا شك أنَّها تختار الرجل الَّذي يستطيع حمل الرِّسالة وأداءها على أكمل وجه، ومن ثَمَّ فلا يحق لأحد أن يعترض ويقول: لماذا اخترتم هذا الرَّسول دون سواه؟ فإنَّ الدولة أعلم برجالاتها، وهكذا فإنَّ الله تعالىٰ لمَّا خلق البشر علم أنَّ بعضهم يطلب الخير المحض ويستطيع أن يتحمل أداء الرِّسالة على أكمل وجه فاختارهم على من سواهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٢﴾ [الدخان: ٣٢] وفي الحديث القدسي: «أنا المطّلع على قلوب عبادي لا أحيف ولا أظلم ولا ألزم أحداً إلَّا ما عرفته منه قبل أن أخلقه»[٢].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «إنَّ الله اختار معاشر آل محمَّد، واختار النَّبيِّين، واختار الملائكة المقرَّبين، وما اختارهم إلَّا على علم منه بهم إنَّهم لا يواقعون ما يخرجون به عن ولايته وينقطعون به عن عصمته، وينتمون إلى المستحقين لعذابه ونقمته»[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٥٣٦.
(٢) مصابيح الأنوار: ج١، ص١٣.
(٣) عمدة النظر: ص١٦٦.

اختيار الشيعة:

كما اختار الله تعالىٰ الأئمَّة عليهم السلام في خلق أبدانهم وأرواحهم وقلوبهم فإنَّه تعالىٰ اختار لهم شيعة كذلك.

فعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ الله تبارك وتعالىٰ اطلع إلى الأرض فاختارنا واختار لنا شيعة ينصروننا ويفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا ويبذلون أموالهم وأنفسهم فينا أولئك منَّا وإلينا»(١).

وقد ذكرت الرواية الشريفة من صفات الشيعة أنَّهم:

١ ـ **ينصرون آل محمَّد صلى الله عليه وآله**: تتحقق نصرة الرَّسول صلى الله عليه وآله والأئمَّة عليهم السلام بإثبات ولايتهم وتعريفها للنَّاس، وبالدفاع عن حقوقهم الَّتي جعلها الله لهم. وهذه الأُمور تارة تكون باللِّسان، وأُخرى باليد أو النَّفس والثالثة بالقلب، وهي تتفاوت بتفاوت الزَّمان والمكان.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: «شيعتنا والله لا يزالون منذ قبض الله رسوله ينصروننا ويقاتلون دوننا، ويُحرّقون، ويُعذّبون، ويُشرّدون من البلدان، جزاهم الله عنَّا خيراً»(٢).

٢ ـ **يفرحون لفرح آل محمَّد عليهم السلام ويحزنون لحزنهم**: فكما أنَّ الأئمَّة عليهم السلام يفرحون بالأُمور المعنوية كانتشار الدِّين وإقامة الصلاة ومساعدة النَّاس وإحقاق الحق كذلك شيعتهم، وكما أنَّ الأئمَّة عليهم السلام يحزنون لغربة الدِّين واضطهاد المسلمين وانتشار الظلم والفساد كذلك شيعتهم... وذلك لأنَّ أرواح الشيعة متصلة بأئمَّتهم.

وفي الروايات أنَّ المعصومين عليهم السلام يتأثرون لأحوال شيعتهم ففي

---

(١) الخصال: ص٦٣٥.

(٢) الفرقان في تفسير القرآن: ج٢٨، ص٣٢١.

الرواية أنَّ الإمام علي عليه السلام قال لرجل: «ليس من مؤمن يمرض إلّا مرضنا لمرضه، ولا يحزن إلّا حزنّا لحزنه، ولا يدعو إلّا أمنَّا له، ولا يسكت إلّا دعونا له»[1].

وهذا الأمر يقتضي منّا أن ندقّق في مظاهر الفرح الّتي يرضى بها أئمّتنا... فإنّهم عليهم السلام لا يرضون أن نفرح بمناسبات ولاداتهم ووفياتهم باستعمال أدوات الغناء والفساد... أو الكذب والحرام وما أشبه.

كما لا يرضون أن نقع في الحرام والمعصية لأنّهما يسبّبان الحزن لأئمّتنا.

وهذا بخلاف أرواح بني أُميَّة فإنّها مضادة للخير والصلاح فإنّها تفرح لحزن آل محمَّد عليهم السلام كما في الزيارة: «وهذا يوم فرحت به آل زياد وآل مروان وبنو أُميّة قاطبة».

قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٣ ـ يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل آل محمَّد عليهم السلام: هناك فرق بين البذل والعطاء، فالعطاء قد يكون عن إجبار وإكراه ومنّة أمّا البذل فهو عن كامل اختيار ومحبة، فالشيعة يبذلون أموالهم وأنفسهم مع قدرتهم عن المنع، والهدف بكل ذلك هو رضى الله تعالى.

عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال: «... من كان باذلاً فينا مهجته موطنّاً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا...».

ولهؤلاء الشيعة فضل كبير ومنزلة عظيمة عند آل محمَّد عليهم السلام فهم:

---

(١) النجم الثاقب: ج٢، ص٤٩٠ للزيادة راجع بحوث في الإمامة والولاية: ص٥٦٠.

أ ـ **من آل محمَّد** عليهم السلام: وهذه مرتبة عالية جداً، فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «من تولَّى آل محمَّد وقدَّمهم على جميع النَّاس بما قدمهم من قرابة آل رسول الله صلى الله عليه وآله فهو من آل محمَّد بمنزلة آل محمَّد لا أنَّه من القوم بأعيانهم، وإنَّما هو منهم بتوليه إليهم واتباعه إيَّاهم، وكذلك حكم الله في كتابه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]»[١].

ولهذه المكانة ـ المنيَّة ـ درجات، أرفعها ما حصل عليه سلمان الفارسي، وعمر بن يزيد، والفضيل بن يسار، ويونس بن يعقوب[٢].

ب ـ **إلى آل محمَّد** عليهم السلام: أي أنَّهم يعودوا في يوم القيامة ليلتحقوا بالأرواح الَّتي خُلقوا منها، وهي أرواح آل محمَّد عليهم السلام فيكونوا معهم. قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩] إنَّ هذه الآية تدلُّ على أنَّ طاعة الله والرَّسول تستلزم نوعاً من الاتحاد المعنوي والروحي بين المطيع ومواليه المعصومين عليهم السلام في جميع العوالم الوجودية.

ولذا ورد في الحديث عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنَّه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنَّ الله تعالىٰ خلقني وخلق علياً وفاطمة والحسن والحسين والأئمَّة من نورٍ، فعصر ذلك النُّور فخرج منه شيعتنا، فسبَّحنا وسبَّحوا، وقدَّسنا وقدَّسوا، وهلَّلنا وهلَّلوا، ومجدَّنا فمجَّدوا، ووحَّدنا فوحَّدوا»[٣].

عن نوف البكالي أنَّه قال: قال لي علي عليه السلام: «يا نوف خُلقنا من

---

(١) نور الثقلين: ج١، ص٦٣٠.
(٢) راجع «بحوث الإمامة والولاية» ص٥٢٢.
(٣) بحار الأنوار: ج٧، ص٣٥٥.

طينة طيِّبة، وخُلق شيعتنا من طينتنا، فإذا كان يوم القيامة أُلحقوا بنا، قال نوف: فقلت: صف لي شيعتك يا أمير المؤمنين؛ فبكى لذكر شيعته وقال: يا نوف، شيعتي والله الحكماء العلماء بالله ودينه، العاملون بطاعته وأوامره»[١].

نداء ودعوة: حُكي أنَّ الإسكندر علم أنَّ رجلاً يحمل اسمه إلَّا أنَّه جبان فاستدعاه، وقال له: يا هذا إمَّا أن تغيِّر فعلك أو أن تغيِّر اسمك... وهكذا يُقال لبعض الَّذي يحملون اسم التشيع: إمَّا أن يغيِّروا أفعالهم أو ليغيِّروا الاسم المبارك.

لقد قال الإمام علي عليه السلام في بعض كلماته لأصحابه: لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم... لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً» فهل سيقول لنا في الآخرة ليتني لم أعرفكم؟

اللهم عرّف بيننا وبين إمامنا واجمعنا معه في مستقرّ رحمتك يا أرحم الراحمين.



(١) بحار الأنوار: ج١٥ كتاب الإيمان، ص١٥٣.

الخلق عيال الله تعالى

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«الخلقُ عيال الله وأحبّ النَّاس إلى الله أشفقهم على عياله»[١].

* * *

تُعتبر هذه الكلمة من أهم الكلمات الَّتي تحثُّ النَّاس على التقارب والتعايش والمحبة، وذلك من خلال أمرين:

أوَّلاً: الخلق عيال الله:

فالإمام عليه السلام يعتبر أنَّ كل الخلق هم «عيال الله» أي فقراء إلى الله تعالىٰ في وجودهم ورزقهم واستمرار حياتهم[٢].

ولذلك فإنَّه تعالىٰ لم يتركهم سدى وإنَّما قدَّر أرزاقهم فعن الإمام علي عليه السلام: «عياله الخلائق ضمن أرزاقهم وقدَّر أقواتهم»[٣].

وفي هذه الكلمة استعارة فكما أنَّ الرجل هو الَّذي يعيل أولاده

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٤، ص٥٦٩.
(٢) ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٨].
(٣) نهج البلاغة الخطبة ٨٩.

فإنَّه تعالى يعيل مخلوقاته، ففي الحديث القدسي: «المال مالي والفقراء عيالي».

فلا بدَّ أن تكون العلاقة بالنَّاس منطلقة من خلال المشاركة معهم في الإنسانية كما قال الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر: «فإنَّهم صنفان: إمَّا أخ لك في الدِّين، أو نظير لك في الخلق».

وفي الحديث: «رأس العقل بعد الدِّين التودُّد إلى النَّاس واصطناع الخير إلى كل برّ وفاجر»[(١)].

ومن الطبيعي أنَّ أهم ما في هذه العائلة البشرية هم الذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر، والأهم في هذه العائلة المؤمنة هم الفقراء المستضعفون.

ثانياً: أحب النَّاس إلى الله أشفقهم على عياله:

فإنَّ الإنسان القريب من الله تعالىٰ هو من يكون قريباً من النَّاس ومن يحبهم ويشفق عليهم، ففي الحديث: «خصلتان ليس فوقهما شيء من البرّ: الإيمان بالله، والنفع لعباد الله».

وفي الحديث القدسي: «يابن آدم تريد وأريد، ولا يكون إلَّا ما أريد، فمن قصدني وجدني **ومن وجدني خدمني**»[(٢)].

ومفهوم الخدمة بمعناه العام أن يبذل الإنسان من وقته وماله في خدمة رسالته ودعوته، فالسعي في بيان طريق الحق وهداية النَّاس إليه خدمة، والتبرع لكفالة يتيم خدمة، وقضاء حاجة أخ لك في الدِّين

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ص٣٩٠.

(٢) كلمة الله: ص٣٧٩.

خدمة، والسعي في زواج العازب خدمة، . . . وهذه الخدمات ذكر عملي لله تعالى[١].

ومن هنا كان الأنبياء والأولياء عليهم السلام أقرب النَّاس إلى الله تعالى لما يقومون به من نفع مادي ومعنوي للنَّاس، قال تعالى على لسان السيِّد المسيح عليه السلام: «وجعلني مباركاً أينما كنت» ففي تفسير الآية عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: «نفَّاعاً».

وقال تعالى عن النبي يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: ٣٦] ففي تفسير الآية عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: «كان يوسِّع المجلس، ويستقرض للمحتاج، ويعين الضعيف»[٢].

لذا؛ كلَّما عظمت شخصية الإنسان عظم نفعه وعطاءه للنَّاس من دون التفرقة بينهم.

النتيجة:

من أراد القرب إلى الله تعالىٰ فلا بدَّ له من أُمور:

١ ـ **أن يشفق على النَّاس** بدءاً من العائلة الصغيرة ـ الأسرة ـ وتوسعاً إلى الأرحام والعشيرة والمجتمع والأُمَّة. . .

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الخلق كلّهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»[٣].

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام قال الله تعالى: «الخلق عيالي فأحبهم إليَّ ألطفهم بهم وأسعاهم في حوائجهم»[٤].

---

(١) الذكر معراج الروح: ص٨٩.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج٢ ص٤٢٥.
(٣) وهج الفصاحة: ص٤٤١.
(٤) الحياة: ج١، ص٤٠٠.

نلاحظ في هذين الحديثين أنَّهما ذكرا نفع العيال ـ سواءً أكان النفع في الأُمور المادية أو المعنوية وفي الجوانب السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ـ واللُّطف بهم ـ باللِّسان واليد ـ والسعي في حوائجهم المادية والمعنوية.

وقد قيل: إنَّ العابد في بني إسرائيل كان إذا بلغ الغاية في العبادة صار مشَّاءً في حوائج النَّاس عانياً بما يصلحهم».

٢ ـ أن يكون النفع خالصاً لوجه الله تعالى، فمن يعمل أجيراً عند إنسان فإنَّه يخدم ضيوفه تقرُّباً إليه وهكذا الإنسان يخدم عباد الله تعالى تقرُّباً لربّهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩].

٣ ـ أن يتعامل مع النَّاس على أنَّهم طريق للقرب إلى الله تعالى وليسوا عبيداً له فالزوج لا يتعامل مع الزوجة على أنّها ملك له وإنَّما يتقرّب بها إلى الله تعالى فـ«عيال الرجل أسراؤه».

والأب لا يتعامل مع الولد على أنَّه ملك شخصي له فلا يحق له أن يضربه أو يؤذيه أو يهينه من دون مسوغ شرعي بل يرى أنَّهم عيال الله تعالى وهو مسؤول عنهم وهكذا.

٤ ـ إنَّ أبعد الخلق عن الله وأبغضهم إليه هو من يسبِّب ضرراً للمسلمين أو يمنع انتفاعهم بما هو حق لهم.

عن رسول الله ﷺ: «ملعون ملعون من ضيَّع من يعول»[1].



(١) بحار الأنوار: ج١٠٣، ص١٣.

معاشرة النَّاس

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«عاشروا النَّاس معاشرةً، إن غبتم حنّوا إليكم، وإن فُقدتم بكوا عليكم»[١].

* * *

الدعوة إلى المخالطة الحسنة:

في هذه الكلمة دعوة إلى مخالطة النَّاس ومعاشرتهم، وعدم الانعزال عنهم، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أفضلكم أحسنكم أخلاقاً، المُوَطّئون أكنافاً الَّذين يألفون ويُؤلفون، وتُوطأ رحالهم» و«لا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف»[٢].

فليس صحيحاً ما يقوله البعض: أنا خُلقت وحيداً ـ وسأبقى وحيداً... وأنَّ النَّاس يريدون التقرُّب إليَّ وأنا أهرب منهم... وإنِّي أستغني عن النَّاس، ففي الرواية أنَّ رجلاً قال: اللَّهمَّ اغنني عن خلقك، فقال له الإمام الباقر عليه السلام: «لا تقل هذا، ولكن قل: اللَّهمَّ اغننا عن شرار خلقك، فإنَّ المؤمن لا يستغني عن أخيه»[٣].

---

(١) مستدرك نهج البلاغة: ج٨، ص٢٣٥.
(٢) الصداقة والأصدقاء: ص١١.
(٣) المصدر نفسه.

ثمَّ إنَّ الإمام علي عليه السلام يدعو في كلمته إلى أن تكون المعاشرة ذات تأثير إيجابي، بحيث إنّ الإنسان إذا حضر مجلساً رغب النّاس في مجالسته والاستماع إليه... وإذا غاب حزن النّاس لغيبته، فيكون كالشّمس الّتي إذا غابت تركت فراغاً في حياة النّاس[١].

فالأب الّذي يعامل أولاده معاملة حسنة يجعلهم يفرحون لوجوده في البيت ويحزنون لسفره وغيابه عنهم، بينما الأب القاسي يسبّب حزناً عند وجوده في المنزل وفرحاً لغيبته وموته، ولذا قيل: «ولا تكن من الّذين يُقال إذا ماتوا: الحمد لله».

هذا يعني أنَّ من الضروري أن يترك الإنسان انطباعاً جيداً في قلوب النّاس.

فلو أنّك عملت في مؤسسة وأردت تركها فاترك انطباعاً جميلاً عنك ولا تتركها بعد خلاف ومشكلة... ولو أنّك صادقت إنساناً وأردت الانفصال عنه فلا تنفصل عنه بعد الاختلاف معه كي يبقى انطباعه عنك جميلاً، وهكذا في كلّ مجالات الحياة.

فنّ المعاملة:

التعامل مع النّاس فنّ من فنون الحياة كلّما أتقنه الإنسان كان تأثيره في محيطه أكبر... فإذا لم يملك الواحد منّا الجاه والمال ليؤثّر في نفوس النّاس فإنّه يستطيع أن يملك فنّ المداراة والمجاملة والابتسامة وغير ذلك من الأمور الّتي لا تُكلّف الجيب عبئاً مادياً.

---

(١) قال «مارك توين» الكاتب الأمريكي: «بعض النّاس يزيّنون المكان بحضورهم، والبعض الآخر بانصرافهم».

لذا ورد عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «يا بني عبد المطّلب إنَّكم لن تسعوا النَّاس بأموالكم فالقوهم بطلاقة الوجه وحسن البشر»[١].

وإذا رجعنا إلى تاريخ الأنبياء والأولياء عليهم السلام وجدنا أنَّهم ما كانوا يملكون مالاً ولا جاهاً لكسب القلوب وإنَّما أخلاقاً عظيمة.

عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ عليّاً صاحب رجلاً ذمياً فقال له الذمي: أين تريد يا عبد الله؟ فقال عليه السلام: أُريد الكوفة. فلما عدل الطريق بالذمي عدل معه علي، فقال له الذمي: ألست زعمت تريد الكوفة؟ قال: بلى، فقال له الذمي: فقد تركتَ الطريق؟ فقال له عليه السلام قد علمتُ، فقال له: فلِمَ عدلت معي وقد علمت ذلك؟ فقال له عليه السلام: هذا من تمام حسن الصحبة، أن يشيّع الرجل صاحبه هنيهةَ إذا فارقه». وكذلك أمرنا نبينا، فقال: هكذا قال نبيكم؟ قال عليه السلام: نعم، فقال: لا جرم إنَّما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة. وأنا أشهدك أنِّي على دينك فرجع الَّذي مع علي فلما عرفه أسلم».

إنَّ مخالطة الأئمَّة عليهم السلام للنَّاس تركت تأثيراً إيجابياً على من حولهم، بل وعلى كلّ الأجيال بحيث إنَّ النَّاس وعبر الأجيال يبكون الأئمَّة عليهم السلام لما تركوه من أثر بعد مماتهم.

آداب المخالطة:

ولهذه المخالطة حقوق وآداب أهمها:

أوَّلاً: مراعاة الأخلاق: وعنه ﷺ: «حسنُ الخلقِ خُلُقُ الله الأعظم».

---

(١) المصدر السابق: ص٣٣.

وسُئل الإمام زين العابدين عليه السلام عن جميع شرائع الدِّين فقال عليه السلام: «قول الحق، والحكم بالعدل، والوفاء بالعهد».

بل نجد أنَّ النَّبيّ محمَّداً صلى الله عليه وآله حصر الهدف من بعثته ورسالته بحسن الخلق. فقد رُوي عنه أنَّه قال: «إنَّما بُعثت لأُتمِّم مكارم الأخلاق»[1].

ثانياً: معرفة الطبائع البشرية: فمنْ عرف طبائع النَّاس استطاع أن يتكيَّف معهم، وينزلهم منازلهم، فللكبير شخصية، وللصغير شخصية، وللمرأة شخصية... إنَّ التعامل مع النَّاس أصعب من التعامل مع الطبيعة وذلك لأنَّ الطبيعة جامدة أمَّا النَّاس فلهم عقول متفاوتة وأمزجة مختلفة، عن الإمام علي عليه السلام: «لو علم النَّاس كيف خلق الله الخلق لما لام أحدٌ أحداً».

ولكي نعرف الطبائع البشرية لا بدَّ أن نعود إلى أنفسنا فهي الميزان، عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال لولده الحسن عليه السلام: «واجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، وأحب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، لا تظلم كما لا تحب أن تُظلم، وأحسن كما تحب أن يُحسن إليك، واستقبح لنفسك ما تستقبحه من غيرك، وارض من النَّاس ما ترضى لهم منك».

والمهم في هذا المجال أن يُدرك الإنسان أنَّه عندما يتعامل مع النَّاس فإنَّه لا يتعامل مع آلة جامدة وإنَّما مع عواطف وأحاسيس ومشاعر من العسير فهمها، والأصعب هو إصلاحها بعد إفسادها، رُوي أنَّ النَّبيّ محمَّداً صلى الله عليه وآله كان يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة أو يسمّيه فيضعه في حجره، وربَّما بال الصبي على ثيابه فيصيح بعض النَّاس عليه فيقول

(١) المصدر السابق.

النَّبي محمَّد ﷺ: لا تقطعوا عليه بوله، وإذا انصرف النَّاس غسَّل ثوبه[١].

فكأنَّه ﷺ يقول للنَّاس إنَّ من السهل أن نطهِّر الثوب بالماء، ولكن من الصعب أن نصلح النَّفس إذا كُسرت وجُرحت.

جاء في الحديث: «من كسر مؤمناً فعليه جبره» فسواء كان الكسر هو كسر لعظم الإنسان أم لنفسه، فعلى الكاسر أن يجبر كسره.

ثالثاً: احترام النَّاس: فالاحترام يُشعر الآخرين بتقديرهم وأهميتهم وهو في الحقيقة غذاء النَّفس، ولذا حرَّم الدِّين الإهانة والإذلال والاستخفاف وغير ذلك ممَّا يضاد الاحترام.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «أُوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً، وأوسطهم أخاً، وكبيرهم أباً، فارحم ولدك، وصل أخاك، وبرّ أباك».

رابعاً: الاستماع إلى الآخرين: ففي داخل كلّ إنسان مشاكل وهموم يحب أن يبثّها إلى إخوانه، فمن استمع إلى الآخرين فقد شاركهم في مشاكلهم، وعن الإمام علي عليه السلام: «من أحسن الاستماع تعجَّل الانتفاع».

وعنه عليه السلام أنَّه قال لكميل بن زياد: «يا كميل كلّ مصدور ينفث، فمن نفث إليك منَّا بأمر أمرك بستره فإيَّاك أن تبديه، وليس لك من إبدائه توبة. وإذا لم تكن توبة فالمصير إلى لظى»[٢].

---

(١) ذلكم رسول الله ﷺ: ص٢٢١.

(٢) موسوعة أمير المؤمنين: ج٦، ص٥٢.

خامساً: التشجيع: وهو ضروري لكلّ إنسان لأنَّه يخلق في نفسه الثقة والتقدُّم نحو الأفضل، والنَّاس تبتعد تلقائياً عن الَّذي ينتقد غيره.

عن الإمام علي عليه السلام: «الانتقاد عداوة» و«كثرة العتاب تورث الضغينة» و«إيَّاك أن تكرِّر العتب فإنَّ ذلك يغري بالذَّنب ويهوِّن العتب» و«إذا عاتبت الحدث ـ الولد ـ فاترك له موضعاً من ذنبه لئلا يحمله الإحراج على المكابرة».

سادساً: الإحسان: فعن الإمام علي عليه السلام: «الإنسان عبد الإحسان» سواء كان الإحسان بالأمور المادية أو المعنوية، ومنه الهدية فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الهدية تورث المودَّة، وتجدِّد الاخوة، وتُذهِب الضغينة، تهادُّوا وتحابوا».

سابعاً: الابتعاد عن السلبيات: فعن الإمام علي عليه السلام: «من عامل النَّاس فلم يظلمهم، وحدَّثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم. فهو ممَّن حرمت غيبته وكملت مروَّته وظهر عدله ووجب وصله»[1].

فنلاحظ في هذا الحديث أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر أهم السلبيات في المعاملات الاجتماعية، فذكر الظلم سواء أكان معنوياً، كالاتهام والتشكيك والإيذاء والإهانة أو مادياً كالسرقة والغش والاحتيال وعدم أداء الدَّيْن مع القدرة عليه.

ألا نجد أنَّ بعض النَّاس يماطلون في دفع الإيجارات المطلوبة منهم أو أجرة العُمَّال أو الديون كي يضطر المديون وصاحب الحق للتنازل عن بعض أمواله كي يضمن تحصيل الباقي؟ أليس هذا العمل من أبشع أنواع الظلم فإنَّه «لا يحلّ مال امرىء مسلم إلَّا بطيب نفس».

---

(١) مستدرك نهج البلاغة: ج١٠، ص٢٦.

كما نبّه ﷺ في الحديث المذكور على عدم الكذب لأنَّ الكذب من المفاسد الخطيرة، ألا نجد أنَّ الكذب قد تفشَّىٰ بحجَّة أنَّه كذبة بيضاء أو كذبة تجارة أو كذبة مزاح أو كذبة نيسان؟؟!

كما نبّه ﷺ على عدم خلف الوعد، لأنَّ خلف الوعد يورث عدم الثقة والمصداقية في العمل... ألا نرى أنَّ بعض أصحاب المهن والتجارة لا يلتزمون بأيِّ وعد مع النَّاس حتَّى صار هذا الأمر سمة لهم، هذا في الوقت الَّذي قد يكون خلف الوعد من المحرمات وذلك إذا وعد ولم يكن في نيَّته أن يفي بوعده.



التوازن في الحب والبغض

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما».

* * *

التوازن قانون كوني:

إنَّ التوازن حقيقة كونيَّة تحكم نظام الوجود من الذرَّة إلى المجرة ولولا ذلك لانعدمت الحياة، فانظر إلى الأجرام السَّماويَّة وحركتها وابتعاد بعضها عن بعض... وإلى الطيور في السَّماء... وإلى الطائرات... والأبنية... وغير ذلك فستجد أنَّ التوازن أساس بقائها واستمرارها ولولا ذلك لما بقيت، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٧-٩] وقال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩].

ولم يكن الإنسان بدعاً من هذا القانون فقد جعل الله تعالىٰ فيه قانوناً يحفظ توازنه في جسده وعقله وروحه وغرائزه وشهواته، وفي

علاقاته مع محيطه ومجتمعه وأسرته، فإن حافظ على هذا القانون فقد جعل حياته سعيدة ومتكاملة وإلَّا فإنَّه سيتعرَّض للفساد والطغيان.

توازن الإنسان:

إنَّ الشخصيَّة الكاملة هي الَّتي تعيش التوازن والاعتدال في الغرائز والشهوات، بحيث لا يوجد فيها إفراط ولا تفريط... فهي متوازنة في العقل والقلب، والغنى والفقر، والرضى والغضب، والهزيمة والنصر، والعزّ والذلّ، ومن هنا ورد عن الإمام علي عليه السلام في وصف المؤمن بأنَّه: «وقور عند الهزاهز، ثبوت عند المكاره، صبور عند البلاء، شكور عند الرخاء».

في وصية الإمام علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «أُوصيك بتقوى الله في الغنى والفقر، وكلمة الحق في الرضى والغضب، والقصد ـ أي عدم الإسراف ـ في الغنى والفقر، وبالعدل على الصديق والعدو، وبالعمل في النشاط والكسل، والرضى عن الله في الشِّدَّة والرخاء»(١).

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام، أنَّه قال: «إنَّما المؤمن الَّذي إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل، وإذا سخط لم يخرجه سخطه من قول الحق، والمؤمن الَّذي إذا قدر لم تخرجه قدرته إلى التعدي وإلى ما ليس له بحق».

فالمؤمن الَّذي يعيش التوازن في الحب والبغض، فلا يغالي في الحب إلى درجة الهيام والوله، ولا يفرّط في البغض إلى درجة العمى ـ كما يقول البعض ـ وذلك لأنَّ في الإفراط نتائج سلبية كثيرة:

---

(١) التسقيط: ص٢٤٢.

الإفراط في الحبّ:

الحبّ بإفراط يعمي ويصمّ عن معائب المحبوب، فعن الإمام علي عليه السلام، أنَّه قال: «من عشق شيئاً أعشى بصره وأمرض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع بأذن غير سميعة».

كما أنَّه يُسبّب الهموم والأحزان، فقد رُوي أنَّ الإمام علي عليه السلام رأى رجلاً معه ولده فقال عليه السلام: من هذا معك؟ فقال: ابني فقال عليه السلام: أتحبّه؟ قال: إي والله حبّاً شديداً فقال عليه السلام: لا تفعل فإنَّه إن عاش كدَّك وإن مات هدَّك[1].

كما أنَّه يؤدِّي إلى الوقوع في الحرام، كما في قصة امرأة العزيز، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠].

وزيادة على ذلك فإنَّ الحبّ قد ينقلب إلى البغض ـ كما في حديث الإمام علي عليه السلام الَّذي ذكرناه في أوّل المقال ـ وفي ذلك أضرار كثيرة، منها: الصدمة النفسية. وفقدان الثقة بالنَّاس، وإفشاء الأسرار، خصوصاً إذا تحوّل الحبيب إلى عدو، ولذا ورد عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «لا يطّلع صديقك من سرّك إلّا على ما لو اطّلع عليه عدوك لم يضرّك، فإنَّ الصديق ربَّما كان عدوّاً».

الإفراط في البغض:

من أبغض بإفراط فإنَّه يتعرَّض لسلبيات عديدة، منها: القطيعة والعداوة، والحقد والكراهية، والحسد والغيبة، والشماتة وإظهار العيوب، والاتهام والإسقاط، وتتبع العثرات، إلى ما هنالك من مفاسد

---

(١) نهج السعادة: ج١، ص٢٤٣.

فردية واجتماعية، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨].

ثمَّ قد يأتي يوم ويتحوَّل العدو إلى صديق كأنَّ يتوب ويعود إلى رشده أو قد يأتي يوم وتحتاج إليه فإن كانت العداوة كبيرة جداً صعب الرجوع إليه، ولذا ورد عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «إن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقيَّةً يرجع إليها إن بدا له ذلك يوماً ما».

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «لا تتبع أخاك بعد القطيعة وقيعة فيه، فيسدُّ طريق الرجوع إليك، فلعلَّ التجارب تردُّه عليك».

هذا، والملاحظ أنَّ الشباب هم أكثر النَّاس إفراطاً في الحب والبغض، فإذا أحبّ أحدهم فإنَّه يبالغ في الحبّ حتَّى يبدو مع صديقه كأنَّهما روح واحدة في جسدين، فتراهما يشتركان في اللباس والكلام وكلّ الأفعال، وإذا أبغض أحدهما الآخر فإنَّه يتطرف في بغضه.

عين الرضى والسخط:

لو ألقينا نظرة على مجتمعنا لوجدنا أنَّ أغلب المعاملات بين النَّاس منطلقة من الحب والبغض، فمن أحب إنساناً سلَّم له في كلّ شيء، وبرَّر له كلّ فعل قبيح، ومن أبغض إنساناً قبَّح له كلّ حسن وجميل، وهذا ما عبَّر عنه الشاعر بقوله:

وعين الرضى عن كلّ عيب كليلة ... ولكن عين السوء تبدي المساويا

وما هذه النظرة الضيِّقة إلَّا لعدم الإنصاف في الحكم على الآخرين. ومن هنا ورد عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «قلَّما ينصف اللِّسان في نشر قبيح أو إحسان».

الحب في الله والبغض في الله:

ولأنَّ الحب والبغض ينبعان من قلب الإنسان المتقلِّب والمتغيِّر بتغيُّر الأحوال والأشخاص، فقد جعل الإسلام ميزاناً للحب والبغض، وهو «الحب في الله والبغض في الله» بمعنى أن يحبّ الإنسان من كان وليّاً لله حتَّى ولو كان عبداً أسود وفقيراً معدماً. ويبغض من كان عدوّاً لله حتَّى ولو كان من أرحامه وعشيرته قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: ٢٣]. وعن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «أوثق عُرى الإسلام أن تحبّ في الله وتبغض في الله».

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام قال لبعض أصحابه: «يا عبد الله أحبّ في الله وأبغض في الله، ووالِ في الله، فإنَّه لا يُنال ولاية الله إلّا بذلك، ولا يجد الرجل طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتَّى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة النَّاس يومكم هذا أكثرها في الدُّنيا، عليها يتوادون وعليها يتباغضون».



حقوق النَّاس

عن الإمام علي عليه السلام:

«جعل الله سبحانه حقوق عباده مقدمة لحقوقه، فمن قام بحقوق عباد الله كان ذلك مؤدِّياً إلى القيام بحقوق الله»[١].

* * *

بين حقوق الله تعالى وحقوق النَّاس:

عندما نقارن بين الأُمور العبادية الَّتي يهتم بها المسلم وبين المعاملات الاجتماعية نجد أنَّ المسلم غالباً ما يهتم ويدقِّق في الأُمور العبادية كالوضوء والصلاة والحج، وقد نجد بعض المسلمين مصاباً بداء الوسواس في الوضوء والصلاة، ولكنَّه لا يبالي بمراعاة آداب العلاقات مع النَّاس، في حين أنَّ النصوص الدينية تعتبر أنَّ حق النَّاس هو من حق الله تعالى.

ورد عن الإمام علي عليه السلام: «جعل الله سبحانه حقوق عباده مقدمة على حقوقه...».

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص٢٢٣.

ونذكر بعض الموارد الَّتي يتبين منها موقعية احترام مشاعر النَّاس في الإطار العبادي.

الأول: إنَّ المبادرة للصلاة إذا حان وقتها، أمر مطلوب من الناحية الشرعية، وإذا أُقيمت الصلاة للجماعة تكون أكثر تأكيداً، ورسول الله ﷺ هو الأحرص على هذه الالتزامات الشرعية، لكن الرواية الواردة عن أنس تقول: أُقيمت الصلاة ورجل يناجي رسول الله ﷺ فما زال يناجيه حتَّى نام أصحابه، ثمَّ قام فصلَّى.

الثاني: يصلِّي رسول الله ﷺ بالمسلمين جماعة، فيطيل في سجوده أكثر من المعهود فيسأله القوم بعد الصلاة: يا رسول الله لقد سجدت في الصلاة سجدة ما كنت تسجدها، كأنَّما يُوحى إليك فقال ﷺ: لم يُوح إليَّ، ولكن ابني ـ الحسن بن علي ـ كان على كتفي فكرهت أن أُعجله حتَّى نزل.

الثالث: يسمع رسول الله ﷺ بكاء طفل وهو يصلِّي بأصحابه جماعة، فيخفِّف صلاته رحمة بذلك الطفل، ورعاية لعواطف أُمّه.

روى أبو قتادة عن النَّبي ﷺ قوله: «إنِّي لأقوم في الصلاة أُريد أن أطوِّل فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوَّز في صلاتي كراهية أن أشق على أُمّه».

وفي رواية عنه ﷺ: «فأتجوَّز في صلاتي ممَّا أعلم من شدَّة وجد أُمّه من بكائه».

الرابع: عن أبان بن تغلب قال: كنت مع أبي عبد الله جعفر الصَّادق عليه السلام في الطواف، فجاء رجل من إخواني، فسألني أن أمشي معه في حاجته. ففطن بي أبو عبد الله عليه السلام فقال: يا أبَان، منْ هذا الرجل؟

قلت: رجل من مواليك سألني أن أذهب معه في حاجته.

قال: يا أبَان اقطع طوافك، وانطلق معه في حاجته فاقضها له.

فقلت: إنِّي لم أتم طوافي.

قال: احصِ ما طفت وانطلق معه في حاجته.

فقلت: وإن كان طواف فريضة.

فقال: نعم، وإن كان طواف فريضة.

إلى أن قال عليه السلام: «لقضاء حاجة مؤمن خير من طواف وطواف»، حتَّى عدَّ عشراً.

فقلت له: جُعلت فداك فريضة أم نافلة؟

فقال: يا أبَان إنَّما يسأل الله العباد عن الفرائض لا عن النوافل.

الخامس: للصوم المستحب فضل عظيم وأجر كبير، لكنَّك إذا دُعيت للطعام من قبِل أحد إخوانك المسلمين، فإنَّ استجابتك له أرجح عند الله تعالى من إكمال الصيام.

ورد عن الإمام محمَّد الباقر عليه السلام: «من نوى الصوم ثمَّ دخل على أخيه فسأله أن يفطر عنده فليفطر، فليدخل عليه السرور، فإنَّه يُحتسب له بذلك اليوم عشرة أيَّام».

وفي حديث آخر: «من دخل على أخيه وهو صائم تطوعاً فأفطر كان له أجران: أجر لنيته لصيامه، وأجر لإدخال السرور عليه».

أهمية الحقوق:

إنَّ هذه الأحكام والتوجيهات الدينية تريد تربية الإنسان المسلم

على احترام مشاعر الآخرين، وحفظ كرامتهم ومكانتهم، وإنَّ ذلك مورد لرضى الله سبحانه، ومخالفته توجب سخطه، والمتدين الَّذي يهتم بضبط أحكام وضوئه وصلاته، عليه أن يكون أكثر اهتماماً بضبط أسلوب تعامله وعلاقته مع النَّاس. فقد قيل لرسول الله ﷺ: إنَّ فلانة تصوم النَّهار وتقوم اللَّيل... وتؤذي جيرانها فقال ﷺ: هي من أهل النَّار»[١].

ولذا ورد عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ما عُبد الله بشيء أفضل من أداء حق المؤمن»[٢].

وعن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «أعرف النَّاس بحقوق إخوانه، وأشدّهم قضاءً لها، أعظمهم عند الله شأناً»[٣].

بل ورد إنَّ من أهم شروط التوبة النصوح «أداء الحقوق»، فقد ورد أنَّ رجلاً قال: أستغفر الله، فلما سمعه الإمام علي عليه السلام قال: «إنَّ الاستغفار على ستة معان: ١ ـ الندم على الذَّنب. ٢ ـ أن تؤدِّي إلى المخلوقين حقوقهم...»[٤].

ولأهمية الحقوق رُوي أنَّ الإمامِ الحسين عليه السلام أمر منادياً ينادي: «لا يُقتل معي رجل عليه دَيْن»[٥].

الحقوق يوم القيامة:

ومن هنا كانت المطالبة بالحقوق من أعظم مواقف يوم القيامة.

---

(١) التسامح للصفّار: ص١٣٨.
(٢) الصداقة: ص١١٢.
(٣) المصدر نفسه: من ١١٣.
(٤) منازل الآخرة والمطالب الفاخرة، ص٢٥٦.
(٥) إحقاق الحق: ج١٩، ص٤٢٩.

عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إنَّ أحدكم ليدع من حقوق أخيه شيئاً فيطالبه به يوم القيامة فيُقضى له عليه»[١].

وعنه ﷺ: «من كان لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحللها من قبل أن يأتي يوم ليس هناك درهم ولا دينار، فيُؤخذ من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيِّئات صاحبه فيتزايد على سيِّئاته»[٢].

وعن الإمام علي عليه السلام: «ألا وإنَّ الظلم ثلاثة: فظلم لا يُغفر، وظلم لا يُترك، وظلم مغفور لا يُطلب، فأمّا الظلم الّذي لا يُغفر فالشرك بالله، قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] وأمّا الظلم الّذي يُغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات، وأمّا الظلم الّذي لا يُترك فظلم العباد بعضهم بعضاً»[٣].

ولذا يجب على الظالم أن يستحلّ من المظلوم بردّ الحق إليه وطلب المسامحة، فعن الإمام الصّادق عليه السلام: «فمن نال من رجل شيئاً من عرض أو مال وجب عليه الاستحلال من ذلك والانفصال من كلّ ما كان منه إليه، وإن كان قد مات فليتنصّل من المال إلى ورثته وليتب إلى الله ممّا أتى إليه حتّىٰ يطّلع عليه عزّ وجلّ بالندم والتوبة والانفصال»[٤].

أقسام الحقوق:

الحقوق على نوعين: مادية ومعنوية، ولعلّ الحقوق المعنوية أهم من المادية، ومن أهم الحقوق الّتي يُبتلىٰ الكثير بها:

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المكاسب المحرّمة: ص٤٠.

(٣) نهج البلاغة، ومن كلام له ١٧٦.

(٤) مستدرك الوسائل: ج١، ص٣٤٣.

١ ـ الحقوق المالية: قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾ [المعارج: ٢٤]:

إنَّ أكثر الخلافات الاجتماعية تعود إلى المماطلة في أداء الديون، أو عدم دفع أجرة الأجير، أو عدم الحفاظ على الشراكة في المال والعمل، ولذا ورد أنَّ التساهل في الحقوق هو من الذُّنوب الكبيرة.

فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «أيّما مؤمن حبس مؤمناً عن ماله وهو محتاج إليه لم يذق والله من طعام الجنَّة، ولا يشرب من الرحيق المختوم»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مطل ـ أي المماطلة في أداء الديون ـ المسلم الموسر ظلم للمسلمين»[٢].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «من اقتطع مال مؤمن غصباً بغير حق لم يزل الله معرضاً عنه ماقتاً لأعماله الَّتي يعملها من البرّ والخير لا يثبتها في حسناته حتَّى يتوب ويَردّ المال الَّذي أخذه إلى صاحبه»[٣].

رُوي أنَّ الإمام علي عليه السلام مرَّ على سوق الخيَّاطين فقال لخياط: «يا خيَّاط صلّب الخيوط ودقّق الدروز، فإنِّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: يُحشر الخياط الخائن وعليه قميص ورداء ممَّا خاط، واحذروا السقاطات فإنَّ صاحبه أحق به منكم».

٢ ـ الحقوق المعنوية: وذلك كالاحترام والمحبة والمساعدة والمواساة وعدم الإيذاء والإهانة والاحتقار.

---

(١) الذُّنوب الكبيرة: ج٢، ص٦.
(٢) المصدر نفسه: ص١٢.
(٣) المستدرك: ج١٧، ص٨٩.

وهذه روايات تجمع الحقوق المادية والمعنوية:

عن رسول الله ﷺ: «للمؤمن على المؤمن سبعة حقوقٍ واجبةٍ من الله عزَّ وجلَّ عليه: الإجلال له في عينه، والودُّ في صدره، والمواساة له في ماله، وأن يحرم غيبته، وأن يعوده في مرضه، وأن يشيِّع جنازته، وأن لا يقول فيه بعد موته إلَّا خيراً»(١).

وعنه ﷺ: «للمسلم على أخيه ثلاثون حقّاً لا براءة له منها إلَّا بالأداء أو العفو: يغفر زلَّته. ويرحم عبرته.. ويستر عورته.. ويقيل عثرته.. ويقبل معذرته.. ويردُّ غيبته.. ويديم نصيحته.. ويحفظ خلَّته.. ويرعى ذمَّته.. ويعود مرضته.. ويشهد ميتته.. ويجيب دعوته.. ويقبل هديِّته.. ويكافىء صلته.. ويشكر نعمته.. ويحسن نصرته.. ويحفظ حليلته.. ويقضي حاجته.. ويشفِّع مسألته.. ويسمّت عطسته.. ويرشد ضالته.. ويردُّ سلامه.. ويطيِّب كلامه.. ويبرُّ إنعامه.. ويصدِّق أقسامه.. ويوالي وليّه.. ولا يعاديه.. وينصره ظالماً ومظلوماً: ـ فإمَّا نصرته ظالماً فيردُّه عن ظلمه، وإمَّا نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقه ـ ولا يسلِّمه.. ولا يخذله.. ويحبُّ له من الخير ما يُحبُّ لنفسه.. ويكره له من الشرِّ ما يكره لنفسه»(٢).

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تحقِّروا ضعفاء إخوانكم، فإنَّه من احتقر مؤمناً لم يجمع الله عزَّ وجلَّ بينهما في الجنَّة، إلَّا أن يتوب»(٣).

---

(١) المصدر نفسه: ص١٢٣.
(٢) المصدر نفسه: ص١١٦.
(٣) المصدر نفسه: ص١٠٥.

الشماتة بالنَّاس

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«لا تفرح بسقطة غيرك فإنَّك لا تدري ما تتصرف بك الأيَّام»[١].

* * *

ما من إنسان يعيش في الحياة الدُّنيا إلَّا وهو معرَّض للسقوط من خلال الابتلاءات الَّتي تصيبه كالمرض والفقر والمشاكل العائلية، فكم من غنيّ أصبح فقيراً لا يملك قوت يومه؟ وكم من قوي أمسى ضعيفاً؟

ومن طبيعة النَّاس أنَّهم يلتفّون حول القوي والغني والناجح حتَّى إذا ما سقط في حفرة من حفر الحياة تركوه لوحده، بل وبعضهم يعمد إلى التشهير به. وبالمثل الشعبي: «البقرة إذا وقعت كثر السلّاخين».

كان أحد الوزراء يقول: عندما كنت وزيراً كان يأتيني في كلّ يوم أكثر من صديق ويقول لي: أنا جئتك للسلام عليك فقط، أمَّا اليوم بعد النكبات الَّتي حصلت لي لا أحد يسأل عنِّي.

---

(١) ألف حكمة، ص٥٤.

يقول الشاعر:

ما النَّاس إلَّا مع الدُّنيا وصاحبها ... فكيف ما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظمون أخا الدُّنيا، فإن وثبت ... يوماً عليه بما لا يُشتهى وثبوا

كيف نواجه سقوط الآخرين؟

النَّاس أمام حالات السقوط على قسمين:

الأوَّل: هو الَّذي يواسي أخاه، ويساعده ويقف بجانبه، ويأخذ بيده حتَّى لا يبقى في سقوطه، وهذا حق من حقوق الأخوة.

فعن رسول الله ﷺ: «للمسلم على أخيه ثلاثون حقّاً... يغفر زلّته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته».

عن الإمام علي عليه السلام: «المواساة أفضل الأعمال».

وعنه عليه السلام: «المسلم مرآة أخيه، فإذا رأيتم من أخيكم هفوة فلا تكونوا عليه وكونوا له كنفسه وارشدوه وانصحوه وترفقوا به»[١].

وهؤلاء أخوان الصدق والوفاء، فعن الإمام علي عليه السلام: «اختبر صديقك في مصيبتك».

وعن الإمام علي عليه السلام: «أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثرٌ إلَّا ويد الله بيده يرفعهُ»[٢] والمعنى تجاهلوا هفوات وسقطات الاخوان فإنَّه قلمَّا يخلو منها أحد، فإنَّ الله تعالى يهيّىء له أسباب الإقالة والمغفرة والرفعة، وهذا يعني أنَّ على النَّاس أن تنظر إلى أصحاب الهفوات بعين الرحمة والشفقة كما في الحديث: «ارحموا عزيزاً ذلّ، وغنياً افتقر...».

---

(١) مستدرك: ج٩، ص٤٣٤.
(٢) الحكمة: ١٩.

ولذا نجد أنَّ الإمام علياً عليه السلام لم يكن ليسرع إلى فرض العقوبة على العاصين.

روي: «أنَّ علياً أمير المؤمنين عليه السلام أتاه رجل بالكوفة فقال له: يا أمير المؤمنين إنِّي زنيت فطهِّرني قال: ممَّن أنت؟ قال: من مزينة. قال: أتقرأ من القرآن شيئاً؟ قال: بلى. قال: فاقرأ، فقرأ فأجاد. فقال: أبك جنَّة؟ قال: لا. قال: فاذهب حتَّى نسأل عنك.

فذهب الرجل ثمَّ رجع إليه فقال: يا أمير المؤمنين إنِّي زنيت فطهِّرني. فقال: ألك زوجة؟ قال: بلى. قال: فمقيمة معك في البلد؟ قال: نعم. فأمره أمير المؤمنين عليه السلام فذهب وقال: حتَّى نسأل عنك. فبعث إلى قومه فسأل عن خبره، فقالوا: يا أمير المؤمنين صحيح العقل.

فرجع إليه الثالثة فقال له مثل مقالته. فقال له: اذهب حتَّى نسأل عنك.

فرجع إليه الرابعة، فلمَّا أقرَّ قال أمير المؤمنين عليه السلام لقنبر: احتفظ به، ثمَّ غضب ثمَّ قال: ما أقبح بالرجل منكم أن يأتي بعض هذه الفواحش فيفضح نفسه على رؤوس الملأ: أفلا تاب في بيته؟ فوالله لتوبته فيما بينه وبين الله أفضل من إقامتي عليه الحدّ، ثمَّ أخرجه ونادى في النَّاس: يا معشر النَّاس اخرجوا ليُقام على هذا الرجل الحد ولا يعرفنَّ أحدكم صاحبه.

فأخرجه إلى الجبَّانة فقال: يا أمير المؤمنين انظرني أُصلِّي ركعتين. فصلَّى ركعتين ثمَّ وضعه في حفرته، واستقبل النَّاس بوجهه فقال: يا معاشر المسلمين إنَّ هذا حق من حقوق الله، فمن كان لله في عنقه حقّ فلينصرف، ولا يقيم حدود الله من في عنقه لله حدٌّ.

فانصرف النَّاس وبقي هو والحسن والحسين عليهما السلام، فأخذ حجراً فكبَّر ثلاث تكبيرات ثمَّ رماه بثلاثة أحجار في كلّ حجر ثلاث تكبيرات، ثمَّ رماه الحسن مثل ما رماه أمير المؤمنين، ثمَّ رماه الحسين فمات الرجل، فأخرجه أمير المؤمنين عليه السلام فأمر فحفر له وصلَّى عليه ودفنه، فقيل: يا أمير المؤمنين ألا تغسّله؟ فقال: قد اغتسل بما هو طاهر إلى يوم القيامة. لقد صبر على أمر عظيم»[١].

الثاني: هو الَّذي يفرح بسقطة غيره ويظهر الشماتة، وهذا إن دلَّ على شيء فإنَّما يدلُّ على خفَّة عقله كالأولاد الَّذين يفرحون عندما يعثر أحد أصدقائهم، كما يدلُّ على الحقد والحسد والكراهية وعدم الوفاء واللاإنسانية...

إنَّ الشامت لا يدري أنَّه معرَّض للسقوط وتبدّل الأيَّام والأحوال.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «لا تبدي الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك».

وعنه عليه السلام: «من شمت بمصيبة نزلت بأخيه لم يخرج من الدُّنيا حتَّى يُفتتن»[٢].

قال السيِّد علي خان في شرح الصحيفة السجَّاديَّة بعد قوله عليه السلام في دعاء الاستعاذة (أو ينكُبُنَا الزَّمان): ومن عظيم ما يُحكى من نكبات الزَّمان وتصاريف الحدثان ـ وإن كان القليل منها أكثر من أن يحصى ـ ما ذكره عبد الله بن عبد الرَّحمٰن صاحب الصَّلات بالكوفة قال: دخلت على أُمِّي في يوم أضحى فرأيت عندها عجوزاً في أطمار رثَّة وذلك سنة تسعين ومائة، فإذا لها لسان وبيان، فقلت لأُمِّي: من هذه؟

---

(١) فروع الكافي: ج٧، ص١٨٨.
(٢) جامع السعادات: ج٢، ص٢٩١.

فقالت: خالتك عناية أُمّ جعفر بن يحيى البرمكي، فسلَّمت عليها وتخفَّيت بها وقلت: أصاركِ الدَّهر إلى ما أرى؟!

فقالت: نعم يا بني، إنَّا كنَّا في عوارٍ ارتجعها الدَّهر منَّا.

فقلت: فحدِّثيني ببعض شأنك.

فقالت: خذه جملة، لقد مضى عليَّ أضحى وعلى رأسي أربعمائة وصيفة وأنا أزعم أنَّ ابني عاقٌّ، وقد جئتك اليوم أطلب جلدتي شاة، أجعل إحداهما شعاراً والأُخرى دثاراً.

قال: فرققت لحالها، ووهبت لها دراهم فكادت تموت فرحاً.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «اعتبروا بما مضى من الدُّنيا، هل بقي عليها أحد؟ وهل فيها باق من الشريف والوضيع والغني والفقير والولي والعدو؟ فكذلك ما لم يأت منها بما مضى أشبه من الماء بالماء».

جاء في التواريخ أنّه لما قتل «عبد الملك بن مروان» «مصعب بن الزبير» وأخضع العراق لحكمه وسلطانه قدم إلى الكوفة، ودخل دار الإمارة، وهناك اتَّكأ بارتياح وسرور على سرير الحكم ثمَّ أمر برأس «مصعب» فوُضع بين يديه، فقام أحد الحاضرين ويُقال له: «عبد الملك بن عمر» ـ وهو يرتجف ويقول مخاطباً ابن مروان:

سلَّم الله الأمير، لقد رأيت في دار الإمارة هذه عجباً: كنت في هذا المجلس مع عبيد الله بن زياد، فأُتي برأس الإمام الحسين عليه السلام فوُضع بين يديه، وبعد مدة استولى المختار على الكوفة، وكنت معه في هذا المجلس حين أتى برأس ابن زياد فطُرح بين يديه وبين المختار، ثمَّ رأيت وأنا في هذا المجلس رأسه يلقى بين يدي مصعب بن الزبير، وها أنا ذا مع الأمير في هذا المجلس وأرى رأس مصعب بين يديه، وإنِّي أعيذ الأمير بالله من شرّ هذا المجلس!!

فلمَّا سمع عبد الملك بن مروان هذه القصَّة أخذ يرتجف، ثمّ أمر بدار الإمارة تلك فدكَّت[١].

قيل: غضب «المتوكل» على وزيره «محمد بن عبد الملك الزيات» فعزله عن الوزارة وصادر أمواله، ومحمَّد كاتبٌ وشاعرٌ بليغ، وكان في أيَّام وزارته قد صنع تنوراً من الحديد ووضع المسامير في أطراف التنور من الداخل، فكان عندما يُريد تعذيب شخص ما يُدخله في ذلك التنور، ثمَّ يوجر حطب الزيتون بالمسامير فيزداد عذاباً حتَّى يهلك ويموتُ، وعندما غضب المتوكل على «الزيات» أمر بأن يُوضع في التنور الّذي صنعه لتعذيب الأبرياء، فكان في التنور أربعين يوماً حتَّى هلك، وفي أواخر حياته طلب ورقة ودواة، وكتب إلى المتوكل يستعطفه:

هي السبيل فمن يوم إلى يوم ... كأنَّه ما تُريك العين في النوم
لا تعجّلن رويداً إنَّها دُوَل ... دنيا تنقّل من قومٍ إلى قوم

وتشاغل المتوكل في ذلك اليوم فلم تصل الرقعة إليه، فلما كان الغد قرأها فأمر بإخراجه فوجده ميتاً[٢].

لقد جسَّد الإمام زين العابدين عليه السلام أروع معنى لمساعدة النَّاس وعدم الشماتة بهم. فقد رُوي أنَّ والي المدينة قد أساء إلى الإمام عليه السلام فلمَّا تُوفِّي «عبد الملك» عزله الوليد وأوقفه للنَّاس كي يقتصُّوا منه فقال الوالي: إنِّي لا أخاف إلَّا من علي بن الحسين، فمرَّ عليه الإمام عليه السلام وسلَّم عليه وأمر خاصته أن لا يتعرَّض له أحد بسوء وأرسل له: إن أعجزك مال تؤخذ به فعندنا ما يسعك ويسدّ حاجتك، فطب نفساً منَّا ومن كل من يطيعنا»[٣].

---

(١) منتهى الآمال: ج٢، ص٤٤٧.
(٢) وقائع الأيَّام: ص١٩٨.
(٣) سيرة الأئمَّة عليهم السلام: ج٢، ص١٤٩.

ثمَّ منْ من النَّاس معصوم عن الخطأ؟.

وكما قال المسيح عليه السلام: «منْ كان منكم بريئاً فليرجمها بحجر» وعن الإمام علي عليه السلام: «من أبصر زلّته صغرت عنده زلَّة غيره».

إنَّ الشامت سيلاقي عذاباً أليماً لما يسبّب من حزن وهمّ وغمّ في قلب المُصاب.

سُئل النَّبي أيُّوب عليه السلام: أيَ شيء كان أشد عليك ممَّا مرَّ عليك؟ فقال: شماتة الأعداء[1].

وسُئل الإمام السجَّاد عليه السلام: أي البلاد أمرّ عليكم؟ فقال: الشام، وذلك لأنَّ أهل الشام كانوا يشمتون به عليه السلام.

تسقيط النَّاس:

إنَّ من النَّاس من هو أسوأ ممَّن يفرح بسقوط الآخرين وهو من يعمل على إسقاطهم اجتماعياً واقتصادياً ونفسياً من خلال بثّ الدعايات الَّتي تُسبِّب الهتك والتحطيم والوقيعة كالقول بأنَّ فلاناً فاسق والتعامل معه حرام، والشراء منه حرام، إلى غيرك ذلك.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «منْ روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروَّته ليسقط من أعين النَّاس أخرجه الله عزَّ وجلَّ من ولايته إلى ولاية الشيطان فلم يقبله الشيطان»[2].

إنَّ على التسقيطي أن يدرك أنَّ النَّاس على درجات فلا يجوز إسقاط الآخرين، ففي الحديث عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّ الإيمان عشر درجات... فلا تُسقط من هو دونك فيستطك من هو فوقك»[3].

---

(١) سفينة البحار: باب «الشماتة».

(٢) بحار الأنوار: ج٧٢، ص٢٥٤.

(٣) المصدر نفسه: ج٦٦، ص١٦٩.

لئلا تتعرَّض للشماتة:

يُظهِر النَّاس الشماتة بمن سقط إذا كان متكبِّراً عليهم ويصرِّحون بذلك قائلين إنَّه يستحق ذلك لكبريائه وغروره.

ولئلَّا يتعرَّض الإنسان لذلك فلا بدَّ أن يكون متواضعاً ومحبوباً لدى النَّاس، فعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «تواضع الرجل في مرتبته ذبّ للشماتة عنه عند سقطته»(١).



(١) شرح نهج البلاغة، ج٢ ص٢٩٠ ح٣١٦.

العطاء والبذل

من كلام الإمام علي عليه السلام إلى مالك الأشتر:

«... فاعط الله من بدنك في ليلك ونهارك»[١].

* * *

العطاء سُنَّة الحياة:

عندما نتأمَّل في الطبيعة نجد أنَّها خُلقت للعطاء، فالشَّمس تُعطى الحرارة دون مقابل، والمياه تُعطى الحياة، والأزهار تقدم عطورها الخلَّابة... وكلّ ذلك من أجل الإنسان كما في الحديث القدسي: «يابن آدم خلقت كلّ شيء لأجلك».

والحياة قائمة على الأخذ والعطاء، فالأرض تأخذ البذر لتعطي الثمر، والنحل يأخذ الرحيق ليعطي العسل، وهكذا الحال في الحياة الإنسانية.

وإنَّما تعظم قيمة الإنسان بمقدار ما يعطيه للآخرين ـ فكما أنّ المصباح الَّذي لا يضيء لا قيمة له كذلك الإنسان ـ ولذا ورد عن

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب رقم ١٣.

الإمام علي ﷺ: «قيمة كلّ امرىء ما يُحسنه»، فقيمة الإنسان بما يعطيه لا بما يعيشه من أيّام وليالٍ.

كتب أهالي مدينة «جنوه» على ضريح أحد حكّامهم: وُلد سنة ١٨٧٠م وتوفي سنة ١٩٢٠ وله من العمر عام واحد وهو العام الّذي انتفعت فيه الأُمّة بعطائه.

وكلّما ازداد الإنسان إيماناً بالله واليوم الآخرة ازداد عطاؤه، فعن الإمام علي ﷺ: «منْ أيقن بالخَلف جاد بالعطية».

أقسام العطاء:

ينقسم العطاء إلى قسمين:

الأوّل: عطاء الإنسان للإنسان أو لله تعالىٰ.

الثاني: عطاء الله تعالىٰ إلىٰ الإنسان.

عطاء الإنسان للآخرين:

العطاء من الإنسان هو البذل تجاه الآخرين، وهو يشمل العطاء المادي ـ كالأموال والأدوية والأطعمة ـ والعطاء المعنوي ـ كالعلم والاستشارة والنصيحة ـ عن الإمام الصّادق ﷺ: «خير العطاء ما أبقى نعمة باقية»[1] كما أنّه لا يقتصر على صنف خاص من النّاس بل يعمُّ الفقراء والمحتاجين والمرضى من أي لون أو عرق أو دين كانوا.

ويُعتبر العطاء للإنسان من «حقوق الاخوة» باعتبار أنَّ الحياة قائمة على قانون الأخذ والعطاء كما تقدّم، ولذا جاء في الحديث عن الإمام

---

(١) عن الإمام الصّادق ﷺ: «خير العطاء ما أبقى نعمة باقية» الشعر والشعراء: ص٩٨.

علي عليه السلام: «لأخيك عليك مثل الّذي لك عليه، وعليك أن تكرمه كما يكرمك، وتحفظه كما يحفظك»[١].

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنّما أعطاكم الله هذه الفضول من الأموال لتوجّهوها حيث وجّهها الله ولم يعطكموها لتكنزوها»[٢].

شروط العطاء:

إنَّ قبول العطاء مشروط بأُمور أهمها:

١ ـ **التقوى**: قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾ [الليل: ٥].

٢ ـ **الإخلاص**: فإنَّ «العطية على قدر النيَّة» كما عن الإمام علي عليه السلام، ومن أروع صور الإخلاص ما رُوي عن شطيطة النيسابورية، فقد اجتمع الشيعة بنيسابور ليرسلوا الأموال الشرعية للإمام موسى الكاظم عليه السلام فجاءت شطيطة ـ وهي عجوز فقيرة ـ بدرهم وقماشة وأعطته لحامل الأموال وقالت: إنَّ الله لا يستحي من الحق.

وأخذ الرجل الأموال وأوصلها للإمام عليه السلام فأمره الإمام عليه السلام بردّ الأموال إلى أصحابها إلّا درهم شطيطة فقد أخذه الإمام وقال: إنَّ الله لا يستحيي من الحق، ثمَّ قال لحامل الأموال: أبلغ شطيطة سلامي وأعطها هذه الصّرة وكانت تحوي أربعين درهماً، وأهديت لها شقة من أكفاني... وقل لها: ستعيشين تسعة عشر يوماً... وأنا أتولى الصلاة عليك...»[٣].

٣ ـ **عدم الاستهانة بالأُمور الصغيرة**: فمن الخطأ الامتناع عن

---

(١) كيف تنجح في علاقاتك الاجتماعية.
(٢) خدمة النَّاس: ص١٣.
(٣) مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٤١٠.

تلبية الحوائج الصغيرة بحجّة أنّها ليست نافعة، فرُبَّ كلمة صغيرة، أو مال قليل يؤدِّي إلى الخير الكثير، فعن الإمام علي عليه السلام: «افعلوا الخير ولا تحقِّروا منه شيئاً، فإنَّ صغيره كبير وقليله كثير».

ومن الأحاديث الجامعة للشروط ما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «لا يستقيم قضاء الحوائج إلّا بثلاث باستصغارها لتعظم، وباستكتامها لتظهر، وبتعجيلها لتهنؤ».

لقد كان النبي والأئمّة عليهم السلام أكثر النَّاس عطاءً وبذلاً للآخرين إلى درجة الإيثار حتَّى ورد أنَّ الإمام علي عليه السلام كان في إحدى المعارك وقال له عدوه: أعطني سيفك فرمى إليه الإمام عليه السلام بالسيف.

عطاء الإنسان لله تعالىٰ:

عطاء الإنسان لله تعالىٰ هو بذل المال والنَّفس والولد في سبيل الله تعالىٰ وإعلاء كلمته... فمن كتاب الإمام علي عليه السلام إلى مالك الأشتر: «فاعط الله من بدنك في ليلك ونهارك».

وإنَّ أعلى مرتبة يصل إليها الإنسان أن يقدِّم نفسه وأولاده لله تعالىٰ فـ«الجود بالنَّفس أقصى غاية الجود» ولذا كان المعصومون عليهم السلام يجسِّدون هذا المعنىٰ من العطاء.

فالإمام الحسين عليه السلام أعطى كلّ ما عنده لله وهو يقول: «إلٰهي إن كان هذا يرضيك فخذ حتَّى ترضىٰ». وقال: «إلٰهي هذي رجالي في رضاك ذبائح».

يقول الشاعر:

أعطى الَّذي ملكت يداه آلهه ... حتَّى الجنين، فداه كلّ جنين

وبعزَّة قعساء خاطب نفسه ... يا نفس، لأجل الدِّين لا تهن

أعطيت ربِّي موثقاً لا ينقضي ... إلّا بقتلي، فاصعدي وذريني

إن كان دين محمَّد لم يستقم إلَّا بقتلي، فيا سيوف خذيني

عطاء الله تعالىٰ:

وأمَّا عطاء الله تعالىٰ فهو عام وخاص.

العطاء العام:

أمَّا عطاؤه العام فهو شامل لكلّ الموجودات، قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وهو شامل للمؤمن والكافر بمقتضى عموم رحمة الله تعالىٰ. قال تعالىٰ: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

العطاء الخاص:

أمَّا عطاؤه الخاص فهو العطاء المعنوي لبعض النَّاس دون البعض الآخر، وليس ذلك لبخل في عطائه تعالىٰ فإنَّه «لا يكديه الإعطاء والجود، إذ كلّ معط منتقص سواه»، وإنَّما لاختلاف قابلية الإنسان في إفاضة المعنويات، فإنَّ العطيَّات بقدر القابليَّات، والإفاضات محدودة بحدود الاستعدادات، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] فالنازل من السَّماء ـ مادياً أو معنوياً ـ يستقر في المحل المناسب له والقابل لاستقرار النازل عليه، وكما عن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها». وعلى هذا فإنَّ المُعطَى له قد يشمله الفيض العام فقط، وقد يشمله الخاص أيضاً، وقد يشمله الفيض الأخص.

عن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ لله عباداً عاملوه بخالص من سرّه فشكر لهم بخالص من شكره، فأولئك تمرُّ صُحفهم يوم القيامة فرّغاً، فإذا وقفوا بين يديه ملأها لهم من سرّ ما أسرُّوا إليه».

ومن هنا ندرك السبب في اختلاف النَّاس في تقبُّل الدِّين والمعارف الإلٰهيَّة، وفي سعادتهم أو شقائهم، أو في وصولهم إلى درجة النُّبوَّة والإمامة.

فإنَّهم عليهم السلام الذوات الطَّاهرة الصَّالحة لإفاضة العلم والمعرفة عليهم وإعطائهم القرآن الكريم، والاسم الأعظم، والأسماء الحُسنى، ومواريث الأنبياء عليهم السلام.

ثمَّ إنَّ العطاء يختلف باختلاف المُعطي والمُعطَى له، أمَّا في المُعطِي فإنَّه يتغيَّر بتغيُّر حاله من الغنى والفقر، والقوَّة والضعف، والعلم والجهل، فمن الطبيعي أنَّ عطاء الملك يختلف عن عطاء سائر الرعيَّة، وكذا عطاء الأستاذ يختلف عن عطاء الطبيب، وأمَّا في المُعطَى له فكذا يختلف العطاء باختلاف مكانته وشأنه، فالعطاء للمتسوّل على الطُّرقات يختلف عن عطاء الولد من والده، والعطاء لابن السبيل يختلف عن العطاء للمقيم في بلده، ولذا نجد في التاريخ أنَّ عطاء الأئمَّة عليهم السلام للشعراء كان يختلف عن غيرهم، وللتفصيل راجع كتابنا «تكريم النَّاس».

عطاء النبي محمَّد (ص):

إذا تقرَّر ذلك نقول: أراد الله تعالىٰ أن يعطي نبيه الأعظم محمَّداً صلى الله عليه وآله عطاءً مميزاً يكون فخراً له إلى يوم القيامة، وقد قال تعالىٰ له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحىٰ: ٥].

ـ والملاحظ أنَّ النبي موسى عليه السلام يطلب رضى الله تعالى بقوله: ﴿...وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾ [طـه: ٨٤] بينما عندما يكون الكلام مع النبي محمَّد صلى الله عليه وآله فيقول الله له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحىٰ: ٥] ـ.

فما هو هذا العطاء الخالد؟

الجواب: إنَّه الكوثر، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ١-٣]، والكوثر ـ على وزن مفعل ـ من الكثرة، وقد قال المفسِّرون إنَّه النسل الكثير من السيِّدة فاطمة الزَّهراء ﷺ، فالسيِّدة الزَّهراء ﷺ هي العطاء الإلٰهي الخالد للنَّبي الخاتم محمَّد ﷺ، لقد كانت قريش تعيّر النبي ﷺ بأنَّه أبتر لا عقب له من الذكور، وأنَّه إذا مات فإنَّ ذكره سيُنسيان ودينه فأنزل الله تعالىٰ سورة الكوثر ردّاً عليهم لأنَّ الزَّهراء ﷺ ستكون الامتداد الطبيعي لرسول الله ﷺ ومن ثمَّ لرسالته ودعوته.

عطاء الإمام الحسين (ع):

إن أعطى الله تعالى الإمام الحسين ﷺ جزاءً لما قدَّمه في سبيل الدِّين والعقيدة.

فقد جاء في الحديث: «إنَّ الله عوَّض عن شهادته ثلاثاً: استجابة الدُّعاء تحت قبَّته، والأئمَّة من ذرِّيَّته، والشفاء في تربته».

وقد حُكي عن أحد العلماء أنَّه كان يفكِّر في سرّ العطاء الإلٰهي للإمام الحسين ﷺ فالتقى بأعرابي حدَّثه بقصة مفادها: إنَّ ملكاً تاه في الصحراء فوصل إلى خيمة فطلب من أصحابها الطعام والشراب ولم يكن عندهم إلَّا شاة فذبحوها وقدَّموها له، فلما أراد الملك الانصراف قال لصاحب الخيمة: إذا ضاقت بك الأحوال وذهبت إلى المدينة فاسأل عنِّي في القصر.

ومرَّت الأيَّام وذهب الرجل إلى المدينة وسأل عن القصر ووصل إلى الملك، فأراد الملك أن يكافئه على معروفه فالتفت إلى جلسائه

وحدَّثهم بقصته مع الرجل، وقال لهم: كيف نردُّ له المعروف، فتكلَّم كلّ واحد منهم معيّناً مبلغاً من المال، فقال الملك: إنَّ هذا الرجل أعطاني كلّ ما يملك فجزاؤه أن أعطيه كلّ ما أملك، ثمَّ أعطاه تاج الملك، وبعد أن انتهىٰ الأعرابي من ذكر القصة للعالم، قال له: يا فلان إنَّ الإمام الحسين عليه السلام أعطى كلّ ما يملك لله تعالىٰ، والله تعالىٰ أكرم من الملك الَّذي أعطى كلّ شيء للرجل.

وفي الرواية: «تأتي الزَّهراء عليها السلام يوم القيامة وبيدها اليمنى رأس الحسين عليه السلام وبيدها اليسرى قميصه الملطَّخ بالدِّماء، فتقول: ربَّاه لقد ضحَّى ولدي الحسين بكلّ ما لديه في سبيلك، فهذا رأسه وهذا قميصه فما جزاؤه عندك يا ربّ؟ فيتقدَّم رضوان خازن الجنان ومالك خازن النيران ويسلِّمانها مفتاحي الجنَّة والنَّار، قائلين: إنَّ الله يقول: لقد أعطانا ولدك الحسين كلّ ما لديه فسنعطيه ما لدينا فخذي مفتاحي الجنَّة والنَّار، فأدخلي من شئت من أحبَّائك إلى الجنَّة، وألقي بمن شئت من أعدائك إلى النَّار»[١].



(١) معرفة الله: ج١، ص٥٨.

القلوب

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«وإنَّما قلب الحدث كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قبلته»[١].

* * *

حقيقة الإنسان:

من الواضح والمعلوم أنَّ القلب هو سبب الحياة في الإنسان، فهو أوَّل الأعضاء الَّتي تدخل إليها الحياة، ففيه تبدأ حياة الإنسان وبموته يموت الإنسان، هذا فيما يتعلَّق بالقلب المادي في الإنسان.

وهناك قلب معنوي وراء هذا القلب المادي، وذلك القلب هو حقيقة الإنسان، فإذا صلُح القلب فقد صلُح الإنسان معنوياً والعكس كذلك، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «في الإنسان مضغة إذا هي سلمت وصحّت سلم بها سائر الجسد، وإذا سقمت سقم لها سائر الجسد وفسد، وهي القلب»[٢].

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب رقم ٣٠.

(٢) الموعظة الحسنة: ص٣٧١.

تكامل الإنسان بين العقل والعاطفة:

إنَّ الإنسان ليس عقلاً يفكِّر فحسب بل فيه عاطفة ووجدان ومشاعر، فإذا استطاع أن يوازن بين العقل والعاطفة فقد وصل إلى النجاح في حياته وهذا ما يُسمَّى في العلم الحديث بـ«الذكاء العاطفي».

وقد وُلد هذا العلم في التسعينيات عندما لاحظ العلماء أنَّ نجاح الإنسان لا يقتصر على الذكاء العقلي ـ فكم من ذكي قد فشل في حياته الأسرية والاجتماعية؟! ـ وإنَّما يحتاج إلى الذكاء العاطفي الَّذي يساهم في البناء القلبي والوجداني.

إنَّ العقل منبع الذكاء والتفكير ولكن القلب منبع العاطفة والحنان، والعقل يعتمد على الاستدلال والمحاسبة الدقيقة، أمَّا القلب فبخلاف ذلك، فهو يحب لأنَّه عطاء وكمال، فالأُمّ تحب ولدها لمجرد الحب.

إنَّ العقل جاف وقاس كالآلة الجامدة بخلاف القلب الَّذي هو حيوية وحرارة وقوَّة.

والعقل ينظر إلى الحياة الظاهرية أمَّا القلب فيهتم بالحياة الباطنية.

إنَّ الحياة الَّتي يحكمها العقل لا انسجام فيها ولا رأفة أمَّا الحياة الَّتي يحكمها القلب فهي نبع المودة والرحمة، فالأسرة والمؤسسة والمجتمع الَّذي تنتشر فيه المودة هو مجتمع حيّ...[١].

من هنا كان من الضروري أن نسلِّط الضوء على القلوب لندرك أهميتها في الحياة، ونميِّز الصحيح من السقيم، والحي من الميِّت.

---

(١) راجع الطفل بين الوراثة والتربية: ج٢، ص١٠٤.

قلوب الأولاد:

وهي أصفى القلوب وأرقّها لأنّها خالية من الرذائل والمعاصي والأحقاد، ولذا شبَّه الإمام علي عليه السلام قلوب الأطفال بالأرض الخالية ففي وصيته لولده الإمام الحسن عليه السلام قال: «وإنّما قلب الحدث كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قبلته...»[١].

كما أنَّ قلوب الأولاد بريئة كما في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أحب الطفل لخمس: لبراءته...».

ولهذا ورد عن السيِّد المسيح عليه السلام أنَّه قال: «لن تدخلوا ملكوت السَّماء حتَّى تعودوا إلى الطفل» أي لن يدخل الإنسان إلى عالم الطهارة والنقاء إلَّا إذا عاد قلبه طاهراً ونقيّاً كيوم ولدته أُمّه، فإنَّ الجنَّة لا تصلح لدخول الفاسدين.

قلوب الرِّجال:

ذكر علماء النَّفس أنَّ الرَّجل يميل إلى الخشونة والقساوة، فعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «قلوب الرِّجال وحشية فمن تآلفها أقبلت عليه»[٢].

وكلام الإمام علي عليه السلام ليس مدحاً للقلوب الوحشية، فإنَّ ذلك خلاف الفطرة الَّتي تدعو إلى الأنس والمحبة، وإنَّما يتكلَّم عن واقع اجتماعي ونفسي في الرِّجال الَّذين يعيشون في البادية والصحراء، حيث تنتقل قساوة الصحراء إلى قلوبهم.

ولهذا جاء في النصوص حثّ الرِّجال على الشفقة على الأولاد،

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب رقم ٣٠.
(٢) نهج البلاغة: الحكمة ٤٩.

فعن الإمام علي عليه السلام: «يجب عليك أن تشفق على ولدك أكثر من إشفاقه عليك»[١].

وعنه عليه السلام: «ليتأسَّ صغيركم بكبيركم، وليرأف كبيركم بصغيركم، ولا تكونوا كجفاة الجاهلية»[٢].

ورُوي أنَّ رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ لي عشرة أولاد ما قبَّلت واحداً، فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: إن كان الله قد نزع الرحمة من قلبك فماذا أصنع بك؟ من لم يرحم صغيرنا ولم يعزّز كبيرنا فليس منّا»[٣].

قلوب الأُمَّهات:

وإذ يصل الكلام إلى قلوب الأُمَّهات يقف الإنسان مدهوشاً أمامها فيعجز اللِّسان ويكلّ البيان عن وصفها.

فهي الَّتي تعطي الحياة، وتنبض بالمحبة. فمنذ تكوين الجنين في بطن أُمّه يفتح أذنيه على دقات قلب الأُمّ، لتكون أجمل موسيقى يسمعها بعد خروجه إلى عالم الدُّنيا... ويخرج الجنين من بطن أُمّه فيتحول قلب الأُمّ إلى قلبين وجسدين، وتتعدد المواليد فإذا للأُمّ قلوب وأجساد... ويكبر المولود ويكابد آلام الحياة فيتأثر قلب الأُمّ بأضعاف ما يتأثر به الولد وكما قال الإمام علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «وجدتك بعضي بل وجدتك كلّي حتّى لو أنَّ شيئاً أصابك أصابني ولو أنَّ الموت أتاك أتاني»... وكم وكم من الميتات الَّتي تموتها الأُمّ إذا فُجعت بقلب من قلوبها...

---

(١) المحبة: ص١٤٥.

(٢) الطفل: ج٢، ص١٢٢.

(٣) المصدر نفسه.

لو قُدِّر لنا أن نستنطق الأرض والسَّماء لصُعقنا بما نسمعه من آهات وأحزان ودموع ودعوات الأُمَّهات... أمَّا وسادات الوالدات فهي وحدها تشهد كم من الدُّموع قد ذُرفت في اللَّيالي؟ إنَّ قلوب الأُمَّهات مع المتألمين في المستشفيات، ومع المسجونين وراء القضبان، وفي ساحة الحرب، وفي المقابر، وفي البرّ والبحر والجو[1].

لقد صوَّر لنا القرآن الكريم صورة قلب الأمّ الَّذي فرغ من كل شيء إلَّا من ذكر الولد فقال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ [القصص: ١٠].

ويصوِّر لنا بعض الشعراء رقَّة قلب الأمّ فيقول:

أغرى امرؤٌ يوماً غلاماً جاهلاً ... في أمره حتَّى ينال به الوطر
قال ائتني بفؤاد أُمّك يا فتى ... ولك الجوائز والجواهر والدرر
فمضى وغرز خنجراً في صدرها ... والقلب أخرجه وعاد على الأثر
لكنَّه من فرط سرعته هوى ... فتمزَّق القلب المعفَّر، إذ عثر
ناداه قلب الأُمّ وهو معفَّر ... ولدي حبيبي هل أصابك من ضرر
فكأنَّ هذا الصوت رغم حنوّه ... غضب السَّماء به على الولد انهمر
ودرى فظيع خيانة لم يأتها ... ولد سواه، منذ تاريخ البشر
فارتد نحو القلب يغسله بما ... فاضت به عيناه من سيل العبر
ويقول: يا قلب انتقم منِّي ولا ... تغفر، فإنَّ جريمتي لا تُغتفر
وإذا صفحت فإنَّني أقضي انتحا ... راً، مثل ما من قبلي انتحر
واستل خنجره ليطعن قلبه ... طعناً، فيبقى عبرة لمن اعتبر

---

(١) صوت العالم: ص٤٨.

نـاداه قـلـب الأُمّ: كـف يـداً ولا   تـذبـح فـؤادي مـرّتـيـن عـلـى الأثـر

وهذا مشهد من المشاهد التاريخية يصوِّر لنا كيف يتحرَّك قلب الأمّ لمصلحة الولد، فقد رُوي أنَّ امرأتين تنازعتا على عهد عمر بن الخطاب في طفل ادَّعته كل واحدة منهما، فالتجأ عمر إلى الإمام علي عليه السلام فاستدعى الإمام المرأتين ووعظهما وخوفهما فأقامتا على التنازع والخلاف فقال عند ذلك: ائتوني بمنشار، فقالت المرأتان: وما تصنع؟ فقال عليه السلام: أقدّه نصفين لكل واحدة منكما النصف، فسكتت إحداهما، وقالت الأُخرى: الله الله يا أبا الحسن إن كان لا بدَّ من ذلك فقد سمحت به لها، فقال عليه السلام: الله أكبر هذا ابنك دونها، ولو كان ابنها لرقَّت عليه وأشفقت، فاعترفت المرأة الأُخرى أنَّ الحق مع صاحبتها والولد لها دونها(١).

إنَّ قلوب الأُمَّهات هي مثال العطاء وكما يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «فحق أُمّك فأن تعلم أنَّها حملتك حيث لا يحمل أحدٌ أحداً، وأطعمتك من ثمرة قلبها ما لا يطعم أحدٌ أحداً».

وكما تمتصُّ النبتة الخضراء كل غذاء في الحبَّة فإذا هي فتات، ويمتصّ الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر كذلك يمتص الأولاد كل غذاء من الأمّ.

إنَّ قلوب الأُمَّهات مثال الرحمة، فبطنها رحم للجنين، وحياتها رحمة، في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «دعاء الوالدة أسرع إجابة من الوالد، قيل: لَمَ يا رسول الله فقال: لأنَّها أرحم من الأب، ودعاء الرحيم لا يُردّ»(٢).

---

(١) أخلاقيات أمير المؤمنين: ص٤٩٠.

(٢) شرح رسالة الحقوق: ج١، ص٥٥.

وعنه ﷺ: «إنَّ الله خلق ـ يوم أن خلق السَّماوات والأرض ـ مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السَّماوات والأرض، فجعل منها رحمة من الدُّنيا، فيها تعطف الوالدة على ولدها...»[١].

ولذا قيل: لما ماتت أُمّ أحد الأنبياء أوحى الله إليه: «لقد ماتت من كنَّا بها نرحمك».

وقيل: لما ماتت أُمّ النَّبي موسى عليه السلام أوحى الله تعالى إليه: «يا موسى لقد أُطفئت العين الَّتي كنت أراك بها»[٢].

رُوي أنَّ شاباً اسمه علقمة كان في زمن رسول الله ﷺ وكان من أهل الخير والعبادة فمرض واشتدّ به الحال فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ ليحضر عند احتضاره، فأرسل النَّبي ﷺ بعض أصحابه ليلقونه الشَّهادة فلم ينطق بها فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ وأخبروه، فقال ﷺ: هل من أبويه أحد حي؟ فقيل: نعم أُمّه، فبعث إليها النَّبي ﷺ فحضرت فسألها: هل أنت راضية عليه فقالت: ساخطة لأنَّه كان يؤثر زوجته عليَّ ويعصيني، فقال ﷺ: إنَّ سخط أُمّ علقمة حجب لسان علقمة عن الشَّهادة، ثمَّ أمر النَّبي ﷺ بلالاً يجمع الحطب فقالت المرأة: لماذا؟ قال ﷺ: احرقه بالنَّار بين يديك، قالت: إنَّ قلبي لا يحتمل أن يحترق ولدي بين يدي، فقال ﷺ: عذاب الله أشدّ وأبقى، فإنَّ سرّك أن يغفر الله له فارضي عنه فوالَّذي نفسي بيده لا ينتفع علقمة بصلاته ولا بصيامه ولا بصدقته ما دمت عليه ساخطة فقالت: إنِّي أشهد الله وملائكته ومن حضرني من المسلمين أنِّي قد رضيت عن ولدي، فانطلق لسان ولدها بالشهادة ومات، فحضر النبي ﷺ دفنه ثمَّ قال وهو على شفير قبره: يا

---

(١) إعانة الطالبين، ج٤ ص٣٩١.
(٢) والدتي للسيِّد الشيرازي: ص١٧.

معشر المهاجرين والأنصار من فضّل زوجته على أُمّه فعليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً إلّا أن يتوب إلى الله عزّ وجلّ ويحسن إليها ويطلب رضاها، فرضى الله في رضاها وسخط الله في سخطها[١].

الأُمومة:

لهذا كانت الأُمومة من أشرف الصفات الّتي تتحلى بها المرأة، فالأُم واسطة الخلق، والوعاء المقدّس المعدّ لنشوء الحياة، ففي اللغة العربية إنَّ معنى كلمة «أُم» هو الأصل، فأُمّ القرى أي أصل القرى وأُم الرأس أي أصله.

ولهذا فقد منحها النبي ﷺ أعلى المراتب عندما قال ﷺ: «الجنّة تحت أقدام الأُمّهات» وكان ﷺ يوصي بها أكثر ممّا يوصي بالأب.

لهذا فمهما جهد الولد في برّ الأُمّ فلن يؤدّي حقّها وذلك لأنَها «تصنع ذلك لك وهي تتمنى حياتك وأنت تصنع هذا بها وتحب مماتها»[٢].

وإذا كان للأُمومة هذا المقام العالي فإنَّ أبرز مصداق على الإطلاق هو السيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام الّتي كانت وعاءً للأئمّة عليهم السلام المعصومين عليهم السلام وأُمّاً لأبيها حتّى قال ﷺ عنها: «أُمّ أبيها»[٣].

النتيجة:

يقول علماء النّفس: «إنَّ في كل إنسان قلب طفل، وقلب رجل،

---

(١) نقلاً عن الأبعاد الخفية: عدد ٤٨، ص٦٥.

(٢) الإنسانية: ص٨٣.

(٣) الأسرار الفاطمية: ص٣٧١.

وقلب امرأة، فليس من الصحيح أن يُعتبر الرجل أنَّه كامل الرجولة، وتُعتبر الأُنثى أنَّها كاملة الأُنوثة، . . . وطفولة الإنسان في حنينه إلى الماضي واللهو واللعب، وأنوثته في حب الهدوء والسكينة والعاطفة، ورجولته في التحدي والعمل والعقلانية».

والإنسان الكامل هو الَّذي يفتح قلبه على الطفولة والأُمومة ليكون مثال الصفاء والعطاء والمحبة والفداء.



دمعة المؤمن

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال:

«احذر من دمعة المؤمن، فإنَّها تقصف من دمعها (أو أدمعها) وتطفىء بحور النيران عن صاحبها»[١].

* * *

الدُّموع:

الدموع هي ما يخرج من العين نتيجة المتغيرات الجسدية والنفسية الَّتي تطرأ على الإنسان... وهي دليل على صحَّة الإنسان وعافيته.

أما جمود العين فهو دليل على مرض القلب وفساده، فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام: «ما جفت الدموع إلَّا لقسوة القلوب وما قست القلوب إلَّا لكثرة الذُّنوب»[٢].

والدُّموع نوعان:

دموع باردة: وهي الَّتي تخرج من القلب الَّذي يغمره الفرح والسرور كقلب الأُمّ الَّتي تفرح بعودة ولدها الغائب أو بشفائه من مرضٍ

(١) دعائم الإسلام، ج٢ ص٥٣٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٣٥٤.

ألمّ به وكتلب الحبيب الّذي يفرح بلقاء حبيبه، وكالفقير الّذي تغمره السعادة عندما يجد مَنْ يعطف عليه... وكذلك الأمر عينه بالنسبة لكلّ إنسان يجد مَنْ يواسيه...[1].

وقد أعطىٰ الله تعالىٰ الثواب الجزيل لمن فرّح المؤمن وأدخل السرور إلى قلبه، فله بكلّ دمعة فرح ثواب عظيم وأجر جزيل.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ عندما سئل: أي الأعمال أحبّ إلى الله؟ فقال ﷺ: «اتباع سرور المسلم» فقيل له: وما اتباع سرور المسلم؟ قال ﷺ: شبعة جوعه، وتنفيس كربه، وقضاء دينه».

وعنه ﷺ: «من سرّ مؤمناً فقد سرّني، ومن سرّني فقد سرّ الله»[2].

بمقابل الدُّموع الباردة هناك دموع حارة وهي الّتي تخرج من القلب الّذي احترق وكُويَ بنار المظلوميّة والمأساة. ومن تلك الدُّموع:

دموع المظلوميَة:

إنَّ ذرف الدُّموع لا يقلُّ خطورة عن إراقة الدِّماء، ففي إراقة الدِّماء قتل للأجساد وفي ذرف الدُّموع قتل للأرواح.

ومن الطبيعي أنَّ لهذه الدُّموع تأثيراً، لأنَّها نابعة من أعماق القلب المجروح، وبالتالي فإنَّها تتحول إلى سهامٍ تُصيب مَنْ كان السبب في إخراجها من منبعها، إذ إنَّها كالدُّعاء الّذي هو سلاح للمظلوم...

---

(١) لدى بعض النّاس دموع باردة لا تخرج من الأعماق وإنّما من العين الّتي تظهر خلاف ما تبطن، فيُقال: إنّها دموع التماسيح. وقد عبّر الإمام علي عليه السلام عن المنافقين بأنّهم أعدّوا: «لكلّ شجو دموع» أي لكلّ حزن دموع.

(٢) خدمة النّاس: ص٥٨.

ولهذا حذَّر الإمام علي عليه السلام من دمعة المظلوم، وخصوصاً إذا كانت دمعة يتيم أو دمعة إنسان ضعيف.

دموع اليتيم:

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إذا بكى اليتيم اهتزَّ له العرش»[١].

في الحديث دلالة على أنَّ كلّ الكون وأعظمه ـ وهو عرش الله ـ مرتبط بقلب اليتيم.

وفي الحديث القدسي: «مَنْ أبكى مؤمناً يتيماً في صغره فإنَّني وعزَّتي وجلالي وارتفاع مكاني وعظمتي سأدخله جهنَّم، ومَنْ داعبه فأسكته أوجبت له الجنَّة»[٢].

وسُئل المعصوم عليه السلام: هل تبكي الملائكة؟ فقال: «في ثلاث: أحدها حينما يرى اليتيم أبويه في المنام ثمَّ يستيقظ فيطلبهما وهو يبكي وعندها فإنَّ أجر مَنْ سكَّته الجنَّة»[٣].

دموع الأُمَّهات:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أحزن والديه فقد عقَّهما».

دموع الرجال:

أن تجد الولد أو المرأة في حال بكاء فهذا أمر طبيعي وشائع بين النَّاس، لكن أن نرى رجلاً يبكي فهذا أمر نادر. لذلك فبكاء الرِّجال بسبب المظلوميَّة دليل على عمق الجرح الَّذي أدَّىٰ إلى بكائه.

---

(١) الوسائل: ج٢١، ص٤٤٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الأخلاق لعلي القائمي: ص٢٠٩.

دموع المظلومين قاصفة:

إنَّ المظلوم الَّذي تدمع عينه هو إنسان قريب من الله تعالىٰ، فقد سُئل النَّبي محمَّد ﷺ: أين الله؟ أجاب: عند المنكسرة قلوبهم»[١].

لذلك ينبغي لمن أحزن المظلوم وأبكاه أن يُسرع إلى إرضائه وإدخال السرور عليه. فعن رسول الله ﷺ: «منْ أحزن مؤمناً ثمَّ أعطاه الدُّنيا لم يكن ذلك كفَّارته ولم يُؤجر عليه»[٢].

ولذلك فإنَّ الله تعالىٰ يسرع إلى إجابة الباكي، حيث تتحول دموعه القاصفة إلى آثار سلبية تجاه الظالمين، فتدمّر بيوتهم، وتفكّك أسرهم وتقطع نسلهم، وتحرق أموالهم، وتشملهم بالبلاء والأمراض...

عن الإمام الباقر عليه السلام: «ما من أحد يظلم بمظلمة إلَّا أخذه الله بها في نفسه أو ماله».

هذا كلّه فيما يعود إلىٰ التأثير علىٰ الظالمين.

أمَّا فيما يعود إلى المظلوم فإنَّ الله تعالىٰ لا يجمع عليه أحزان الدُّنيا والآخرة، لذلك فإنَّ ما يصيبه من حزن وألم هو كفَّارة عن ذنوبه، وبالتالي فإنَّ دموعه تطفىء بحار النَّار في الآخرة، فتكون عينه فرحة في اليوم الَّذي تبكي فيه العيون.

دموع من أجل المظلومين، والبكاء على الإمام الحسين (ع):

المؤمن هو منْ يواسي النَّاس في أتراحهم ويشاركهم أفراحهم، فيبكي لبكائهم ويضحك لضحكهم... والبكاء هو علامة المظلوميَّة

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «حزن»، ج١ ص٦١٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٥، ص١٥٠.

وشعارها الصامت، وعليه كان البكاء على الإمام الحسين عليه السلام من علامات الإيمان والحب والمواساة، ولذا ورد عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال: «أنا قتيل العبرة»[١].

ومن الطبيعي أنَّ الدمع لمواساة المظلومين لا يكون إلَّا من القلب المفعم بالأسى والحزن، فكيف إذا كان على الإمام الحسين عليه السلام؟! فلا شكّ أنّه نابع من القلب المفعم بحرارة الإيمان والعشق له.

ولذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «إنَّ لقتل الحسين عليه السلام حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً»[٢].

وكما أنَّ دمعة المظلوم تقصف من دمعها وتطفىء بحور النيران عن صاحبها، فإنَّ الدمعة على الإمام الحسين عليه السلام تقصف الظالمين وتقضّ مضاجعهم وتزلزل عروشهم، كما أنَّها تطفىء بحار النيران عن صاحبها فقد ورد عن الإمام الرِّضا عليه السلام: «... فعلى قتل الحسين فلْيبكِ الباكون، فإنَّ البكاء عليه يحطُّ الذُّنوب العظام»[٣].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال للزَّهراء عليها السلام: «كلّ عين باكية يوم القيامة إلَّا عين بكت على مُصاب الحسين فإنَّها ضاحكة مستبصرة بنعيم الجنَّة»[٤].

لذا، نجد أنَّ دمعة حرقةٍ ولوعة تُذرف على الإمام الحسين عليه السلام لا تُضاهيها دمعة. ولشدَّة التأثُّر والبكاء على الإمام الحسين عليه السلام، ورد عن الإمام المهدي (عج): «ولأبكينَّ عليك بدل الدُّموع دماً».

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٤، ص٢٨٠.
(٢) موسوعة عاشوراء: ص٧٢.
(٣) المصدر نفسه: ص٢٨٤.
(٤) المصدر نفسه: ص٢٩٣.

دموع من خشية الله تعالىٰ:

استكمالاً للموضوع لا بدَّ من الكلام حول الدمع من خشية الله تعالىٰ، فإنَّها أعظم الدموع لأنَّها نور في ظلمات القيامة.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «ما من شيء إلّا وله وزن أو ثواب إلّا الدموع، فإنَّ القطرة تطفىء البحار من النَّار، فإن اغرورقت عيناه بمائها حرَّم الله سائر جسده على النَّار، وإن سالت الدُّموع على خديه لم يرهق وجهه ولا ذلَّه، ولو أنَّ عبداً بكى في أُمَّة لرحمها الله»[1].

عن حبَّة العرني، قال بينا أنا ونوف نائمان في رحبة القصر إذ نحن بأمير المؤمنين عليه السلام في بقيَّة من اللَّيل واضعاً يده على الحائط، شبيه الواله وهو يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] إلىٰ آخر الآية قال ثمَّ جعل يقرأ هذه الآيات ويمرُّ شبه الطائر عقله. فقال لي أراقد أنت يا حبَّة أم رامق؟ قال: قلت: رامق، هذا أنت تعمل هذا العمل فكيف نحن؟! فأرخىٰ عينيه ثمَّ بكىٰ ثمَّ قال لي: يا حبَّة ولنا بين يديه موقف لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالنا، يا حبَّة إنَّ الله أقرب إليَّ وإليك من حبل الوريد، يا حبَّة إنَّه لا يحجبني ولا إيَّاك عن الله شيء.

قال: ثمَّ قال: أراقد أنت يا نوف، قال: لا أيا أمير المؤمنين ما أنا براقد وقد أطلت بكائي هذه اللَّيلة.

فقال: يا نوف إن طال بكاؤك في هذه اللَّيلة مخافة من الله قرَّت عيناك غداً بين يدي الله عزَّ وجلَّ.

يا نوف إنَّه ليس من قطرة قطرت من عين رجل من خشية الله إلّا

(١) بحار الأنوار: ج٩٠، ص٣٣٥.

أطفأت بحاراً من النيران، إنَّه ليس من رجل أعظم منزلة عند الله تعالىٰ من رجل بكىٰ من خشية الله تعالىٰ وأحبّ في الله وأبغض في الله.

يا نوف إنَّه من أحبَّ في الله لم يستأثر علىٰ محبَّته، ومن أبغض في الله لم ينل ببغضه خيراً عند ذلك استكملتم حقائق الإيمان...»[١].

عن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير قال: كنَّا جلوساً في مجلس في مسجد رسول الله ﷺ فتذاكرنا أعمال أهل بدر وبيعة الرضوان، فقال أبو الدرداء: يا قوم ألاَ أخبركم بأقل القوم مالاً وأكثرهم ورعاً وأشدّهم اجتهاداً في العبادة؟

قالوا: من؟ فقال: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قال الراوي: فوالله إن كان في جماعة أهل المجلس إلّا معرض عنه بوجهه، ثمَّ انتدب له رجل من الأنصار فقال: يا عويمر لقد تكلَّمت بكلمة ما وافقك عليها أحد فقال أبو الدرداء:

يا قوم إنِّي قائل ما رأيت وليقل كلّ قوم منكم ما رأوا، شهدت علي بن أبي طالب بشويحطات النجَّار، وقد اعتزل عن مواليه، واختفىٰ ممَّن يليه واستتر بمغيلات النخل، فافتقدته وبعد عليّ مكانه، فقلت: لحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين ونغمة شجيّ وهو يقول:

«إلٰهي كم من موبقة حلمت عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكرَّمت عن كشفها بكرمك، إلٰهي إن طال في عصيانك عمري وعظم في الصحف ذنبي فما أنا مؤمّلٍ غير غفرانك، ولا أنا براجٍ غير رضوانك».

فشغلني الصوت واقتفيت الأثر، فإذا هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام بعينه، فاستترت له وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف اللَّيل

(١) مستدرك الوسائل، ج٥ ص٢١٠.

الغابر، ثمَّ فرغ إلى الدُّعاء والبكاء والبثّ والشكوىٰ، فكان ممَّا به الله ناجاه أن قال:

«إلٰهي أفكّر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي، ثمَّ أذكر العظيم من أخذك فتعظم عليّ بليتي» ثمَّ قال:

«آه إن أنا قرأت في الصحف سيِّئة أنا ناسيها وأنت محصيها، فتقول: خذوه، فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته، يرحمه الملأ إذا أُذن فيه بالنداء» ثمَّ يقول:

«آه من نار تنضج الأكباد والكلىٰ، آه من نارٍ نزَّاعة للشوىٰ، آه من غمرة من ملهبات اللظىٰ».

قال: ثمَّ أنعم في البكاء فلم أسمع له حسّاً ولا حركة، فقلت: غلب عليه النوم لطول السهر، أوقظه لصلاة الفجر.

قال أبو الدرداء: فأتيته فإذا هو كالخشبة المُلقاة، فحرَّكته فلم يتحرَّك، وزويته فلم ينزو، «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون» مات والله علي بن أبي طالب، قال: فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم، فقالت فاطمة عليها السلام: يا أبا الدرداء ما كان من شأنه ومن قصته؟ فأخبرتها الخبر، فقالت: هي والله يا أبا الدرداء الغشية الَّتي تأخذه من خشية الله[1].

فوائد البكاء:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم: ٤٣].

إنَّ هذه الآية المباركة تلفت الأنظار إلى أنَّ بكاء النَّاس بإذن الله تعالىٰ، فالبكاء ظاهرة موجودة في كلّ البشر على اختلاف ألوانهم

---

(١) بحار الأنوار: ج٤١، ص١١.

وأجناسهم ولغاتهم وأديانهم، وهو لغة واحدة بين النّاس يعبّر من خلالها الإنسان عن ما في داخله من أفراح وأحزان. كما أنّه دليل على ضعف الإنسان وعبوديته لله تعالىٰ وذلك لأنّه لا يستطيع أن يتمالك نفسه في بعض المواقف المؤثّرة، والعجيب أنّه مع ذلك يدّعي أنّه سيّد نفسه؟

ومن فوائده أنَّ البكاء رحمة من الله تعالىٰ لعباده المحزونين، فهو متنفس الهموم والأحزان المتراكمة، وتفريج للشحنات النفسية السامة، وعلاج للأمراض العصبية والنفسية.

يقول الإمام الصّادق عليه السلام للمُفضّل بن عمرو: «اعرف يا مُفضّل ما للأطفال في البكاء من المنفعة، واعلم أنَّ في أدمغة الأطفال رطوبة إن بقيت أحدثت عليهم أحداثاً جليلة وعللاً عظيمة من ذهاب البصر وغيره، والبكاء يسيل تلك الرطوبة من رؤوسهم، فيعقبهم الصحة في أبدانهم والسلامة في أبصارهم»[1].

يؤكّد علماء النّفس أنَّ البكاء أفضل علاج للجسد والرُّوح، وأنَّ الدموع ـ مع ضرورتها لتخفيف الآلام ومسح الأحزان ـ صُحيَّة للعين ذاتها لأنَّها تغسِّلها من الشوائب العالقة بها. ويقول الكاتب الكبير «ديكنز»: «إنَّ البكاء يغسِّل الوجنات، وينعش الرئات، ويدرب العيون، ويخفِّف الآلام، ويمسح الهموم والأحزان، ويهدىء الأمزجة والأعصاب».

وقد قام فريق من أطباء النَّفس بالتعاون مع علماء الكيمياء بأبحاث حول الدُّموع وسبب إفرازها وتركيبها وخلصوا بنتيجة مفادها أنَّ الدَّمع ليس إفرازاً لفضلات الجسد فحسب، فقد قاموا بتحليل دموع مجموعتين من النّاس بعد إخضاع كلّ مجموعة منهما لعامل يستدّر الدموع، الأُولى

(١) توحيد المفضل: ص١٠١.

لأوجاع بدنية مؤلمة، والثانية لمشاهدة مواقف عاطفية، فتبيَّن اختلاف دموع الانفعالات العاطفية في تركيبها الكيمائي عن دموع آلام الجسد باحتوائها على كميات أكبر من البروتين إلى جانب مواد غريبة عن الجسم لا تحويها دموع الألم من بينها عنصر المنغنيز تفرزه العين عندما يتعرَّض الإنسان لأسباب الضيق والحرمان.

كما أسفرت التجارب عن أنَّ ٨٥٪ من النِّساء، و٥٢٪ من الرِّجال يشعرون براحة عقلية ونفسية وجسدية عقب البكاء.

ويقول العلماء: «إنَّ النشيج العميق الصادر عن البكاء يقوِّي وسيلة حمل الأوكسجين إلى الخلايا، ويحرِّض الدماغ على إطلاق مواد كيماوية حيوية تساعد على الاسترخاء، وهذا هو سبب شعور الإنسان بالراحة بعد البكاء.

كما أنَّ البكاء يخفِّف المستويات الجائلة مع الدم من هورموني الكورتيزول والأدرنالين إذ إنَّ ارتفاعهما يُسبِّب زيادة وقوَّة اندفاع الدم في الشرايين من الداخل ويجعلها عُرضة لتشكِّل ندوباً ووحدات صغيرة تصبح بمثابة شباك تقتنص الخلايا الدسمة في الدم مثل الكولستيرول.

أقول: إذا كان للدمعة من الوجع أو الحزن هذا الأثر في الشِّفاء وتخفيف الآلام فكيف بالدمعة من خشية الله تعالى أو الدمعة لمصاب أهل البيت عليهم السلام فلا شكّ أنّ لتلك الدموع إكسيراً خاصّاً في الشِّفاء.

عن الإمام علي عليه السلام: «البكاء من خشية الله ينير القلب».

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من علامات الشَّقاء جمود العين وقسوة القلب».

يقول أحدهم: شاهدت امرأتين عجوزين قد جلست إحداهما إلى

جوار الأُخرى في أحد المساجد وكانتا تتحدَّثان، قالت إحداهما: أشعر بألمٍ في رجلي وظهري، فسألتها الأُخرى بكلِّ جد وإخلاص: ألا تذهبين إلى مجلس عزاء الحسين عليه السلام؟ أجابتها: بلى أذهب أحياناً. قالت: خذي من دموع عينيك في مجلس العزاء وامسحي موضع الألم فإنَّ شفاء الأسقام بيد الله تعالى، وعندما تبكين على سيِّد الشُّهداء الَّذي هو وليّ الله فإنَّ الله يحبّك، والله لا يترك أولياءه يتألمون».



تربية الأولاد

عن الإمام علي عليه السلام:

«الولد سيِّد سبع سنين، وعبد سبع سنين، ووزير سبع سنين، فإن رضيت أخلاقه لإحدى وعشرين، وإلَّا فاضرب على جنبه فقد أعذرت إلى الله»[١].

❊ ❊ ❊

أهمية التربية:

تُعتبر التربية الإنسانية من أهم الأُمور الَّتي تساهم في بناء الإنسان روحياً وعقلياً وجسدياً حتَّى أنَّنا نجد أنَّ الله تعالى يذكر في كتابه الكريم أنَّ الهدف من بعثة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام هو التربية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: ٢].

ومعنى التزكية في الآية المباركة هو التنمية والتربية، فكما أنَّ الرجل يتعهد البذرة حتَّى تنمو وتصير شجرة، كذلك فإنَّه يتعاهد ولده ـ المولود على الفطرة ـ حتَّى ينمو نمواً متكاملاً.

---

(١) ميزان الحكمة، ج١ ص٥٧.

ومن هنا جاء عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال لولده الحسن عليه السلام: «بادرت بوصيتي إليك قبل أن يسبقني بعض غلبات الهوى وفتن الدُّنيا، فتكون كالصعب النفور، وإنّما قلب الحدث كالأرض الخالية، ما أُلقي فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشغل لبّك».

ولهذه الضرورة فقد اعتبر الإمام علي عليه السلام أنَّ التربية حقّ من حقوق الأبناء على الآباء، فعنه عليه السلام: «حق الولد على الوالد أن يُحسن اسمه، ويُحسن أدبه، ويُعلّمه القرآن».

وعنه عليه السلام: «مروا أولادكم بطلب العلم»[١].

من هنا فقد ذكر الإمام علي عليه السلام توجيهات عديدة لتربية الأولاد والملاحظ في كلماته عليه السلام أنّه يرى أنَّ التربية لا تبدأ بعد الولادة وإنّما قبل ذلك، فابتدأ باختيار الأُمّ ثم الحمل ثمَّ الولادة.

المرحلة الأُولى: اختيار الأُمّ:

كما أنَّ الرجل يختار الأرض المناسبة لوضع البذور فعليه أن يختار الأُمّ الصالحة لوضع النطفة.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «انظر في أي شيء تضع ولدك، فإنَّ العِرق دسَّاس»[٢].

وفي قوله صلى الله عليه وآله: «فإنَّ العِرق دسَّاس» دلالة واضحة على أنَّ أخلاق الآباء تنتقل إلى الأبناء عبر قانون الوراثة الَّذي عبَّر عنه النبي صلى الله عليه وآله بأنّه «عرق» وبتعبير العلم الحديث «الجينات الوراثية».

---

(١) الحكمة في نهج البلاغة: ص٢٠٤.
(٢) الطفل بين الوراثة والتربية: ج١، ص٦٠.

ولنا في زوجات الإمام علي عليه السلام دليل على انتقال الصفات الحسنة أو السيِّئة إلى الأولاد.

فقد رُوي أنَّ الإمام علي عليه السلام أراد أن يتزوَّج بعد وفاة الصدِّيقة الكبرى فاطمة الزَّهراء عليها السلام فقال لأخيه عقيل (وكان يعرف أنساب العرب وقبائلها): انظر لي امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب لأتزوجها فتلد لي غلاماً فارساً، فقال له: تزوَّج بأُم البنين فإنَّه ليس في العرب أشجع من آبائها[1].

وهكذا تزوجها الإمام علي عليه السلام فأنجبت له «العبَّاس» قمر بني هاشم وحامل لواء الإمام الحسين عليه السلام، و«جعفر»، و«عبد الله»، و«عثمان»، وكلّهم أظهروا الشجاعة والبطولة في كربلاء، حتَّى نالوا شرف الشهادة.

وبالمقابل فقد كان له ولد يُسمَّى محمَّد ابن الحنفية وكان حامل اللواء في حرب الجمل، فأمره الإمام بالهجوم، فأجهز على العدوّ، لكن ضربات الأسنة ورشقات السهام منعته من التقدُّم فتوقف قليلاً، فوصل إليه الإمام وقال له: «احمل بين الأسنة» فتقدَّم قليلاً ثمَّ توقف ثانية فاقترب منه الإمام وقال: «أدركك عرق من أُمك»[2].

فتأمَّل في قوله عليه السلام: «عرق من أُمك» أيّ أنَّ هذه الصفة الموجودة فيك، هي من أُمّك...

قال أحد الحكماء لولده: لقد أحسنت إليك قبل أن تولد؟ فسأله الولد: وكيف ذلك، فأجابه: لقد اخترت لك أُمّاً صالحة...

---

(١) العبَّاس للمقرّم: ص١٢.

(٢) الطفل بين الوراثة والتربية: ج١، ص٦٠.

المرحلة الثانية: انعقاد النطفة:

أثبت العلم الحديث أنَّ نطفة الرجل وبويضة المرأة إذا انعقدا بسلامة من الآفات النفسية والجسدية كان الولد سليماً، ولذا جاءت توصيات عديدة تدعو لمراعاة آداب المجامعة، منها:

عن الإمام جعفر الصّادق عليه السلام قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا جامع أحدكم فليقُلْ: «بسم الله وبالله، اللّهمَّ جنّبني الشيطان، وجنّب الشيطان ما رزقتني» فإن قضى الله بينهما ولد لا يضرّه الشيطان بشيء أبداً»[1].

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أُتي عمر بامرأة وزوجها شيخ، فلمّا أن واقعها مات على بطنها، فجاءت بولد، فادّعى بنوه أنّها فجرت، وتشاهدوا عليها، فأمر بها عمر أن تُرجم، فمرَّ بها علي عليه السلام فقالت: يا ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله إنَّ لي حجَّة، فقال: هاتي حجَّتك، فدفعت إليه كتاباً فقرأه فقال: هذه المرأة تُعلمكم بيوم زواجها ويوم واقعها، وكيف كان جماعه لها، ردُّوا المرأة، فلمَّا كان من الغد دعا بصبية أتراب ـ أبناء سن واحد ـ ودعا بالصبي معهم، فقال: العبوا، حتَّى إذا ألهاهم اللعب فقال لهم: اجلسوا، حتَّى إذا تمكَّنوا صاح بهم [بأن قوموا] فقام الصبيان وقام الغلام فاتكأ على راحتيه، فدعا به علي عليه السلام فوَرَّثه من أبيه، وجلد إخوتها حدّاً، فقال له عمر: كيف صنعت؟ قال: عرفت ضعف الشيخ في اتّكاء الغلام على راحتيه»[2].

المرحلة الثالثة: الحمل:

توصل العلماء من خلال التجارب والأبحاث إلى أنَّ الجنين يتأثر

---

(١) الوسائل: باب ٦٨ من أبواب مقدمات النكاح حديث ٣.

(٢) سلوني قبل أن تفقدوني: ج٢، ص٢٨٦.

بأُمِّه، فما يجري عليها ينعكس عليه، كما أثبتوا إمكانية تعليمه وهو في بطن أُمّه، وقد أكدت الأبحاث العلمية في «كندا» أنَّ الجنين يسمع ويُميِّز صوت أُمّه في الثلث الأخير من الحمل، ووجد الباحثون في إحدى الجامعات بعد تشغيل أشرطة سمعية لستين امرأة حاملاً أنَّ نبضات قلب الجنين تسارعت عندما سمع صوت أُمّه، ولهذه الرابطة بين الأُمّ وولدها فإنَّ العلماء ينصحون النِّساء بتعليم الجنين وهو في الرحم[1].

ولهذا ورد عن الإمام علي عليه السلام: «ما تأكل الحامل من شيء ولا تتداوى به أفضل من الرطب قال عزَّ وجلَّ لمريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥﴾ [مريم: ٢٥]»[2].

المرحلة الرابعة: من الولادة إلى السنة السابعة:

وتُسمَّى بمرحلة الطفولة واللعب، كما في أحاديث عديدة، منها: ما ورد عن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: «الغلام يلعب سبع سنين، ويتعلَّم الكتاب سبع سنين، ويتعلَّم الحلال والحرام سبع سنين»[3].

وعنه عليه السلام: «دع ابنك يلعب سبع سنين، ويُؤدّب سبع سنين، وألزمه نفسك سبع سنين، فإن أفلح وإلَّا فلا خير فيه»[4].

ومرحلة اللعب تقتضي ترك الطفل ينمو على سجيَّته، دون قيود والتزامات، وذلك لأنَّ طبيعة المراحل الَّتي يمرّ بها الطفل في سنواته الأُولى لا تسمح له بالجهد العقلي والنفسي. ومن هنا فإنَّ على المربِّي

---

(١) مجلة الصحة والطب: عدد ٢٣٨.

(٢) المستدرك: باب ٢٤ من أحكام الأولاد حديث ٣.

(٣) الوسائل: باب ٨٣ من أبواب أحكام الأولاد حديث ١.

(٤) الوسائل: باب ٨٣ من أبواب أحكام الأولاد حديث ٤.

أن يتصابى مع الطفل ويغدق الحنان عليه تحسيساً له بمشاعر الرعاية الَّتي تتزامن مع لعبية هذه المرحلة، وإلى هذا يشير النبي ﷺ بقوله: «الولد سيِّد سبع سنين».

«فالسيِّد لا يتلقَّى الأوامر من أحد بل هو سيِّد نفسه، ومعنى هذا أنَّ الطفل لا تسمح مرحلته النمائية في سنواته الأُولى بتقبل الأوامر، أي بتقبل التوجيه والتدريب والإرشاد والإلزام بل يتجه إلى ممارسة نشاطه بحرية لا يحدها قيد ملحوظ... إنَّها حرية اللعب... وهكذا بعكس المرحلة الثانية حين أطلق النبي ﷺ لفظه «العبد» على طفل هذه المرحلة حيث إنَّ العبد يتلقَّى الأوامر ويطالب بتنفيذها، بمعنى أنَّه مهيأ لعملية التدريب»(١).

هذا، وقد نجد في بعض العائلات أنَّهم يربّون الطفل في جوّ من القيود والالتزامات، بدعوى أنَّهم يريدونه «رجلاً». فنرى الرجل الكبير يفرض على ولده الصغير لزوم الوقار، والتزمُّت والاحتشام أمامه وأمام النَّاس، بل قد لا يلاعبه ولا يمازحه ترفُّعاً عنه وتظاهراً بالهيبة والوقار المصطنع.. وكذا بعض النِّساء اللواتي يذهبن بأطفالهن إلى بيوت النَّاس ويضربن على أطفالهن طوقاً من الحركة واللعب...

كل ذلك يؤدِّي إلى نمو الأطفال في حالة من الجمود، والانزواء، والكسل والخمول، لأنَّهم لم يفجّروا الطاقات المخزونة في داخلهم، وكم سمعنا وقرأنا عن عظماء في التاريخ تألَّموا من الحرمان الَّذي عانوه في مرحلة الطفولة.

وقد فات هؤلاء الآباء المتزمتون أحاديث الرَّسول الأعظم ﷺ

---

(١) دراسات في علم النَّفس: ج١، ص٦١.

والأئمّة ﷺ الداعية إلى التصابي واللعب مع الأطفال، بل إنَّ النبي ﷺ كان يلاعب الأطفال بنفسه الشريفة، وإليك بعض الأحاديث:

عن رسول الله ﷺ: «من كان عنده صبي فليتصاب له»[١].

وعنه ﷺ أنّه قال: «أحبوا الصبيان وارحموهم وإذا وعدتموهم شيئاً ففوا لهم، فإنَّهم لا يرون إلَّا أنّكم ترزقونهم»[٢].

عن الإمام جعفر الصَّادق ﷺ أنّه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: ما قبّلت صبياً لي قطّ، فلما ولّى قال ﷺ: هذا رجل من أهل النّار، وقال ﷺ: وكان رسول الله ﷺ يقبّل الحسن والحسين ﷺ فقال الأقرع بن حابس: إنَّ لي عشرة من الولد ما قبّلت أحداً منهم فقال ﷺ: من لا يَرحم لا يُرحم»[٣].

وبعد ما تقدَّم، فلا نقصد بذلك إهمال الولد، حتَّى ينشأ «بدلال» فإنَّ لهذه الحالة آثار سلبية، بل العبرة بإعطاء هذه المرحلة حاجاتها الأولية الجسمية والنفسية، مع بعض أشكال التدريب على التعلُّم... مع ملاحظة أنَّ اللعب هو الطابع المميَّز لهذه المرحلة، وأنَّ التدريب يجسِّد عنصراً ثانوياً فيها.

المرحلة الخامسة: من السنة السابعة إلى السنة الرابعة عشرة:

وتُسمّى بمرحلة التعليم والتأديب، فإنَّ الولد إذا تخطّىٰ المرحلة الأُولى صار مُهيّئاً لتلقّي الأوامر والتدريبات العقلية والسلوكية، وبذلك فإنّه يصير «عبداً» كما في الحديث الشريف.

---

(١) الوسائل: باب ٩٠ من أبواب أحكام الأولاد حديث ٢.
(٢) الوسائل: باب ٨٨ من أبواب أحكام الأولاد حديث ٣.
(٣) الوسائل: باب ٨٩ من أبواب أحكام الأولاد حديث ١ و٤.

والأدب هو الترويض والتذليل، قالت العرب: أدَّب الأب ابنه: راضه على محاسن الأخلاق والعادات، ومنه التأدُّب بأدب القرآن وأدب الرَّسول ﷺ.

والتوصيات الإسلامية تعتبر أنَّ هذه المرحلة من أهم المراحل خطورة في حياة الإنسان حيث تشكل ـ بما لها من مؤثرات ـ منعطفاً أساساً في بناء سلوكه الشخصي لاحقاً.

ومن هنا ركزت التوصيات المتعلقة بهذه المرحلة على توجيه الأب إلى ضرورة تعليم الولد الصلاة والأخلاق.. وتعليمه الكتابة.. وبعض المهارات الجسدية، وإليك بعض الأحاديث:

عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: «ويتعلم سبع سنين» وفي رواية: «ويتعلَّم الكتاب سبع سنين»[1].

وعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «علِّموا صبيانكم الصلاة، وخذوهم بها إذا بلغوا الحُلم»[2].

وفي رواية عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ثمَّ أدّبه في الكتاب»[3].

وعن رسول الله ﷺ: «علِّموا أولادكم السباحة والرماية»[4].

نلاحظ في هذه الروايات التركيز على تعليمه القرآن المجيد، والكتابة، والصلاة، والسباحة، والرماية، وهذا يعني مراعاة الجانب الدِّيني والثقافي إضافة إلى الجانب الحركي المتمثِّل آنذاك بالرماية

---

(١) الطفل: ص٣٠٥.
(٢) المصدر السابق: ص٣٠٧.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق: ص٣١٠.

والسباحة، وفي هذا العصر بالتدريب على حمل السلاح دفاعاً عن نفسه وعن أُمّته. . .

من جانب آخر لاحظت النصوص الشريفة مرحلة التمييز الَّتي تتَّسم بها هذه المرحلة، فجعلت ضوابط على السلوك الجنسي خوفاً من خطورة المرحلة القادمة.

عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «الصبي والصبي، والصبي والصبية والصبية والصبية، يفرّق بينهم في المضاجع لعشر سنين» وفي رواية: «لِست سنين»[١].

وعن الإمام جعفر الصّادق عليه السلام: «إذا بلغت الجارية سِت سنين فلا يقبّلها الغلام، والغلام لا يقبّل المرأة إذا جاز سبع سنين»[٢].

وفي هذه المرحلة الثانية ـ من ٧ إلى ١٤ـ يحصل «البلوغ» للفتاة إذا بلغت تسع سنين قمرية، ومن ثَمّ يتوجَّه نحوها التكليف بأحكام الشريعة الإسلامية من عبادات ومعاملات ومن أبرز التكاليف مسألة الستر عن الرِّجال الأجانب (من غير المحارم والزوج).

ولأهمية هذه المرحلة قالت بعض الروايات بضرورة «ضرب الغلام» إذا تهاون في ممارسة الصلاة.

«فلو لم تكن المرحلة ذات أثر في التطبيع على السلوك الراشد، لما أقرَّ الإمام عليه السلام عملية جبر الأطفال في الثامنة على ممارسة الصلاة، ولما أوصى بضربهم في التاسعة من العمر بغية حملهم على اتقان الصلاة، ولما أمرهم علي بن الحسين عليه السلام الجمع بين صلاتي المغرب

---

(١) الوسائل: باب ١٢٨ من أبواب النكاح حديث ١ و٢.
(٢) المصدر السابق: باب ١٢٧ حديث ٤.

والعشاء خشية إهمال الصلاة الأخيرة بل وصل الأمر إلى أنَّ الإمام الرِّضا عليه السلام لم يُعفِ الأطفال ـ حتَّى في حالة المرض ـ من الصلاة بقدر ما يطيقون. إنَّ هذا النحو من التشدُّد على أطفال المرحلة المتأخرة يفصح عن خطورة المرحلة المذكورة وانعكاساتها على مستقبل تكوين الشخصية دون أدنى شك»[1].

من خلال ما تقدَّم يتبين أنَّ على الوالدين واجبات مهمة منها:

١ ـ تعليم الولد القرآن الكريم قراءة وحفظاً...

٢ ـ تعليم الولد العقائد الإسلامية، وسيرة النبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم والأئمَّة عليهم السلام.

٣ ـ تعليم الولد الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات وخصوصاً «الصلاة» حتَّى ينشأ عليها، وتكون الأساس في حياته، بدلاً من السعي وراء التلفزيون وأفلام الصور المتحركة، وتكون في نفسه أغلى من كل شيء بحيث لو حضر وقتها ترك كل شيء محبوب له.

٤ ـ إحاطة الولد بجو روحي صادق، من الترغيب بالأدعية والأذكار، وسماع مجالس عزاء الإمام الحسين عليه السلام وحضور المحاضرات الدِّينيَّة.

٥ ـ غرس حبّ الله تعالىٰ والرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمَّة عليهم السلام في نفسه.

٦ ـ توجيهه إلى اتخاذ مَثَلْ أعلى له في الحياة... كالنبي والأئمَّة عليهم السلام وأصحابهم المخلصين.

٧ ـ توجيه حالة اللعب واللهو إلى ما فيه فائدة علمية...

---

(١) دراسات في علم النَّفس الإسلامي: ج١، ص٨٥.

٨ ـ الإشراف على الدراسة، وعلى أجواء الصداقة الَّتي تحيط به، وعلى سلوكه وتعامله مع الآخرين.

بكل ذلك يستطيع الدخول إلى المرحلة التالية، وهو على استعداد وثقة، لتحمّل ما تملي عليه مستلزماتها.

المرحلة السادسة: من(١٤ إلى ٢١):

وتُسمَّى بمرحلة المصاحبة أو المراهقة.

فبعد أن يقطع الولد مرحلة اللعب، والإعداد والتدريب، يدخل في مرحلة «شبه الاستقلال»، وذلك أنَّ شخصيته تتطلع إلى الاستقلال، والخروج عن التبعية، مع وجود الاضطراب، والتغلب، والتردُّد، في اتخاذ الموقف الحاسم...

وهذا يقتضي أن يعامله الولي معاملة المستشير والمصاحب أو بتعبير الحديث النبوي الشريف معاملة «الوزير» حيث لا استقلالية تامة ولا خضوع مطلق، بل بين بين.

«فقوله ﷺ: إنَّ «الولد وزير سبع سنين» هو إفصاح واضح عن الطابع الَّذي يسم المراهقة، فالوزير يختلف عن رئيس الدولة بأنَّ تصرفه لا يكتسب استقلالاً تامّاً بالنحو الَّذي يملكه رئيس الدولة، إلَّا أنَّه في الوقت ذاته يملك قسطاً من الاستقلال، وبكلمة أُخرى ثمة استقلال إلَّا أنّه ليس كاملاً»[١].

وما دام المراهق ضعيفاً عن الاستقلال التام إذن هو بحاجة إلى مزيد من التدريب حتّى يسدّ النقص استقلال شخصيته...

---

(١) دراسات في علم النَّفس الإسلامي: ج١، ص١٠١.

وفيما يلي بعض التوصيات للأبوين تجاه هذه المرحلة:

١ ـ الحرص الشديد على المحافظة على الصلاة والصيام.. لأنَّ الولد في هذه المرحلة صار مكلّفاً من قِبَل الله تعالى ـ الالتزام بالحلال والحرام ـ.

٢ ـ يجعل الأب من نفسه صديقاً لولده، وكذا الأُمّ تجاه ابنتها، حتَّى يطمئن الولد أو البنت إليهما فيكشفان ما يدور في خواطرهما من مشكلات..

٣ ـ يحاول الأب أن يجعل ابنه يشعر بأنَّه قادر على المشاركة في إبداء الرأي وفي المناقشات الفكرية، وخصوصاً في الأُمور الَّتي تهم الأسرة وإن كان القرار النهائي بيد الأب.. وكذا تفعل الأُمّ مع ابنتها.

٤ ـ مشاركة الأب لولده في اختيار نوع العمل والوظيفة الَّتي يقوم بها، وكذا الأُم..

٥ ـ إعداد الولد لتحمُّل إدارة الأُسرة في حال أراد الإقدام على الزواج وكذا إعداد البنت...

٦ ـ ترك اختيار الزوجة إلى الولد إن أحسن الاختيار، وترك اختيار الزوج إلى الفتاة إذا جاءها من ترضون دينه وخلقه.. بل والإسراع في تزويجها.

فقد رُوي أنَّ النبي ﷺ صعد المنبر ذات يوم فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال:

«أيُّها النَّاس إنَّ جبرائيل أتاني عن اللَّطيف الخبير فقال: إنَّ الأبكار بمنزلة الثمر على الشجر إذا أدرك ثمارها فلم تجتن أفسدته الشَّمس، ونثرته الرياح، وكذلك الأبكار إذا أدركن ما يدرك النِّساء فليس لهن دواء إلَّا البعولة، وإلَّا لم يُؤمَّن عليهن الفساد لأنَّهنَّ بشر، فقام إليه رجل فقال:

يا رسول الله فمن نزوّج، فقال ﷺ: الأكفاء فقال: ومن الأكفاء فقال ﷺ: المؤمنون بعضهم أكفاء بعض، المؤمنون بعضهم أكفاء بعض»[١].

وبعد هذه المراحل يقول الحديث: (فإن رضيت خلائقه ـ أي أخلاقه ـ لإحدى وعشرين سنة وإلّا فاضرب على جنبيه فقد أعذرت إلى الله).

تكملة:

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فإنَّهم خلقوا لزمن غير زمانكم»[٢].

يدعو الإمام عليه السلام في هذه الكلمة الآباء إلى عدم إجبار الأبناء على عاداتهم وتقاليدهم، لأنَّها خاصة بزمان دون آخر، فما كان يناسب جيلاً قد لا يناسب الجيل اللاحق، كطريقة اللباس والطعام والركوب وبناء المنزل وغير ذلك من الأُمور المتغيرة دون الثابتة، أمّا الأخلاق الثابتة فهي ضرورية لكل جيل كالصدق والوفاء والكرم وما أشبه.

وفي هذه الكلمة دعوة إلى التطور وعدم الجمود والتقليد.

---

(١) الوسائل: باب ٢٣ من مقدّمات النكاح حديث ٢.

(٢) شرح رسالة الحقوق: ج١، ص٥٩١.

الولد الصالح والولد الطالح

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال:

«الولد العاق كالإصبع الزائد، إن تُركت شانت، وإن قُطعت آلمت»[١].

* * *

نعمة الأولاد:

الأولاد من أكبر النعم الإلٰهيَّة على الإنسان، فهم زينة الحياة الدُّنيا، كما يقول تعالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

وهم خير معين للإنسان في عمله ومرضه وأيَّامه الأخيرة من عمره، ففي الحديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «من سعادة الرجل أن يكون له وُلْد يستعين بهم».

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «من سعادة الرجل أن يكون له الولد يُعرف فيه شبهه: خلقه وخُلقه وشمائله».

كما إنَّهم خير زاد ليوم المعاد.

---

(١) ألف حكمة: ص٨٨.

رُويَ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلَّا من ثلاث: كتاب علم يُنتفع به، وصدقة جارية، وولد صالح يستغفر له»[١].

رُويَ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «مرَّ عيسى ابن مريم بقبر يُعذَّب صاحبه، ثمَّ مرَّ به من قابل، فإذا هو ليس يُعذَّب، فقال: يا ربِّ، مررت بهذا القبر عام الأوَّل، فكان صاحبه يُعذَّب، ثمَّ مررت به العام، فإذا هو ليس يُعذَّب؟ فأوحى الله إليه: يا روح الله، إنَّه أورث له ولداً صالحاً فأصلح طريقاً، وآوى يتيماً، فغفرت له بما عمل ابنه»[٢].

الولد الصالح:

وتُعرف قيمة هذه النعمة الإلٰهيَّة إذا كان الولد صالحاً، فإنَّه بذلك يكون مفخرة لوالده ومصدر اعتزاز ورفعة بين النَّاس، ونُؤكّد هنا أنَّ الاعتزاز بالولد الصالح لا بالولد الَّذي له مكانة اجتماعية فحسب كالطبيب والمهندس والرئيس والعالم، فكم من أولاد لهم مقامات مرموقة في المجتمع، إلَّا أنَّهم عاقُّون لوالديهم.

فعن رسول الله ﷺ: «من سعادة الرجل الولد الصالح».

عن الإمام علي عليه السلام: «ما سألت ربِّي أولاداً نُضُر الوجه، ولا سألته ولداً حسن القامة، ولكن سألت ربِّي أولاداً مطيعين لله وجِلِين منه حتَّى إذا نظرت إليه وهو مطيع لله قرَّت عيني».

الولد الطالح:

وإذا كان الولد غير صالح فإنَّه يصير شيناً وعاراً على أبيه في

---

(١) فقه الأخلاق: للسيِّد محمَّد الصدر، ص١٢٧.

(٢) بحار الأنوار: ج٦، ص٢٢٠.

الدُّنيا، فعن الإمام علي عليه السلام: «ولد السوء يهدم الشرف ويشين السلف».

وعنه عليه السلام: «الولد العاق كالإصبع...» فكما أنَّ الإنسان يحتار لوجود الإصبع الزائد، فإنَّه إن تركها شانته وإن قطعها آلمته فإنَّه يتألم من ولده العاق إذ إنَّه يحتار في كيفيَّة التصرُّف معه... فهل يقطع علاقته معه وهو من رحمه وكبده، أم هل يحرمه من الميراث وهو محرم شرعاً؟ أم هل يفضحه بين النَّاس وفي ذلك فضيحة له، ثم إن تركه على حاله قد يزداد عقوقاً...

وقد يضطر الإنسان لقطع الولد حفاظاً على حياتهم ولئلا يُبتلوا بذنبهم فعن الإمام الحسن عليه السلام: «القريب من قرَّبته المودَّة وإن بعد نسبه والبعيد من بعدَّته المودَّة وإن قرب نسبه، لا شيء أقرب إلى شيء من يد إلى جسد، وإن اليد تغل فتُقطع، وتُقطع وتحسم»[1].

وكم من أولاد كانوا فتنة لأبويهم، حيث أدخلوهما في المحرمات كجمع المال الحرام، أو اتخاذ المواقف اللاشرعية، ويحدِّثنا التاريخ عن الزبير بن العوام فقد كان من أصحاب الإمام علي عليه السلام إلَّا أنَّ ولده عبد الله أثَّر فيه حتَّى جعله يعدل عن نصرة الإمام علي عليه السلام فعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «ما زال الزبير منَّا حتَّى نشأ ولده المشؤوم».

ولذا فقد عبَّر القرآن الكريم عن بعض الأولاد بأنَّهم أعداء لآبائهم فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٤-١٥].

---

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسن عليه السلام: ص٣٤٨.

فكلّ زوجة أو ولد يتسببان في إدخال الأذية أو الحرام والفساد على الزوج فهما أعداء له، وما أصعبه من عدو حيث يعيش في بيتك ليلاً ونهاراً، خصوصاً أنّنا أصبحنا في زمان تغيَّرت فيه مفاهيم الحياة الأسرية، فصار الولد يتطاول على أبيه فضلاً عن عصيانه وعدم طاعته... صدق رسول الله ﷺ عندما قال: «ما من مولود يولد إلّا في شبابيك رأسه مكتوب خمس آيات من سورة التغابن»[١].

وعندما حدَّثنا عن آخر الزَّمان بقوله: «... ويجفو الرجل والديه».

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ورأيت العقوق قد ظهر واستُخِفَّ بالوالدين... ورأيت ابن الرجل يفتري على أبيه، ويدعو على والديه ويفرح بموتهما»[٢].

وهنا لا بدَّ أن نُلفت النظر إلى أنَّ الولد العاق هو بلاء وامتحان لأبويه... فقد لا يقصِّر الوالدان في تربية الولد إلّا أنَّه يصير عاقاً في الكبر ـ لأسباب أُخرى ـ فقد يخرج الطالح من الصالح، وقد يخرج الصالح من الطالح. والشواهد التاريخية كثيرة، فقد وُلد ابن نوح من نبي عظيم إلّا أنّه صار في كبره من الكافرين، وقد تربّى موسى عليه السلام في بيت فرعون إلّا أنّه صار في كبره من الأنبياء العظام، وكذا تربّى معاوية بن يزيد في بيت بني أُميَّة إلّا أنّه كان من المناصرين لآل البيت عليهم السلام، عن رسول الله ﷺ: «الولد الصالح ريحانة من الله قسّمها بين عباده»[٣].

---

(١) الأمثل: ج١٨، ص٣٦٣.
(٢) إلزام الناصب: ج٢، ص١٤٢.
(٣) ميزان الحكمة، ج٤ ص٢٦٧١.

نقول هذا: لأنَّ الوالدين قد يشعران بالذَّنب إذا كان الولد غير صالح، والحال أنَّ الإنسان قد يقوم بما عليه من واجب التربية إلّا أنَّ عوامل أُخرى كالعوامل الوراثية مثلاً أو البيئيَّة تكون سبباً في انحراف الولد عن الاستقامة، كما حصل في انحراف بعض أولاد المعصومين عليهم السلام.

لذا يقول الإمام علي عليه السلام في موضوع تربية الأولاد: «الولد سيِّد سبع سنين وخادم سبع سنين، ووزير سبع سنين، فإن رضيت مكانته لإحدى وعشرين وإلّا فاضرب على كتفه فقد أعذرت إلى الله فيه»[1].

فما دام الإنسان قد ربَّى ولده على هذه القواعد المذكورة فقد أعذر إلى الله فيه إذا كان منحرفاً.

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «دع ابنك يلعب سبع سنين، ويؤدّب سبعاً، وألزمه نفسك سبع سنين، فإن أفلح وإلّا فإنَّه لا خير فيه»[2].

خسران الولد:

إذا كان الولد عاقاً فهو خسارة على أبويه، لأنَّ خسارة الولد على نحوين: معنوية ومادية.

الخسارة المعنوية وهي أصعب من المادية، فعن الإمام الهادي عليه السلام: «العقوق ثكلٌ لمن لم يُثكل» وعن الإمام علي عليه السلام: «أشدّ المصائب سوء الخلق».

والخسارة المادية ـ بالموت أو الفقد ـ صعبة كذلك» ذلك لأنَّ الولد هو:

---

(١) ميزان الحكمة، مادة «ولد».

(٢) بحار الأنوار: ج١٩، ص٩٥.

ثمرة الفؤاد، فقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

عن النبي محمَّد ﷺ أنَّه قال: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالىٰ للملائكة: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: أقبضتم ثمرة قلبه؟ فيقولون: نعم، فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجَنَّة وسموه بيت الحمد»[١].

وفلذة الكبد: فعن الإمام علي عليه السلام: «فقد الولد محرق الكبد»[٢].

وعن رسول الله ﷺ: «أولادنا أكبادنا صغراؤهم أمراؤنا، كبراؤهم أعداؤنا، فإن عاشوا فتنونا وإن ماتوا حزنونا»[٣].

وبضعة من الوالد: ففي وصية الإمام علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «وجدتك بعضي بل وجدتك كلي حتَّى لو أنَّ شيئاً أصابك أصابني ولو أنَّ الموت أتاك أتاني».

ومن هنا جاء ما ورد عن النَّبيِّ ﷺ، أنَّه قال لعثمان بن مظعون رضي الله عنه، وقد مات ولده، فاشتدَّ حزنه عليه: «يابن مظعون، إنَّ للجنَّة ثمانية أبواب، وللنَّار سبعة أبواب، أفما يسرُّك أن لا تأتي باباً منها إلَّا وجدت ابنك إلى جنبه، آخذاً بحجزتك يستشفع لك إلى ربِّكَ، حتَّىٰ يشفعه الله تعالىٰ؟».

---

(١) مواهب الرَّحمٰن: ج٢، ص١٦٩.
(٢) ميزان الحكمة مادة «ولد»، ج٤ ص٢٦٦٨.
(٣) شجرة طوبى، ج٢ ص٣٧٤.

من كلمات الإمام علي (ع) في الأولاد:

«الولد يأكلك صغيراً ويرثك كبيراً».

وسُئل عليه السلام عن الجماع فقال: «حياءٌ يرتفع، وعورات تجتمع، أشبه شيء بالجنون، ثمره حلاله الولد، إن عاش، فتن وإن مات حزن».



المال

عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال:

«المال مادة الشهوات»(١).

* * *

ضرورة المال:

يُعتبر المال من الأركان الأساسية لقيام الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية، وقد أشار الله تعالى في كتابه إلى هذا المعنى بقوله: ﴿...أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥] أي جعلها ممَّا يشد به أزركم ويقضى به مآربكم ويقوم نظام معاشكم.

ولذا يُقال في الاقتصاد الحديث: «المال عصب الحياة» فمن امتلكه صار قوياً، ومن فقده صار مشلولاً بلا أعصاب، ويشبّه بعض العلماء ضرورة المال للحياة بضرورة ماء البحر للسفينة، فكلَّما كان الماء كثيراً كان سير السفينة أسرع إلَّا إذا دخل الماء فيها فإنَّها تغرق، وكلَّما كان المال كثيراً كانت الحياة أفضل، إلَّا إذا دخل حب المال في القلب فإنَّه يُفسد الإنسان.

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٥٨.

ومن البديهي أنَّ للمال تأثيراً واضحاً على سعادة الإنسان وشقائه، وهو مصدر لكثير من الخلافات الأسرية والاجتماعية والسياسية وبقية الشؤون المتعلقة بحياة النَّاس، وللوقوف على ذلك لا بدَّ من الكلام حول تأثيره في حياة الأفراد والأسر والمجتمعات.

تأثير المال في الأفراد:

يترك المال تأثيراً واضحاً في حياة الأفراد، وله في ذلك جانبان: إيجابي وسلبي، **ويتلخص الجانب الإيجابي بأُمور:**

١ ـ زينة الحياة الدُّنيا: قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

٢ ـ يلبِّي حوائج الإنسان ويصونه عن الحاجة إلى النَّاس: عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «لا خير فيمن لا يحب جمع المال من حلال يكفُّ به وجهه، ويقضي به دينه، ويصل به رحمه»(١).

٣ ـ وسيلة لإشباع الغرائز الجسدية كالطعام والشراب والنكاح والنفسية: كحب الجاه والقدرة والافتخار وكسب النَّاس، وهو ما عبَّر عنه الإمام عليه السلام بقوله: «المال مادة الشهوات» فهو يمدُّ الإنسان ليلبِّي شهواته وحاجاته الغرائزية.

٤ ـ يبعث الشعور بالسعادة والغبطة: فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ثلاثة من السعادة: الزوجة المؤاتية، والولد البار، والرِّزق، يرزق معيشته يغدو على صلاحها ويروّح على عياله»(٢).

وهذا لا يعني أنَّ السعادة تُشترى بالمال، فكم من غني يعيش

---

(١) الكافي: ج٥، ص٧٢.

(٢) ميزان الحكمة: مادة «السعادة»، ج٢ ص١٣٠٤.

الشقاء في داخله لخوفه على ماله وقلقه على مستقبله؟! والأمثلة على ذلك كثيرة:

منها «جون روكفلر» فقد جمع أوّل مليون من ثروته وهو في الثالثة والثلاثين من عمره وفي الثالثة والأربعين كان ينشيء أضخم شركة احتكار عرفها العالم... وفي الثالثة والخمسين سلم زمامه للقلق الَّذي حطم حياته، حتَّى لقد كان يبدو كالدمية على حد قول أحد كتَّاب سيرته، فقد أصيب بسوء الهضم وتساقط شعر رأسه وتقلَّصت أهدابه، وبلغت حالته الصحية حداً بالغاً من الخطورة حتَّى أنَّ الأطباء نصحوه بأن يعيش على اللبن ولا شيء سواه، وقد عزا الأطباء صلعه إلى اضطراب عصبي.

كان روكفلر في تلك السن أغنى رجل في العالم وبرغم ذلك فقد كان يعيش على طعام لا يقيم أود طفل! كان دخله يبلغ مليون دولار في الأسبوع، ومع هذا فإنَّ ما ينفقه على غذائه لم يكن يزيد على دولارين في الأسبوع!

واستحال إلى هيكل عظمي مكسو بالجلد الأصفر الباهت... والَّذي أوصله إلى ذلك الحال القلق والضغط المتواصل على أعصابه فهو يعمل باستمرار ولا يتوقف أبداً، لم يعرف المرح ولا الدعابة ولا النزهات، عمل متواصل ليل نهار.

وزحف المرض إليه ليقتله رويداً رويداً... وخيَّره الأطباء بين اعتزال العمل أو الموت، فاختار اعتزال العمل ولكن بعد أن حطمته المطامع والمخاوف والقلق.

٥ ـ يبعث الشعور بالأمن والاستقرار: فالفقير دائم الهمّ والقلق والخوف على حياته بخلاف الغني الَّذي فرّغ قلبه من التفكُّر به، ولذا

قيل إنَّ الصحابي الجليل «سلمان الفارسي» كان يأخذ من العطاء ما يكفيه لسنة فقيل له: أنت في زهدك تصنع هذا؟ وأنت لا تدري لعلّك تموت اليوم أو غداً؟ فيقول: ما لكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم عليَّ الفناء؟! أما علمتم يا جهلة أنَّ النَّفس قد تلتاث على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت»[١].

ويتلخص الجانب السلبي بأُمور:

أ ـ **عبادة المال:** بحيث يصير المال المحور الأساسي في حياة الإنسان، فيفني جسده في جمعه وحفظه وادِّخاره وبالتالي يتحول إلى خادم للمال بدل أن يكون المال خادماً له، كما تتمحور عواطفه ومشاعره حول المال فيُحبّ ويُبغض، ويُوالي ويُعادي، ويرضى ويغضب من أجل المال، بل قد يصل الأمر ببعض النَّاس إلى أن يجعل محور القيم الدِّينيَّة والأخلاقيَّة هو المال.

عن رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدِّينار وعبد الدِّرهم وعبد الخميصة[٢] إن أُعطي رضي، وإن لم يعط سخط؛ تعس وانتكس! وإذا شيك فلا أنتقش»[٣].

وعنه ﷺ: «النَّاس عبيدُ المال، والدِّين لغوٌ على ألسنتهم، يحوطونه ما درَّت به معايشهم، فإذا محِّصوا بالبلاء قلَّ الدَّيَّانون»[٤].

---

(١) سلمان الفارسي، للسيد جعفر مرتضى.
(٢) الخميصة: ثوب خزّ أو صوف، وكانت من لباس النَّاس قديماً.
(٣) وإذا شيك فلا أنتقش: أي إذا شاكته شوكة فلا يقدر على انتقاشها، أي إخراجها بالمنقاش.
(٤) كشف الغمَّة: ٢/ ٢٤٤، تحف العقول: ٢٤٥ وفيه «إنَّ النَّاس عبيد الدُّنيا والدِّين لعق على ألسنتهم»، بحار الأنوار: ٤٤/ ١٩٥/ ٩.

إنَّ من أخطر الأشياء الَّتي تسببها عبادة المال هي الاعتراض على الله تعالى في قلَّة الرِّزق، وكثرة الشكوى منه.

عن رسول الله ﷺ: «يأتي على النَّاس زمان يشكون فيه ربّهم قيل: كيف يا رسول الله؟ قال ﷺ: يقول الرجل: والله ما ربحت شيئاً منذ كذا وكذا، ولا آكل ولا أشرب إلَّا من رأسمالي، ويحك وهل أصل مالك وذروته إلَّا من ربّك».

وعنه ﷺ: «أوحَى الله عزَّ وجلَّ إلى عُزيرٍ: (يا عُزَير)... إذا أُوتيتَ رزقاً منِّي فلا تنظر إلى قلَّته، ولكن انظر إلى من أهداه»[1].

عن سفيان بن عيينة عن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام أنَّه دخل على أبي جعفرٍ المنصور وعنده رجل من ولد الزبير بن العوام وقد سأله، وقد أمر له بشيءٍ، فتسخَّطه الزُّبيريُّ فاستقلَّه، فأغضب المنصور ذلك من الزُّبيريِّ حتَّى بان فيه الغضب، فأقبل عليه الإمام جعفرٌ فقال: حدَّثني أبي عن أبيه عليِّ بن الحسين عن أبيه عن عليٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعطى عطيَّةً طيِّبةً بها نفسه بورك للمعطي والمعطى». فقال أبو جعفرٍ: والله لقد أعطيته وأنا غير طيِّب النَّفس بها، ولقد طابت بحديثك هذا.

ثمَّ أقبل على الزُّبيريِّ فقال: حدَّثني أبي عن أبيه عن جدّه عن أمير المؤمنين قال: قال رسول الله ﷺ: «من استقلَّ قليل الرِّزق حرمه الله كثيره». فقال الزُّبيريُّ: والله لقد كان عندي قليلاً ولقد كثر عندي بحديثك هذا.

---

(١) الدعوات: ١٦٩/٤٧٢، بحار الأنوار: ٨٢/١٣٢/١٦.

قال سفيان: فلقيت الزُّبيريَّ فسألته عن تلك العطيَّة، فقال: لقد كانت نزرةً[١] قليلةً فقبلتها فبلغت في يدي خمسين ألف درهمٍ[٢].

ب ـ حب المال: قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفَجر: ٢٠] وهو يؤدِّي إلى الفساد والفتن والخصومات:

فعن الإمام علي عليه السلام: «حب المال يسبِّب الفتن».

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «إنَّ أكرم النَّاس على النَّاس من كان خيره عليهم فائضاً، وكان عنهم مستغنياً متعفِّفاً، وأكرم النَّاس بعده عليهم من كان عنهم متعفِّفاً وإن كان إليهم محتاجاً، وإنَّما أهل الدُّنيا يعشقون أموال النَّاس فمن لم يزاحمهم فيما يعشقونه كرم عليهم، ومن لم يزاحمهم فيها ومكَّنهم منها ومن بعضها كان أعزّ وأكرم»[٣].

ج ـ التكاثر والتفاخر: قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١-٢] فبعض النَّاس يسعى لجمع المال والإكثار منه، حتَّى يتباهى به أمام الآخرين ويتفاخر ويتعالى، وهذا من الأخطاء الشائعة، ولهذا جاء في الأحاديث الشريفة النهي عن بناء البيوت للافتخار بها.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «من بنى بنياناً رياءً وسمعة حمله يوم القيامة من الأرض السابعة وهو نار تشتعل ثمَّ يُطوَّق عنقه ويُلقى في النَّار فلا يحبسه شيء منها دون قعرها إلَّا أن يتوب، قيل يا رسول الله كيف

---

(١) النَّزر: القليل التافه (لسان العرب: ٥/ ٢٠٣).

(٢) كنز العمَّال: ٦/ ٥٦٦/ ١٦٩٦٠ عن ابن النجَّار؛ مستدرك الوسائل: ٧/ ٢٧٣/ ٨٢١٣ نقلاً عن العلَّامة في الإيضاح.

(٣) مستدرك وسائل الشيعة: ج٧، ص٢٣٠.

يبني رياءً وسمعة؟ فقال ﷺ: يبني فضلاً على ما يكفيه استطالة منه على جيرانه ومباهاة لإخوانه»[1].

وعن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]»[2].

د ـ **الغرور والطغيان:** قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦-٧].

وهو يؤدِّي إلى ضياع الإنسان، **فقد يضيِّع الإنسان مالاً ولكن الأصعب أن يضيِّعه المال.**

هـ ـ **الأمل الطويل:** فكثرة المال تجعل في نفس الإنسان أملاً بطول الحياة، أو حتَّى الخلود، لتوهمه أنَّه بالمال يملك مفتاح السعادة، فلا يمرض ولا يموت قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾﴾ [الهمزة: ٣].

عن الإمام علي عليه السلام: «المال يقوّي الآمال»[3].

و ـ **التعب:** فمن أحبَّ جمع المال وادخاره ازداد تعباً في جسده ونفسيته، وذلك لأنَّه يتحوَّل إلى آلة لا تهدأ ليلاً ولا نهاراً، وهذا من المفارقات العجيبة الَّتي يعيشها النَّاس، حيث إنَّ بعضهم يتلف أعصابه وجسده ويهمل عائلته، وقد يصل بهم الأمر إلى عدم الذهاب إلى الطبيب للعلاج معلّلاً ذلك بالشغل والكسب، فبالتالي لا يرتاح في شبابه ـ لأنَّه أتلفه بالعمل ـ ولا في شيخوخته لما يعاني من أمراض الشيخوخة.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٢، ص١٤٩.
(٢) نور الثقلين: ج٤، ص١٤٤.
(٣) عيون الحكم والمواعظ، ص٤٠.

عن الإمام علي عليه السلام: «المال داعية التَّعب، ومطيَّةُ النَّصب»[١].

عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «من أصاب من الدُّنيا أكثر، كان فيها أشدَّ فقراً؛ لأنَّه يفتقر إلى النَّاس في حفظ أمواله، ويفتقر إلى كلِّ آلةٍ من آلات الدُّنيا، فليس في غنى الدُّنيا راحةٌ، ولكنَّ الشَّيطان يوسوس إلى ابن آدم أنَّ له في جمع (ذلك) المال راحةً، وإنَّما يسوقه إلى التَّعب في الدُّنيا، والحساب عليه في الآخرة»[٢].

ز ـ الهمّ والحزن:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من كثر ماله كثر همُّه، ومن كثر همُّه افترق قلبه في أوديةٍ شتَّى، فلم يُبال الله عزَّ وجلَّ أيَّها سلك؛ ومن كان همُّه همّاً واحداً كفاه الله عزَّ وجلَّ هموم الدُّنيا»[٣].

الإمام علي عليه السلام: «بقدر القنية[٤] يتضاعف الحزن والغموم»[٥].

وعنه عليه السلام: «القنية ينبوع الأحزان».

ح ـ جوامع سلبيات المال:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ في جمع المال خمسة أشياء: العناء في جمعه، والشُّغل عن ذكر الله بإصلاحه، والخوف من سالبه وسارقه، واحتمال اسم البخل لنفسه، ومفارقة الصَّالحين لأجله. وفي تفريقه خمسة أشياء: راحة النَّفس من طلبه، والفراغ لذكر الله من حفظه،

---

(١) غرر الحكم: ١٤٤٩.
(٢) الخصال: ٦٤/٩٥ عن الزهير، بحار الأنوار: ٧٣/٩٢/٦٩.
(٣) إصلاح المال: ١٥٢/٢٣ عن ضمرة بن حبيب.
(٤) القنية: ما اكتسب، ومالٌ قنيان: اتَّخذته لنفسك (لسان العرب: ١٥/٢٠١).
(٥) غرر الحكم: ٤٢٧٨.

والأمن من سالبه وسارقه، واكتساب اسم الكرام لنفسه، ومصاحبة الصَّالحين»[١].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص: قال رسول الله ﷺ: «إذا فتحت عليكم فارس والرُّوم، أيُّ قوم أنتم؟ قال عبد الرَّحمٰن بن عوفٍ: نقول كما أمرنا الله، قال رسول الله ﷺ: أو غير ذلك؛ تتنافسون، ثمَّ تتحاسدون، ثمَّ تتدابرون، ثمَّ تتباغضون، أو نحو ذلك، ثمَّ تنطلقون في مساكين المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقاب بعضٍ»[٢].

عن الإمام علي عليه السلام ـ في الحكم المنسوبة إليه ـ: «في المال ثلاث خصالٍ مذمومةٍ: إمَّا أن يُكتسب من غير حلِّه، أو يُمنع إنفاقه في حقِّه، أو يشغل بإصلاحه عن عبادة الله تعالى»[٣].

وعن الإمام الرِّضا عليه السلام: «لا يجتمع المال إلَّا بخصالٍ خمسٍ: ببخلٍ شديدٍ، وأملٍ طويلٍ، وحرصٍ غالبٍ، وقطيعة الرَّحم، وإيثار الدُّنيا على الآخرة»[٤].

تأثير المال في حياة الأسر:

لا شك بأنَّ للمال دور كبير في حياة الأسرة فهو يساهم في سعادة الزوجة والأبناء وتأمين احتياجاتهم المادية والمعنوية، كما أنَّه قد يترك أثاراً سلبية من خلال الخلافات والمشاكل الَّتي قد تنشأ بسببه.

---

(١) التنمية الاقتصادية: ص٥٦٩.
(٢) المصدر نفسه: ٥٧٠.
(٣) المصدر نفسه: ص٥٠٩.
(٤) المصدر نفسه.

في العلاقة الزوجية:

يشكل المال في العلاقة الزوجية عاملاً مهماً من عوامل قيمومة الرجل على المرأة، وذلك من خلال النفقة الَّتي أُلقيت على عاتق الزوج، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النِّساء: ٣٤].

فالمال عامل من عوامل النفوذ داخل الأسرة، فمن كان ماله أكثر كان نفوذه أقوى، ولذا نجد أنَّ سلطة الرجل تضعف إذا كان فقيراً، وعلى الأقل فإنَّه يشعر بانخفاض قيمته أمام المرأة.

فعلى الزوجة الَّتي تنفق على زوجها أن تحرص على عدم إهانة الزوج في مثل هذه الحالة وأن تخفي نفوذها وهيمنتها.

يقول بعض علماء النَّفس: «البطالة تؤدِّي إلى نقص المال وتحديد النفقات داخل الأسرة، وهذا الوضع يترتب عليه أعباء عاطفية إضافية بين الشريكين حيث إنَّهما يبقيان مع بعضهما طوال الوقت ولا يخرجان من البيت إلَّا قليلاً، فمع مرور الزمن يقلُّ الحوار بينهما ويحصل التباعد».

كما أنَّ المال قد يساهم في عدم ارتباط الزوجة بزوجها، ولذا نجد أنَّ المرأة الَّتي تملك مالاً ـ من خلال العمل أو ميراث الوالدين ـ قد لا تجد نفسها بحاجة للارتباط بزوجها، ولذا ترى الطلاق سهلاً، دون غيرها من النِّساء اللواتي يحتجن للرجل.

وقد أكدت الدراسات أنَّ معظم حالات الطلاق يتقدَّم بها نساء عاملات أو موظفات لكونهن يتمتعن باستقلال مادي يغنيهن من الاستناد إلى أزواجهن.

ويعود سبب ارتباط الزوجة بزوجها ـ من خلال المال ـ إلى أنّها تشعر في ذلك بالأمان والاستقرار والتقدير.

«وهذا ما يُفسّر عناد بعض المُطلّقات بطلب النفقة الّتي لا يحتجن إليها، فإنّها وسيلة لفرض وجودهن على الرجل الّذي تخلى عنهن، كما أنّها وسيلة للتنفيس عن الحقد والكراهية، وهذا ما يُفسّر أيضاً تعمد الهدر والتبذير من مال الزوج».

ومن طبيعة المرأة أنّها تحب الزوج الّذي يكون سخياً في صرف المال عليها وعلى أولادها، وتكره الرجل البخيل الّذي يعطي المال بالتقطير، ولهذا ورد الحثّ على التوسعة على العيال، عن الإمام علي عليه السلام: «ينبغي للرجل أن يُوسّع على عياله لئلّا يتمنوا موته»[١].

وهذا لا يعني أنَّ على الرجل أن يكون مُسرفاً ومبذِّراً في المال، فقد ورد عن الإمام الرِّضا عليه السلام أنّه قال: «ولتكن نفقتك على نفسك وعيالك قصداً»[٢].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لابن مسعود: «لا تحملنّك الشفقة على أهلك وولدك على الدخول في المعاصي والحرام»[٣].

وقد لوحظ أنَّ بعض المشاكل الأسرية سببها كثرة شكوى المرأة وتذمّرها من ضيق الوضع المالي أو تكليف الزوج ما لا يطيق بحجَّة أنَّها تريد أن تكون كغيرها من النِّساء اللواتي يملكن مالاً أكثر، فتهلك نفسها وزوجها من خلال الحسد والغيرة وحب المباهاة بين النَّاس وهذا الأمر يستدعي بالرجل أن لا يعطي الزوجة مالاً إلّا قليلاً بحجَّة أنَّها مبذِّرة ولا

---

(١) لآلئ الأخبار: ج٣، ص٢٦٨.
(٢) المستدرك: ج٢، ص٤٢٢.
(٣) بحار الأنوار: ج١٧، ص٣٣.

تعرف كيف تضع الأموال في محلها، وفي هذا ما لا يُحمد عقباه، وقد أشار النبي محمَّد ﷺ إلى هذا الحال بقوله من أحوال آخر الزَّمان: «... يُعيِّرونه لضيق المعيشة ويكلِّفونه ما لا يطيق حتَّى يوردونه موارد الهلكة»[١].

تأثير المال في العلاقة بين الوالد والولد:

يمثل المال عاملاً من عوامل الارتباط بين الوالد والولد، فالولد يرى حاجته إلى أبيه بحيث لا يمكنه الانفصال عنه إلَّا إذا استغنى، والوالد يرى أنَّ المال هو الوسيلة الفعَّالة لربط الولد به، وهذا ما نجده واضحاً في عدم إعطاء الوالد لأولاده في حياته الأموال والأراضي بل يتركها ميراثاً بعد وفاته وذلك لأنَّه يدرك مسبقاً أنَّ إعطاءه المال يعني انفصال الولد عنه.

يقول بعض علماء النَّفس: «هناك رغبة في الاحتفاظ بالثروة ضمن إطار العائلة نفسها إذ يشعر معظم الأثرياء برغبة قوية بنقل ثرواتهم إلى أولادهم من بعدهم، ولكي تبقى هذه الثروة لا بدَّ أن يوجد وارثون وإلَّا ذهبت الثروة على شكل مؤسسات وهبات».

وعندما ندقق في العلاقة المالية بين الوالد والولد نجد أنَّ الوالد يضحِّي تلقائياً بكل ماله من أجل ولده بينما لا نجد العكس.

وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «ابنك يأكلك صغيراً ويرثك كبيراً»[٢].

لذا ينبغي على الولد أن يردّ الجميل لوالده في الكبر فلا يهمله ويتركه يتضوَّر جوعاً.

---

(١) سفينة البحار: مادة «عزب».

(٢) ألف حكمة: ص١٢٨.

وفي الرواية أنَّ رجلاً شكا أباه إلى النبي ﷺ وقال له: إنَّه أخذ مالي فاستدعاه النبي ﷺ فإذا هو شيخ يتوكأ على عصاه وكان الرجل قد آلمته شكوى ابنه، فخاطب نفسه بكلام لم تنفرد عنه شفتاه، ولم تسمعه أذناه، فنزل جبرائيل على النبي ﷺ يأمره أن يسأل الرجل عمَّا حدَّث به نفسه قبل أن ينظر في شكوى ابنه، فلمَّا سأله قال الرجل: والله لا يزيدنا الله بك إلَّا إيماناً وتصديقاً لقد قلت أُناجي ابني:

غدوتك مولوداً ووقيتك يافعاً	تعلُ بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلة خافتك السقم لم أبت	لسقمك إلَّا شاكياً أتململ
كأنِّي أنا المطروق دونك بالَّذي	طُرقت به فعيناي تهمل
فلما بلغتُ السن والغاية الَّتي	إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمّل
جعلت جزائي غلظةً وفظاظةً	كأنَّك أنت المنعمُ المتفضّل
فليتك إذ لم ترع حقّ أبوتي	فعلت كما الجار المجاور يفعل

فلما سمع النبي ذلك اغرورقت عيناه بالدموع، وأضاف الرجل إلى ذلك: إنَّ ابني كان ضعيفاً وأنا قوي، وفقيراً وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي، واليوم أصبحت ضعيفاً وهو قوي، وفقيراً وهو غني، ويبخل عليَّ بماله، فبكى النبي وقال:

ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلَّا بكى، والتفت إلى الولد وقال: «أنت ومالك لأبيك»(١).

تأثير المال في العلاقة بين الاخوة:

يساهم المال في ارتباط الاخوة فيما بينهم، حيث يساعد بعضهم بعضاً فتتقوى الأواصر فيما بينهم.

---

(١) شرح رسالة الحقوق: ج١، ص٥٦٩.

وقد يتحول المال إلى مصدر المشاكل والخلافات، وذلك من خلال:

١ ـ **الحسد**: فقد يفضّل الوالد أو الوالدة ولد على آخر بسبب إنفاقه على الأسرة ممَّا يولِّد الحسد في نفس الآخرين.

٢ ـ **توزيع الميراث**: فإذا لم يكن هناك عدالة في توزيع الميراث، بأن حُرم البعض أو أخذوا أقل من حقهم الطبيعي حصل الخلاف والخصام والمعاداة، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «اعدلوا بين أولادكم كما تُحبُّون أن يعدلوا بينكم في البرّ واللطف».

ورُوي أنَّ رجلاً أعطى ولده وجاء إلى النبي ﷺ ليشهد له فقال له ﷺ: «أعطيت كل ولدك مثل هذا؟ قال: لا، قال ﷺ: فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم، لا أشهد على جور»[١].

ولا شك أنَّ هذه الأُمور السلبية تؤدِّي إلى تفكك الأسرة وزيادة العداوة بين الاخوة وأبنائهم وفي ذلك ضياع للجميع.

دخل رجل على زياد فقال: إنَّ أبينا قد هلك وإنَّ أخينا غصبنا ميراثنا فقال له: ما ضيّعت من نفسك أكثر ممَّا ضاع من مالك[٢].

تأثير المال في المجتمع:

تتلخص آثار المال في الحياة الاجتماعية بأُمور:

١ ـ المال أداة النفوذ الاجتماعي:

فقد صار المال في هذه الأيَّام معياراً للاحترام والتقدير، وعنصراً

---

(١) كنز العمال، ج١٦ ص٥٨٥.
(٢) بهج الصباغة: ج١٤، ص٤٦١.

مهماً في الوصول إلى السلطة ونيل الألقاب، بل قد يرى البعض أنَّ النجاح المادي دليلاً على رضى الله تعالى وفي ذلك بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

ولذلك نجد أنَّ البعض ـ وإظهاراً للتفوق على الآخرين ـ يحاولوا أن يسرفوا في صرف الأموال على بيوتهم وسياراتهم ولباسهم وحفلاتهم وغير ذلك حتَّى يظهروا بمظهر القوي المتفوق على غيره.

وقد يحدو بالبعض إلى ترك الاختلاط بأصدقائه وأقربائه ـ لأنَّهم في نظره ليسوا في مستواه الاجتماعي ـ وإيجاد طبقة اجتماعية متناسبة مع وضعه الحالي.

ومنعاً لصيرورة المال معياراً للنفوذ الاجتماعي فقد نهى الدِّين عن احترام النَّاس لغناهم.

عن رسول الله ﷺ: «لعن الله من أكرم الغني لغناه، ولعن الله من أهان الفقير لفقره»[1].

٢ ـ التباين سبب التحاسد:

يؤدِّي التباين الكبير بين الأغنياء والفقراء إلى نشوء الحسد والحقد، وذلك لأنَّ الغني يرى نفسه أرفع شأناً من الفقير، والفقير يرى أنَّ الغني سبب في فقره.

رُوي أنَّ غنياً جاء إلى رسول الله ﷺ فجلس، فجاء فقير وجلس بجنبه فقبض الغني ثوبه عن الفقير، فقال رسول الله ﷺ له: «أخفت أن يمسّك من فقره بشيء؟ قال: لا قال ﷺ: فخفت أن يصيبه من غناك شيء؟ قال: لا. قال ﷺ: فخفت أن يوسّخ ثوبك؟ قال: لا،

---

(١) التنمية الاقتصادية: ص٥٨١.

قال ﷺ: فما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله إنَّ لي قريناً يزيِّن كل قبيح، ويقبِّح لي كل حسن، وقد جعلت له نصف مالي، فقال النبي ﷺ للفقير: أتقبل؟ قال: لا، قال الغني: لِمَ؟ قال: أخاف أن يدخلني ما دخلك»[١].

ولذا أمر الإسلام الأغنياء بمساعدة الفقراء من خلال الزكاة والخمس والصدقات، عن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلَّا بما متع به غني، والله سائلهم عن ذلك»[٢]، ومن لطيف ما حُكي: أنَّ رجلاً رأى غنياً يشكو من وجع بطنه لكثرة ما أكل، ثمَّ رأى فقيراً يشكو من وجع بطنه لفقره فقال: لو أعطى هذا فضلة طعامه لذاك لصلحت معدة هذا وذاك.

٣ ـ سبب الخلافات:

وذلك لأنَّ الغالب في الخصومة والعداوة بين النَّاس يعود إلى المال، فرجل يعتدي على أرض جاره، وآخر يغش في بيعه، وثالث يمنع حق جاره، ورابع يقترض ولا يردّ المال[٣]، وهكذا.

عن رسول الله ﷺ: «تقيءُ الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذَّهب والفضَّة، فيجيءُ القاتل فيقول: في هذا قُتلت، ويجيءُ القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيءُ السَّارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثمَّ يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»[٤].

(١) ميزان الحكمة: مادة «غني».
(٢) ميزان الحكمة: مادة «غني».
(٣) ألف حكمة: ص١٢٩. عن الإمام علي عليه السلام: «من أحب أن يصرم أخاه فليقرضه ثمَّ ليقاضه».
(٤) التنمية الاقتصادية: ص٥٣١.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّ عيسى ابن مريم عليه السلام توجَّه في بعض حوائجه ومعه ثلاثة نفرٍ من أصحابه، فمرَّ بلبناتٍ ثلاثٍ من ذهبٍ على ظهر الطَّريق، فقال عيسى عليه السلام لأصحابه: إنَّ هذا يقتل النَّاس! ثمَّ مضى، فقال أحدهم: إنَّ لي حاجةً، فانصرف، ثمَّ قال آخر: إنَّ لي حاجةً فانصرف، ثمَّ قال الآخر: لي حاجةٌ فانصرف. فوافوا عند الذَّهب ثلاثتهم، فقال اثنان لواحدٍ: اشترِ لنا طعاماً. فذهب يشتري لهما طعاماً، فجعل فيه سمّاً ليقتلهما كي لا يشاركاه في الذَّهب، وقال الاثنان: إذا جاء قتلناه كي لا يشاركنا. فلمَّا جاء قاما إليه فقتلاه، ثمَّ تغدَّيا فماتا.

فرجع إليهم عيسى عليه السلام وهم موتى حوله، فأحياهم بإذن الله ـ تعالى ذكره ـ ثمَّ قال: ألم أقل لكم: إنَّ هذا يقتل النَّاس؟!»[١].

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا فُتحت عليكم فارس والرُّوم، أيُّ قومٍ أنتم؟ قال عبد الرَّحمٰن بن عوفٍ: نقول كما أمرنا الله. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أو غير ذلك؛ تتنافسون، ثمَّ تتحاسدون، ثمَّ تتدابرون، ثمَّ تتباغضون، أو نحو ذلك، ثمَّ تنطلقون في مساكين المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقاب بعضٍ»[٢].

٤ ـ سبب الأزمات:

إنَّ من أهم أسباب الأزمات الاجتماعية والإنسانية هو المال، فمن أزمات النقد إلى أزمات الأُجور والأسعار، إلى أزمات البطالة والعمل، إلى أزمات الدَّين والفائدة، إلى أزمات الحرب والمجاعة، إلى غير ذلك.

---

(١) المصدر نفسه: ص٥٤٣.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٦٩.

الحاجة والاستغناء

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«احتج إلى منْ شئت تكن أسيره، واستغنِ عمَّن شئت تكن نظيره، وأفضل على منْ شئت تكن أميره»[١].

* * *

تُعتبر هذه الكلمات العظيمة من أهم القواعد الَّتي ترسم للإنسان ـ كفرد ومجتمع ـ معاني القوَّة والعزَّة والحرية والكرامة، وبيان ذلك:

«احتج إلىٰ منْ شئت تكُن أسيره»:

حاجة الفرد:

لا شكّ بأنَّ الإنسان محتاج إلى أخيه الإنسان، فلا يمكن أن تقوم الحياة إلَّا بالتعاون بين النَّاس، فالطبيب بحاجة إلىٰ المزارع، والمزارع بحاجة إلى العالم وهكذا، ولذا لمَّا سمع الإمام السجَّاد عليه السلام أحدهم يقول: «اللَّهمَّ اغنني عن خلقك، قال له عليه السلام: ليس هكذا، إنَّما النَّاس بالنَّاس ولكن قل: اللَّهمَّ اغنني عن شرار خلقك».

لكن الحاجة المذمومة هي ما كانت عن ضعف وفقر وهوان لأنَّ

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٧، ص٤٢١.

الحاجة ـ بهذا المعنى ـ تؤدِّي بالإنسان إلى الارتهان والأسر لدى الآخرين، فالمحتاج إلى رئيس الشركة يتصرف معه بالتملق والذل، والمحتاج إلى حزب معين ينقاد له انقياد الأعمى وقد يضطر للتنازل عن مبادئه وأخلاقه وهكذا الحال في بقية الأُمور...

حاجة الأُمَّة:

وهكذا الحال في حاجة الأُمَّة إلى غيرها، فالأُمَّة الَّتي تطلب العون ـ عسكرياً أو اقتصادياً ـ تصبح أسيرة لغيرها... ولذا ورد: عن الإمام علي عليه السلام: «من احتجت إليه هنت عليه»[1].

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «طلب الحوائج إلى النَّاس استلاب للعزَّة ومذهبة للحياء».

كما أنَّ المحتاج مبُتلى في أخلاقه إذ إنَّه يتعامل مع النَّاس بحسب هواه، فإن سأل ولم يُعْطَ فإنَّه يذمّ وإن أُعطي صار يمدح، ولذا جاء في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: «اللَّهمَّ صلِّ على محمَّد وآله وحصِّن وجهي باليسار ولا تبتذل جاهي بالإقتار، فأسترزق أهل رزقك وأستعطي شرار خلقك، فأفتتن بمدح من أعطاني وأبتلى بذمّ من منعني، وأنت من دونهم ولي الإعطاء والمنع».

وخروجاً عن الحاجة الَّتي تأسر الإنسان فقد أمر النَّبي والأئمَّة عليهم السلام بالاستغناء عن النَّاس مع دوام المعاملة معهم، فعن الإمام علي عليه السلام: «ليجتمع في قلبك الافتقار إلى النَّاس والاستغناء عنهم».

فالافتقار: في ضرورة الحاجة الاجتماعية والتواصل والتزاور... والاستغناء: في المال وما أشبه.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص٤٦٠.

«واستغن عمَّنْ شئت تكن نظيره»:

فالإنسان الَّذي يستغني عن غيره يعيش بعزّته وكرامته... والأُمَّة الَّتي تستغني عن غيرها هي أُمَّة مُحصَّنة وقوية، فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «... واليأس ممَّا في أيدي النَّاس عزّ للمؤمن في دينه».

والاستغناء: يتحقق بالعلم والعمل في كافة المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية... عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله يُحبُّ العبد أن يتخذ المهنة ليستغني بها عن النَّاس».

ولذا كان الأنبياء والرُّسل والأئمَّة عليهم السلام يعملون في شتَّىٰ مجالات الحياة كالزراعة والصناعة والتجارة بل وبعضهم كان يرعى الغنم ويعمل أجيراً...

ومن هنا نجد أنَّ النَّبي محمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم عمل ـ بعد خروجه إلى المدينة المنوَّرة ـ على تربية المسلمين على الاستغناء عن الآخرين، فعلى الصعيد الفردي كان ينهى عن السؤال فقد رُوي أنَّه «جعل مبايعة النَّاس له على أن يعبدوا الله ويصلّوا ويطيعوا ولا يسألوا النَّاس شيئاً»[1].

رُوي أنَّ رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليسأله المال فسمعه يقول: «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله» فانصرف ولم يسأله، ثمَّ عاد إليه فسمعه يقول مثل مقالته فلم يسأله حتَّى فعل ذلك ثلاثاً، فلمَّا كان اليوم الثالث مضى فاستعار فأساً وصعد الجبل فاحتطب وحمله إلى السوق فباعه بنصف صاع من شعير فأكله وعياله ثمَّ دام على ذلك حتَّى جمع مالاً فاشترى فأساً ثمَّ اشترى بكرين وغلاماً... ثمَّ ذهب إلى

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٧، ص٢٢٣.

رسول الله ﷺ وأخبره فقال ﷺ: أليس قد قلنا «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله»(١).

وأمّا على الصعيد الاجتماعي فقد أمر المسلمين بالتعلم ـ وذلك بعد معركة بدر حيث كان يطلق أسرى المشركين مقابل تعليمهم المسلمين ـ وأمرهم بصناعة السلاح ـ والاستغناء عن اليهود وغيرهم.

وهكذا كان حال الأئمّة عليهم السلام مع شيعتهم فقد رُوي عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «لمّا حضرت أبي الوفاة قال: يا جعفر أُوصيك بأصحابي خيراً قلت: جُعلت فداك والله لأدّعنهم والرجل معهم يكون في المصر فلا يسأل أحداً»(٢).

وقد جسّد الأئمّة عليهم السلام هذا المعنى فقد رُوي: أنَّ الإمام عليّاً عليه السلام مرَّ بقصّاب فقال له: يا أمير المؤمنين هذا اللحم سمين اشتر منه فقال عليه السلام: ليس الثمن حاضراً فقال القصّاب: أنا أصبر على الثمن، فقال عليه السلام: وأنا أصبر على اللّحم»(٣).

ورُوي أنَّ الإمام الباقر عليه السلام كان في ساعة حارَّة يتصبب عرقاً، فقيل له: شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة؟! فكيف لو جاء أجلك وأنت على هذه الحال؟ فقال عليه السلام: لو جاءني الموت جاءني وأنا في طاعة الله أكفُّ بها نفسي وعيالي عنك وعن النَّاس».

وبعد الاستغناء عن النَّاس يأتي دور العطاء للآخرين، فعنه عليه السلام:

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٢٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٤٧، ص١٣.
(٣) أخلاقيات أمير المؤمنين: ص٣٥٩.

«وأمنن على منْ شئت تكن أميره»:

فمنْ منَّ على النَّاس بعلمه أو ماله أو جاهه، فهو أمير عليهم وذو فضل، ذلك لأنَّه يؤثِّر في قلوبهم فقد «جُبلت القلوب على حبِّ من أحسن إليها».

عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «الأيدي ثلاثة: يد الله العليا، ويد المُعطِي الَّتي تليها، ويد المُعطَى أسفل الأيدي، فاستعفوا عن السؤال ما استطعتم، والَّذي نفسي بيده لئن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب ثمَّ يدخل السوق فيبيعه خيرٌ له من أن يسأل النَّاس».



الفقر الموت الأكبر

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«الفقرُ الموت الأكبر»[١].

❊ ❊ ❊

يتحدَّث الخطباء في مناسبات الوفيات والعزاء حول الموت وما بعده من الجنَّة والنَّار، وقلَّما يتطرقون إلى ما هو أعظم منه وأكبر، أعني بذلك «الفقر» الَّذي هو الموت الأكبر في مقابل الموت الأصغر.

ذلك أنَّ الَّذي يفارق الحياة يتعرَّض لسكرات الموت ثمَّ يحيا في عالم آخر ملؤه السعادة والكرامة، أمَّا الَّذي يفتقر فإنَّه يتعرَّض في كل يوم لسكرات من نوع آخر، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الفقر أشدّ من القتل»[٢].

وعن الإمام علي عليه السلام: «شرّ من الموت، ما إذا نزل، تمنيّت بنزوله الموت».

أي إنَّ الأصعب من الموت، هو ما يهون بنزوله الموت، كموت

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ١٦٣.

(٢) التنمية الاقتصادية: ص٨٢.

الولد، فإنَّ الوالد يتمنَّى عنده الموت، وكفقد الحبيب، والعار، ومثله الفقر.

عن الإمام علي عليه السلام: «والقبر خير من الفقر»(١).

وللوقوف على هذا المعنى لا بدَّ أن نتوقف عند الكلام العلوي الشريف، ومراده عليه السلام من الفقر والكفر...

معنى الفقر:

الفقر في اللغة العربية هو الحاجة والفاقة والعوز، وهو ما ينطبق على أُمور منها ما هو ممدوح ومنها ما هو مذموم، ومن ذلك:

أوَّلاً: الفقر إلى الله تعالى: قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ ﴾ [فاطر: ١٥].

وعليه يكون معنى كلمة الإمام علي عليه السلام أنَّ الفقر إلى الله تعالى هو الموت الأكبر، وذلك لأنَّ فيه موت النَّفس الأمَّارة بالسوء وللتفصيل راجع موضوع «الأحياء والأموات».

وهذا هو الفقر الممدوح الَّذي ورد فيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «الفقر فخري»(٢).

وعن الإمام علي عليه السلام: «الفقر مخزون عند الله بمنزلة الشهادة، يؤتيه من يشاء»(٣).

وفي دعاء الإمام الحسين عليه السلام: «إلٰهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيراً في فقري».

---

(١) تحف العقول: ص٦٣.

(٢) التنمية الاقتصادية: ص١٠١.

(٣) المصدر نفسه: ١٠٣.

وفي الدُّعاء: «اللَّهمَّ اغنني بالافتقار إليك».

ثانياً: الفقر المعنوي: وهو العوز إلى الأخلاق الحسنة، عن رسول الله ﷺ: «إنَّما الغني غني القلب، والفقر فقر القلب».

وعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «فقر النَّفس شرّ الفقر»[١].

وعنه عليه السلام: «الفقر من الدِّين الشقاء الأكبر».

سُئل الإمام الصَّادق عليه السلام عن الموت الأحمر وهل أنَّه من الدِّينار والدِّرهم قال عليه السلام: لا ولكن من الدِّين»[٢].

وبهذا المعنى فإنَّ الحديث العلوي يعني أنَّ فقر النَّفس إلى الأخلاق هو موت نفسي ومعنوي، وهذا الموت أكبر من موت الجسد.

ثمَّ إنَّ الفقر المعنوي يجعل الإنسان يوم القيامة فقيراً من الحسنات، فعن رسول الله ﷺ: «أتدرون ما المفلس؟ فقيل: المُفلس فينا منْ لا درهم له ولا متاع له، فقال ﷺ: المُفلس من أُمَّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقْضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثمَّ طُرح في النَّار»[٣].

وعنه ﷺ: «الفقر فقران: فقر الدُّنيا وفقر الآخرة ففقر الدُّنيا غنى الآخرة، وغنى الدُّنيا فقر الآخرة، وذلك الهلاك».

---

(١) المصدر السابق: ص١١٥.

(٢) بهج الصباغة: ج١٤، ص٢٧٨.

(٣) ميزان الحكمة: مادة «الفقر»، ج٣ ص٢٤٤٤.

ولذا ورد عن الإمام علي عليه السلام: «الغنى والفقر بعد العرض على الله»[١].

ثالثاً: الفقر المادي: وهو الحاجة إلى المال، وهو «الموت الأكبر» وذلك لأنَّ الفقير يتجرَّع مرارات الموت المعنوي في كل يوم بل وفي كل لحظة، كما أنَّه يفقد الأمل في الحياة ـ كالموت الَّذي يقطع الحياة ـ.

آفات الفقر:

للفقر مساوىء وآفات دينيَّة ودنيويَّة تنعكس على حياة الفرد ـ عقلياً وروحياً وجسدياً ـ وحياة المجتمع...

أمَّا من الناحية الدِّينيَّة: فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «كاد الفقر أن يكون كُفراً» وذلك لأنَّ الفقير قد يعترض على ربّه ويتهمه في تدبيره وقضائه وقدره، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦].

كما أنَّ صاحب البطن الجائعة لا يستطيع أن يعبد الله تعالى، ولذا نجد في سورة الإيلاف أنَّ الله تعالى أمر النَّاس بالعبادة بعد أن أطعمهم من الجوع وآمنهم من الخوف، قال تعالى: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش: ٢-٤].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللَّهمَّ بارك لنا في الخبز، ولا تفرِّق بيننا وبينه، فلولا الخبز ما صمنا ولا صلّينا، ولا أدّينا فرائض ربّنا»[٢].

---

(١) نهج البلاغة، حكمة ٤٥٢.

(٢) سفينة البحار: مادة «خبز».

وقد يصل الأمر بالفقير للسرقة أو الغش وغير ذلك من وسائل الحرام فعن الإمام علي عليه السلام: «لا تَلُم إنساناً يطلب قوته، فمن عَدِم قوته كثرت خطاياه»[١].

أمّا من الناحية الدنيويّة: فالفقير يعيش الهموم والأحزان والقلق والخوف على مستقبل حياته وعائلته.

عن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ الفقر مذلّة للنّفس، مدهشة للعقل، جالب للهموم».

ومن الناحية الاجتماعية: فإنَّ الفقير ينعزل عن النَّاس ويهون عليهم.

فعن الإمام علي عليه السلام: «من أثرى كُرم على أهله، ومن أملق هان على ولده»[٢].

وفي الديوان المنسوب له عليه السلام:

مساكين أهل الفقر حتّى قبورهم   عليها تراب الذل بين المقابر

وعنه عليه السلام: «إذا أيسرت فكل الرِّجال رجالك، وإذا أعسرت أنكرك أهلك».

كما أنَّ في الفقر تظهر عيوب الفقير بخلاف الغني.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الفقر والجهل يكشفان كل عيب»[٣].

عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال لولده الإمام الحسن عليه السلام: «يا بنيَّ،

(١) التنمية الاقتصادية: ص٩١.
(٢) المصدر نفسه: ص٩١.
(٣) المصدر نفسه: ص٩٣.

الفقير حقير، لا يُسمع كلامه ولا يُعرف مقامه، ولو كان الفقير صادقاً يسمّونه كاذباً ولو كان زاهداً يسمّونه جاهلاً.

يا بُنيّ منْ ابُتلي بالفقر فقد ابتُلي بأربع خصال: بالضعف في يقينه، والنقصان في عقله، والرّقة في دينه، وقلّة الحياء في وجهه، فنعوذ بالله من الفقر»[١].

علاج الفقر:

لكل ذلك فقد حارب الإسلام الفقر وأسبابه ـ كما حارب الكفر وأسبابه ـ وعمل على رفع الفقر بين النّاس حتّى ورد عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «لو كان الفقر رجلاً لقتلته» ومن وسائل معالجة الفقر:

توصيات للفقراء:

أوّلاً: أن يعلم الفقير أنَّ الفقر ليس دليلاً على غضب الله عليه: كما أنَّ الغنى ليس دليلاً على رضى الله تعالىٰ عنه.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

ثانياً: أن يضع نُصب عينيه أنَّ ما عنده من ولاية أهل البيت عليهم السلام هي أغنى الغنى.

ففي الحديث: «أنَّ رجلاً شكى للإمام الصَّادق عليه السلام ما نزل به من صروف الدَّهر وتقلبات اللّيالي والأيَّام، فقال له الإمام عليه السلام: بما تعدل ولايتنا؟ فقال الرجل: لا أعدلها بالدُّنيا وما فيها، فقال الإمام عليه السلام: إنَّك تخرج من هنا وبيدك درَّة لا تعدلها بالدُّنيا وما فيها ثمَّ تشكو؟»[٢].

---

(١) التنمية الاقتصادية: ص٩٤.

(٢) رسالة أبوية للمغتربين: ص٣٥.

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «الفقر معنا، خيرٌ من الغنى مع غيرنا»[١].

ثالثاً: أن يقنع بما عنده.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «منْ قنع بما رزقه الله فهو من أغنى النَّاس».

وعنه عليه السلام: «إيَّاك أن يطمح بصرك إلى من هو فوقك فكفى بما قال الله تعالى لنبيّه: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣١]، فإنَّ دخلك من ذلك شيء فاذكر عيش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنَّما كان قوته الشعير وحلواه التمر، ووقوده السعف إذا وجده»[٢].

وقد ذكر القرآن الكريم لنا حال بعض بني إسرائيل الَّذين بُهروا بأموال قارون فقال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: ٨٢].

قال الشاعر:

هي القناعة فاحفظها تكن ملكاً ... ولو لم تكن لك إلَّا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدُّنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

رابعاً: أن يتدبَّر في الأحاديث الَّتي تمدح الفقر، منها:

أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصَّالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنب عُجّلت عقوبته».

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «الفقر»، ج٣ ص٢٤٤٥.
(٢) أخلاق أهل البيت عليهم السلام: ص٤٩.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «والله ما اعتذر الله إلى ملك مقرَّب، ولا نبيّ مرسل، إلَّا إلى فقراء شيعتنا، قيل له: وكيف يعتذر لهم؟ قال: ينادي منادٍ: أين فقراء المؤمنين؟ فيقوم عنق من النَّاس فيتجلَّىٰ لهم الرَّبُّ فيقول: وعزَّتي وجلالي وآلائي وارتفاع مكاني ما حبست عنكم شهواتكم في دار الدُّنيا هواناً بكم عليّ ولكن ذخرته لكم لهذا اليوم، أما ترى قوله: ما حبست عنكم شهواتكم في دار الدُّنيا اعتذاراً؟ قوموا اليوم فتصفَّحوا وجوه خلائقي، فمن وجدتم له عليكم منَّة بشربة من ماء فكافأوه عنِّي بالجنَّة».

خامساً: أن لا يشكو إلى أحد من النَّاس: لأنَّه بذلك يشكو الله تعالىٰ ويهون في أعين النَّاس بل ليكن مظهره دالّاً على الغنى، فإنَّ من صفات المؤمنين أنَّهم ﴿...يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وفي وصية لقمان لولده: «فإن افتقرت يوماً فاجعل فقرك بينك وبين الله، ولا تُحدِّث النَّاس بفقرك فتهون عليهم»[(١)].

سادساً: أن يعمل ليستغني عن النَّاس: ففي الحديث: «منْ وجد ماءً وأرضاً ثمَّ افتقر فعليه لعنة الله».

عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: «اشتدت حال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله فقالت له امرأته: لو أتيت رسول الله فسألته (أي طلبت منه المال) فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فلمَّا رآه النبي صلى الله عليه وآله قال: منْ سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله، فقال الرجل: ما يعني غيري، فرجع إلى امرأته فأعلمها، فقالت: إنَّ رسول الله بشر، فأعلمه، فأتاه فلمَّا رآه

(١) ميزان الحكمة: «مادة «فقر»، ج٣ ص٢٤٤٢.

رسول الله ﷺ قال: منْ سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله، حتَّى فعل الرجل ما ذكرته ثلاثاً، ثمَّ ذهب الرجل فاستعار معولاً، ثمَّ أتى إلى الجبل فصعده فقطع حطباً، ثمَّ جاء به فباعه بنصف مدّ من دقيق فرجع فأكلوه، ثمَّ ذهب في الغد فصعده فجاء بأكثر من ذلك فباعه فلم يزل يعمل ويجمع حتَّى اشترى معولاً ثمَّ جمع حتَّى اشترى بكرين وغلاماً ثمَّ أثرىٰ حتَّى أيسر فجاء النبي ﷺ فأعلمه كيف جاء يسأله وكيف سمع النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: قد قلت لك: منْ سألنا أعطيناه ومنْ استغنى أغناه الله»[1].

سابعاً: أن يصبر: لأنَّ الفقر من دون الصبر يؤدِّي إلى الكفر.

رُوي أنَّ الله أوحى إلى إبرهيم عليه السلام: «لو ابتليتك بالفقر ورفعت عنك الصبر فما تصنع؟ قال: يا رب الفقر إليَّ أشدّ من نار نمرود»[2].

وقال الشاعر:

عـلـيـك بـتـقـوى الـلَّـه إن كُـنـتَ غـافِـلاً
يـأتـيـكَ بـالأرزاقِ مِـن حـيـثُ لا تـدْري

فـكـيـفَ تـخـافُ الـفـقـرَ والـلَّـهُ رَازقـاً
فـقـدْ رزقَ الـطَّـيـرَ والـحُـوتَ فـي الـبَـحـرِ

مَـنْ ظـنَّ أنَّ الـرِّزقَ يـأتـي بـقـوَّةٍ
مـا أكـلَ الـعـصـفـورُ شـيـئـاً مـع الـنِّـسْـرِ

تـزولُ عـن الـدُّنـيـا فـإنَّـك لا تـدري
إذا جنَّ عليكَ اللَّيلُ هلْ تعيشُ إلى الفجرِ

---

(١) التغيير لإنقاذ المسلمين: ص٧٤.
(٢) التنمية الاقتصادية: ص٨٢.

فكَمْ مِنْ صحيحٍ ماتَ مِنْ غيرِ علَّةٍ
وكَمْ مِنْ سقيمٍ عاشَ حيناً منَ الدَّهرِ
وكَمْ مِنْ فتىً أمسىٰ وأصبحَ ضاحكاً
وأكفانهُ في الغيبِ تُنسجُ وهوَ لا يدرِي
فمن عاشَ ألفاً وألفينِ
فلاَ بدَّ من يومٍ يسيرُ إلى القبرِ

ثامناً: عدم الكسل:

فقد ورد عن الإمام عليّ عليه السلام أنَّه قال: «ازدوج الكسل والعجز فنتج الفقر»[١].

تاسعاً: حسن التدبير:

وذلك لأنَّ سوء التدبير يؤدِّي إلى الإسراف والتبذير.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما أخافُ على أُمَّتي الفقر، ولكن أخافُ عليهم سوء التَّدبير»[٢].

وعن الإمام علي عليه السلام: «سوءُ التَّدبير مفتاح الفقر»[٣].

وعنه عليه السلام: «آفةُ المعاش سوء التَّدبير»[٤].

وعنه عليه السلام: «يستدلُّ على الإدبار بأربعٍ: سوء التَّدبير، وقبح التَّبذير، وقلَّة الاعتبار، وكثرة الاعتذار»[٥].

---

(١) تحف العقول: ص١١٩.
(٢) عوالي اللآلي: ٤/ ٣٩/ ١٣٤.
(٣) غرر الحكم: ٥٥٧٢.
(٤) غرر الحكم: ٣٩٦٥.
(٥) غرر الحكم: ١٠٩٥٨.

وعنه عليه السلام: «حسن التَّدبير ينمي قليل المال، وسوء التَّدبير يفني كثيره»[١].

عاشراً: السعي:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «اسع على عيالك وإيَّاك أن يكونوا هم السعاة عليك»[٢].

أي لا تكسل عن العمل وتتكل على أولادك ليعينوك.

توصيات للمجتمع:

التكافل الاجتماعي:

وذلك بمساعدة الأغنياء للفقراء، والأقوياء للضعفاء، وتأمين فرص العمل ورفع البطالة، وسدّ الحاجات، وهذه المسؤولية تقع على عاتق الأغنياء المقتدرين، ولو قصَّروا في ذلك لحاسبهم ربّ العالمين، لأنَّ تقصيرهم يؤدِّي إلى تفشِّي الفقر وما يتبعه من مساوىء، وبالتالي فإنَّهم مسؤولون عن كفر الفقير وسرقته وشقاءه.

فعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء قوت الفقراء، فما جاع فقير إلَّا بما مُتِّع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك»[٣].

ولذا حارب الإمام علي عليه السلام البخل وخصوصاً عند الأغنياء، لأنَّ البخل سبب منع العطاء، فعنه عليه السلام: «... وإذا بخل الغني بمعروفه باع الفقير آخرته بدُنياه»[٤].

---

(١) المصدر نفسه: ص١٢٤.
(٢) ميزان الحكمة، ج١ ص٣٢٤.
(٣) نهج البلاغة: الحكمة ٢٢٨.
(٤) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٥٣.

ومرَّ عليه السلام على مزبلة فقال: «هذا ما بخل به الباخلون»[١].

فكأنَّه يشير إلى أنَّ الفضلات الملقاة على الأرض لو أُعطيت للفقراء لصلح حال المجتمع، ومن لطيف ما يُذكر في هذا المجال أنَّ رجلاً مرَّ على غني يصرخ من وجع بطنه ثمَّ مرَّ على فقير كذلك فقال: يا سبحان الله لو أعطى هذا فضل ماله لهذا لصلحت معدة هذا وذاك.

وكما يقول الشيخ الوحيد حفظه الله حول تشريع الزكاة: «هذا التشريع المُقدَّس يطهِّر نفوس الأغنياء من كدورة البخل والحرص والطمع، ويطهِّر أموالهم من حقوق الفقراء الَّتي هي بمنزلة دمائهم فلا يُبتلى الغني بضغط الدَّم ولا الفقير بفقر الدَّم»[٢].

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من كان معه فضل من ظهر ـ مطية ومركب ـ فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له»[٣].

الإمام علي (ع) يحارب الفقر:

كان الإمام عليه السلام من أشدّ النَّاس محاربة للفقر وهو القائل: «لو كان الفقر رجلاً لقتلته»، ولذا كان من أولوياته ومبادئه الَّتي آمن بها وعمل لها، القضاء على الفقر والحرمان من خلال العدالة في التوزيع وما أشبه، وكان عليه السلام ملاذاً للفقراء وأباً رحيماً لهم حتَّى أنَّ بعض النَّاس كان يتمنَّى اليتم ليكون في عيالة الإمام علي عليه السلام.

ذكر الشيخ الحر العاملي رحمه الله في كتاب (وسائل الشيعة):

---

(١) الفكر الاقتصادي في نهج البلاغة: ص١٢٢.
(٢) منهاج الصَّالحين: ص٥٥٥.
(٣) نفحات محمَّديَّة: ص٥٧.

«إنَّ الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كان يمشي في سكك الكوفة، فنظر إلى رجل يستعطي النَّاس: فوجه الإمام السؤال إلى من حوله من النَّاس قائلاً:

ما هذا؟

فقالوا: إنَّه نصراني كبر وشاخ ولم يقدر على العمل، وليس له مال يعيش به...

فقال الإمام - في غضب ـ: «استعملتموه على شبابه حتَّى إذا كبر تركتموه ثمَّ أمر له بعطاء من بيت المال»[1].



(١) السياسة: ص٢٠٣.

البلاء

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة»[١].

* * *

البلاء سُنَّة إلٰهيَّة:

البلاء سُنَّة إلٰهيَّة عامَّة في حياة النَّاس دون استثناء، فهو يبدأ مع الإنسان منذ ولادته مروراً بطفولته وشبابه وشيخوخته حتَّى وفاته، وكما يقول القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد: ٤]، أي في تعب ومشقَّة وألم.

وعن الإمام الحسن عليه السلام: «لا أعلم خليقة تُكابد من الأمر ما يُكابد الإنسان، يُكابد مضايق الدُّنيا وشدائد الآخرة»[٢].

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ثلاثة أشياء لا ينبغي للعامل أن ينساها

(١) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٢٣٥.
(٢) الاختيار في تفسير القرآن بالآثار: ج٣، ص٩١.

على كلِّ حال: فناء الدُّنيا، وتصرّف الأحوال، والآفات الَّتي لا أمان لها»[١].

ولذا لما سمع الإمام علي عليه السلام رجلاً يقول لصاحبه: لا أراك الله مكروهاً قال له عليه السلام: «إنَّما دعوت له بالموت، لأنَّ من عاش في الدُّنيا لا بدَّ أن يرىٰ المكروه»[٢].

الابتلاء حكمة الخلق:

يصرِّح القرآن الكريم بأنَّ الهدف من خلق الإنسان والسَّموات والأرض وما عليها هو ابتلاء.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ [هود: ٧].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الكهف: ٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [المُلك: ٢].

ما هي أنواع البلاء؟

المتبادر إلى الذهن أنَّ البلاء يقع في الأُمور الَّتي تكرهها النَّفس الإنسانيَّة كالمرض والفقر إلَّا أنَّ القرآن الكريم يذكر أنَّ البلاء كما يتحقَّق بالأُمور المكروهة كذلك يتحقَّق بالأُمور المحبوبة.

قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ

---

(١) بحار الأنوار: ج١٧، ص١٨٣.

(٢) ألف حكمة: ص٦٩.

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥] ويقول الله تعالىٰ على لسان نبيه سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٨].

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ما بُلي العباد أشدّ عليهم من إخراج الدراهم»[١].

وعن الإمام علي عليه السلام: «ثلاث تُمتحن بها عقول الرِّجال هي: المال والولاية والمصيبة»[٢].

فلسفة الابتلاء:

فإذا كان البلاء سُنَّة إلٰهيَّة تشمل كلّ إنسان على وجه الأرض، فلا بدَّ أن نتساءل لماذا البلاء؟

الجواب: لا شكّ أنَّ الابتلاء لا يكون جُزافاً وإنَّما لحكمة إلٰهيَّة فقد ورد في الحديث القدسي: «وإنَّ من عبادي منْ لا يصلحه إلَّا الغنى ولو صرفته إلىٰ غير ذلك لهلك، وإنَّ من عبادي منْ لا يصلحه إلَّا الفقر ولو صرفته إلى غير ذلك لهلك»[٣].

إلَّا أنَّ سبب الابتلاء وأنواعه يختلف باختلاف الأشخاص، فكما أنَّ الَّذي يدرّب كتيبة من الجيش يعاملهم بأشكال متنوعة، فمنهم مَنْ يُعذّب في التدريب كي يتأدَّب، ومنهم منْ يُمتحن أكثر من غيره كي

---

(١) ميزان الحكمة.
(٢) ميزان الحكمة: مادّة «الامتحان».
(٣) الأربعون حديثاً: ص٥١٦.

يرتفع درجة في الجيش. كذلك بلاء النَّاس، ولذا يقول الإمام علي عليه السلام:

«البلاء للظالم أدب»:

فالظالم قد يُبتلى بالفقر والمرض وفقد العزيز كي يُجازىٰ علىٰ أفعاله السيِّئة، ويعود إلىٰ رشده وصوابه.

ورد في إحدى خطب نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ الله يبتلي عباده عند الأعمال السيِّئة بنقْص الثمرات وحبْس البركات وإغلاق خزائن الخيرات، ليتوب تائب، ويُقلع مقلع، ويتذَّكَّر مُتذّكر، ويزدجرُ مزدجرٌ».

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه، الفقر، والمرض والموت»[1].

وذلك لأنَّ الفقر يمنع الإنسان من الطغيان ويشعره بالاحتياج إلىٰ العمل والتعب وفي ذلك ترقيق للقلب ومجاهدة النَّفس، وأمَّا المرض فهو يجعل الإنسان قريباً من الله تعالىٰ، وذلك للانكسار والخضوع اللَّذين يبدوان عليه وهو دائماً في حالة التوجُّه إلى الله تعالىٰ وذكره. وأمَّا الموت فلأنَّه منتهى التسليم لأمر الله، فلا طاقة للإنسان حيال الموت.

«وللمؤمن امتحان»:

فالمؤمن يُمتحن لكي يزداد إيمانه وتقواه قال تعالى: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحُجرَات: ٣].

---

(١) أُصول الدِّين: ج٣، ص٤٩.

فالامتحان هو تربية عملية لطاقات الإنسان الَّتي توصله نحو الكمال، وهذا ما نجده جلياً في الحياة العملية، فإنَّ الإنسان لا يصير قوياً في جبهات القتال إلَّا إذا لاقىٰ أقسى أنواع التدريب، كما لا يصبح قائداً إلَّا إذا مرَّ في حياته بتجارب تصقل شخصيته القيادية.

ومقابل ذلك فإنَّ الإنسان إذا لم يتعرَّض للمشاكل في حياته فإنَّ طاقاته ستبقى جامدة هامدة لا تنمو ولا تنفتح، فالأهل الَّذين يدلِّلون أولادهم ويبعدونهم عن الصعوبات والشدائد إنَّما يربّون أولاداً ضعاف الشخصية.

ورد في الحديث: «إنَّ الله إذا أحبّ عبداً غتَّه بالبلاء غتّاً» والغَّت هو الغمس بالماء، أي أنَّ الله تعالىٰ إذا أحبّ عبداً غمَّسه في الشدائد وألقاه فيها وذلك لأنَّها طريق لتكامله ورقيه، فكما أنَّ مُعلِّم السباحة حين يأتيه من يريد أن يتعلَّم السباحة فإنَّه يحمله علىٰ إلقاء نفسه في الماء ليصبح سبَّاحاً ماهراً، فالله عندما يُحبُّ عبداً ويريد أن يوصله إلىٰ الكمال فإنَّه يغرقه في البلاء.

عن الإمام علي عليه السلام: «لا تفرح بالغناء والرخاء، ولا تغتمّ بالفقر والبلاء، فإنَّ الذهب يُجرّب بالنَّار، والمؤمن يُجرّب بالبلاء»[1].

«وللأنبياء درجة»:

إنَّ الله تعالىٰ يبتلي عباده المؤمنين المخلصين أكثر ممَّا يبتلي غيرهم، وليس ذلك امتهاناً بهم، وإنَّما لمصالح عديدة، منها:

إيصالهم إلى المقامات العالية، فإنَّ الأجر على قدْر المشقَّة وكما في الحديث: «إنَّ لك درجة لن تنالها إلَّا بالشهادة»..

(١) ميزان الحكمة، ج١ ص٣٠٢.

ومن ذلك ما روي أنَّ الإمام الحسين عليه السلام رأى رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام فقال له: «إنَّ لك درجة لن تنالها إلّا بالشهادة»(١).

وقال أبو ذرّ الغفاري في حال الاحتضار: «اللّهمَّ خنقني خناقك، فوحقك لتعلم أنّي أُحبُّ لقاءك»(٢).

وفي الرواية: «مرَّ موسى عليه السلام على رجل في معبد له ثمَّ مرَّ به بعد ذلك وقد مزّقت السِّباع لحمه، فرأس مُلقى، وفخذ مُلقى، فقال موسى عليه السلام: يا ربّ عبدك كان يطيعك فأبليته بهذا؟ فأوحى الله إليه يا موسى: إنَّه سألني درجة لم يبلغها بعمله فأبليته بهذا لأبلغه بتلك الدرجة»(٣).

ومنها: أن يتأسىٰ بهم النَّاس وتهون عليهم الخطوب والرزايا، فإنَّهم إذا رأوا البلاء الَّذي حلَّ على الأنبياء والأولياء عليهم السلام من تشريد وإهانة وظُلم وقتل وغير ذلك، صغر في أعينهم ما يشعرون به. ولذا ذكر الله تعالىٰ أنَّه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

«وللأولياء كرامة»:

أعدَّ الله تعالىٰ للأولياء كرامة معنوية وجسدية في جنَّة الكرامة، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ۝٣٥﴾ [المعارج: ٣٥] ولهذه الكرامة الأُخرويَّة مقدمات في عالم الدُّنيا، منها: البلاء.

فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ما أثنى الله علىٰ عبد من عباده من لدن

---

(١) دار السلام: ج٤، ص١٧٤.
(٢) أبو ذرّ الغفاري: ص١٥٢.
(٣) مواهب الرَّحمٰن: ج٩، ص٣٦١.

آدم إلىٰ محمَّد ﷺ إلَّا بعد ابتلائه ووفاء حقّ العبوديَّة فيه، **فكرامات الله في الحقيقة، نهايات بداياتها البلاء**».

وعنه ﷺ: «إنَّ عظيم الأجر لمع عظيم البلاء، وما أحب الله قوماً إلَّا ابتلاهم»(١).

عن عبد العزيز بن يعفور قال: شكوت إلى أبي عبد الله عليه السلام ما ألقى من الأوجاع، فقال لي: يا عبد الله لو يعلم المؤمن ما له من الجزاء في المصائب لتمنَّىٰ أنَّه قُرض بالمقاريض(٢).

كيف تواجه البلاء؟

أوَّلاً: أن يعلم بأنَّ الدُّنيا مجبولة على البلاء: فلا يتوقع أن يرى فيها ما يتمنَّاه ويرجوه.

فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «من لا يعد الصَّبر لنوائب الدَّهر يعجز»(٣).

ثانياً: أن يرضى بقضاء الله وقدره: فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «قال الله تعالىٰ: عبدي المؤمن لا أصرفه في شيء إلَّا جعلته خيراً له فلْيرضَ بقضائي، ولْيصبر على بلائي، وليشكر نعمائي أكتبه يا محمَّد من الصدِّيقين عندي»(٤).

وعنه عليه السلام: «اعلموا أنَّه لن يؤمن عبد من عبيده حتَّىٰ يرضى عن الله فيما صنع الله إليه وصنع به على ما أحب وكره»(٥).

---

(١) الأربعون حديثاً: ص٢٣٣.
(٢) دار السلام: ج٤، ص١٧٣.
(٣) بحار الأنوار: ج٧١، ص٨٣.
(٤) تزكية النَّفس: ص٤٣٤.
(٥) ميزان الحكمة.

ثالثاً: أن يتفكَّر في سبب البلاء: فإن كان للتأديب استغفر وتاب، وإن كان للكرامة شكر الله تعالىٰ عليه.

فالمؤمن لا يرى البلاء مصيبة يصبر عليها فحسب بل يرى أنَّه نعمة من الله تعالىٰ يشكره عليها، لأنَّه يرىٰ في البلاء تحفة وهدية من الله إليه، ففي الرواية: «**لا يستكمل عبد الإيمان حتَّى يرى أنَّ البلاء من نعم الله عليه**»(١).

عن النَّبيّ محمَّد ﷺ: «لا تكونوا مؤمنين حتَّى تعدوا البلاء نعمة والرخاء محنة، لأنَّ بلاء الدُّنيا نعمة في الآخرة ورخاء الدُّنيا محنة في الآخرة»(٢).

وعنه ﷺ: «... ومن ذاق طعم البلاء تحت ستر حفظ الله له تلذُّذه به أكثر من تلذُّذه بالنعمة، ويشتاق إليه لأنَّ تحت يد البلاء والمحنة أنوار النعمة وتحت أنوار النعمة نيران البلاء والمحنة وقد ينجو من البلاء كثير ويهلك في النعمة كثير»(٣).

ومن هنا نجد في الروايات أنَّ أكمل النَّاس إيماناً كانوا يستبشرون عند نزول البلاء والمحن. ويتجلَّىٰ ذلك في كلام للإمام علي عليه السلام عندما سأله النَّبيّ الأعظم ﷺ: «كيف صبرك يا علي على الشهادة؟

فقال عليه السلام: ليس هذا مواطن الصَّبر ولكن من مواطن البشرى والشُّكر»(٤).

وكذلك كان الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء كلَّما اشتدَّ الأمر به

---

(١) مواهب الرَّحمٰن.
(٢) دار السلام: ج٤، ص١٧٨.
(٣) دار السلام: ج٤، ص١٧٨.
(٤) الروح: للمؤلف، ص١٩٥.

أشرق وجهه نوراً وتقدَّم للقتال، وهو لا يُبالي بالموت، كان يقول: «إنِّي لا أرىٰ الموت إلَّا سعادة».

ولما مات ولدٌ للإمام الصَّادق عليه السلام قال: «سبحان من يقتل أولادنا ولا نزداد له إلَّا حباً».

رابعاً: أن لا يشكو بليَّته إلى أحد.

في الحديث: «أوحى الله تعالىٰ إلى عُزير: «... وإذا نزلت إليك بليَّة فلا تشكُ إلى خلقي كما لا أشكوك إلى ملائكتي عند صعود مساويك وفضائحك»(١).

عن جابر قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ما الصَّبر الجميل؟ قال: «ذلك الصَّبر ليس فيه شكوى إلى أحد من النَّاس. إنَّ إبراهيم بعث يعقوب إلى راهب من الرهبان، عابد من العبَّاد في حاجة، فلما رآه الراهب حسبه إبراهيم، فوثب إليه فاعتنقه، ثمَّ قال له: مرحباً بخليل الرَّحمٰن، فقال له يعقوب: إنِّي لست بخليل الرَّحمٰن، ولكن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال له الراهب: فما الَّذي بلغ بك ما أرى من الكبر؟ قال: الهمّ والحزن والسّقم، قال: فما جاز عتبة الباب حتَّى أوحى الله إليه: يا يعقوب، شكوتني إلى العبد؟ فخرّ ساجداً عند عتبة الباب يقول: ربّ لا أعود، فأوحى الله إليه أن قد غفرت لك فلا تعد إلى مثلها، فما شكا شيئاً ممَّا أصابه من نوائب الدُّنيا إلَّا أنه قال يوماً: ﴿...إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]»(٢).

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ليست الشكاية أن يقول: مرضت

(١) بحار الأنوار، ج٧٥ ص٤٥٣.
(٢) التمحيص: ص٤٣١.

البارحة أو وعكت البارحة، ولكن الشكاية أن يقول: بُليت بما لم يُبل به أحد»[(١)].

خامساً: التفكُّر بما له من جزاء في الآخرة: عن النَّبيّ ﷺ: «ليودّن أهل العافية يوم القيامة أنَّ جلودهم قُرضت بالمقاريض لما يرون من ثواب أهل البلاء»[(٢)].

وعنه ﷺ: «عجبت للمؤمن وجزعه من السقم ولو علم ما له في السقم لأحب أن لا يزال سقيماً حتَّىٰ يلقى ربّه عزَّ وجلَّ»[(٣)].

عن الإمام الحسن عليه السلام عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنَّ في الجنَّة شجرة يُقال لها شجرة البلوىٰ يؤتىٰ بأهل البلاء يوم القيامة فلا يرفع لهم ديوان ولا ينصب لهم ميزان يُصبُّ عليهم الأجر صبّاً وقرأ عليه السلام: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠]»[(٤)].

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّ رجلاً مكفوف البصر أتى النَّبي ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يردّ عليَّ بصري، قال: فدعا الله فردَّ عليه بصره ثمَّ أتاه آخر: فقال: يا رسول الله ادع الله أن يردّ عليَّ بصري، فقال: الجنَّة أحبّ إليك أو يردّ عليك بصرك، فقال: يا رسول الله وإنَّ ثوابها الجنَّة؟ قال ﷺ: الله أكرم من أن يبتلي عبده المؤمن بذهاب بصره ثمَّ لا يثيبه الجنَّة»[(٥)].

سادساً: الرجاء وعدم اليأس:.

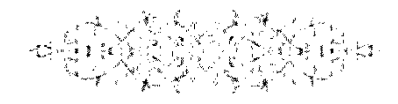
لا بدَّ لصاحب البلاء أن يعيش الأمل بالله تعالىٰ في حلّ مشاكله

---

(١) التمحيص: ص٤٢٩.
(٢) دار السلام: ج٤، ص١٧٥.
(٣) ميزان الحكمة، ج٢ ص١٥٦٠.
(٤) مسكن الفؤاد: ص٤٨.
(٥) سفينة البحار: مادّة «بصر».

وأن لا يعيش اليأس فـ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

عن الإمام علي عليه السلام: «كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو فإنَّ موسى بن عمران خرج يقتبس لأهله ناراً فكلَّمه الله ورجع نبيّاً».



الصدق والكذب

عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال:

«الصدق سيف الله في أرضه وسمائه»[١].

* * *

شرف الصدق:

يُعتبر الصدق من أهم الصفات الكمالية فهو «لباس الدِّين وعماد الإسلام، ورأس الإيمان، وأخو العدل، وكمال النبل، ولسان الحق، وصلاح كلّ شيء، وزينة الحديث، وروح الكلام» كما عن الإمام علي عليه السلام[٢].

ويكفي في شرف الصدق أنّه من الصفات الإلٰهيّة، قال تعالىٰ: ﴿...وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

كما أنّه من الصفات الّتي تُطلق على الأنبياء والأولياء عليهم السلام فقد قال تعالىٰ عن نبيّه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

---

(١) الأنوار الساطعة: ج٣، ص٢٨٣.

(٢) ميزان الحكمة: مادّة «الصدق».

وقال عن إدريس عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

واشتهر النَّبيّ يوسف عليه السلام بهذه الصفة حتّىٰ قال له عزيز مصر ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].

وكان النَّبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله يُعرف في عصر الجاهلية بـ«الصَّادق الأمين».

وقد عُرفت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام بـ«الصدِّيقة» ولُقِّب الإمام علي عليه السلام بـ«الصدِّيق الأكبر».

سُئل الإمام علي عليه السلام عن معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] فقال: «اللَّهمَّ غفراً، هذه الآية نزلت فيَّ وفي ابن عمِّي عبيدة بن الحارث، فأمَّا عبيدة فقضىٰ نحبه شهيداً يوم بدر، وحمزة قضىٰ شهيداً يوم أُحد، وأمَّا أنا فانتظر أشقاها يخضب هذه من هذا، وأشار بيده إلىٰ لحيته»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لكلّ أُمَّة صدِّيق وفاروق، وصدِّيق هذه الأُمَّة وفاروقها علي بن أبي طالب».

الصدق معيار الإيمان:

ولأهمية الصدق ودوره في حياة الإنسان فقد جُعل معياراً لحقيقة الإيمان، ففي الحديث عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «لا تغترّوا بصلاتهم ولا بصيامهم، فإنَّ الرجل ربَّما لهج بالصلاة والصوم حتّى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة».

---

(١) دلائل الصدق: ج٢، ص٢٥٠.

وذلك لأنَّ العبادات قد تتحوَّل إلىٰ عادات فتخرج عن الهدف الأساس وهو الاستقامة والأخلاق.

وجاء في وصف الشيعة: «إنَّما شيعة علي من صدق قوله فعله» و«ليس من شيعتنا من قال بلسانه وخالفنا في أعمالنا وآثارنا»[١].

وإنَّما بلغ الأولياء عليهم السلام المراتب العالية لما فيهم من الصدق، فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «انظر ما بلغ به علي عند رسول الله صلى الله عليه وآله فألزمه، إنَّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله صلى الله عليه وآله بصدق الحديث وأداء الأمانة».

معنىٰ الصدق وأقسامه:

الصدق هو الخبر المطابق للواقع الخارجي، ويقابله الكذب، فعَنْ الإمام علي عليه السلام: «الصدق مطابقة المنطق للوضع الإلٰهي، والكذب زوال المنطق للوضع الإلٰهي»[٢].

وهذا المعنى لا يقتصر علىٰ مطابقة الكلام للواقع بل يشمل مطابقة الظاهر للباطن ومن ذلك.

١ ـ **صدق في العقيدة**: بأن يكون إسلامه الظاهري مطابقاً لإيمانه القلبي، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ [الحديد: ١٩].

٢ ـ **صدق مع الرَّبّ والنَّفس** : قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

---

(١) ميزان الحكمة، ج٢ ص١٥٤١.
(٢) المصدر السابق، ج٢ ص١٥٧٣.

[الأحزاب: ٢٣] عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّ الصَّادق أوَّل من يصدقه الله عزَّ وجلَّ يعلم أنَّه صادق وتصدقه نفسه تعلم أنَّه صادق»[١].

إنَّ الصدق مع الله تعالى يقتضي العمل بما يعتقده ويقوله فإذا قال: «إنِّي أحبّ الله وأتوكَّل عليه وأرجوه» فإنَّه يلتزم عملياً بأقواله، فعن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه سُئل عن الصدق فقال: «هو أن لا تختار على الله غيره فإنَّه تعالى ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٨] فإذا كان اجتباك فاجتبه أنت ولا تختر عليه هواك ولا دُنياك»[٢].

٣ ـ صدق في النوايا: قال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمّد: ٢١].

وذلك بأن تكون للإنسان نيَّة وعزيمة وإرادة كأن ينوي بصدق أن يدفع المال للفقراء أو يبني مسجداً أو يقاتل في سبيل الله... ففي الحديث: «مَنْ طلب الشهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشُّهداء وإن مات على فراشه»[٣].

عن الإمام علي عليه السلام: «وإنَّ الله يُدخل بصدق النيَّة والسريرة الصالحة من يشاء من عباده الجنَّة»[٤].

وعنه عليه السلام: «فلما علم الله منَّا الصدق أنزل علينا النصر».

٤ ـ صدق في القول: فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «زينة الحديث الصدق».

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٠٤.
(٢) فلاح السائل: ص١١٨.
(٣) صحيح مسلم، ج٦ ص٤٩.
(٤) قصار الحكم: ص٤٢.

ويقابله «الكذب»، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ١٠٥].

فالكذب لا يجتمع مع الإيمان، لذا سُئل رسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، قيل: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: نعم، قيل: أيكون المؤمن كذّاباً؟ قال: لا».

من مصاديق الكذب بالقول:

أ ـ **الكذب في المزاح** أو الكذب على الأولاد بأن يعدهم الأب بالمال أو الألعاب وهو لا ينوي الوفاء لهم.

فعن الإمام علي عليه السلام: «لا يصلح من الكذب جدّ ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيته ثمّ لا يفي لهم».

يُروى أنَّ امرأة نادت ولدها فقالت: تعال خذ، فنظر إليها النَّبي ﷺ وقال أمعك شيء تعطيه؟ قالت: نعم هي تمر، فقال ﷺ: «أما إنَّك لو لم يكن معك ما تعطيه إيّاه لكُتبت عليك كذبة»[١].

ب ـ **الكذب في الأُمور الصغيرة**: فقد رُوي أنَّ النَّبي محمَّداً ﷺ أمر إحدى نسائه أن تعرض اللبن على بعض النسوة فقلن: لا نشتهيه فقال: لا تجمعنَّ جوعاً وكذباً، إنَّ الكذب ليُكتب حتَّى يكتب الكذيبة كذيبة»[٢].

ج ـ **الكذب في المدح أو الذم**: كأن يمدح الآخرين بما ليس فيهم، فتقول المرأة: زوجي أو ولدي كذا وكذا ممَّا لا واقع فيه، أو

---

(١) السنن الكبرى، ج١٠ ص١٩٨.
(٢) ميزان الحكمة، ج٣ ص٢٦٧٥.

كما يمدح بعض الناس الميت بما ليس فيه... ومثله ذم الآخرين بما ليس فيهم للتشفّي والتسقيط والتحطيم.

د ـ **الكذب في الوعود والعهود**: عن الإمام علي عليه السلام: «أمران لا ينفكان عن الكذب: كثرة المواعيد، وشدّة الاعتذار» وعنه عليه السلام: «كثرة الدّيْن تحيج الصادق إلى الكذب والواعد إلى الإخلاف»[1].

هـ ـ **الكذب للتسلية والضحك**: فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ويل للذي يحدّث فيكذب ليضحك به القوم، ويل له، ويل له».

و ـ **الكذب على الله ورسوله والأئمّة** عليهم السلام: وهو أسوأ أنواع الكذب، كأن يُنسب إلىٰ الدِّين ما ليس فيه، ويُدّعىٰ أنَّ الدِّين لا يوجب الحجاب على المرأة ولا يحرّم القمار... ويُنسب إلى المعصومين عليهم السلام ما لم يقولوه ـ وخصوصاً فيما يتعلّق بالإمام الحسين عليه السلام وأحداث كربلاء ـ قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٠].

٥ ـ **صدق في العمل**: عن الإمام الباقر عليه السلام: «تزّين لله بالصدق في الأعمال» وهو مطابقة الأقوال للأعمال والظاهر للباطن، فإذا نوىٰ فعل، وإذا عزم أقدم، وإذا وعد وفىٰ... ففي الحديث: «العالم من صدق قوله فعله، ومن لم يصدقه قوله فعله فليس بعالم».

مصداقية الإنسان:

إنَّ الإنسان الَّذي يمتاز بالصدق في القول والفعل هو شخص محبوب لدى النَّاس. فنحن نجد أنَّ الكفَّار كانوا ينجذبون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويصدِّقونه ويضعون أموالهم عنده لثقتهم به، مع علمهم

---

(١) ألف حكمة: ص١٣٥.

بأنَّه يدعو إلى ترك عبادة الأصنام، كما كان عزيز مصر يسأل يوسف الصدِّيق عن الأحلام...

عن الإمام علي عليه السلام: «يكتسب الصَّادق بصدقه ثلاثاً: حسن الثقة به، والمحبة له، والمهابة عنه»[١].

إنَّ مصداقية الشخص تدعو النَّاس إلى التعامل معه في كلّ المجالات التجارية والسياسية والدِّينيَّة، ولذا ورد: «كونوا دُعاةً بغير ألسنتكم ليروا منكم الورع والصلاة والخير، فإنَّ ذلك داعية».

يقول علماء النَّفس: «إنَّ من أهم مكونات «الذكاء العاطفي» الانسجام الداخلي وهو «قدرتك على الاستمرار بالتعبير بصدق عن نفسك في جميع جوانب حياتك وعلى جميع المستويات» وهو شعور بالسعادة والكمال... بخلاف التناقض فإنَّه يربك الإنسان ويؤثِّر على توازنه»[٢].

ومن هنا ورد عن النَّبي صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «الصدق طمأنينة والكذب ريبة»، فالصدق انسجام يحدث اطمئنان... فمن صدق اطمأنَّت نفسه واطمأن له الآخرون، ومن كذب اضطرب وشكّ به الآخرون.

لنكن مع الصادقين:

إنَّ الله تعالى يأمرنا بأن نكون مع الصادقين قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾ [التوبة: ١١٩] ــ وقد تقدَّم أنَّ الصادقين هم النَّبي وأهل البيت عليهم السلام ــ.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص٥٥٠.
(٢) ما فوق الذكاء العاطفي: ص٤٩.

والكون معهم يقتضي أن نتبعهم في الأقوال والأفعال، فعن الإمام الرِّضا عليه السلام: «إنَّما شيعة علي من صدَّق قوله فعله»(١).

فإذا أردنا أن نضع أنفسنا في ميزان الصدق أو الكذب، فلا بدَّ أن نرى مدى اقترابنا من أئمَّتنا عليهم السلام.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ [الأحزاب: ٢٣] أنَّه قال: «إنَّكم وفيتم بما أخذ الله عليكم ميثاقكم من ولايتنا وإنَّكم لم تبدّلوا بنا غيرنا»(٢).

عن الإمام علي عليه السلام: «الصدق سيف الله في أرضه وسمائه، وأينما هوىٰ به يقده، فإذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب، فانظر في صدق معناك وعقد دعواك وغيرهما بقسطاس من الله تعالىٰ كأنَّك في القيامة، قال الله تعالىٰ ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨] فإذا اعتدال بغور دعواك ثبت لك الصدق وأدنى حق الصدق أن لا يخالف اللِّسان القلب ولا القلب اللِّسان، ومثل الصدق الموصوف بما ذكرنا كمثل النازع لروحه إن لم ينزع، فماذا يصنع»(٣).

إنَّ الكون مع الصادقين في الدُّنيا ينتج الكون معهم في الآخرة، وهو الفوز العظيم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النِّساء: ٦٩].

---

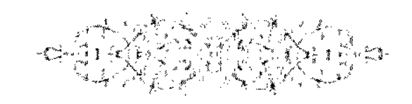
(١) ميزان الحكمة: مادَّة «شيعة»، ج٢ ص١٥٤٠.

(٢) الفرقان: ج٢١، ص٨٧.

(٣) الأنوار الساطعة: ج٣، ص٢٨٢.

عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «يا عليّ منْ أحبّك وتولاك أسكنه الله معنا ثمَّ قرأ الآية»[1].

أخيراً: ندعو الله تعالىٰ قائلين: ﴿...رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].



(١) دلائل الصدق: ج٢، ص٢٨٠.



الحدّة والغضب

عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال:

«الحدّة ضرب من الجنون لأنّ صاحبها يندم، فإن لم يندم فجنونه مستحكم»(١).

* * *

الغضب مرض المجتمعات:

عندما نلقي نظرة علىٰ أحوال النّاس نجد أنّ السمة الظاهرة فيهم هي سرعة الانفعال والغضب، وقلّة التحمُّل والصّبر، فالكبير يغضب على الصغير، والزوج يغضب على الزوجة، حتّى الصغار نراهم قد اعتادوا علىٰ سرعة الغضب كذلك.

ولو تفحصنا أكثر البلايا الاجتماعية علىٰ المستوى الفردي والاجتماعي، كالخصومة والطلاق والقتل والحرب لوجدنا أنّ منشأها الغضب ولذا ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام: «الغضب مفتاح كلّ شرّ».

---

(١) غرر الحكم: رقم ٥٥٨.

آثار الغضب:

من آثار الغضب:

١ ـ **ضياع العقل**: لأنَّ حالة الهيجان الَّتي تحدث عند الغضوب تفقده اتزانه وتربك تفكيره، بحيث لا يعرف ماذا يفعل وكيف يتصرَّف.

ولذا نجد أنَّ الإمام عليّاً عليه السلام عبَّر عن الحدَّة بأنَّها «ضرب من الجنون» وعنه عليه السلام «الغضب يفسد الألباب ويُبعد عن الصواب» و«شدَّة الغضب تغيّر المنطق، وتقطع مادَّة الحجَّة، وتفرِّق الفهم».

٢ ـ **الفساد والشَّر**: فكم من البلايا الاجتماعية قد وقعت بسبب سرعة الحكم علىٰ الآخرين، وسرعة المواجهة، فقد يغضب البعض لكلمة يسمعها من ولده أو زوجته فيُسرع إلىٰ الضرب وبالتالي يقع الفراق.

عن الإمام علي عليه السلام: «بئس القرين الغضب: يبدي المعائب، ويدني الشَّرّ، ويباعد الخير» وعنه عليه السلام: «الغضب شرّ إن أطلقته دمَّر».

قال بعضهم: «إذا امتلأ الكوب بالشاي فإنَّه يُراق من جوانبه علىٰ الطاولة فتتسخ، والقلب إذا امتلأ غيظاً فاض ليفرغ ما بداخله من نار وشرّ».

٣ ـ **إظهار العيوب الخفية**: فالإنسان يكتم أسراره وأسرار الآخرين في حالاته العادية حتَّى إذا غضب أظهر عيوبه وعيوب غيره وما يخفيه تجاه الآخرين.

ولذا ورد عن الإمام علي عليه السلام: «بئس القرين الغضب يُبدي المعايب...» وورد عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إذا أردت أن تعلم صحَّة

ما عند أخيك بأغضبه، فإن ثبت لك على المودَّة فهو أخوك وإلّا فلا»[١].

٤ ـ فسادالإيمان وتسلّط الشيطان: فالغضوب لا يملك نفسه من الجرأة على الله تعالىٰ ـ والعياذ بالله ـ والسبّ والكفر، والخروج عن الإيمان والدخول تحت سلطان الشيطان، ولذا ورد عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصَّبر العسل»[٢].

وعن الإمام علي عليه السلام: «. . . واحذر الغضب فإنّه جند عظيم من جنود إبليس».

وعن الإمام الرِّضا عليه السلام: «إن كفر أحدكم في غضبه ولا خير فيمن كان كفره في غضبه».

٥ ـ الأمراض الجسديَّة والنفسيَّة: ففي حالة الغضب يزداد الإفراز في الدَّم فيؤدِّي إلىٰ تقلُّص الشرايين ممَّا قد يؤدِّي إلى نوبة قلبيَّة، وقد ذكرت بعض التقارير أنَّ ٦٠٪ من أمراض القلب نتيجة الغضب.

كما يحدث انقباض في عضلات الوجه ـ لذا نرى أنَّ وجه الغضوب كثير التجاعيد ـ وضيق في التنفُّس وضغط مرتفع، وتأثير على عصب المعدة وقد يؤدِّي الغضب إلىٰ القرحة في المعدة.

لكلّ ذلك كثرت وصايا الأولياء عليهم السلام للنَّاس بعدم الغضب.

فعن عبد الأعلى قال: قلت للإمام الصَّادق عليه السلام علّمني عظة أتَّعِظ بها، فقال عليه السلام: إنَّ رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال له: يا رسول الله علّمني عظة أتَّعِظ بها فقال له: انطلق ولا تغضب ثمَّ عاد إليه فقال: انطلق ولا تغضب ـ ثلاثاً ـ[٣].

---

(١) تحف العقول: ص٢٦٣.

(٢) الأخلاق في القرآن: ج٣، ص٣٤٧.

(٣) ميزان الحكمة، ج٣ ص٢٢٦٤.

أقسام الغضب:

قد يُقال: إذا كان الغضب صفة نفسانيَّة قبيحة، فلماذا أوجدها الله تعالىٰ في الإنسان؟

الجواب: إنَّ الله تعالىٰ خلق هذه الغريزة ليستخدمها الإنسان في الدفاع عن نفسه، فإنَّ «من أغضب ولم يغضب فهو حمار» فهي حالة انفعاليَّة غرائزيَّة تحصل لكلِّ النَّاس حتَّى الأنبياء والأولياء عليهم السلام، وعليه فإن كان الغضب في محلّه فهو حسن وإلّا كان قبيحاً.

ولذا قسّم علماء الأخلاق الغضب إلى قسمين:

الأوَّل: الغضب لله تعالىٰ وللدِّين والعرض والكرامة، وهو غضب ممدوح قال تعالىٰ في مدح المؤمنين إنَّهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومنه: غضب النَّبيّ موسى عليه السلام على قومه لمَّا عبدوا العجل قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾ [طه: ٨٦].

ومنه: غضب النَّبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله على العُصاة، فقد ورد أنَّه صلى الله عليه وآله «كان لا يغضب للدُّنيا، فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتَّىٰ ينتصر له» كما عن الإمام علي عليه السلام.

ومنه: غضب الإمام علي عليه السلام على الكافرين كعمرو بن ودّ العامري.

ومنه: غضب أبو ذرّ الغفاري عندما غضب على عثمان ومعاوية،

وقد قال له الإمام علي عليه السلام: «يا أبا ذرّ إنَّك غضبت لله عزَّ وجلَّ فارج منْ غضبت له»[١].

فائدة: دخل الإمام الكاظم عليه السلام على هارون الرشيد وقد استخفَّه الغضب على رجل فقال الإمام عليه السلام له: «إنَّما تغضب لله فلا تغضب له بأكثر ممَّا تغضب لنفسك»[٢].

الثاني: الغضب للدُّنيا والنَّفس: وهو غضب مذموم، فالَّذي يجعل نفسه محور الرضى والغضب تراه يغضب إذا قصَّر النَّاس في خدمته، ولا يغضب إذا رأى المعصية، فالغضوب «إن أُعطي رضي وإن مُنع سخط».

ولذا نجد في صفة المؤمن عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّما المؤمن الَّذي إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل»[٣].

ولعلَّ من أجمل المواقف الَّتي جسّدت معنىٰ الغضب لله تعالىٰ ما حصل مع الإمام علي عليه السلام عندما بارز عمرو بن ودّ العامري.

صفات الشخصية الحادَّة:

إذا تتبَّعنا صفات وسلوك الشخصيات الغضوبة نجد أنَّها تتصف بأُمور:

أ ـ التسرُّع في الحكم على الآخرين: عن الإمام علي عليه السلام: «من طبائع الجُهَّال التسرُّع إلى الغضب علىٰ كلِّ حال»[٤].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٣٠.
(٢) سفينة النجاة: مادة «غضب».
(٣) الأخلاق: ص٣٦١.
(٤) ميزان الحكمة، ج٣ ص٢٢٦٤.

ب ـ الكبرياء والغرور: فالغضوب يرى نفسه أعلى من الآخرين، ولذا تراه يحكم عليهم وينتقدهم ولا يرى لهم حسنة، وقد يبرِّر هذه الحالة بقوله: أنا رجل جدِّي أقول كلمتي حتَّى ولو جرحت الآخرين، ولكنَّه في نفس الوقت عندما يرىٰ حسنة في الآخرين لا يمدحهم عليها بحجَّة أنَّه لا يريد لهم أن يعيشوا الغرور.

سُئل السيِّد المسيح عليه السلام: «ما بَدْءُ الغضب؟ فقال: «الكبرُ، والتجبُّر، ومحقرة النَّاس»[١].

ج ـ الطبيعة النَّارية: لأنَّ الغضب من وسوسة إبليس وهو من النَّار. فالغضوب تراه نارياً في كلِّ أحواله، كما أنَّه يملك طبيعة سبعية لأنَّ الغضب من طبيعة السِّباع.

د ـ التحدث بلغة الواثق من نفسه: مع تحريك اليدين بطريقة تثبت صحَّة ما يعتقده كالضرب على الطاولة، كما أنَّ الغضوب يصرخ حين يغضب، ويحمرَّ وجهه.

هـ ـ كثرة التقلُّب في المزاج: بعض النَّاس يغضب بسرعة ولكنَّه يرضى ببطء، وبعضهم يغضب بسرعة ويرضى بسرعة، وهكذا شخصية الغضوب، فبعضهم يملك طيبة ومحبة للآخرين إلَّا أنَّه ضعيف الإرادة.

و ـ ضعف النَّفس: فالقوي يملك غضبه أمَّا الضعيف فغضبه يملكه ويسيطر عليه، فقد رُوي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى قوماً يدحون حجراً فقال: «أشدكم مَنْ ملك نفسه عند الغضب»[٢].

من كلّ ذلك ندرك أنَّ الغضوب هو إنسان مريض نفسياً، ولذا

---

(١) مستدرك سفينة البحار، ج٧ ص٥٩٦.
(٢) ميزان الحكمة، مادة «غضب».

علينا أن نتعامل معه في حال غضبه، تعاملنا مع مريض، وهذا ما أشار إليه الحديث عن الإمام علي عليه السلام.

كيف تواجه الشخص الغضوب؟

إذا كانت الحدَّة ضرباً من الجنون فمن الطبيعي أنَّ الإنسان في حال الغضب لن يستمع إلىٰ نصائح الآخرين لأنَّ عقله وفكره مضطرب لذا لا بدَّ من إعمال الحكمة في كيفيَّة مواجهته في حال غضبه، ويتمُّ ذلك بملاحظة هذه الأُمور:

١ ـ **أن نتفهم حالته العصبية**: ونتعامل معه كإنسان مريض، وقد نسمع بعض الأشخاص الحدِّيِّين يصرّحون بأنَّ الآخرين لا يفهمون طبيعتهم.

٢ ـ **أن نتقبَّل الآخرين كما هم**: لا كما نريد، فالتحديات الَّتي تواجهنا في الحياة مصدرها رغبتنا في تغيير الآخرين، فنحن نريد من الآخرين أن يكونوا مثلنا، ولكنَّنا إذا نظرنا بدقة نجد أنَّ التحدي الحقيقي هو أن نغيِّر أنفسنا ونسيطر على مشاعرنا وانفعالاتنا. يقول أحدهم «لا تغضب لأنَّك لا تستطيع جعل الآخرين مثلما تود أن يكونوا، طالما أنت عاجزٌ عن تحقيق ما تريد أن تكون».

إنَّ أغلب النَّاس ينتظرون الآخرين ليتغيروا بدل أن يغيِّروا بأنفسهم ولكن هذا الأمل نتيجته الاصطدام والخلاف والشقاق[1].

٣ ـ **أن نتعامل مع انفعالات الإنسان**: فنحن عندما نواجه الغضوب فإنَّنا نواجه حالة انفعالية لا تستوعب الحديث المنطقي،

---

(١) البرمجة اللغوية العصبية: ص١٠.

ومفتاح التعامل مع الانفعالات هو إبطال مفعولها والتعاطف معها ومشاطرتها.

٤ ـ أن لا نصطدم مع الغضوب: في حال غضبه لأنَّ ذلك يزيد من إشعال النَّار، فقد ورد: «داووا الغضب بالصمت» وقد كانت سيرة الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام مع الغاضب الَّذي يشتم هو «الحُلم».

وإليك نموذج من ذلك:

عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتى باليهوديَّة الَّتي سمَّمَت الشاة للنَّبي، فقال لها: ما حملك على ما صنعت؟ فقالت: قلت إن كان نبيّاً لم يضره، وإن كان ملكاً أرحت النَّاس منه، فعفىٰ رسول الله عنها»[1].

وسمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً يشتم قنبراً، وقد رام قنبر أن يردّ عليه، فناداه أمير المؤمنين عليه السلام: مهلاً يا قنبر، دع شاتمك، مُهاناً، ترضي الرَّحمٰن، وتسخط الشَّيطان، وتعاقب عدوّك، فوالَّذي فلق الحبَّة وبرأ النسمة، ما أرضى المؤمن ربّه بمثل الحلم، ولا أسخط الشَّيطان بمثل الصمت، ولا عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه»[2].

وكان الإمام الحسن بن علي عليهما السلام على سيرة أبيه وجده صلوات الله عليهم أجمعين: فمن حلمه ما رواه المبرد، وابن عائشة: أنَّ شامياً رآه راكباً، فجعل يلعنه، والحسن لا يردّ، فلما فرغ، أقبل الحسن عليه السلام فسلَّم عليه، وضحك، فقال: أيُّها الشيخ أظنُّك غريباً، ولعلَّك شبّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً

---

(١) الكافي، ج٢ ص١٠٨.
(٢) منازل الآخرة والمطالب الفاخرة، ص٢١٣.

كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حرّكت رحلك إلينا، وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك، كان أعود عليك، لأنَّ لنا موضعاً رحباً، وجاهاً عريضاً، ومالاً كثيراً. فلما سمع الرجل كلامه بكى، ثمَّ قال: أشهد أنَّك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته، وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليَّ، والآن أنت أحبُّ خلق الله إليَّ، وحوَّل رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل وصار معتقداً لمحبتهم[١].

وهكذا كان الإمام الحسين بن علي عليه السلام فقد جنى غلام للحسين عليه السلام جناية توجب العقاب عليه، فأمر به أنْ يضرب، فقال: يا مولاي ﴿...وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾. قال: خلُّوا عنه. قال: يا مولاي ﴿...وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾. قال: قد عفوت عنك. قال: ﴿...وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. قال: أنت حرّ لوجه الله، ولك ضعف ما كنت أعطيك[٢].

ومن ذلك ما قصّه الرواة من حلم الإمام زين العابدين عليه السلام، فقد كان عنده أضياف فاستعجل خادماً له بشواء كان في التنور، فأقبل به الخادم مسرعاً، فسقط السفود منه على رأس ابن لعلي بن الحسين عليه السلام تحت الدرجة، فأصاب رأسه فقتله، فقال علي للغلام وقد تحيَّر الغلام واضطرب: أنت حرّ فإنَّك لم تتعمَّده، وأخذ في جهاز ابنه ودفنه[٣].

ولُقِّب الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بالكاظم لوفرة حلمه، وتجرعه الغيظ في مرضاة الله تعالىٰ.

يحدث الراوي عن ذلك، فيقول: كان في المدينة رجل من أولاد

---

(١) البحار مجلد ٩، ص٩٥.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٤ ص١٩٥.
(٣) كشف الغمة للأربلي.

بعض الصحابة يؤذي أبا الحسن موسى عليه السلام ويسبّه إذا رآه، ويشتم علياً، فقال له بعض حاشيته يوماً: دعنا نقتل هذا الفاجر. فنهاهم عن ذلك أشدّ النهي، وزجرهم، وسأل عنه فذُكر أنّه يزرع بناحية من نواحي المدينة، فركب إليه فوجده في مزرعة له، فدخل المزرعة بحماره، فصاح به لا توطىء زرعنا، فتوطأه عليه السلام بالحمار حتّى وصل إليه، ونزل وجلس عنده، وباسطه وضاحكه، وقال له: كم غرمت على زرعك هذا؟ قال: مائة دينار. قال: فكم ترجو أن تصيب؟ قال: لست أعلم الغيب. قال له: إنّما قلت كم ترجو أن يجيئك فيه. قال: أرجو أن يجيء مائتي دينار. قال: فأخرج له أبو الحسن صرّة فيها ثلاثمائة دينار وقال: هذا زرعك على حاله، والله يرزقك فيه ما ترجو. قال: فقام الرجل فقبّل رأسه، وسأله أن يصفح عنه، فتبسَّم إليه أبو الحسن وانصرف. قال: وراح إلى المسجد، فوجد الرجل جالساً، فلما نظر إليه، قال: الله أعلم حيث يجعل رسالته. قال: فوثب أصحابه إليه فقالوا: ما قضيتك؟! قد كنت تقول غير هذا. قال: فقال لهم: قد سمعتم ما قلت الآن، وجعل يدعو لأبي الحسن عليه السلام، فخاصموه وخاصمهم، فلما رجع أبو الحسن إلى داره، قال لجلسائه الّذين سألوه في قتله: أيما كان خيراً ما أردتم أم ما أردت، إنّني أصلحت أمره بالمقدار الّذي عرفتم وكُفيت شرّه[١].

علاج الغضب:

لا شكّ أنَّ علاج الغضب من أصعب الأُمور إذ «من السهل أن يغضب الإنسان، ولكن من الصعب أن يغضب على الشخص المناسب إلى الحدّ المناسب وفي الوقت المناسب» ولذا فلا بدَّ من اتباع أساليب تساهم في ضبط النَّفس في حالة الغضب، منها:

---

(١) أخلاق أهل البيت: ص٣٣.

١ ـ **إزالة أسباب الغضب**: والابتعاد عنها، كالأسباب الوراثية والعوامل الخارجية... ومن ضمن الأسباب «كثرة تناول اللحومات» فقد ثبت في علم الطب أنَّ الَّذي يُكثر من تناول اللحم يتحوَّل إلىٰ إنسان سبعيّ سريع الغضب بينما الَّذي يأكل النباتات يميل إلىٰ الهدوء والسكينة[1].

٢ ـ **تدريب النَّفس** على السيطرة على المشاعر عند الانفعال، لأنَّ طريقة التعبير عن الانفعال قد تكون عادة مكتسبة من خلال الأسرة والمجتمع فإن استطاع أن يغيِّر عاداته السيِّئة إلى أحسن سيطر على غضبه.

قد يقول البعض: أنا لا أستطيع السيطرة على أعصابي!!

ولكن فليعلم أنَّ كلّ إنسان يستطيع السيطرة على غضبه والدليل على ذلك أنَّه إذا غضب ممَّن هو أعلى منه ـ كالرئيس والظالم ـ فإنَّه يكبت غضبه خوفاً على وظيفته أو حياته ولكنَّه إذا غضب على من هو أضعف منه كالعامل والزوجة والولد سارع إلى التنفيس عن غضبه.

٣ ـ **تفريغ الداخل المستعر**: فالغضب هو نار تشتعل في قلب الإنسان ولإطفائها لا بدَّ من:

أ ـ **التنفُّس، أو الاسترخاء، أو الرياضة**: وقد يعمد البعض من الشباب إلى تعلم فنون الكاراتيه لينفسوا عن هيجانهم.

ولعلَّ منه ما ورد من مشي الإمام علي عليه السلام عندما غضب من عمرو بن ودّ العامري.

---

(١) راجع كتابنا «الشفاء في الغذاء».

ومنه ما رُوي عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «كان أبي عليه السلام إذا غضب نظر إلى السَّماء نظر غضبان، يرى الناظر الغضب في وجهه»[١].

ب ـ التعبير عمَّا في الداخل: كي لا تتراكم الأفكار السيِّئة والأحقاد.

ج ـ الوضوء: لأنَّ الماء البارد يطفىء حرارة الشَّيطان، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ الغضب جمرة تتوقد، ألم ترَ إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه؟ فإن وجد أحدكم من ذلك شيئاً فليتوضَّأ بالماء البارد وليغتسل، فإنَّ النَّار لا يطفئها إلَّا الماء»[٢].

د ـ تغيير الحالة الفعلية: كأن يجلس إذا كان قائماً، أو يخرج إلى التنزه والمشي في الطبيعة وقد رُوي «أنَّ النَّبيّ محمَّداً صلى الله عليه وآله كان إذا غضب وهو قائم جلس، وهو جالس اضطجع، فيذهب غضبه» وعن الإمام الباقر عليه السلام: «وأيّما رجل غضب وهو قائم فلْيجلس فإنَّه سيذهب عنه رجس الشيطان»[٣].

هـ ـ وضع اليد على الرحم: فعن الإمام الباقر عليه السلام: «... وأيّما رجل غضب على ذي رحم فلْيدنُ منه ولْيمسّه، فإنَّ الرحم إذا مُسَّت سكنت».

٤ ـ التفكُّر قبل الانفعال: لأنَّ الانفعال يؤدِّي إلى تشويش العقل، فيتفكَّر بالآثار السلبية للغضب، فالغضب لا يحلُّ المشكلة بل يعقّدها، وهو قبيح، وبالتالي فإنَّ الله تعالىٰ قد يغضب عليه.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي لا تغضب، فإذا غضبت فاقعد

---

(١) منتهى الآمال: ج٢، ص١٤٨.
(٢) الأخلاق: ص٣٥٤.
(٣) الأخلاق: ج٣، ص٣٥٤.

وتفكّر في قدرة الرَّبّ على العباد وحلمه عنهم، وإذا قيل لك: اتقِ الله، فانبذ غضبك وراجع حلمك».

من كتاب للإمام علي عليه السلام إلى مالك الأشتر: «املك حميَّة أنفك، وسورة حدّك، وسطوة يدك، وغربَ لسانك، واحترس من كلّ ذلك بكفّ البادرة، وتأخير السطوة، وارفع بصرك إلى السَّماء عندما يحضرك منه حتَّى يسكن غضبك فتملك الاختيار، ولن تحكم ذلك من نفسك حتَّى تكثر همومك بذكر المعاد»(١).

وعنه عليه السلام: «من طلب شفاء غيظ بغير حق، أذاقه الله هواناً بحق».

٥ ـ **كظم الغيظ**: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٣٤]، والكظم هو: شدّ رأس القربة مع امتلائها، والإنسان الكظوم هو الَّذي يمتلىء غضباً لكنَّه لا يطلقه بل يصبر، ولذا لُقِّب الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بـ«الكاظم».

ومن المفيد في هذا المجال الالتفات إلى حرمة شفاء الغيظ بما ليس بحق، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ لجهنَّم باباً لا يدخلها إلَّا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى»(٢).

وعن الإمام علي عليه السلام: «من طلب شفاء غيظ بغير حق أذاقه الله هواناً بحق»(٣).

---

(١) مستدرك الوسائل، ج١٣ ص١٧١.
(٢) ميزان الحكمة: مادة «غضب»، ج٣ ص٢٢٦٨.
(٣) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

٦ ـ **المغفرة والحلم**: قال تعالىٰ في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورىٰ: ٣٧].

عن الإمام علي عليه السلام: «ضادوا الغضب بالحلم».

٧ ـ **ذكر الله تعالىٰ**: ليحدث الاطمئنان والهدوء كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

٨ ـ **الاستعاذة من الشيطان الرجيم**: فعن معاذ بن جبل قال: استتب رجلان عند النَّبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله فغضب أحدهما غضباً شديداً حتَّى خُيِّل أنَّ أنفه يتمرغ من شدَّة غضبه فقال صلى الله عليه وآله: «إنِّي لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من غضب فقلت: ما هي يا رسول الله؟ فقال: اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك من الشيطان الرجيم»[1].



(١) أعماق النّفس: ص١٧٦.

نظر العين

رُوي أنَّ الإمام عليّاً عليه السلام كان جالساً مع أصحابه فمرَّت بهم امرأة فرمقها القوم بأبصارهم فقال عليه السلام:

«إنَّ أبصار هذه الفحول طوامح وإنَّ ذلك سبب هبابها[1] فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله، فإنَّما هي امرأة كامرأته فقال رجل من الخوارج: قاتله الله كافراً ما أفقهه فوثب القوم ليقتلوه فقال عليه السلام: رويداً إنَّما هو سبّ بسبّ أو عفو عن ذنب»[2].

* * *

تُعتبر العين من أهم الحواس الَّتي تؤثّر على قلب الإنسان وروحه فهي «بريد القلب» كما عن الإمام علي عليه السلام: «القلب مصحف البصر» أي أنَّ ما يراه البصر يُحفظ في القلب، فإن كان ما تراه العين حلالاً وجميلاً ـ مع التفكُّر والاعتبار بنِعْم الله تعالى ـ فإنَّ ذلك يترك أثراً إيجابياً نورانياً على القلب، ومن ذلك:

---

(١) الطموح: التطلّع والهباب: هو الهيجان.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٤٢٠.

النظر إلى الحلال:

النظر إلى السَّماء والأرض والأشجار والحيوانات، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠].

ومنه النظر إلى المساجد والمصاحف والمراقد المقدَّسة والعلماء والاخوان، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «النظر إلى العالم عبادة، والنظر إلى الإمام المقسط عبادة، والنظر إلى الوالدين برأفة عبادة، والنظر إلى الأخ تودّه في الله عزَّ وجلَّ عبادة»[١].

وبالعموم فكلّ شيء تنظر إليه باعتبار هو عبادة، فقد كتب هارون إلى الإمام موسى الكاظم عليه السلام: عظني وأوجز فكتب له الإمام عليه السلام: «ما من شيء تراه عينيك إلَّا وفيه موعظة»[٢].

النظر إلى الحرام:

إذا كان ما تراه العين حراماً وقبيحاً فإنَّ أثره سينتقل إلى القلب ويُحدِث فيه ظلاماً وقساوة وحسرةً على الدُّنيا، ولذا ورد عن الإمام علي عليه السلام: «العيون مصائد الشيطان».

---

(١) عدة الداعي، ص١٧٦.
(٢) التشريع الإسلامي: ج٦، ص٢٢٧.

أسباب المحافظة على العين:

ومن هنا جاءت الروايات الَّتي تبيّن وجوب المحافظة على العين والَّتي تذكر أسباب حفظ البصر ونتائجه، ومنها:

١ ـ عدم النظر إلى أهل الدُّنيا: قال تعالى لنبيه الأعظم محمَّد ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

وعن رسول الله ﷺ: «... ومن رمى ببصره إلى ما في يدي غيره كثر همّه ولم يشف غيظه»(١).

ومن المفيد في هذا المجال قراءة دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام إذا نظر إلى أهل الدُّنيا.

٢ ـ غضّ البصر: ففي ذلك راحة للقلب من التشتُّت ـ ولذا نجد أنَّ العرفاء يوصون اتباعهم بغضّ البصر حفاظاً على تركيز القلب ـ وفيه راحة من الهمّ والغمّ والتحسُّر، فعن الإمام علي عليه السلام: «من أطلق ناظره أتعب حاضره، ومن تتابعت لحظاته دامت حسراته» و«من غضّ طرفه أراح قلبه» و«قلّ أسفه وأمنِ تلفه» وممَّا يُنسب له عليه السلام:

أقول لعيني احبسي اللحظات ... ولا تنظري يا عينُ بالسرقات
فكم نظرة قادت إلى القلب شهوة ... فأصبح منها القلب في حسرات

٣ ـ عدم النظر إلى النِّساء: لأنَّ ذلك سبب في هيجان الغريزة الجنسية عند الرجل وهو بداية الوقوع في الزنا، ولهذا قال الإمام علي عليه السلام عندما نظر القوم إلى المرأة، «إنَّ أبصار هذه الفحول طوامح وإنَّ ذلك سبب هبابها».

---

(١) نور الثقلين: ج٣، ص٣٠.

يقول علماء النَّفس: «يبدأ الإنسان بالانفعال استجابة للمؤثرات الخارجية... فإن رأى امرأة جميلة حصل لديه الإحساس، ثمَّ الإدراك ثمَّ النزوع، وفي هذه المرحلة يضطرب الشعور ويتوتر ويضعف التفكير والمحاكمة وتتغير تعبيرات الوجه والعمليات الفيزيولوجية الداخلية ويرافق ذلك الإقدام أو الإحجام، وكلاهما خياران خاسران، فالإقدام هو الوقوع في الزنا والحرام، والإحجام هو كبت للغريزة»[1].

مسببات النزوع:

ولأنَّ من الصعوبة بمكان السيطرة على النَّفس عند النزوع فقد عمل الإسلام على المنع من مقدمات النزوع، فمنع:

١ ـ **النظر إلى النِّساء**: فعن رسول الله ﷺ: «لا تتبع النظرة النظرة، فإنَّ الأُولى لك والثانية عليك» فنلاحظ هنا أنَّ النبي محمَّداً ﷺ منع النظر كي لا يتولد الإحساس والإدراك فبالتالي يحدث النزوع وعندها لا قدرة لضبط النَّفس.

وعن الإمام علي عليه السلام: «ليس يزني فرجك إن غضضت طرفك».

ولذا قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠].

يقول الشاعر:

نظرة فابتسامة فسلام ... موعد فلقاء فتمام

٢ ـ **عدم السلام على النِّساء**: فقد رُوي أنَّ الإمام عليّاً عليه السلام كان يُسلِّم على كبار السِّن منهن دون الشابات، فقيل له في ذلك، فقال: «أتخوف أن يعجبني صوتها فيدخل عليَّ أكثر ممَّا طلبت من الأجر».

---

(١) راجع مجلة «الثقافة الإسلامية»: عدد ٣٤، ص١٥٢.

٣ ـ عدم الاقتراب من أُمور النِّساء: فقد رُوي أنَّ الإمام عليّاً عليه السلام شيَّع جيشاً فأوصاهم قائلاً: «أعذبوا عن النِّساء ما استطعتم» أي امتنعوا عن ذكر النِّساء ومقاربتهن، ولهذا من الضروري عدم كثرة المحادثة في مجالس الرِّجال حول النِّساء...

وجاءه رجل فقال: يا أمير المؤمنين أقبّل وأنا صائم؟ فقال عليه السلام: «عف صومك، فإنَّ بدء القتال اللطام»[١].

ورُوي عن النَّبي عيسى عليه السلام أنَّه قال: «لا تكونَنَّ حديد البصر إلى ما ليس لك، فإنَّه لن يزني فرجك ما حفظت عينك، فإن قدرت أن لا تنظر إلى ثوب المرأة الَّتي لا تحل لك فافعل»[٢].

٤ ـ عدم الخلوة مع النِّساء فإنَّه ما اختلى اثنان إلَّا وكان الشَّيطان ثالثهما.

٥ ـ المحافظة على حجاب المرأة.

٦ ـ إتيان الزوجة: فقد يعترض البعض فيقول: إذا حصل النزوع فكيف أفرغ هذه الشهوة الضاغطة، الجواب: هو أن يفعل الحلال مع أهله كما قال الإمام علي عليه السلام: «فليلامس أهله فإنَّما هي امرأة كامرأته».

٧ ـ مخالفة نزوع النَّفس: عن الإمام علي عليه السلام: «وما من معصية الله شيء إلَّا يأتي من شهوة فرحم الله رجلاً نزع عن شهوته ـ أي أقلع عنها ـ وقمع هوى نفسه».

٨ ـ اليقين بأنَّ الله تعالى مطَّلع على الأبصار: عن الإمام علي عليه السلام

(١) مستدرك نهج البلاغة: ج٩، ص٦٩١.
(٢) شرح رسالة الحقوق: ص١٤٣.

في صفة الراغبين في الله: «وبقي رجالٌ غضّ أبصارهم ذكر المرجع ـ أي الرجوع إلى الله ـ وأراق دموعهم خوف المحشر».

وفي الحديث: «ما اعتصم أحد بمثل ما اعتصم بغضّ البصر، فإنَّ البصر لا يغضّ عن محارم الله إلّا وقد سبق إلى قلبه مشاهدة العظمة والجلال»[١].

٩ ـ الثواب على ترك الحرام: فقد أكدت الأحاديث أنَّ لارتداع الإنسان عن الحرام ثمرات عديدة.

منها: ما رُوي أنَّه: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثمَّ يغضّ بصره إلّا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه».

«من نظر إلى امرأة فرفع بصره إلى السَّماء أو أغمض بصره، لم يرتدّ إليه بصره حتَّى يزوجه الله من الحور العين».

«غضُّوا أبصاركم تروا العجائب».

عِبر من تاريخ الأولياء (ع):

رُوي في قصة موسى عليه السلام وهروبه من فرعون أنَّه لمَّا ورد ماء مدين وساعد المرأتين، ودعته إحداهما إلى بيت أبيها قال لها: امشي خلفي فأنا أكره أن تصيب الرياح ثيابك...[٢].

نُقل أنَّ النَّبي يوسف عليه السلام لبث في منزل الملك وزليخا سبع سنين وهو مطرق إلى الأرض لا يرفع طرفه إليها مخافة من ربِّه..

فقالت له يوماً: ما أحسن عينيك!!

---

(١) بحار الأنوار، ج١٠١ ص٤١.
(٢) قصص الأنبياء: ص٣٣٧.

قال: هما أوّل ساقط على خدي في قبري.

قالت: ما أطيب ريحك!

قال: لو شممت رائحتي بعد ثلاث من موتي لهربت منِّي.

قالت: لم لا تقترب؟

قال: أرجو بذلك القرب من ربِّي.

قالت: فرشي الحرير، فقم واقضِ حاجتي.

قال: أخشىٰ أن يذهب من الجنَّة نصيبي.

قالت: أسلمك إلى المعذبين.

قال: يكفيني ربِّي[1].



(١) النُّور المبين: ص٢٠٣.

فوائد البكور وأضرار السهر

وجاء في وصية الإمام علي عليه السلام لبعض أصحابه:

«أوصيك بتقوى الله... وأن تحافظ على ساعتين من النَّهار: من طلوع الفجر إلى طلوع الشَّمس، ومن العصر إلى غروبها»[١].

* * *

الاهتمام بالأوقات:

يُعتبر الزَّمان والوقت من آيات الله تعالى الَّتي أُمرنا بالتفكُّر فيها والنظر في أسرارها، والتعرُّض لها واغتنام الفرص فيها، لأنَّها محط لنزول الرحمات الإلٰهيَّة فقد ورد: «إنَّ لربّكم في أيَّام دهركم نفحات، ألا فتعرَّضوا لها». ومن تلك الأوقات:

شهر رمضان، وليلة القدر، ويوم الجمعة وليلته، وأوقات الصلاة اليومية قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٨]

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٨، ص٩٠.

ومنها: الصباح والمساء: قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرّعد: ١٥] قال: هو الدعاء قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وهي ساعة إجابة».

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «إنَّ إبليس إنَّما يبثُّ جنوده ـ جنود النَّهار ـ من حين طلوع الفجر إلى مطلع الشَّمس، ويبثُّ جنوده ـ جنود اللَّيل ـ من حين غروب الشَّمس إلى ذهاب الحمرة المغربيَّة فاذكروا الله في هاتين الساعتين ذكراً كثيراً، فإنَّ إبليس يبذل جهده في هاتين الساعتين حتَّى يجعل المرء غافلاً عن ذكر الله»[١].

وهذا يستدعي الاهتمام بالأوقات ومراعاتها، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ خيار عباد الله الَّذين يراعون الشَّمس والقمر والنُّجوم والأظلَّة لذكر الله».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «كنَّا مرَّة رعاة الإبل فصرنا اليوم رعاة الشَّمس»[٢].

كما يستلزم تنظيم حياتنا وفقاً لها وذلك بأن ننام في اللَّيل، ونعمل في النَّهار قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النّبإ: ١٠-١١].

ولكنَّنا في ظل الحياة العصرية وبفعل التطور الصناعي وكثرة أدوات التسلية والترفيه والإعلام فقد تبدلت الحياة لدى أغلب النَّاس

---

(١) المنتخب الجامع: ص٤٥.
(٢) الصلاة: ص٥٣.

فصار ليلهم نهاراً، ونهارهم ليلاً، ممَّا أدَّىٰ إلى خلل في نظام التركيبة الجسدية والمعنوية لدى النَّاس.

ولخطورة هذا الواقع كان من الضروري أن نسلِّط الضوء على أهمية المحافظة على الاستيقاظ باكراً وخطورة السهر ليلاً.

فوائد البكور:

أقسم الله تعالى بالفجر والصباح بقوله: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ١-٢] وقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [التكوير: ١٨].

وذكر الفجر بقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] وذلك لأهمية هذا الوقت وبركته وفضيلته، ومن تلك الفوائد:

١ ـ **البركة**: فعن رسول الله ﷺ: «إنَّ الله بارك لأُمَّتي في بكورها»[1] والبركة في الحديث الشريف هي الطاقة الخيِّرة الَّتي أودعها الله تعالى في هذا الوقت، وقد أثبت العلم أنَّ هناك طاقة عظيمة تنزل من السَّماء وتهبط إلى الأرض بعد أذان الفجر وتدخل عبر نقرة الإنسان ـ وهي الموجودة عند التقاء الرأس بالعنق من الخلف ـ والمستيقظ ينال هذه الطاقة دون النائم.

وبركة الاستيقاظ باكراً تعمُّ حياة الإنسان من الناحية الروحية كالصلاة والذكر، والعقلية كالدراسة والحفظ، والمادية كالصحة والرِّزق...

٢ ـ **الصحة الجسدية**: فقد أثبت العلم الحديث أنَّ أعلى نسبة لغاز الأوزون في الجوّ تكون عند الصبح وتقلّ تدريجياً حتَّى الاضمحلال عند طلوع الشَّمس، ولهذا الغاز تأثير مفيد على النشاط

---

(١) الخير والبركة: ص٢٧٤.

الجسدي والفكري وخصوصاً الجهاز التنفسي، ومن الثابت أنَّ التنفس هو أساس الحياة الصحية فكلَّما دخل غاز الأوزون إلى الجسم من خلال تنفس الهواء النقي زاد نشاط الإنسان.

وقد جاء في بعض الأبحاث الطبية أنَّ جهاز المناعة يكون في غاية الضعف عند الفجر وهذا ما يفسِّر الكسل الجسدي واحتمال انتقال عدوى نزلات البرد والإصابة بنوبات القلب، كما ثبت أنَّ ٧٠٪ من الَّذين تعرَّضوا للإصابة بنوبات القلب عند الصباح، لهذا كلّه كان من الضروري الاستيقاظ باكراً وتقوية جهاز المناعة من خلال حركات الصلاة والمشي والتنفس وتناول ولو لقمة من الطعام، ولذا ورد عن رسول الله ﷺ: «من أراد البقاء ولا بقاء فليباكر الغذاء»[1].

٣ ـ **الصحة العقلية**: فقد أثبتت التجارب العملية أنَّ قوَّة الحفظ والذكاء عند الصباح تفوق بدرجات بقية الأوقات.

ولذا شجَّع الأطباء طلَّاب الجامعة على الاستيقاظ باكراً للدراسة بدلاً من السهر ليلاً، لأنَّ السهر يرهق المخ ويحرمه من التركيز والتذكُّر.

ومن قبل ذلك قال نبينا الأعظم محمَّد ﷺ: «اغدوا في طلب العلم فإنَّ الغدو بركة ونجاح»[2].

٤ ـ **الصحة الروحية**: وهي الأساس في صحة الإنسان، ويتم ذلك من خلال الصلاة والذكر وتلاوة القرآن الكريم، ولذا قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

---

(١) الشفاء في الغذاء: ص٢٢٩ وقد عاش أباؤنا وأجدادنا في صحة جسدية وكان شعارهم في ذلك: «نم بكير وانتبه بكير وشوف الصحة كيف بتصير».

(٢) الخير والبركة: ص٢٧٢.

ولذا كان النبي والأئمَّة عليهم السلام يقضون هذا الوقت بالصلاة وتلاوة القرآن والذكر والدُّعاء حتَّى طلوع الشَّمس.

رُوِيَ أنَّ الإمام علي عليه السلام حينما حُمل من المسجد إلى داره بعدما ضرب على رأسه ليلة التاسع عشر من رمضان وكان الصبح قد طلع قال: «حولوا وجهي إلى جهة المشرق، ثمَّ تلا قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير: ١٨] وقال: يا صبح وسأطلب منك الشهادة على ذلك بأنِّي صليت منذ بدء أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وإلى اليوم لم أنم عنك وكنت أترقبك دائماً»[1].

٥ ـ الحياة المادية: إنَّ تقسيم الأرزاق المعنوية والمادية يقع بين طلوع الفجر وطلوع الشَّمس، فمن استيقظ في هذا الوقت كان رزقه مباركاً، فقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴿٤﴾﴾ [الذاريات: ٤] «إنَّ الملائكة تقسم أرزاق بني آدم ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشَّمس فمن نام ما بينهما نام عن رزقه».

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «باكروا طلب الرِّزق والحوائج فإنَّ الغدو بركة ونجاح»[2].

كراهية النوم بين الطلوعين:

إضافة لما تقدَّم فقد ورد النهي عن النوم بين طلوع الفجر وطلوع الشّمس، فعن الإمام الباقر عليه السلام: «نومة الغداة مشؤومة تطرد الرِّزق وتصفِّر اللون وتغيِّره وهو نوم كل مشؤوم».

---

(١) مشكاة العارفين: ص٤٧.
(٢) الخير والبركة: ص٢٧٢.

وعنه عليه السلام: «النوم أوّل النَّهار حُرق» أي جهل ممَّا يعني أنَّه يسبِّب تبلّد الذهن والحمق.

ومن الطبيعي أنَّ الاستيقاظ باكراً مع النشاط والحيوية مشروط بالنوم باكراً وهو يناسب النظام الطبيعي الَّذي جعله الله تعالى في جسم الإنسان قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان: ٤٧] وفي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «شيعتنا ينامون أوّل اللَّيل»[١].

وفي الخبر «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلَّى العشاء الآخرة آوى إلى فراشه»[٢].

وممَّا يساعد على الاستيقاظ باكراً النوم قليلاً قبل الظهر وهو ما يعرف بـ«القيلولة».

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تعاونوا بأكل السحر على صيام النَّهار، وبالنوم على صلاة في الليل»[٣].

أضرار السهر:

الطابع العام لدى النَّاس هو السهر حتَّى منتصف اللَّيل ثمَّ الإخلاد إلى النوم وفي هذا آفات عديدة منها:

أ ـ إنهاك الجسد المحتاج إلى الراحة والنوم، وقد لا تظهر آثار ذلك مباشرة للقوَّة والشباب الَّتي يتمتع بهما الإنسان، ولكنَّه سيتأثر بذلك بعد مرحلة الكهولة.

ب ـ النوم عن صلاة الصبح وهو ما يوجب الشقاء والحرمان.

---

(١) دراسات في علم النَّفس: ج٢، ص٢٦٩.
(٢) دار السلام: ج٣، ص٧١.
(٣) دار السلام: ج٣، ص٦٧.

ج ـ تضييع الوقت بالتسلية والمسامرة عن ابن عبّاس: «إنّما كُره السمر حين نزلت الآية ﴿...سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧].

قد يُقال: إذا كان السهر مذموماً فلماذا جاء مدح السهر في بعض النصوص، كإحياء ليالي القدر، أو السهر لطلب العلم، فعن الإمام علي عليه السلام «سهر اللّيل شعار المتقين وشيمة المشتاقين».

الجواب: إنَّ السهر المذموم هو ما كان بعد العشاء للتسلية وتضييع الوقت، أمّا السهر بعد ثلثي اللّيل والّذي هو وقت «السحر» فهو ممدوح، ففي الحديث: «لا سهر إلّا في ثلاث: متهجد بالقرآن، وفي طلب العلم، أو عروس تُهدىٰ إلى زوجها».

وفي الخبر سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩] فقال هو السهر في الصلاة»[1].

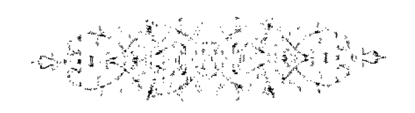
قد يُقال: إذا كان للسهر ضرر وآفات فهو يعمُّ من كان سهره في طاعة الله تعالى أو غير ذلك.

الجواب: إنَّ السهر في طاعة الله تعالى مفيد لصحة الإنسان فعن الإمام علي عليه السلام: «قيام اللّيل مصحة للبدن» وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «صلاة اللّيل تبيض الوجوه، وتجلب الرّزق» وفي حديث أنّها «مطردة الداء عن أجسامكم».

---

(١) مفتاح الفلاح، ص٣٩١.

وقد كشف العلم عن فوائد صلاة اللَّيل فيقول البروفسور «رايتر»: «إنَّ جو العبادة والصفاء الروحي في اللَّيل يزيدان من إفراز «الميلاتونين» وهو الهرمون الَّذي يلعب دوراً هاماً في الحفاظ على صحة الجسم كما يساعد الجسم في القضاء على الجراثيم والفيروسات، كما يساعد في الوقاية من السرطان وفي الحفاظ على حياة صحية ومديدة»[١].



(١) الأسرار الطبية لصلاة اللَّيل: ص٩٤.

المناجاة

عن الإمام علي عليه السلام:

«إلٰهي كفى بي عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً، أنت كما أحبّ فاجعلني كما تحبّ»(١).

* * *

حلاوة المناجاة:

المناجاة مع الله تعالىٰ من أجمل أنواع الصلة بالله تعالىٰ، فهي لذّة روحيّة لا يعدلها شيء من لذائذ الدُّنيا، ففي الحديث أوحى الله تعالىٰ إلى داود عليه السلام: «يا داود بي فافرح وبذكري فتلذّذ وبمناجاتي فتنعّم»(٢).

وبالمناجاة يشعر الإنسان بأنّ الله تعالىٰ قد اختصّه بالإذن بالدُّعاء والذكر وإلّا فمن هو الإنسان حتّى يناجي ربّه خصوصاً إذا كان ممّن عصى الله تعالىٰ بلسانه.

عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «وما عسى أن يبلغ مقداري حتّى

(١) مستدرك نهج البلاغة: ج٦، ص٤٢.
(٢) الجواهر السنية، ص٩٢.

أُجعل محلاً لتقديسك، ومن أعظم النعم علينا جريان ذكرك على ألسنتنا وإذنك لنا بدعائك وتنزيهك وتسبيحك».

وبالمناجاة يعيش الإنسان في رحاب الرحمة الإلٰهيَّة فينال المنعة والقوَّة والعزَّة، فعن الإمام علي عليه السلام: «من لزم الخلوة بربّه فقد حصل في الحمى الأمنع والعيش الأمتع»[(١)].

ولهذا قال الإمام علي عليه السلام:

إلٰهي كفى بي عزّاً أن أكون لك عبداً:

إنَّ كثيراً من النَّاس يرتبطون بأصحاب المناصب الدنيوية ليبتغوا عندهم العزة ـ كما كان سحرة فرعون عندما قالوا: بعزة فرعون إنَّا لغالبون ـ وبذلك فإنَّهم يعيشون حالة التبعية والمذلة لهم.

أمَّا الإمام علي عليه السلام فيرى أنَّ عبوديته لله العزيز تعطيه العزة والحرية ولذلك فهو يفتخر بتلك العبودية، قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فَاطِر: ١٠].

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ الله تعالىٰ يقول كل يوم: أنا ربّكم العزيز، فمن أراد عزَّ الدارين فليطعِ العزيز».

وهذا يعني أنَّ العزَّة لا تأتي من الأُمور الخارجية الفانية وإنَّما من خلال الارتباط الداخلي بالله تعالىٰ الَّذي هو مصدر كل خير وعزّ.

لقد كان الإمام علي عليه السلام يفتخر بعبوديته لله تعالىٰ فيقول: «أنا عبد الله... إنِّي أوَّل النَّاس إيماناً وإسلاماً...»[(٢)] ويقول:

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) موسوعة الإمام علي عليه السلام: ج٨.

وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً:

إنَّ الإنسان الجاهل يفتخر بأنَّ أباه فلان أو أنَّه جلس مع الرئيس الفلاني ولكن الإمام علي عليه السلام يعتبر أنَّ فخره بالله تعالىٰ فهو الخالق، الرازق، العزيز، الرحيم... وقد عبَّر عليه السلام عن ذلك الافتخار بالإيمان في موضوع المفاخرة بينه وبين شيبة والعبَّاس، وفي ذلك يقول تعالىٰ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة: ١٩].

ففخر المؤمن في ارتباطه بالله تعالىٰ وبالصلاة وبالجهاد وبخدمة النَّاس، فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ثلاثة هنَّ فخر المؤمن وزينته في الدُّنيا والآخرة: الصلاة في آخر اللَّيل، ويأسه ممَّا في أيدي النَّاس، وولاية الإمام من آل محمَّد عليهم السلام»[1].

ذلك لأنَّ كلّ شيء ليس له ارتباط بالله تعالىٰ لا فخر فيه وهو زائل ومنقطع.

في الحديث القدسي: قال الله تبارك وتعالىٰ للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «افتخار النَّاس في الدُّنيا على ستة أوجه: أوله بالوجه الحسن، والثاني بالفصاحة، والثالث بالمال، والرابع بالحسب والنسب، والخامس بالقوَّة، والسادس بالمُلك.

قل يا محمَّد لمن افتخر بالوجه الحسن ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وقل لمن افتخر بالمال والولد ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الشُّعَراء: ٨٨].

---

(١) الأمالي، ص٦٣٨.

وقل لمن افتخر بالقوّة ﴿عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقل لمن افتخر بالحسب والنسب ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقل لمن افتخر بالمُلك ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]»[١].

العلاقة المتبادلة بين الله تعالىٰ والعبد:

يقول الإمام علي عليه السلام في مناجاته: «أنت كما أحبّ فاجعلني كما تحبّ».

وفي هذه الكلمة إشارة إلى العلاقة التبادلية بين الله تعالىٰ والعبد، وهي علاقة المحبة قال تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] ومثلها علاقة الرضا قال تعالىٰ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

فالإمام عليه السلام يقول: «أنت كما أحب».

أي أنَّك ترزقني وتستر عليَّ، وتعفو عنِّي، وتحلم عنِّي، . . . فأنت يا ربّ خلقتني لأنَّك تحبني وتفعل بي ما يحبّبني بك، كما نقرأ في دعاء الافتتاح «وتتحبّب إليَّ فأتبغضّ إليك».

ومن أكثر الأشياء الَّتي يتحبّب الله بها هي النعم، ففي دعاء السحر: «تتحبّب إليَّ بالنعم».

وفي الحديث القدسي: «أوحى الله تعالىٰ إلى موسى عليه السلام: أحببني وحبّبني إلى خلقي، فقال موسى عليه السلام: يا ربّ إنَّك لتعلم أنَّه ليس أحداً

---

(١) جواهر الأخبار، ص٨٣.

أحبّ إليَّ منك فكيف لي بقلوب العباد؟ فقال الله تعالىٰ: فذكّرهم نعمتي وآلائي، فإنَّهم لا يذكرون منّي إلَّا خيراً»[١].

ثمَّ يقول الإمام عليه السلام: «فاجعلني كما تحب».

أي اجعلني من عبادك المؤمنين المتقين العابدين المحسنين المجاهدين... وبالرجوع إلى القرآن الكريم نجد أنَّ الله تعالىٰ يحب أُناساً اتصفوا ببعض الصفات الكمالية، وهم: المحسنون، والمتطهرون، والمتقون، والصابرون، والمتوكلون، والمجاهدون.

وقد جاء في نصّ آخر للمناجاة: «أنت كما أريد فاجعلني كما تريد»[٢].

فالإمام عليه السلام لا يريد إلٰهاً يحقق الرغبات أو الثواب والعقاب إنَّ الإلٰه الَّذي أراده الإمام عليه السلام هو من كان أهلاً للعبادة، كما قال عليه السلام: «ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنَّتك، وإنَّما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك».

ماذا يريد الله تعالىٰ منَّا؟

خلق الله تعالىٰ الإنسان حرّاً في إرادته واختياره وهداه إلى طريق الخير والشر، وللوصول إلى الكمال في هذه المرحلة يُبتلى بعدّة أُمور:

١ ـ وجوب اتباع إرادة الله تعالىٰ، فإنَّه تعالىٰ يريد لعباده الخير والسعادة من خلال الأُمور الَّتي أمر بفعلها أو نُهي عنها قال تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ

(١) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٢٢.
(٢) المستدرك: ج٦، ص٤١.

مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥].

كما أنَّه تعالىٰ لا يريد لعباده إلَّا الصلاح في كل أُمورهم حتَّى لو كان ظاهرها مكروهاً، فلا بدَّ من التسليم والرضا بإرادته، فقد أوحى الله تعالىٰ إلى داود عليه السلام: «تريد وأريد ولا يكون إلَّا ما أُريد».

٢ ـ حرمة اتباع إرادة الشيطان لأنَّه لا يريد إلَّا غواية الإنسان وإضلاله قال تعالىٰ: ﴿...وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١].

٣ ـ حرمة اتباع إرادة النفس الأمَّارة بالسوء، فإنَّها لا تريد إلَّا اتباع الشهوات الدنيوية قال تعالىٰ: ﴿...تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

٤ ـ حرمة اتباع إرادة أصدقاء السوء، قال تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٧-٢٨].

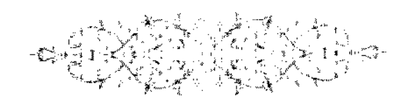
أمام هذه الاختبارات لا بدَّ من تقديم الإرادة الإلٰهيَّة على إرادة النفس والشيطان، فعندما يتعرَّض الإنسان لموقف الزنا والحرام فهل يُقدّم إرادة الله تعالىٰ أم إرادة النفس؟ وهكذا قس في بقية الأُمور.

إنَّ الله تعالىٰ يُعطي عباده ما يريدون فهو القائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

قيل: قرأ أحدهم الآية المباركة آل عمران ١٥٢ فقال: فأين من يريد المولى؟

ماذا يريد منَّا الأئمَة (ع)؟

كان الإمام علي عليه السلام يقول: «إنِّي أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم». فالإمام عليه السلام وبعده أولاده المعصومون عليهم السلام يريدون من النَّاس أن يتقربوا إلى الله تعالىٰ وفي هذا موعظة لكل المبلغين بأن يهتموا بربط النَّاس بالله تعالىٰ لا بأشخاصهم.



حزب الله

عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال:

«أيسرك أن تكون من حزب الله الغالبين؟ اتق الله سبحانه في كل أمرك، فإنَّ الله مع الَّذين اتقوا والَّذين هم محسنون»[١].

* * *

صفات الأولياء في القرآن الكريم:

عندما نتدبَّر في الصفات والمقامات الَّتي ذكرها الله تعالىٰ في كتابه الكريم لعباده الصالحين نجد أنَّها كثيرة وجليلة، فقد وصفهم تعالىٰ بأنَّهم المؤمنون، المتقون، المخلصون، المُقرَّبون، المكرمون، المصطفون، المجتبون، المعصومون، الأبرار، الأولياء، جند الله، وحزب الله.

ولكلٍّ واحدة من هذه الصفات معنى خاص يدلُّ على علو الدرجة والقرب من الله تعالىٰ، وما يهمنا في هذا المجال أن نتكلَّم عن «حزب الله».

---

(١) ميزان الحكمة، مادة «حزب».

مقام «حزب الله»:

إنَّ حزب الله درجة عالية في سلّم الكمال الإنساني، فهذا الإمام زين العابدين عليه السلام مع عظمته وعلوّ شأنه يدعو ربّه أن يجعله منهم فيقول: «اللَّهمَّ اجعلني من حزبك فإنَّ حزبك هم الغالبون، واجعلني من جندك فإنَّ جندك هم المفلحون» ممَّا يعني أنَّه مقام خاص لا يدخله إلَّا من اختاره الله تعالىٰ، ولذا نجد في النصوص الشريفة أنَّه أُطلق على كبار الأولياء عليهم السلام ومن ذلك:

١ ـ **الأئمَّة** عليهم السلام، فعن الإمام علي عليه السلام: «نحن النجباء وإفراطنا إفراط الأنبياء، حزبنا حزب الله، والفئة الباغية حزب الشيطان»[1].

٢ ـ **الشيعة**، فعن سلمان أنَّه قال للإمام علي عليه السلام: «ما اطّلعت على رسول الله صلى الله عليه وآله إلَّا ضرب بين كتفي وقال: هذا وحزبه هم المفلحون»[2].

وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «نحن وشيعتنا حزب الله»[3].

٣ ـ **أويس القرني**، عن الإمام علي عليه السلام: «أخبرني حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله أنِّي أدرك رجلاً من أُمَّته يُقال له: «أويس القرني» يكون من حزب الله ورسوله»[4].

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «حزب».
(٢) الأمثل: ج١٨، ص١٤٥.
(٣) ميزان الحكمة، ج١ ص٦٠٠.
(٤) معرفة الإمام: ج١٢، ص٣١.

معنى حزب الله:

الحزب في اللغة العربية: هم القوم الّذين اجتمعوا على أمر ما مع شدَّة فيهم وغلظة.

فإن كان الاجتماع على باطل كان حزباً شيطانياً، قال تعالىٰ: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: ١٩] وقال تعالىٰ: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ [ص: ١٣].

وإن كان الاجتماع على حق وخير كان حزباً رحمانياً، عن الإمام علي عليه السلام: «إذا كان لا بدَّ من التعصب فليتعصبوا لخلال الحمد»[(١)].

وعنه عليه السلام: «إن كنتم لا محالة متعصبين فتعصبوا لنصرة الحق وإغاثة الملهوف».

فحزب الله هم جماعة تعصبوا لله تعالىٰ ولرسوله وللأئمَّة عليهم السلام ولم يتعصبوا لقومية أو عشائرية وما أشبه.

إنَّ حزب الله بالمفهوم القرآني يُطلق على جماعة اتصفوا بأعلى الصفات الإنسانية والكمالية من حيث عقائدهم وأفكارهم وسلوكهم وأخلاقهم.

وهذا الأمر لا ينطبق على الجماعة والأُمَّة بل على الأفراد كذلك باعتبار أنَّ الفرد يصبح أُمَّة لوحده كما عبَّر الله تعالىٰ عن إبراهيم بأنَّه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠].

---

(١) مائة مسألة مهمَّة: ص٣٠٨.

صفات حزب الله:

لا يكفي الادّعاء أو الشعارات للوصول إلى مقام حزب الله والدخول في جماعتهم، بل لا بدّ من شروط وهي ـ كما جاء في القرآن الكريم ـ:

الأوَّل: الولاية لله تعالى وللرسول ﷺ وللأئمَّة عليهم السلام وهي المحبة والاتباع والتقرّب إليهم.

ويُعبّر عن هذه الولاية بالولاية الطولية وذلك بأن يكون الارتباط بالله تعالىٰ أولاً ثمَّ يمتد الولاء إلى الرسول الأعظم ﷺ ثم يمتد منه إلى الإمام من بعده، وهذا مفاد قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥].

فالارتباط بالإمام علي عليه السلام هو الأساس للدخول في حزب الله وهو معنى «الولاية» في الآية المذكورة، فقد روى الحسن بن طريف قال: كتبت إلى أبي محمَّد عليه السلام أسأله عن معنى قول رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام: «من كنت ولاه فعلي مولاه» فقال عليه السلام: أراد بذلك أن جعله علماً يَعرف به حزب الله عند الفرقة»[1].

وعن الإمام العسكري عليه السلام أنَّه قال لأبي هاشم الجعفري: «أنت في حزب الله وفي زمرته إذا كنت مؤمناً ولرسوله مصدقاً ولأوليائه عارفاً ولهم تابعاً، فابشر ثم ابشر».

ويتفرع على هذه الولاية الطولية الولاء لشيعة الأئمَّة عليهم السلام قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «والولاية للمؤمنين الَّذين لم يغيّروا

---

(١) التاريخ والإسلام: ج٣، ص٤٠.

ولم يبدّلوا بعد نبيهم واجبة مثل سلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري والمقداد بن الأسود الكندي وعمّار بن ياسر وجابر بن عبد الله الأنصاري وحذيفة بن اليمان وأبي الهيثم بن التيهان وسهل بن حنيف ومن نحا نحوهم وفعل مثل فعلهم، والولاية لأتباعهم والمقتدين بهم وبهداهم واجبة»[١].

وهذا يعني وجوب الموالاة لكل موالٍ للأئمَّة في أي مكان كان وإلى آخر الزمان، مهما كان لونه وعرقه ولسانه، فإنَّهم كما قال رسول الله ﷺ: «حزبهم حزبي وحزبي حزب الله»[٢].

فلا يجوز البراءة من أي موالٍ لأهل البيت عليهم السلام، ولا يجوز إيذاؤه وإهانته والاستخفاف به قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠].

كما أن الولاية تقتضي الاتباع الكامل في فعل الواجبات واجتناب المحرمات، وهذا ما عبَّر عن الإمام علي عليه السلام بقوله: «أيسرّك أن تكون من حزب الله الغالبين؟ اتق الله سبحانه في كل أمرك فإنَّ الله مع الَّذين اتقوا والَّذين هم محسنون»[٣].

وفي رسالة الإمام الصَّادق عليه السلام إلى أصحابه: «ومن سرّه أن يتم الله له إيمانه حتَّى يكون مؤمناً حقاً فليفِ لله بشروطه الَّتي اشترطها على المؤمنين، فإنَّه قد اشترط مع ولايته وولاية رسوله وولاية أئمَّة المؤمنين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإقراض الله قرضاً حسناً، واجتناب الفواحش

---

(١) سفينة البحار: ج١، ص١٣٩.
(٢) ميزان الحكمة: «حزب».
(٣) ميزان الحكمة: مادة «حزب».

ما ظهر منها وما بطن، فلم يبق شيء ممّا فسّر ممّا حرّم الله إلّا وقد دخل في جملة قوله: فمن دان الله فيما بينه وبين الله مخلصاً ولم يرخص لنفسه في ترك شيء من هذا فهو عند الله في حزبه الغالبين وهو من المؤمنين حقاً»(١).

الثاني: البراءة من أعداء الله ورسوله والأئمَّة عليهم السلام وإليه أشارت الآية المباركة بقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]

فلا بدَّ من التبري من شياطين الجنّ والإنس وأتباعهم حتّى ولو كانوا من أقرب النّاس إلينا رحماً وفي زيارة عاشوراء: «برئت إلى الله وإليكم منهم ومن أشياعهم وأتباعهم وأوليائهم».

حزب الله هم الغالبون:

من الطبيعي أن يتعرَّض مجتمع حزب الله للمحاربة من حزب الشيطان إلّا أنَّ الله تعالى وعد حزبه بالنصر والغلبة دائماً قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٦].

والتعبير بـ«غالبون» للدلالة على الثبوت والدوام، ولم يقل «يغلبون» كجملة فعلية تدلُّ على الحدوث والتصرم.

وقال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١].

---

(١) سفينة البحار: مادة «مؤمن».

فحزب الله هم الغالبون ـ أي المسيطرون ـ وهم المفلحون ـ الَّذين يحققون أهدافهم وغاياتهم ـ.

قد يُقال: كيف يصدق عليهم الغلبة والحال أنَّهم مقهورون ومستضعفون في بعض الأحوال؟

الجواب: إنَّ الغلبة في المفهوم الديني ليست بالسيطرة العسكرية فحسب بل هي بغلبة الأهداف العليا، فالإمام علي عليه السلام ينتصر وهو يُضرب بالسيف على رأسه ويقول: «فزت ورب الكعبة» والإمام الحسين عليه السلام ينتصر وهو صريع على أرض كربلاء، ولذا قال الإمام زين العابدين عليه السلام بعد عودته إلى المدينة المنورة لرجل سأله: من المنتصر؟ قال عليه السلام: إذا أذّن المؤذن تعلم من انتصر[1].

وقالت السيِّدة زينب: «ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء».

حزب الشيطان:

ذكر الله تعالىٰ حزبه في كتابه ومدحهم، كما ذكر حزب الشيطان وذمَّهم ولعنهم قال تعالىٰ: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٩﴾ [المجادلة: ١٩].

وحزب الشيطان هم الَّذين اتخذوا الشيطان ولياً من دون الله قال تعالىٰ: ﴿... إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وهم موجودون في كل زمان ومكان، وعلى رأسهم حزب

---

(١) مقتل الحسين، للمقرّم.

الفراعنة، والطواغيت، والمنافقين، قال تعالىٰ عن قوم عاد وثمود: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لَـْٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣﴾ [ص: ١٣].

وقال تعالىٰ عن بني أُميَّة وبني المغيرة: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾ [ص: ١١].

فقد عبَّر الإمام علي عليه السلام عن الناكثين بقوله: «ألا وإن الشيطان قد دمَّر حزبه»(١).

بين حزب الله وحزب الشيطان:

ذكر الله تعالىٰ في كتابه حزبين وهما، حزب الله وحزب الشيطان ليذكّر النَّاس بضرورة الموالاة لله ولرسوله وأوليائه والابتعاد عن موالاة الكافرين والمنافقين، وليبين أنَّه لا ثالث لهما، فأمَّا أن يدخل الإنسان في حزب الله أو في حزب الشيطان.

فحزب الله هم الغالبون وحزب الشيطان هم الخاسرون.

وحزب الله هم المفلحون وحزب الشيطان هم الملعونون.

وبالمقارنة بين صفات حزب الله وحزب الشيطان نجد أنَّ حزب الله يتعصبون للحق والعدل والسلام والمحبة وكل الصفات الأخلاقية.

أمَّا حزب الشيطان فيتعصبون للباطل والظلم والفساد وسائر الرذائل الأخلاقية إنَّ حزب الله يوالون كل شيعي مهما كان لونه وجنسه، ويقدمون له يد المساعدة والعون، ويدافعون عنه بكل قواهم، أمَّا حزب الشيطان فيظلمون، ويفسدون، وينشرون معايب النَّاس، ويشككون في الآخرين، ويعادون كل من يخالفهم الرأي.

---

(١) ميزان الحكمة، مادة «حزب».

عالم الغيب والشهادة

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«لو كُشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»[١].

❊ ❊ ❊

دلالة الكلمة العلوية:

تدلُّ هذه الكلمة العلوية على الدرجة العلية الَّتي وصل إليها الإمام علي عليه السلام، وهي «اليقين» بأعلى درجاته، وبذلك فقد فاق عليه السلام كل الأولياء عليهم السلام ما عدا النبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذا جاء في المناظرة بين الحجَّاج وحرَّة بنت حليمة السعدية أنَّه قال لها: فبما تفضلينه ـ الإمام علي عليه السلام ـ على أبي الأنبياء إبراهيم الخليل؟ فقالت: الله تعالىٰ فضَّله بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] ومولاي قال: «لو كُشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً» وهذه كلمة ما قالها أحد قبله ولا بعده[٢].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج١، ص٣١٧.
(٢) الإمام علي من حبّه عنوان الصحيفة: ص٢٥١.

كما تدلُّ الكلمة على أنَّ عوالم الغيب حاضرة عند الإمام علي عليه السلام حيث كُشفت له الحجب، فعاين كل شيء بقلبه.

وللوقوف على معنى الكلمة وأبعادها لا بدَّ من بيان أُمور:

أوَّلاً: عوالم الغيب والشهادة:

تنقسم العوالم إلى قسمين:

الأوَّل: عالم الشهادة وهو عالم المادَّة المحسوس الَّذي نلمسه ونشمه ونشاهده.

الثاني: عالم الغيب المستور عن حواسنا وهو ينطبق على كلّ ما غاب عن حواس النَّاس من الموجودات سواء أكانت من الموجودات المجرَّدة ـ وهو الموجود الَّذي ليس له خصائص المادَّة ـ كالملائكة والأرواح والكهرباء والجاذبيَّة، أو الماديَّة كاليوم الآخر والإمام الحجَّة (عج)، أو المنزَّه عن المجرَّد والمادي كذات الله تعالىٰ.

عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنَّه قال في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البَقَرَة: ٣]: «يعني ما غاب عن حواسهم من الأُمور الَّتي يلزمهم الإيمان بها كالبعث والحساب والجنَّة والنَّار وتوحيد الله وسائر ما لا يعرفون بالمشاهدة وإنَّما يُعرف بدلائل قد نصبها الله تعالىٰ دلائل عليها كآدم وحوَّاء وإدريس ونوح وإبراهيم والأنبياء الَّذين يلزمهم الإيمان بحجج الله تعالىٰ وإن لم يشاهدوهم ويؤمنون بالغيب وهم من الساعة مشفقون»[١].

وقد ذكر الله تعالىٰ كلا العالمين بقوله: ﴿...عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِۚ﴾ [الأنعام: ٧٣].

---

(١) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام.

وهنا سؤال يطرح نفسه:

هل على الغيب ستار يمنع الإنسان من الاطّلاع عليه؟ أم أنَّ في الإنسان حجاب ومحدوديَّة يمنعانه من التعرُّف عليه؟

والجواب على ذلك يحتاج إلى مقدِّمة وهي:

ينقسم الموجود إلى قسمين: المحدود وغير المحدود:

والمحدود هو: المقيّد بقيود الزمان والمكان، بحيث إنَّه لو وجد في زمان أو مكان ما فإنَّه لا يوجد في غيره.

واللامحدود: هو الموجود في كلّ زمان ومكان.

والإنسان هو ذاك الموجود المحدود في حدود الزمان والمكان، إلَّا أنَّه كلَّما استطاع أن يرتفع عن حدود الزمان والمكان فإنَّه سيزداد معرفة بما وراء حدود المادَّة وعلى سبيل المثال نقول:

إذا جلس شخصٌ في غرفة وصار ينظر إلى الخارج عبر النافذة فإنَّه سيرى جزءاً محدوداً من العالم المادي الخارجي الَّذي يحيط به، ولكنَّه لو صعد إلى سطح الغرفة فسيرى جزءاً أكبر، ولو صعد إلى أعلى فسيرى أكثر وأوسع ممَّا رآه، وهكذا كلَّما تصاعد وخرج عن حدود المكان فإنَّه سيرى أكثر فأكثر.

بعدما تقدَّم نقول:

إنَّ محدوديَّة الإنسان هي الَّتي تمنعه من الاطّلاع على الغيب ولو استطاع أن يرتفع عن حدود المادَّة ويزيل الحجب الظلمانيَّة عن نفسه فسيصل إلى مرحلة يصبح عنده كالشهود.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «لولا أنَّ الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لرأوا ملكوت السَّماوات والأرض»[١].

قد يُقال: كيف تستطيع الرُّوح الاطّلاع على عالم الغيب؟

الجواب: إنَّ حقيقة الإنسان هي «الروح» فمن خلالها يتمّ تحريك الجسد وإدراك الأشياء، فعندما يبصر الإنسان بعينه أو يسمع بأذنه أو يلمس بيده تكون الروح هي المُدركة لكلّ هذه الإحساسات، ولكن بواسطة هذه الآلات البدنيَّة، وكلَّما ارتفعت الروح عن محدوديَّة الحواس فإنَّها تدرك أشياء لا تنالها الحواس، ومن ثمَّ نجد في النُّصوص الدينيَّة أنَّ الميت يطَّلع على عوالم الغيب بعد الموت، وليس ذلك إلَّا لانفصال الروح عن البدن واستغنائها عن الجسد، وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «النَّاس نيام إذا ماتوا انتبهوا»[٢].

إنَّ هذا الحديث أكثر دلالة على حقيقة الوجود الإنساني على الأرض، حيث شبَّه الإمام عليه السلام الإنسان في الحياة الدُّنيا بالنائم رغم عمل حواسه لارتباطه بالمادَّة، وحين يخلع عنه هذا الرداء بالموت تستيقظ حواسه الروحيَّة فيرى الأُمور على حقيقتها.

فإذا كانت الروح تدرك الغيب بعد خروجها من الجسد فيمكن أن تدركه قبل خروجها منه فيما لو ارتقى الإنسان عن التعلُّق بالمادِّيات، وأمات شهواته، فتهجر حينها الروح الجسد وتُفتح لها أبواب الملكوت، ومن هنا ورد في الحديث الشريف: «موتوا قبل أن تموتوا»[٣].

---

(١) تفسير الميزان: ج٥، ص٢٧٦.
(٢) خصائص الأئمَّة: ص١١٢.
(٣) بحار الأنوار: ج٦٩، ص٥٩.

وعنه ﷺ: «ما من عبد إلّا وفي وجهه عينان يبصر بهما أمر الدُّنيا، وعينان في قلبه (ويقصد بالقلب الروح) يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد بعبد خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما ما وعده بالغيب فآمن بالغيب على الغيب»[1].

ثانياً: الغطاء:

يُستفاد من القرآن الكريم أنَّ على الإنسان غطاءً وحجاباً من المعاصي والذُّنوب يمنعه من رؤية عالم الغيب قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ [الكهف: ١٠١].

ويستطيع الإنسان أن يكشف هذا الغطاء بالإيمان والعمل الصالح، فإن لم يفعل ذلك في الدُّنيا فسينكشف له بعد الموت قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ١٩-٢٢].

والملاحظ في هذه الآيات أنّه تعالىٰ ذكر أنَّ الغطاء كان على الإنسان فقد قال تعالىٰ: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ [ق: ٢٢] ولم يقل: «فكشفنا عنها غطاءها» وعليه فمن استطاع أن يميت نفسه وشهواته في الدُّنيا فسيكشف له غطاء الموت.

ولذا ورد في الحديث القدسي: «يابن آدم لا يخلُصُ عملُك حتّى تذوق أربعَ موتاتٍ الموت الأحمر والموت الأصفر والموت الأسود، والموت الأبيض. الموت الأحمر احتمال الجفاءِ وكفُّ الأذى، والموت الأصفر الجوع والإعسار، والموت الأسود مخالفة النَّفس

---

(١) ميزان الحكمة: ج٨، ص٢٢٤.

والهوى فلا تتَّبع الهوى فيضُلّك عن سبيل الله، والموت الأبيض العُزلة»[١].

ثالثاً: الكشف عن عالم الغيب:

الكشف في اللغة «رفع الحجاب» يُقال: كشفت المرأة وجهها أي رفعت نقابها، وفي مصطلح أهل العرفان: «رفع الحجب والاطلاع على ما ورائها من الحقائق الغيبيَّة».

وقد قسَّم العرفاء الكشف إلى قسمين:

الأوَّل: الكشف الصوري وهو انكشاف الغطاء عن عالم المثال فمن خلاله يستطيع الإنسان رؤية صور الأشياء المادَّية، كرؤيته لصور الأرواح المتجسِّدة، والأرواح الَّتي انتقلت من عالم الدُّنيا إلى الآخرة، وما يحصل لها من سعادة أو شقاء، ومن هذا الباب رؤيته للجنّ والشياطين ولحقائق النَّاس.

وهذا الكشف الصوري ليس مختصّاً بالمؤمنين بل هو مشترك بين المؤمنين والكافرين والمنافقين، وهذا ما يفسّر ظهور بعض الغرائب من غير المؤمنين.

الثاني: الكشف الحقيقي المعنوي وهو انكشاف الغطاء عن الحقائق الغيبيَّة بحيث يراها الكاشف كما هي، وهي مرتبة لا تحصل إلَّا للأولياء المخلصين المطهرين من كل رجس.

وللتقريب نقول: كما أنَّ للرؤية البصرية مراتب تختلف باختلاف حال الرائي ـ من الصحة والمرض واعتدال المزاج وفساده ـ وحال المرئي ـ من بُعده وقُربه وصِغره وكبره ـ فإذا نظر الإنسان في اللّيل

(١) كلمة الله: ص٤٧٩.

المظلم إلى رجلٍ حياله فلعلَّه لا يرى شخصه ولا شبحه، فإذا انكشف الظلام بطلوع القمر فلعلَّه يرى شبحه غير أنَّه لا يميِّزه، فإذا طلع الفجر وازداد النُّور في السَّماء فإنَّه يستطيع أن يميِّزه ويعرفه بخصوصياته وهكذا كلَّما انكشف الظلام وظهر النُّور ازداد معرفة بمنْ يقف حياله كذلك فإنَّ للرؤية القلبية والروحية مراتب متعددة تختلف باختلاف أحوال الرائي، فمنهم من يرى حقائق عالم الدُّنيا وما فيها من البشر والحجر، ومنهم من يرى حقائق عالم البرزخ، ومنهم من يرى ملكوت السَّماوات والأرض كما حصل لإبراهيم الخليل عليه السلام.

عن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٥] قال: «كشط لإبراهيم عليه السلام السَّماوات السبع حتَّى نظر إلى ما فوق العرش وكشط له الأرض حتَّى رأى ما في الهواء وفُعل بمحمَّد صلى الله عليه وآله وسلم مثل ذلك، وإنِّي لأرى صاحبكم والأئمَّة عليهم السلام من بعده قد فُعل بهم مثل ذلك»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «ما من عبد إلَّا وفي وجهه عينان يبصر بهما أمر الدُّنيا، وعينان في قلبه (والمراد بالقلب الروح) يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد بعبدٍ خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بها ما وعده بالغيب فآمن بالغيب على الغيب»[٢].

وقد عبَّر صلى الله عليه وآله وسلم عن بصره العيني بقوله عن الإسراء والمعراج: «فجعلت أبصر بقلبي (أي بروحي) كما أبصر بعيني بل أبعد وأبلغ»[٣].

---

(١) بصائر الدرجات: ص١٠٧.
(٢) ميزان الحكمة: ج٨، ص٢٢٤.
(٣) بحار الأنوار: ج١٨، ص٣٩٥.

رابعاً: مراتب اليقين:

يُستفاد من الروايات الشريفة أنَّ اليقين هو أعلى مراحل الإيمان، ففي الحديث عن الإمام أبي الحسن عليه السلام قال: «الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، وما قسّم في النَّاس شيء أقل من اليقين»(١).

وعن الإمام الحسن عليه السلام: «الإيمان ما سمعناه بأذاننا وصدقناه بقلوبنا، واليقين ما أبصرناه بأعيننا واستدللنا به ما غاب عنّا»(٢).

واليقين على مراحل ودرجات، فمثلاً: عندما يرى الإنسان دخاناً من بعيد فسيحصل لديه اليقين بوجود النَّار ثمَّ إذا اقترب وشاهد النَّار فسيزداد يقينه، فإذا وضع يده على النَّار وأحس بحرارتها فيكمل يقينه إلى أعلى الدرجات، وتُسمَّى المرحلة الأولى «بعلم اليقين»، والمرحلة الثانية «بعين اليقين»، والمرحلة الثالثة «بحق اليقين»، وإلى ذلك تشير سورة التكاثر قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ٥-٨].

فمن وصل إلى درجة «علم اليقين» فسيرى الآخرة كما هي، كما قال تعالىٰ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦﴾ [التكاثر: ٦] وبالتالي لن يقع في المعصية مهما تعرض إلى الإغراءات الدنيوية، فكيف بمن يصل إلى درجة «حق اليقين».

وللتقريب: إذا علم الإنسان أنَّ في الأسلاك الكهربائية طاقة من

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٧ ص١٣٦.
(٢) ميزان الحكمة، مادة «يقين».

شأنها أن تقتله إذا مسَّها من دون حاجز فسيمتنع عن لمسها ولو تعرض لكل إغراءات الدُّنيا.

ومن هنا تدرك سرّ العصمة في الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام فقد وصلوا إلى اليقين بوجود الحساب والجزاء والجنة والنار وبالتالي لا يمكن أن تصدر منهم عليهم السلام معصية مهما كانت الأحوال.

ولذا ورد عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «والله لو أعطيت الأقاليم السبع بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت».

يُستفاد ممَّا تقدَّم أُمور:

١ ـ أنَّ الإمام علي عليه السلام في أعلى درجات الكمال لأنَّه وصل إلى أعلى مراتب اليقين فلو كُشف له عن غطاء عالم الآخرة لما ازداد يقيناً به.

عن صفوان قال: «سألت الرِّضا عليه السلام عن قوله الله تعالىٰ لإبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] أكان في قلبه شك؟ قال عليه السلام: لا، كان على يقين ولكنَّه أراد من الله الزيادة في يقينه»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ عيسى ابن مريم كان يمشي على الماء ولو زاد يقيناً لمشى في الهواء»[٢].

٢ ـ أنَّ عالم الغيب حاضر لدى الإمام علي عليه السلام، فلا فرق عنده بين الغيب والشهود، فلو مات وكُشف له الغطاء لما ازداد يقيناً لأنَّه

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «يقين»، ج٤ ص٣٧٢١.
(٢) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

وصل إلى أعلى درجاته، ـ وهنا يعني انكشاف الغطاء بالموت للآية في سورة ق ـ ولو رفعت الحجب عن حواسه لما ازداد يقيناً كذلك.

٣ ـ أنَّه عليه السلام على يقين من الحق والصراط المستقيم كما قال عليه السلام: «ما شككت في الحق مذ رأيته»[١].



(١) بهج الصباغة: ج٣، ص١٢.

الخوف والفزع

عن الإمام علي عليه السلام:

«إذا اشتدَّ الفزع فإلى الله المفزع»[١].

* * *

غريزة الخوف:

الخوف والفزع من الأُمور الَّتي أوجدها الله تعالىٰ في غرائز الإنسان لوقايته من الأخطار والبلايا، فمن الطبيعي أن يخاف الإنسان من الزلازل والحروب والأمراض والحيوانات المؤذية، فالنبي موسى عليه السلام خاف من الحية الَّتي كانت عصا، وصحابة النبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم خافوا من الكفَّار في معركة الأحزاب، إلى ما هنالك من الأمثلة التاريخية المذكورة في القرآن الكريم.

كما أنَّ من الطبيعي أنَّ الخائف بحاجة إلى ملجأ يأمن فيه فالطفل يلجأ إلى أبويه والرجل يلجأ إلى شخص أقوى منه، وقد كان الصحابة يلجأُون إلى النبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم عند حصول الكوارث الطبيعيَّة أو في

---

(١) وسائل الشيعة: ج٤، ص١٠٩٤.

الحروب، عن الإمام علي عليه السلام: «كنَّا إذا احمرَّ البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله فما يكون أحد أقرب إلى العدوّ منه»[١].

الفزع إلى الله تعالىٰ:

وقد علَّمنا النبي والأئمَّة عليهم السلام أن نفزع إلى الله تعالى، ونلجأ إليه، ونعصتم به، ونستعيذ به عند حصول الأخطار والأهوال، فإليه يرجع الأمر كلّه، وهو القادر على كشف البأساء والضرَّاء...

ومن هنا قال الإمام علي عليه السلام: «إذا اشتدَّ الفزع فإلى الله المفزع».

وقال عليه السلام في وصيته لولده الحسن عليه السلام: «وألجىء نفسك في أُمورك كلّها إلى إلٰهك، فإنَّك تُلجئها إلى كهف حريز ومانع عزيز»[٢].

وجاء في دعاء شهر رمضان المبارك: «يا مفزعي عند كربتي ويا غوثي عند شدتي، إليك فزعت، وبك استغثت، وبك لذت، لا ألوذ بسواك، ولا أطلب الفرج إلَّا منك، فأغثني وفرِّج عنِّي».

لقد جسَّد الأولياء عليهم السلام حقيقة الفزع إلى الله تعالىٰ في المواقف العصيبة الَّتي تعرضوا لها، فإبراهيم الخليل عليه السلام لما أُلقي في النَّار جاءه جبرائيل فقال له: هل لك إليَّ من حاجة؟ قال إبراهيم: أمَّا إليك فلا وأمَّا إلى رب العالمين فنعم، فأوحى الله إلى النَّار ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩][٣].

وهكذا الحال مع يوسف عليه السلام لما أُلقي في البئر، ودخل السجن.

قد يفزع الإنسان إلى غير الله تعالىٰ ـ كالماديين الَّذين ينكرون

---

(١) ذلكم رسول الله صلى الله عليه وآله: ص١١٣.
(٢) قصص الأنبياء، ص١٢٠.
(٣) قصص الأنبياء: ص١٥٩.

وجود الله تعالىٰ ـ إلّا أنّهم في الأهوال العظيمة لن يلجأوا إلّا لله تعالىٰ، ففرعون كان ينكر وجود الله تعالىٰ إلّا أنّه في اللحظات الأخيرة من عمره ـ وهو في وسط الأمواج المتلاطمة في البحر ـ قال آمنت برب موسى.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٣٢].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١].

ورُوي أنَّ رجلاً جاء إلى الإمام الصَّادق عليه السلام وسأله عن الله تعالىٰ فقال عليه السلام: هل ركبت سفينة قطّ؟ فقال: بلى. فقال عليه السلام: فهل كُسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم. فقال عليه السلام: فهل تعلّق قلبك أنَّ شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلّصك من ورطتك؟ قال: نعم. قال عليه السلام: فذلك الشيء، هو الله القادر على الإنجاء حين لا منجي وعلى الإغاثة حين لا مغيث»[١].

كيف نفزع إلى الله تعالىٰ:

١ ـ ذكر الله تعالىٰ: فعن الإمام علي عليه السلام: «ذكر الله قوّة النفس»[٢].

---

(١) حق اليقين: ص٣٤.

(٢) ميزان الحكمة، ج١ ص٧٨١.

ولذا فإنَّ مريم عليها السلام لما فزعت قالت: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٨].

ولما كان نوح عليه السلام في السفينة أوحى الله إليه: «إن خفت الغرق فهلّلني ألفاً ثمَّ اسألني النجاة أنجك ومن آمن معك، فلما فزع من الريح والأمواج ولم يستطع أن يردّد لا إله إلَّا الله القادر قال بالسريانية «هلوليا ألفاً يا ماريا أتقن» فاستقرت السفينة»[١].

٢ ـ الدُّعاء: فعن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ لله سبحانه سطوات ونقمات، فإذا نزلت بكم فادفعوها بالدُّعاء فإنَّه لا يدفع البلاء إلَّا الدُّعاء»[٢].

٣ ـ الصلاة: ففيها الدُّعاء والذِّكر وتلاوة القرآن والركوع والسجود ولذلك صارت من أهم الطرق للفزع إلى الله تعالىٰ عند نزول البلاء... ولعلَّ من أبرز مظاهر الصلاة في هذا المجال «صلاة الاستسقاء».

وفي الحديث: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا حزنه أمر فزع إلى الصلاة».

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «كان علي إذا هاله شيء قام إلى الصلاة، ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥][٣].

٤ ـ التضرُّع إلى الله تعالىٰ: وهو خشوع القلب مع البكاء ورفع اليدين إلى السَّماء، قال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ

---

(١) تواريخ الأنبياء: ص٣٧.
(٢) ميزان الحكمة، ج٢ ص٨٧١.
(٣) أسرار الدعوات: ص٧٠.

﴿ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥] ولعلَّ أبرز مثال في التضرُّع ما حصل مع قوم يونس عليه السلام لما نزل بهم العذاب.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ما ردَّ الله العذاب إلَّا عن قوم يونس وكان يونس يدعوهم إلى الإسلام فيأبون ذلك... فدعا عليهم فأوحى الله إليه: أن يأتيهم العذاب في سنة كذا وكذا، فلما قرب الوقت خرج يونس عليه السلام مع العابد وبقي العالم فيها، فلما كان في ذلك اليوم نزل العذاب فقال العالم لهم: يا قوم افزعوا إلى الله فلعلَّه يرحمكم فيرد العذاب عنكم، فقالوا: كيف نفعل؟ قال: اخرجوا إلى المفازة وفرقوا بين النِّساء والأولاد، وبين الإبل وأولادها وبين البقر وأولادها وبين الغنم وأولادها ثمَّ ابكوا وادعوا، فذهبوا وفعلوا ذلك وضجُّوا وبكوا فرحمهم الله وصرف ذلك عنهم وفرَّق العذاب على الجبال»[(١)].

٥ ـ **الصوم**: فعن الإمام الصَّادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣] أنَّه قال: «الصبر الصيام... إذا نزلت بالرجل النازلة الشديدة فليصم فإنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] يعني الصيام»[(٢)].

وفي الخبر «كان الإمام علي عليه السلام إذا أحزنه أمر صلَّى ألف ركعة وصام ثلاثة أيَّام وتصدَّق».

اللجوء إلى الله تعالىٰ:

خلق الله تعالىٰ الإنسان ضعيفاً في بدنه بحيث يتأثر بكل ما حوله

---

(١) قصص الأنبياء: ص٥٨٥.

(٢) مواهب الرّحمٰن: ج٣، ص١٧٥.

من أحداث كونية أو أخطار طبيعية واجتماعية وغير ذلك، فهو يتخبط بين الألم والمرض والحزن والتعب وما أشبه... عن الإمام الصّادق عليه السلام: «ثلاثة أشياء لا ينبغي للعاقل أن ينساهن على كلِّ حال: فناء الدُّنيا وتصرف الأحوال والآفات الَّتي لا أمان لها»(١).

وفي ظلّ هكذا حال كان من الضروري للإنسان أن يعبد ربّه ويذكره ويسأله في كلِّ حال، إلّا أنّه قد يغفل عن ربّه ويستغرق في ملذّات الدُّنيا لذلك فقد يبتليه الله تعالىٰ ببعض البلايا المخوفة كالزلازل والكوارث الطبيعية كي يعود إلى ربّه ويلجأ إليه.

عن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ الله تبارك وتعالىٰ جعل مع كل قحط خصباً، ومع كل مساءةٍ رخاءً، ومع كل عُسر يسراً، ومع كل حزن فرحاً، ومع كل غلاء رخصاً لكي تجأروا إلى ربكم وتنيبوا إليه»(٢).

فاللجوء إلى الله تعالىٰ يدفع البلاء ويكشف الضرَّاء ويمدُّ الإنسان بالقوَّة والمنعة والعزَّة، ولذا قال الإمام علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «وألجىء نفسك في أُمورك كلها إلى إلٰهك، فإنَّك تُلجئها إلى كهف حريز ومانع عزيز»(٣) فهو تعالىٰ الملجىء الأخير للإنسان.

قيل: إنَّ ملكاً تعرض لمرض عضال، وبعد أن راجع عدَّة أطبَّاء وصفوا له علاجاً غريباً، وهو أن يأكل قلب شاب صغير... فأمر الملك حاشيته بالبحث عن شاب وشراء قلبه، فوجدت الحاشية عائلة فقيرة تعيش في ذلك البلد فساوموها على شراء ولدها لذبحه وتقديم قلبه للملك ليشتفي لبه، فقبلت العائلة هذا العرض مقابل مبلغ من المال،

---

(١) بحار الأنوار: ج١٧، ص١٨٣.
(٢) مستدرك نهج البلاغة: ج٩، ص٨.
(٣) نهج البلاغة.

فلما أحضروا الشاب لذبحه، حوّلَ وجهه نحو السَّماء وضحك، فتنبه الملك لتلك الحالة فسأله عن سبب ضحكه فأجاب الشاب:

إنِّي كنت أفكر في أنَّه إذا آذاني أحد أذهب إلى والدتي فتدافع عنِّي وإذا لم تقدر أذهب إلى والدي، وإذا لم يتمكنا من الدفاع عنِّي كنت سأذهب إلى الملك للدفاع عنِّي، ولكني أضحك اليوم على نفسي لأنِّي أجد والديّ قد باعاني إلى الملك، ورضيا أن يُراق دمي بما نالاه من حطام الدُّنيا، والملك يريد ذبحي ليبرىء نفسه من علتها، إذن لم يبقَ لي هنالك ملجأ إلَّا الله الَّذي لا ملجأ سواه وأنشد:

إلى الله أشكو منك ما قد ينوبني   وأنت رجائي في الخطوب وموئلي

فرقَّ له قلب الملك واغرورقت عيناه بالدموع وقال: إنَّ الأولى بي أن أهلك بعلّتي على أن أريد دم مثل هذا الغلام البريء، وضمه إليه وقبَّله بين عينيه ونفحه بهدية نفيسة وأطلق سراحه. فقيل إنَّه لم يمض أسبوع على ذلك الملك حتَّى منَّ الله عليه بالشفاء).

وأمَّا اللجوء إلى غيره تعالى فهو خسران وضلال، إذ كيف يلجأ عبدٌ إلى عبدٍ؟ وكيف يعتمد ضعيفٌ على ضعيفٍ؟ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

رُوي أنَّ ثلاثة أشخاص هربوا من الأمطار ليختبئوا في كهف وإذا بالكهف يتحول إلى مكان للموت إلَّا أنَّهم أخيراً لجأوا إلى ربّهم فنجّاهم وإليك أخي القارىء هذه القصة بتفاصيلها لما فيها من العِبر والدلالات.

عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنَّ ثلاثة نفر انطلقوا إلى الصحراء فمطرتهم السماء فلجأوا إلى كهف في جبل ينتظرون إقلاع المطر فبينما هم كذلك إذ هبطت صخرة من الجبل وجثمت على باب الغار فيئسوا

من الحياة والنجاة فقال أحدهم: لينظر كل واحد منكم إلى أفضل عمل عمله فليذكره ثم ليدعُ الله عسى أن يرحمنا وينجّينا.

فقال أحدهم: اللّهم إنّك تعلم أنّي هويت امرأة ولقيت في شأنها أهوالاً حتى ظفرت بها ولكني تركتها خوفاً منك فإن كنت تعلم أنّه ما حملني على ذلك إلّا مخافتك فافرج عنّا، فمالت الصخرة عن مكانها حتى دخل عليهم الضوء.

وقال الآخر: اللّهم إنّك تعلم إنّي استأجرت أجراء فعملوا لي فوفيتهم أجورهم إلّا رجلاً واحداً ترك أجره عندي وخرج مغاضباً، فربّيت أجره حتى نما وبلغ مبلغاً، ثمّ جاء الأجير فطلب أجرته فقلت: هاك ما ترى من المال، فإن كنت عملت لك فافرج عنّا، فانفرجت الصخرة حتى لو شاء القوم أن يخرجوا لقدروا.

فقال الثالث: اللّهم إنّك تعلم أنّي كنت بارّاً بوالديّ وكنت آتيهما بغبوقهما فيغتبقانه فأتيت ليلة بغبوقهما فوجدتهما قد ناما وكرهت أن أوقظهما وكرهت الرجوع فلم يزل ذلك دأبي حتى طلع الفجر، فإن كنت عملت ذلك لوجهك فافرج عنّا، فمالت الصخرة وانطلقوا سالمين، وقال ﷺ: مَن صدق نجا»[١].



(١) شرح رسالة الحقوق، ج١، ص٥٧٧.

الغربة

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«**فقد الأحبَّة غربة**»[١].

❊ ❊ ❊

مرارة الغربة:

الغربة من أقسى الحالات النفسية الَّتي يعيشها الإنسان، فالغريب يعاني من الضعف، والحاجة، والحزن، واليأس، وقد يصل الأمر به إلى الموت فبعض الحيوانات تموت إذا نُقلت من بيئتها إلى بيئة أُخرى.

ما هي الغربة؟

هي وجود الإنسان في مكان مع عدم وجود روابط بينه وبين أهل المكان، فمن يسافر من بلده إلى بلد مختلف بلغته وعاداته وتقاليده فإنَّه يرى نفسه غريباً.

وبهذا المعنى ـ أي فقد الارتباط مع أهل المكان ـ فإنَّ الغربة تنطبق على غير المسافر، ومنهم:

---

(١) نهج البلاغة: قصار الحكم، ص٦٥.

١ ـ **منْ فقد اهتمام النَّاس به** كالفقير الَّذي لا يُبالي به أحد، فعن الإمام علي عليه السلام: «والمقل غريب في بلدته»[(١)].

وعنه عليه السلام: «الغني في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة».

وكالرجل الَّذي لا يجد صديقاً وفيّاً، فعن الإمام علي عليه السلام: «الغريب من لم يكن له حبيب»[(٢)].

٢ ـ **منْ فقد حبيبه بموت** أو سفر وما أشبه فعن الإمام علي عليه السلام: «فقد الأحبَّة غربة».

ولذا قال الإمام الحسين عليه السلام عندما دفن أخيه الحسن عليه السلام:

غريبٌ وأطراف البيوت تحوطه ... إلَّا كل مَنْ تحت التراب غريب

ولمصيبة الموت في الغربة أجر كثير، فقد ورد: «موت الغريب شهادة».

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من مؤمن يموت في غربته إلَّا بكت الملائكة رحمة له حيث قلَّت بواكيه، وإلَّا فسح له في قبره بنور يتلألأ من حيث دُفن إلى مسقط رأسه»[(٣)].

٣ ـ **غربة العظماء**، فالعلماء والأولياء يجدون أنفسهم في غربة عن النَّاس، فالنَّاس يعيشون في عالم مادي محدود والأولياء يعيشون في عالم روحي علوي وبالتالي لا يحصل انسجام بينهم وبين النَّاس.

وكلَّما ازداد الإنسان في الرقي الروحي فإنَّه يشعر بالغربة أكثر

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) مرآة الكمال: ج٣، ص٣٢٦.

فأكثر، ولذا وُصف الأئمَّة عليهم السلام بالغرباء وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام والإمام عليّ الرِّضا عليه السلام.

فهم عليهم السلام كانوا بين أقوامهم وفي بلادهم إلّا أنَّهم كانوا يعيشون الوحدة في أفكارهم ومنهجهم وتطلعاتهم.

فالإمام علي عليه السلام كان يشكو في آخر حياته ـ وخصوصاً بعد فقد الأحبَّة كالنبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم والسيِّدة الزَّهراء عليها السلام وخيار صحابته ـ من الوحشة والوحدة، بل كان يتمنى الموت تخلُّصاً من النَّاس، ومن كلماته الموجعة للقلوب:

«غداً ترون أيَّامي ويُكشف لكم عن سرائري، وتعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي».

«اللَّهمَّ أبدلني بهم خيراً منهم».

وممَّا يُنسب إليه:

ألا أيُّها الموت الَّذي ليس بتاركي ارحني فقد أفنيت كل خليلي
أراك بصيراً بالذين أحبهم كأنَّك تنحو نحوهم بدليل

والإمام الحسين عليه السلام كان غريب الغرباء ذلك لأنَّه كان يحمّل هم الإسلام العظيم ويطرح شعارات الإصلاح والكرامة ولكنَّه يُواجه بقول: «يابن فاطمة لا ندري ما تقول».

وهكذا كان عليه السلام غريباً في مدينة جدِّه، وفي مكَّة المكرّمة، وفي أثناء الطريق عندما تركه النَّاس، وفي كربلاء خصوصاً عندما وقف وحيداً يُنادي «هل من ناصر ينصرنا».

وكان الإمام عليّ الرِّضا عليه السلام غريباً عن مدينة جدِّه في مجتمع الحاكم الظالم المأمون العبَّاسي، فعاش عليه السلام غريباً، ومات غريباً فلُقِّب

بـ«غريب الغرباء» ففي الرواية أنّه لمّا أراد الإمام الرِّضا عليه السلام الخروج من المدينة إلى خراسان كان يأتي إلى قبر جدِّه المصطفى ويودِّعه ويعلو صوته بالبكاء والنحيب ويقول لأحدهم: «إنِّي أخرج من جوار جدِّي وأموت في غربة... وسأُدفن في أرض الغربة»[١].

غربة النهج:

لا يقتصر مفهوم الغربة على الأشخاص فحسب بل يشمل غربة النهج والفكر، فالدِّين إذا لم يُطبّق في بلد المسلمين فهو غريب عنهم، ومن هنا ورد أنَّ ثلاثة يشكون إلى الله تعالىٰ يوم القيامة. فعن الإمام الصادق عليه السلام: «ثلاثة يشكون إلى الله عزّ وجلّ مسجد خراب لا يصلّي فيه أهله، وعالم بين جهّال، ومصحف معلّق قد وقع عليه غبار لا يُقرأ فيه»[٢].

كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما كان فطوبى للغرباء»[٣].

لقد بدأ الإسلام في مكّة المكرَّمة بالصعوبات والمشقّات والحصار والمنع، فكان النبي محمَّد صلى الله عليه وآله يُؤذى ويُهان ويُكذَّب، وكان القرآن الكريم ممنوعاً، وكان الصحابة في عذاب وتهجير...

وهكذا سيعود الإسلام غريباً في آخر الزَّمان، فلن يبقى منه إلَّا الشعارات والمظاهر والمآذن، من دون تطبيق عملي.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «سيأتي على النَّاس زمان لا يبقى من القرآن

---

(١) الكرامات الرضوية: ج١، ص٥٤ ـ ٥٦.
(٢) جواهر الأخبار، ص٣٨.
(٣) بحار الأنوار: ج٨، ص١٢.

إلَّا رسمه، ولا من الإسلام إلَّا اسمه يُسمّون به وهم أبعد النَّاس منه، مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدىٰ».

غربة الإنسان في عالم الدُّنيا:

ترك الإنسان عالم النُّور ليهبط إلى عالم الدُّنيا والمادَّة والظلام، فإن التفت إلى نفسه ووعى سرّ الوجود فسيشعر أنَّه في غربة في هذا العالم، فلا شيء يربطه به، ولذا ورد أنَّ المؤمن يرى الدُّنيا بأنَّها سجن، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «الدُّنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر» وقال ﷺ لأبي ذر: «كن في الدُّنيا كأنَّك غريب أو كعابر سبيل».

فالمؤمن غريب في الدُّنيا وغريب بين أهل الدُّنيا فهو يعيش الغربة بكلّ معانيها.

وإذا كان الغريب عن الوطن ينشرح بذكر وطنه ويشتاق إليه ويتزوَّد للرجوع إليه، فإنَّ المؤمن ينشرح بذكر الآخرة ويشتاق إليها ويتزوَّد لها، أمَّا الكافر فهو يرى الغربة في عالم الرُّوح والإنس بعالم الدُّنيا.

عن الإمام علي عليه السلام: «إخواني لهي في العاجلة والآجلة لمن ناصح نفسه في النظر وأخلص لها الفكر أنتن من الجيفة وأكره من الميتة، غير أنَّ الَّذي نشأ في دباغ الاهاب (الجلود) لا يجد نتنه ولا تؤذيه رائحته كما تؤذي المارّ به والجالس عنده»(١).

غربة الذات:

هي غربة الإنسان عن حقيقته ونسيانه لنفسه، بحيث إنَّه لا يدري

(١) سفينة البحار: مادة «دنا».

من أين جاء، ولماذا؟ وكيف يعيش؟ وإلى أين يسير بعد الموت؟ وإلى ذلك تشير الآية المباركة: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٩].

فغربة الذات هي الانفصال عنها وعدم معرفتها والشعور بها، فالبعض يعاني من غربته بين أهله، ولكن الأصعب أن يعاني من غربة ذاته، فهي معه إلّا أنّه لا يشعر بها.

يقول بعض علماء النّفس: «إنَّ الإنسان اليوم قد عاد غريباً عن ذاته وأبناء جنسه والطبيعة، وقد تبدل إلى سلعة استهلاكية، وفي ذلك تبدو كل الاختلالات والأمراض الرُّوحيَّة والاجتماعيَّة واللاعجز والتقوقع والتشاؤم وفقدان القيم والمعتقدات».

ويقول السيِّد القبانجي: «نحن غرباء عن روحنا وعن وجداننا وعن أصلنا الّذي هو الله تعالىٰ، وذلك بسبب «الأنا» الّتي فرّغتنا من محتوانا، فنحن في غربة مجازية ـ هي الغربة عن الأرض ـ وغربة حقيقيَّة وهي الانفصال عن الوجدان والقلب والله... وكل جهود العرفاء وحتّى الأنبياء عليهم السلام تصبُّ في تنبيه الإنسان إلى حقيقته وإرجاعه إلى ذاته»[1].

كيف نعالج الغربة؟

عندما يعيش الإنسان في غربة في وطنه أو عن وطنه، فلا بدَّ له من شيء يرفع تلك الغربة ومن ذلك:

أ ـ **الأُنس بالله تعالى:** فعن الإمام علي عليه السلام: «اللّهمَّ إنّك آنس الآنسين لأوليائك... إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك».

---

(١) الله والإنسان: ص١٤٨.

ب ـ القرآن الكريم: فعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «لو مات من بين المشرق والمغرب لما استوحش بعد أن يكون القرآن معي».

ج ـ معرفة النَّفس: يقول أحدهم: «إن الشعور بالغربة سيبقى ملازماً للإنسان حتّى في بيته وبين أهله ما دام غريباً عن نفسه، أمّا متى اهتدى إلى نفسه وعرف خباياها وأشواقها إلى الانعتاق من كلّ قيد فعندئذٍ يهتدي إلى الشعور بالطمأنينة ولا يبقى بعد ذلك أي شيء غريباً عنه».

د ـ التأسي بأولياء الله عليهم السلام: فقد عاشوا أقسى أنواع الغربة ومع ذلك صبروا على ما أصابهم في جنب الله تعالىٰ. فمن الملاحظ أنَّ أوّل ضريبة دفعها الأنبياء عليهم السلام هو أنَّهم عاشوا الغربة والوحدة والمظلومية، وكانت رياضة الأنبياء عليهم السلام تحمُّل الغربة والصبر على الأذى، ومثال على ذلك النبي موسى عليه السلام فقد تخلى عن كلّ شيء دنيوي وترك القصور والملذّات وتوجَّه إلى الصحراء ورأى نفسه وحيداً فتوجه إلى الله ﴿...فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] فاستجاب الله تعالىٰ له ومنَّ عليه بالأنس بالنبي شعيب وعائلته ثمَّ أعطاه النُّبوَّة.



الأخلاق

عن الإمام علي عليه السلام:

«إنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل محاسن الأخلاق وصلة بينه وبين عباده، فحسب أحدكم أن يتمسك بخُلق متصل بالله تعالىٰ»[(١)].

* * *

تردّي الأخلاق:

في عصر كثرت فيه الأزمات الأخلاقية الَّتي تعصف بالبشرية في شتى حقول الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية، وفي عصر انتشرت فيه الحروب الدموية، وتفشت فيه المظالم الاجتماعية وانعدمت فيه الحياة الأمنية، وفي عصر تغيَّرت فيه نفوس النَّاس كما قال أبو ذر الغفاري: «كان النَّاس ورداً بلا شوك فأمسوا شوكاً بلا ورد» أو كما يُنسب إلى الإمام الرِّضا عليه السلام:

يعيب النَّاس زماناً ... وما لزماننا عيب سوانا

نعيب زماننا والعيب فينا ... ولو نطق الزمان بنا هجانا

---

(١) مستدرك النهج البلاغة: ج١٠، ص٤١٨.

والذئب يترك لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضاً عيانا

في هكذا عصر ـ وفي كل عصر ـ كانت الحاجة إلى الأخلاق الإنسانية الَّتي تقود المجتمع إلى السعادة والكمال.

فما هي الأخلاق؟ وما دورها في الحياة الفردية والاجتماعية؟ وكيف تمثلت بأجمل صورها في سادة الخلق محمَّد وآله الطاهرين؟

الأخلاق:

الأخلاق جمع خُلق وهي «حسن المعاشرة والتعامل مع الخَلْق»[١].

وهي تشمل العلاقة مع الأبوين والزوج والأولاد والجيران والأرحام والأصدقاء وبقية النَّاس على اختلاف طبقاتهم وأوضاعهم.

أهمية حسن الخلق:

إن حسن الخلق من أهم الصفات الَّتي يمتاز بها الإنسان المؤمن، فكلَّما ازداد الإنسان إيماناً حسُن خلقه مع النَّاس.

فعن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «الخلق الحسن نصف الدِّين»[٢].

وعن الإمام محمَّد الباقر عليه السلام: «إنَّ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[٣].

وجاءه رجل من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدِّين؟ فقال ﷺ: «حسن الخلق» ثمَّ أتاه عن يمينه وشماله ومن ورائه وفي كل ذلك يقول له: «حسن الخلق».

---

(١) تزكية النفس: ص٤٦٨.
(٢) ميزان الحكمة: مادة «الخُلق».
(٣) تزكية النَّفس: ص٤٦٩.

والواقع فإنَّ الهدف الأساسي من بعثة الأنبياء وإنزال الكتب هو تعليم الأخلاق للنَّاس.

فعن رسول الله ﷺ: «إنَّما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[١].

كما أنَّ من أهداف تشريع العبادات «الأخلاق الحسنة».

فأمر الله بالصلاة لتنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالىٰ: ﴿...وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فمن لم ينته عن الظلم والمنكر فصلاته ناقصة وهكذا الحال في الصوم والحج والجهاد وغير ذلك.

فقد ورد في الحديث أنَّه قيل لرسول الله ﷺ: فلانة تصوم النَّهار وتقوم اللَّيل وتتصدَّق، وتؤذي جارها بلسانها فقال ﷺ: «لا خير فيها هي من أهل النَّار»[٢].

وهنا ننقل قصة سعد بن معاذ صاحب رسول الله ﷺ لنتعرف على عاقبة سوء الأخلاق وخاصَّة مع الأهل.

ورد عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: «أُتي رسول الله ﷺ فقيل له إنَّ سعد بن معاذ قد مات، فقام رسول الله ﷺ وقام أصحابه فحمل، فأمر بغسل سعد، وهو قائم على عضادة الباب، فلما أن حُنّط وكُفّن وحمل على سريره تبعه رسول الله ﷺ بلا حذاء ولا رداء، ثمَّ كان يأخذ يُمنة السرير مرَّة ويسرة السرير مرَّة حتَّى انتهى به إلى القبر، فنزل رسول الله ﷺ حتَّى لحَّده وسوَّىٰ عليه اللبن، وجعل يقول:

ناولني حجراً، ناولني تراباً رطباً يسدُّ به ما بين اللبن، فلما أن

---

(١) مكارم الأخلاق، ص٣.

(٢) ميزان الحكمة، مادة «أخلاق».

فرغ وحثا التراب عليه وسوى قبره، قال رسول الله ﷺ: إنّي لأعلم أنّه سيبلى ويصل إليه البلى ولكن الله عزّ وجلّ يحب عبداً إذا عمل عملاً فأحكمه، فلما أن سوى التربة عليه، قالت أم سعد من جانب: هنيئاً لك الجنّة.

فقال رسول الله ﷺ: يا أُمّ سعد مَه! لا تجزمي على ربك فإنّ سعداً قد أصابته ضمّة.

قال: فرجع رسول الله ﷺ ورجع النّاس فقالوا: يا رسول الله لقد رأيناك صنعت على سعد ما لم تصنعه على أحد، إنّك تبعت جنازته بلا رداء ولا حذاء!

فقال ﷺ: إنّ الملائكة كانت بلا حذاء ولا رداء فتأسيت بها، فقالوا: أمرت بغسله وصلّيت على جنازته ولحّدته ثمّ قلت: إنّ سعداً أصابته ضمّة. فقال ﷺ: إنّه كان في خلقه مع أهله سوء»[١].

دور الأخلاق في حياة الأفراد:

يتلخص دور الأخلاق في حياة الأفراد بأربعة أُمور:

الأوّل: الشعور بالسعادة: فعن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «كفى بحسن الخلق نعيماً»[٢].

ذلك أنّ حسن الخلق ينظّم الحياة الروحية والعقلية والجسدية وبذلك يحصل التوازن في الإنسان، فيعيش السعادة والكمال، وكمثال على ذلك قارن بين حياة شخص حسود وآخر قد نزع الحسد من قلبه

---

(١) الموعظة الحسنة: ص١٩٨.

(٢) ميزان الحكمة، مادة «أخلاق».

وهكذا الحال بالنسبة لسائر مصاديق الأخلاق الحسنة وأضدادها، عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «من ساء خلقه عذَّب نفسه»(١).

الثاني: محبة النَّاس فإنَّ «القلوب جُبلت على حب من أحسن إليها» فربُّ موقف أخلاقي بسيط يصنع ما يعجز عنه موقف لا أخلاقي، ولذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «يا بني عبد المطلب إنَّكم لن تسعوا النَّاس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»(٢).

وعنه صلى الله عليه وآله: «حسن الخلق يثبت المودَّة»(٣).

وعن الإمام علي عليه السلام: «قلوب الرجال وحشية فمن تألفها أقبلت عليه».

والمطالع في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله يجد أنَّ السبب الرئيسي في دخول الكثيرين إلى الإسلام إنَّما هو حسن أخلاقه صلى الله عليه وآله.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩].

يقول السيِّد المدرسي حفظه الله: «ويبدو من توجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله أنَّه لا يكفي لكسب النَّاس أن يكون عالماً فاضلاً، فعلم الشخص وتقواه وحتَّى النبوة لا تكفي، بل لا بدَّ من وجود قلب عطوف يتعامل مع النَّاس برفق ولين، فلا يقولن قائل: أنا أعلم ولا بدَّ أن يتجمع النَّاس حولي لكسب العلم منِّي، فصحيح أنَّ للعلم مكانته

---

(١) ميزان الحكمة، ج١ ص٨٠٧.
(٢) شرح نهج البلاغة، ج١١ ص٢١٨.
(٣) ميزان الحكمة، ج١ ص٨٠٥.

الخاصَّة، ولكن المعاملة الخشنة تنفِّر النَّاس سواء كان صاحبها عالماً أم جاهلاً».

كما أنَّ السبب الرئيسي في تجمع النَّاس حول الأئمَّة عليهم السلام هو حسن أخلاقهم فعلى الرغم من كل المضايقات الَّتي كانت تحصل لهم ولمن يرتبط بهم تجد أنَّ النَّاس كانوا يتهافتون عليهم تهافت الفراش على النُّور.

وفي الحادثة التاريخية الَّتي تروي ما جرى بين الإمام زين العابدين عليه السلام وهشام بن عبد الملك في بيت الله الحرام حيث إنَّ النَّاس انفرجوا عن الحجر الأسود كي يفسحوا المجال للإمام السجَّاد عليه السلام دليل واضح على تأثير أخلاق الإمام السجَّاد عليه السلام في قلوب المسلمين، وتلك هي معجزة «الخلق العظيم».

الثالث: السعة في الرِّزق: فعن الإمام علي عليه السلام: «في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق»[١] وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «حسن الخلق يزيد في الرِّزق»[٢].

وذلك لأنَّ البشاشة والكلام الطيب وغير ذلك تساعد على كسب النَّاس وثقتهم واحترامهم، وفي ذلك تأثير على حياة الإنسان المالية.

ويكفي لذلك أن نقارن بين تاجرين أحدهما حسن الأخلاق والآخر سيىء فسنجد أنَّ النَّاس يتجمعون حول الأوَّل وينفرون من الثاني.

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «ولو كنَّا لا نرجو جنَّة، ولا نخشى

---

(١) ميزان الحكمة، ج١ ص٨٠٥.

(٢) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

ناراً، ولا ثواباً ولا عقاباً، لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق، فإنّها ممّا تدلُّ على سبيل النجاح»[١].

الرابع: رفعة الدرجة في الآخرة: عن رسول الله ﷺ: «إنَّ العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنّه لضعيف العبادة».

وعنه ﷺ: «من حُسن خلقه بلّغه الله درجة الصائم القائم»[٢].

وعنه ﷺ: «ما يوضع في ميزان امرىء يوم القيامة أفضل من حسن الخلق»[٣].

الخامس: القرب من الله تعالىٰ: : وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في الحديث المتقدم، وجاء عن رسول الله ﷺ: «حسن الخلق خلق الله الأعظم».

دور الأخلاق في المجتمع:

الأخلاق هي الأساس في بناء المجتمعات والحضارات، والتاريخ يكشف لنا أنَّ ثبات الحضارات عند الأُمم ليس إلّا بثباتهم على محاسن الأخلاق والعكس كذلك.

فإنّما الأُمم الأخلاق ما بقيت ... فإنَّ هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

كما أنَّ الواقع الحاضر ـ في الدول الغربية ـ يشهد أنَّ قيام الحضارات إنّما هو بالأخلاق الحسنة وأنَّ انهيارها إنّما هو بالأخلاق السيِّئة.

---

(١) الموعظة الحسنة: ص٢٠١.

(٢) ميزان الحكمة، ج١ ص٧٩٩.

(٣) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

عن الإمام علي عليه السلام: «واحذروا ما نزل بالأُمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال، فتذكّروا في الخير والشر أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم»[١].

ضرورة الأخلاق في كلّ شيء:

إنَّ الأخلاق الإنسانية ضرورية في كل شيء، فبناء الأسرة يقوم على الأخلاق المتبادلة بين أفرادها، ففي الحديث الشريف: «إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه».

والعلاقات التجارية تقوم على الأخلاق، ففي الحديث الشريف: «كل ذي صناعة مضطر إلى ثلاث خصال يجتلب لها المكسب وهي: أن يكون حاذقاً بعمله، وأن يكون مؤدّياً للأمانة فيه، وأن يكون مستميلاً لمن استعمله»[٢].

وهكذا الحال في بقية الأُمور الحياتية كالمشي، والكلام، وقيادة السيارة، والضيافة، والمجالسة وما أشبه.

لقد ذكر الله تعالىٰ في كتابه أنَّ للحج أخلاقية خاصّة، فقال: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١٩٧] وذلك ليعتاد الإنسان على الأخلاق في بقية العبادات والمعاملات.

كما ذكر تعالىٰ أخلاقية المشي، فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٨، ص٥٣.
(٢) تحف العقول: ص٢٣٧.

ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

كيف تغيّر خلقك؟

إنَّ بعض النَّاس يقول: إنَّني لا أستطيع أن أغيّر أخلاقي وطباعي ويُرَدَ عليه، إنَّ الأخلاق قابلة للتغيير مهما كانت، وإلّا لما كان من الضروري إرسال الرُّسل وإنزال الكتب.

ثمَّ كم وكم من الأشخاص قد غيّروا أخلاقهم من خلال العزم والإرادة، وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «إنَّما العلم بالتعلّم وإنَّما الحلم بالتحلّم وإنَّما الصبر بالتصبّر» ممَّا يعني أنَّ الإنسان يستطيع الوصول إلى العلم والحلم والبصر بتدريب النفس على ذلك.

ولكي يصل الإنسان إلى درجة عالية من الأخلاق الرفيعة لا بدَّ له من أُمور:

الأوَّل: التخلق بأخلاق الله تعالى، ففي الحديث: «تخلقوا بأخلاق الله»[1].

الثاني: العمل بالقرآن الكريم، فهذا النبي الأعظم ﷺ كان على خلق عظيم كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤] لأنَّه كان مجسّداً للقرآن الكريم.

كما قالت إحدى نسائه «كان خلقه القرآن».

الثالث: الاقتداء بالنبي والأئمَّة عليهم السلام فهم النموذج الأكمل والأتم

(١) نبي ووصي ووصايا: ص٤٣٩.

للأخلاق الإنسانية النبيلة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

عن الإمام علي عليه السلام: «قد ركّزت فيكم راية الإيمان، ووقفتكم على حدود الحلال والحرام، وألبستكم العافية من عدلي، وفرشتكم المعروف من قولي وفعلي، وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي»[1].

نماذج من تأديب النبي (ص) والأئمة (ع) للناس:

وهكذا كان النبي والأئمّة عليهم السلام يربّون أصحابهم على محاسن الأخلاق في كلّ شيء.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «دخل يهودي على رسول الله وعائشة عنده فقال: السام عليكم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليكم.

ثمَّ دخل آخر فقال مثل ذلك، فردَّ عليه كما ردَّ على صاحبه.

ثمَّ دخل آخر فقال مثل ذلك. فردَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ردَّ على صاحبيه فغضبت عائشة فقالت: عليكم السام والغضب واللعنة يا معشر اليهود يا إخوة القردة والخنازير.

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا عائشة إنَّ الفحش لو كان ممثلاً لكان مثال سوء إنَّ الرفق لم يوضع على شيء قط إلّا زانه ولم يرفع عنه قط إلّا شانه...»[2].

* عن عبد الله بن شريك: خرج حجر بن عديّ وعمرو بن الحمق يظهران البراءة واللعن من أهل الشام، فأرسل إليهما عليّ عليه السلام أنْ كُفّا

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٨٧.

(٢) مقدمة في أُصول الدِّين: للوحيد الخراساني، ص٢٢٣.

عمَّا يبلغني عنكما، فأتياه فقالا: يا أمير المؤمنين، ألَسنا محقِّين؟ قال: بلى. قالا: أوَليسوا مبطلين؟ قال: بلى. قالا: فَلِمَ منعتنا من شتمهم؟

قال: كرهت لكم أن تكونوا لعَّانين شتَّامين، تشتمون وتتبرَّأون، ولكن لو وصفتم مساوىء أعمالهم فقلتم: من سيرتهم كذا وكذا ومن عملهم كذا وكذا، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، ولو قلتم مكان لعنكم إيَّاهم وبراءتكم منهم:

«اللَّهمَّ احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتَّى يعرف الحقّ منهم من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به».

كان هذا أحبّ إليَّ وخيراً لكم.

فقالا: يا أمير المؤمنين، نقبل عظتك، ونتأدَّب بأدبك»[1].

* عن الإمام الحسين عليه السلام قال: «جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام يسعى بقوم.

فأمرني أن دعوت له قنبراً.

فقال له عليّ عليه السلام: اخرج إلى هذا الساعي فقل له: قد أسمعتنا ما كره الله تعالى فانصرف في غير حفظ الله تعالى»[2].

وفي مقابلهم عليهم السلام تتجلى الأخلاق السيِّئة في بني أُميَّة ومن سار على خطاهم، فهم الشجرة الملعونة الَّتي لا تخرج إلَّا نكداً.

عن ابن خلكان أنَّ نصر الله المحلي (أو المجلي) قال: رأيت علي بن أبي طالب عليه السلام في المنام وقلت له: أنتم فتحتم مكة وقلتم من

(١) موسوعة الإمام: ج٩، ص٣١٩.
(٢) كشف الغمّة: ج٢، ص٢١٨.

دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، ثمَّ رأينا كيف فعل آل أبي سفيان ما فعلوه بالحسين عليه السلام؟

فردَّ عليَّ قائلاً: أو لم تسمع بأشعار ابن الصيفي؟

قلت: لا. قال: اسمعها منه.

وما إن استيقظت حتَّى نهضت على الفور وتوجهت إلى منزل ابن الصيفي فرويت له منامي هذا، وإذا بصوته يلعلع باكياً، وهو يقول لي إنَّه قد نظم هذه الأبيات ليلة أمس وأقسم أنَّه لم يقرأها على أحدٍ من قبل، ثمَّ قرأ لي:

ملكنا فكان العفو منَّا سجيَّةً	فلما ملكتم سال بالدم أبطحُ
وحلَّلتم قتل الأسارى فطالما	غدونا على الأسرى نعفو ونصفحُ
فحسبكم هذا التفاوت بينكم	وكلُّ إناءٍ بالَّذي فيه ينضح[1]



(١) شواهد المبلغين: ص١٤٥.

المسؤولية الشرعية

عن الإمام علي عليه السلام:

«اتقوا الله في عباده وبلاده فإنَّكم مسؤولون حتَّى عن البقاع والبهائم»[(١)].

* * *

السؤال في الآخرة:

يوجد في عالم الآخرة مواقف عديدة لكل إنسان قبل وصوله إلى النهاية، فهناك موقف الميزان، والصراط، والحساب...

ومن تلك المواقف «السؤال» فما من أحد من الأولين والآخرين وحتَّى المعصومين عليهم السلام إلَّا وسيقف للسؤال، قال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر: ٩٢].

ومكان السؤال هو «الصراط».

هناك سيقف الإنسان ويُسأل عمَّا فعل في عالم الدُّنيا، في كل المجالات العقائدية والقولية والعملية، وفي كل الحقوق الإلٰهيَّة والإنسانية... قال تعالىٰ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٦٧.

تحمُّل المسؤولية:

إنَّ السؤال في الآخرة هو فرع تحمُّل المسؤولية في عالم الدُّنيا، فبمقدار ما يُؤتى الإنسان من طاقات عقلية وجسدية ومالية، وبمقدار ما يشغله من وظيفة في الحياة الأسرية والاجتماعية، فإنَّه سيُسأل في محكمة يوم القيامة.

ولذا ورد عن رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام الَّذي على النَّاس راع ومسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع ومسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسؤولة عن رعيتها، والولد في مال أبيه راع ومسؤول عن رعيته، والخادم راع في مال سيِّده ومسؤول عن رعيته، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

وللأسف فإنَّ بعض النَّاس يهربون من المسؤولية تجاه الآخرين حتَّى أنَّهم قد يهملون أسرتهم ليلقوا بذلك المسؤولية على الآخرين، ويصل الأمر بالبعض أن لا يتزوج هروباً من تحمُّل المسؤولية، وكما نجد أنَّ أهل النَّار يلقون بمسؤولية شقائهم على شياطين الجنّ والإنس كما يقول تعالىٰ عن قولهم: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١].

وهذا الأمر ينطبق على كل الأحداث في حياتنا، فعندما يحصل أمراً ما ـ كحادث سيارة ـ فمن النَّاس من يتحمل المسؤولية ويساعد في إسعاف الجرحى، ومنهم من يقف متفرجاً بلا مبالاة.

وهذا ما جرى مع أهل الكوفة الَّذين لم ينصروا الحق ولم يخذلوا الباطل.

أنواع المسؤولية:

عندما نعود إلى النصوص الشريفة الَّتي تتحدث عن المسؤولية في الدُّنيا والآخرة نجد أنَّها كالتالي:

أوَّلاً: المسؤولية تجاه الله تعالى وهي الالتزام بالعبودية والطاعة، فكل إنسان يسأل عن عباداته وصلاته وصيامه وحجه...

ثانياً: المسؤولية تجاه النبي والأئمَّة عليهم السلام، فما من أحد يموت إلَّا ويُسأل في القبر وفي الآخرة عن حبهم وطاعتهم ومعرفتهم والولاية لهم والبراءة من أعدائهم.

فقد جاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ٨] إنَّ النعيم هو «ولاية الأئمَّة عليهم السلام» ويؤيد ذلك أنَّ النعيم المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] هو نعمة الولاية.

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «نحن أهل بيت النعيم الَّذي أنعم الله بنا على العباد، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين، وبنا ألَّف الله بين قلوبهم وجعلهم أخواناً بعد أن كانوا أعداء، وبنا هداهم الله للإسلام، وهي النعمة الَّتي لا تنقطع، والله سائلهم عن حق النعيم الَّذي أنعم الله به عليهم، وهو النبي صلى الله عليه وآله وعترته»[١].

وعنه عليه السلام: «من حدَّث عنَّا بحديث فنحن سائلوه عنه»[٢].

ثالثاً: المسؤولية تجاه الدِّين بأن نعمل لأجل هداية النَّاس وإعزاز

---

(١) الأمثل: ج٢٠، ص٣٨٧.
(٢) سفينة البحار: مادة «وفى».

كلمة الإسلام، ونشعر أنَّ الولاية هي أغلى من كل شيء في حياتنا، لأنَّ كل دعوة إلى أيّ دين أو مذهب أو سياسة أو شخص سنُسأل عنها.

فعن رسول الله ﷺ: «ما من داع دعا إلى شيء إلَّا كان يوم القيامة لازماً به لا يفارقه، وإن دعا رجلٌ رجلاً»[1].

رابعاً: المسؤولية تجاه النفس، وتتحقق بصيانة النفس عن الحرام وتنميتها بالطاعة قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

وعن رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتَّى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت».

وعن الإمام علي عليه السلام: «أوصيكم بتقوى الله فيما أنتم عنه مسؤولون وإليه تصيرون فإنَّ الله يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدّثر: ٣٨].

وعنه عليه السلام: «أليست النُفوس عن مثقال حبَّة من خردل مسؤولة».

خامساً: المسؤولية تجاه الآخرين.

إنَّ مسؤولية الإنسان لا تقف عن حدود ذاته وإنَّما تمتد لتشمل الآخرين بدءاً من الأسرة ثمَّ الأرحام ثمَّ العشيرة ثمَّ المجتمع ثمَّ الأُمَّة...

أ ـ المسؤولية تجاه الأسرة تقتضي تربيتهم على الأخلاق الدينية ومنعهم عن الحرام ودخول النَّار، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟

---

(١) الميزان: ج١٧، ص١٤٢.

أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].

ب ـ **المسؤولية تجاه الآخرين** تقتضي الاهتمام بشؤونهم المادية والمعنوية، وخصوصاً منهم الأبوين والأرحام والجيران. ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره المسلم جائع»[١].

ج ـ **المسؤولية تجاه الأُمَّة** تقتضي الاهتمام بالأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والسعي للمحافظة على المسلمين أينما كانوا، ففي الحديث: «من سمع رجلاً ينادي: يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم».

من هنا لزم الدعوة إلى الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنَّ ذلك هو حصن للأُمَّة ككل، ولذا شبَّه النبي ﷺ وجوب تحمُّل هذه المسؤولية بقوم ركبوا السفينة فقام رجل بخرق السفينة، فإن لم يردعه ركّاب السفينة كانت النتيجة أنَّه يغرق ويغرق كل الركَّاب، ولذلك وجب نهيه عن فعله حفاظاً عليه وعلى سائر الركَّاب.

وعلى هذا فإنَّ وجوب النهي عن المنكر والفساد لا يقتصر على العلماء فحسب بل يشمل كل إنسان.

نعم كلَّما عظمت مكانة الإنسان في الأُمَّة كلَّما كانت مسؤولية أكبر، ولذا نجد أنَّ الإمام علياً عليه السلام ازداد حملاً للمسؤولية بعد توليه الحكم فصار طعامه ونومه ولباسه أشدّ ممَّا كان عليه.

إنَّ المسؤولية تجاه الآخرين تقتضي إعطاء كل ذي حق حقه،

---

(١) ميزان الحكمة، ج١ ص٤٨٨.

وإليك هذا الخبر، فقد روي أنَّ صبيين جاء إلى الإمام الحسن عليه السلام ليحكم بينهما في أيهما أحسن خطّاً، فقال له الإمام علي عليه السلام: «انظر كيف تحكم بينهما فإنَّ هذا حكم الله سائلك عنه يوم القيامة».

كما تقتضي عدم إهانة النَّاس وأذيتهم، ففي الخبر أنَّ رجلاً جاء إلى الإمام الحسين عليه السلام فأعطاه ورقة مكتوب فيها حاجته، فقال له الإمام عليه السلام: حاجتك مقضية قبل قراءتها، فقيل له: هلا رأيت ما فيها؟ فقال عليه السلام: يسألني الله عن ذلّ مقامه بين يديّ حتّى أقرأ رقعته»[١].

سادساً: المسؤولية تجاه الحيوانات والبيئة كما في الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «فإنكم مسؤولون حتّى البقاع والبهائم».

الخوف من التقصير:

إنَّ السؤال في الآخرة يقتضي الخوف من التقصير في تحمُّل المسؤولية في الدُّنيا خصوصاً لمن يتحمل منصباً اجتماعياً كالقضاء والحكومة، ولذا كان الأولياء يتهرّبون من هذه المهام الصعبة خوفاً من التقصير. فعن الإمام الصادق عليه السلام في قصة لقمان الحكيم أنَّه قال: «... وإنَّ الله تعالى أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهار وهدأت العيون بالقائلة ـ أي وقت القيلولة ـ فنادوا لقمان فقالوا: هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس؟ فقال: إن أمرني ربي فالسمع والطاعة لأنَّه إن فعل بي ذلك أعانني وعلّمني وعصمني وإن هو خيّرني قبلت العافية فقالت الملائكة: يا لقمان لِمَ؟ فقال لأنَّ الحكم بين الناس بأشدّ المنازل من الدين وأكثر فتناً وبلاءاً»[٢].

---

(١) من أخلاق الإمام الحسين عليه السلام: ص٩٥.
(٢) قصص الأنبياء، ص٤٤٦.

الخصومة والعداوة

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«من بالغ في الخصومة ظلم، ومن قصَّر فيها ظُلم ولا يستطيع أن يتقِّي الله من يُخاصِم»[١].

* * *

حرمة الخصومة:

تعتبر الخصومة من الأُمور الَّتي حرَّمها الإسلام. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «ما كان جبرائيل يأتيني إلَّا قال: يا محمَّد اتقِ شحناء الرِّجال وعداوتهم»[٢].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «أيما مسلمين تهاجرا فمكثا ثلاثاً لا يصطلحان إلَّا كانا خارجين من الإسلام»[٣].

عن الإمام الكاظم عليه السلام: «من عادى شيعتنا فقد عادانا، ومن والاهم فقد والانا، لأنَّهم منَّا»[٤].

---

(١) مستدرك نهج البلاغة: ج١٠، ص١٩٨.
(٢) التسامح: ص٢٨.
(٣) الذُنوب الكبيرة: ج٢، ص٣١٥.
(٤) الذُنوب الكبيرة: ج٢، ص٣١٥.

سلبيات الخصومة:

للخصومة مضاعفات سلبية على الأفراد والمجتمعات فهي:

١ ـ **عذاب نفسي**: وذلك لأنَّ رؤية الخصم أو سماع اسمه أو تذكّره في الذهن يسبِّب الضيق النفسي والأذى والإزعاج، ولذا يقول علماء النفس: «إنَّ الآثار النفسيَّة الَّتي تحدث عند حصول الشجار والعداء تتكرر بتكرار شريط الأحداث في الذهن، فكلَّما تذكَّرت ما جرى بينك وبين فلان تأثَّرت جسديّاً ونفسيّاً».

ولذا ورد عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «إيَّاكم والمراء والخصومة فإنَّهما يمرضان القلب»[١].

ولعلَّ من أخطر أمراض القلب، الحقد على الخصم، فعن الإمام علي عليه السلام: «الحقد ألأم العيوب» و«ليس لحقود أخوَّة»[٢].

٢ ـ **تضييع الطاقات**: وذلك لأنَّ الخصم يجعل كل اهتمامه في الانتصار على خصمه وتحطيمه بين النَّاس، وبالتالي يخسر وقته وعمره فيما لا فائدة فيه.

٣ ـ **التسقيط**: وذلك لأنَّ الخصم سيسعى للتشكيك والتحطيم والتدمير المعنوي من خلال ما يشيعه من أخطاء وثغرات عادة ما تكون مستورة ـ وخصوصاً بين الزوجين والأقارب ـ.

لذلك يقول الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام: «إيَّاك وعداوة الرِّجال فإنَّها تورث المعرَّة، تبدي العورة»[٣].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣٠٠.
(٢) غرر الحكم.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٢، ص٢١١.

فالعداوة تُسبِّب المعرَّة أي الأذى، وتكشف العورة أي نقاط الضعف والخلل.

وأوصى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أبناءه يوماً فقال لهم: «يا بني إيَّاكم ومعاداة الرِّجال، فإنَّهم لا يخلون من ضربين: من عاقل يمكر بكم، أو جاهل يعجل عليكم». ثمَّ أنشأ يقول:

سليم العرض من حذر الجوابا   ومن دارىٰ الرِّجال فقد أصاب
ومن هاب الرِّجال تهيبوه   ومن حقر الرِّجال فلن يهابا[1]

٤ ـ **الوقوع في الحرام**: وذلك لأنَّ حالة العداء غالباً ما تدفع بالإنسان إلى ارتكاب المعاصي من أجل الانتصار على عدوه فقد يكذب، ويغتاب، ويتهم، ويظن، ويتجسس، ويسب، ويشمت، إلى غير ذلك.

ولهذا قال الإمام علي عليه السلام: «من بالغ في الخصومة ظلم».

وقد يسعى الخصم للسكوت عن حقِّه اتقاء الحرام إلَّا أنَّه قد يُتهم بفعل القبائح فيضطر للدفاع عن نفسه وعندها قد يقع في الحرام لكشف الأسرار والهتك وما أشبه، وبهذا يتعرَّض للوقوع فيما هرب منه، ولذلك قال عليه السلام: «ومن قصَّر فيها ظلم، ولا يستطيع أن يتقي الله من يخاصم».

يقول الشيخ الصفّار: «بغضّ النظر عن مبررات العداء، فإنَّ حالة العداء غالباً ما تدفع الإنسان، لارتكاب مختلف المعاصي والذُّنوب، من أجل تحقيق الانتصار على عدوه، وإيقاع أكبر قدر من الضرر به، فالكذب والغيبة والنميمة، والسب والشتم، والاعتداء والظلم والتآمر،

---

(١) المصدر السابق: ص٢٠٩.

وما شاكل من المحرمات، كلها وسائل يجد الإنسان نفسه مدفوعاً لاستخدامها في معارك خصوماته وعداواته.

وفي كلمة رائعة يصور الإمام علي عليه السلام موقف من تورط في عداء أو خصومة، بأنَّه بين أحد خيارين كلاهما مر، فإمَّا أن يتنازل ويقصِّر في المواجهة، فيعطي الفرصة لعدوه أن يتمكن منه ويتغلب عليه ويظلمه، وإمَّا أن يدخل المعركة بكلّ ما أُوتي من قوَّة، ويستخدم كل أسلحة المواجهة، مشروعة وغير مشروعة، وذلك يعرِّضه لارتكاب المعاصي والذُّنوب، ويبعده عن تقوى الله، فيناله الإثم والسخط الإلٰهي، يقول عليه السلام: «من بالغ في الخصومة أثم، ومن قصَّر فيها ظلم، ولا يستطيع أن يتقي الله من خاصم»[(١)].

يقول السيِّد الخميني رحمه الله: «إنَّ المؤمنين أولياء الحق، والتحاب معهم تحابّ مع الحق، والتخاصم معهم تخاصم مع الحق، إيَّاك وإثارة غضب الحق سبحانه ومعاداة شفعاء يوم القيامة، ويلٌ لمن شفعاؤه خصماؤه»[(٢)].

٥ ـ **تفكك المجتمع**: فإنَّ العداوة تؤثر على التباعد بين النَّاس وإيجاد الشرخ بينهم، فكم من عائلات تباعدت وتفكَّكت؟ وكم من أُسر تدمَّرت؟ وكم من حروب وقعت؟ وكل ذلك بسبب الخصومة، ولذا حذَّر الله تعالىٰ من هذه النتيجة بقوله: ﴿...وَلَا تَنَازَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقد نرى بعض النَّاس يعادي فيطلب من إخوانه وأصدقائه معاداة خصومه من باب المحبة والكرامة وما أشبه، فيزداد الشرخ أكثر فأكثر.

---

(١) نهج البلاغة: قصار الحكم: ص٢٩٨.

(٢) الأربعون حديثاً: ص٢٩١.

إنَّ العداوة كالنَّار تبدأ قليلة ثمَّ تزداد شيئاً فشيئاً، فقد تبدأ بكلمة ثمَّ بسُباب واتّهام وما أشبه، وقد تبدأ بخصم واحد فيجرُّ الأمر إلى عائلة الخصم وهكذا، ولذا ورد عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنّه قال: «والعداوة القليل منها كثير»(١).

أسباب الخصومة:

بحث علماء النفس والاجتماع في أسباب الخصومة فوجدوا أنَّها تعود إلى عوامل متعددة منها:

أ ـ تركيبة الشخصية: فهناك شخصيات تميل إلى العدوان لخلل في العوامل الوراثية والتربية الأُسرية والمحيط الاجتماعي.

عن الإمام علي عليه السلام: «وإنَّما أنتم اخوان في دين الله إنَّما فرَّق بينكم خبث السرائر»(٢).

من هنا نجد في التاريخ نماذج في الأفراد الَّذين اشتهروا بالجرائم والقتل كما نجد ذلك في الأُسر والعائلات كأُسرة بني أُميَّة.

ب ـ تضارب المصالح: فأغلب المشاكل الاجتماعية بسبب اصطدام المصالح، كالنزاع على السلطة أو المال أو الأراضي وما أشبه.

ج ـ: التحاسد كحسد الشيطان للإنسان قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦].

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٩، ص٧٩.
(٢) نهج البلاغة.

وحسد قابيل لهابيل وحسد أخوة يوسف، فعن الإمام الحسن عليه السلام: «الحسد رائد السوء ومنه قتل قابيل هابيل»[١].

د ـ سوء الظن: فعن الإمام علي عليه السلام: «سوء الظن يفسد الأُمور ويبعث على الشرور»[٢].

هـ ـ الاستماع إلى أهل النميمة: وهم الَّذين ينقلون الأخبار عن مواقف الآخرين فيقولون: فلان قال عنك كذا، ممَّا يُسبِّب الضغينة والعداء، وفي الحديث: «من أطاع الواشي ضيَّع الصديق».

في الحديث الشريف: «ما بالكم يُعادي بعضكم بعضاً؟! إذا سمع أحدكم من أخيه شيئاً لا يعجبه فليلقه ويسأله...».

ولذا نجد أنَّ أغلب الخلافات ـ وخصوصاً بين الأقارب ـ تعود إلى تناقل الشائعات والأقاويل.

و ـ الأُمور الصغيرة: كالاستخفاف والتجرؤ وكثرة المزاح، فعن الإمام علي عليه السلام: «علَّة المعاداة قلَّة المبالاة».

وعنه عليه السلام: «لكلِّ شيء بذر، وبذر العداوة المزاح».

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «الانتقاد عداوة»[٣].

أنواع الخصومة:

١ ـ الخصومة الدِّينيَّة: وهي العداوة بين النَّاس بسبب الاختلاف في الدِّين، ولعلَّها من أكبر أسباب الخصومات فقد قيل: «ما سُلَّ سيف في الإسلام كما سُلَّ على الخلافة والإمامة».

---

(١) التسامح: ص٦٩.
(٢) عيون الحكم والمواعظ، ص٣٨٣.
(٣) ميزان الحكمة، ج٢ ص١٥٨٨.

والواقع أنَّ الإسلام يرفض الاختلاف بين المسلمين حتَّى وإن اختلفوا في المذاهب والأفكار، فقد كان أئمَّتنا يعودون مرضى المسلمين ويشهدون جنائزهم ويؤدون الأمانة إليهم، ويقيمون الشهادة لهم أو عليهم كما ورد عن الإمام الصَّادق عليه السلام[1].

٢ ـ **الخصومة السياسية**: وهي الاختلاف بين النَّاس بسبب السلطة والمناصب الاجتماعية كرئاسة البلدية والوقف وما أشبه، وهي من العوامل الخطيرة الَّتي تفرِّق بين الأصدقاء والعائلات وحتَّى بين الاخوة وقديماً قال أحد الخلفاء لولده: «لو نازعتني المُلك لأضربنَّ الَّذي فيه عيناك».

٣ ـ **الخصومة العائلية**: وهي الحالات الموجودة بين العائلات والعشائر... أو في نفس العائلة الواحدة.

والعداوة بين الأقرباء من أسوأ أنواع العداوات، لما تتركه في النفس من عظيم الألم، وعمق الجراح، ولما تخلّفه من قطع الأرحام، ووشائج القربى، وتمزيق العوائل والأُسر، ولأنَّ الأقرباء أقدر على الإضرار ببعضهم، لمعرفتهم نقاط الضعف فيما بينهم. لذلك رُوي عن الإمام علي عليه السلام قوله: «عداوة الأقارب أمضّ من لسع العقارب»[2].

وكم نجد في مجتمعاتنا من عداوات بين الأقرباء بسبب الخلاف على الإرث؟ وكم من إخوة أشقاء أو غير أشقاء خاضوا ضد بعضهم معارك العداء والكراهية، وانفصمت بينهم عرى الأخوّة ووشائج الرحم لاختلافهم على شيء من تركة أبيهم؟

---

(١) الكافي: ج٢، ص٦٣٦.
(٢) عيون الحكم والمواعظ، ص٣٣٩.

كيف تزيل الخصومة؟

كي يزيل الإنسان الخصومة فيما بينه وبين الآخرين لا بدَّ له من أُمور:

أوَّلاً: اتهام النفس، فمن النادر جداً أن تجد أحداً يُحاسب نفسه ويتهمها في أفعالها، بل الغالب أنَّ الخصم يرى أنَّ الحق له لا عليه، فلا بدَّ أن يضع النفس في موضع التهمة أو ليطلب المساعدة من طرف ثالث فلعلَّه يكون الأقدر على تشخيص الحال.

عن رسول الله ﷺ: «إنَّ لله جنَّة لا يدخلها إلَّا ثلاثة: رجل حكم على نفسه بالحق، ورجل زار أخاه المؤمن في الله، ورجل آثر أخاه المؤمن في الله»(١).

عن الإمام علي عليه السلام: «لا يُسلّم لك من اعتقد أنَّه أتمّ معرفة بما أشرت عليه به منك»(٢).

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ثلاث خصال يقول كل إنسان إنَّه على صواب منها: دينه الَّذي يعتقده، وهواه الَّذي يستعلي عليه، وتدابيره في أُموره»(٣).

ثانياً: التنازل عن الحق فإن تمسك كل طرف بما يراه حقّاً سيزيد من العداوة، فلا بدَّ من التسامح والغفران ولا يتم ذلك إلَّا بكسر النفس الَّتي تتعالى عن التنازل بدعوى الكرامة والحق وما أشبه.

---

(١) عدة الداعي، ص١٧٥.
(٢) الشباب: ج٢، ص٣٢.
(٣) ميزان الحكمة: مادة «دين»، ج٢ ص٩٤٤.

ثالثاً: عدم نسيان الروابط المشتركة كالاخوَة الدِّينية والروابط العائلية وكما يُقال: «الخبز والملح».

ولذا يقول تعالىٰ في موضوع الطلاق: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٧] أي إذا حصل طلاق بين الزوجين فلا يصح أن ينسيا ما كان بينهما من معاشرة فإنَّ الإنسان لا يخلو من فعل الخير وهذا الأمر يُعمّم على بقية النَّاس.

وممَّا يساعد على تقوية الروابط «المصافحة» خصوصاً إذا التقى المتخاصمان في مجلس عام، ففي الحديث: «المصافحة تذهب الغل» كما اكتشف العلم أنَّ بين السبابة والإصبع الكبيرة عصباً فإذا تشابكت أيدي المتصافحين، فإنَّ ذلك يُسبِّب الألفة بين المتصافحين، وينقل بينهما طاقة إيجابية.

رابعاً: عدم المقاطعة الكلية بل ليبقى بين الخصمين حبل وصل وإن كان دقيقاً، فإن ذلك يسهِّل عودة الأُمور إلى طبيعتها، فعن الإمام علي عليه السلام: «.. وا غ‍ ‍ ‍ض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما».

وفي الحديث: «لا تتّبع أخاك بعد القطيعة وقيعة فيه، فيسدُّ طريق الرجوع إليك، فلعلَّ التجارب تردّه عليك».

خامساً: العفو، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تعافوا تسقط الضغائن بينكم».

سادساً: العمل بالأحسن، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٤].

ومن الجدير بكلِّ إنسان أن يتدبَّر في هذه الآية فهي تدعو إلى الدفع بالأحسن ـ في القول والتنازل والعطاء والصلة ـ إلى درجة أنَّ العدو لا بدَّ أن يصير بمثابة الولي الحميم.

وعن الإمام علي عليه السلام: «الاستطلاح للأعداء بحسن المقال وجميل الأفعال، أهون من ملاقاتهم ومغالبتهم بمضيض القتال».

وقال لقمان لولده: «يا بنيَّ ليكن ممَّا تتسلح به على عدوك وتصرعه المسامحة وإعلان الرِّضا عنه، ولا تزاوله بالمجانبة فيبدو له ما في نفسك فيتأهب لك»[1].

سابعاً: المصالحة، يقول تعالىٰ: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ [النِّسَاء: ١٢٨].

فلا يصح الامتناع عن المصالحة إذا دُعي إليها الخصم، بل ليكن هو الَّذي يدعو إلى المصالحة بأيِّ طريقة كانت، ففي الحديث الشريف: «ملعون ملعون رجل يبدأه أخوه بالصلح فلم يصالحه».

وجاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤﴾ [البَقَرَة: ٢٢٤].

عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: «إذا دُعيت لصلح بين اثنين فلا تقل عليَّ يمين ألَّا أفعل».

وفي هذا المجال ينبغي التذكير بوجوب الإصلاح بين المتخاصمين.

يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ [الحُجرَات: ١٠].

---

(١) ميزان الحكمة، ج٣ ص١٨٤٩.

فالعلاقة بين المؤمنين هي علاقة أخوَّة، ولا يصح أن تأخذ غير هذا المنحى، لذلك تستخدم الآية ﴿إِنَّمَا﴾ الدالّة على الحصر، وإذا ما وقع خلاف أو سوء تفاهم بين مؤمن وآخر، فلا يجوز لسائر المؤمنين أن يتفرجوا على نشوب هذا الخلاف والنزاع، ويراقبوا بلا مبالاة استمراره وتطوره، ويعتبرون أنفسهم غرباء وغير معنيين به وإنَّه نزاع بين طرفين يرتبطان معكم برباط الأخوة، فكلاهما أخ لكم، وهل يصح السكوت على معاناة أخويكم؟ وهل يمكن أن تكونوا بعيدين عن آثار ذلك النزاع؟

عن الإمام علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «إصلاح ذات البين خير من عامَّة الصلاة والصوم»[1].

الهروب من العداوة:

العداوة مع أي إنسان ليست ممتعة ولا مريحة، فهي عبء على نفس الإنسان، واستهلاك لاهتماماته وجهوده، وهدر لطاقات المجتمع، وتمزيق لوحدته وانسجامه.

لذلك على الإنسان العاقل الواعي أن يتجنب العداوات والخصومات، فلا يبادر أحداً بخصومة، ولا يصدر منه ما يُسبِّب نزاعاً أو عداءً من قول أو فعل.

وإذا ما حاول أحد أن يستدرجه لعداوة أو صراع، فليتحلَّ بالذكاء وضبط النَّفس كي لا يقع في الفخ، فإنَّ العداوة نفق لا يعرف الإنسان كيف يخرج منه إذا دخله.

---

(١) كنز العمال: حديث رقم ٥٤٨٧.

يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: ١-٣].

واللغو هو ما لا فائدة فيه، روي عن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: ٣] قال عليه السلام: هو أن يتقول الرجل عليك بالباطل، أو يأتيك بما ليس فيك فتعرض عنه لله[1].

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص: ٥٥].

ثامناً: التحاكم إلى أهل الإيمان، فإذا لم تنتهِ الخصومة بأية طريقة سلمية فمن الضروري اللجوء إلى أهل العلم لوضع حدّ للخصومة.

عن الحكم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنَّ والدي تصدَّق عليَّ بدار ثمَّ بدا له أن يرجع فيها وإنَّ قضاتنا يقضون لي بها، فقال عليه السلام: «نِعْم ما قضت به قضاتكم، إنَّما الصدقة لله فما جُعل لله فلا رجعة له فيه، فإن أنت خاصمته فلا ترفع عليه صوتك، وإن رفع صوته فاخفض أنت صوتك»[2].

وفي هذا المجال نحذِّر من التحاكم إلى المحاكم المدنية، ففي الخبر عن عمر بن حنظلة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في ديْن أو ميراث فتحاكما إلى السلطان أو القضاة أيحل ذلك؟ فقال عليه السلام: «من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنَّما تحاكم إلى الطاغوت، وما يُحكم له فإنَّما يأخذ سحتاً وإن كان حقه ثابتاً، لأنَّه أخذه بحكم الطاغوت وقد أمر الله أن يُكفر به قال الله تعالى:

---

(١) التسامح، ص٤٤.
(٢) الوسائل: باب «الوقف».

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠]»[1].

كما أن المحاكم المدنية لا تراعي الأحكام الشرعية بل تزيد الطين بلّة، لأنّها لا تهدف إلى المصالحة بل العمل القانوني، وفي ذلك إرهاق للمتخاصمين، ولعلّ بعض القضايا تمتد إلى عشرات السنوات فيموت أصحابها ويخلفهم الورثة فيها.

وممّا يصور هذا المعنى أنّه: تنازع قطان على قطعة من الجبن فاختصما إلى قرد، فحكم لهما بالقسمة بينهما، وقطعهما إلى قطعتين غير متساويين وكان قد أحضر ميزاناً فوضع إحداهما في كفة والثانية في كفة، فرجحت الأثقل على الأخف، فعضّ منها مقداراً وأكله وعاد إلى الأولى فرجحت فعضّ منها مقداراً، وهكذا... حتّى كاد أن يأكل كلتا القطعتين فوثب القطان وأخذا ما بقي وانصرفا، ثمّ جلسا يلومان نفسيهما.

وكم من قضية في التخاصم أخسرت متعنداً في شرطة ومحاكم
مالاً ووقتاً ثمَّ منزلة ولا تجدي ندامة فوت حسن تفاهم

---

(١) مهذب الأحكام: ج٢٧، ص٢٦.

التدخل بخصوصيات الآخرين

عن الإمام علي عليه السلام:

«طلبت الراحة لنفسي فلم أجد شيئاً أروح من ترك ما لا يعنيني»[1].

* * *

حرمة الأشخاص والبيوت:

أعطى الإسلام لكلّ إنسان حصانة خاصّة لحياته الشخصيّة من خلال الدعوة إلى احترام ماله وعرضه ودمه وسائر خصوصياته.

كما أعطى لبيوت المسلمين حرمة بالغة من خلال النهي عن الاطّلاع على ما فيها[2].

ومن خلال حرمة الدخول إليها بغير استئذان قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ

(١) شرح نهج البلاغة، ج٥ ص٢٩٣.

(٢) في الحديث: «ومن اطّلع في بيت جاره فنظر إلى عورة رجل أو شعر امرأة أو شيء من جسدها كان حقّاً على الله أن يدخله النّار مع المنافقين الّذين يبتغون عورات النّاس في الدّنيا» (ثواب الأعمال وعقابها: ص٢٨٢).

لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [النّور: ٥٨-٥٩].

ومن لطيف ما يُروى أنَّ سلمان الفارسي رحمه الله تزوَّج فلما كان الصباح جاءه بعض أصحابه وقالوا له: كيف وجدت أهلك، فأعرض عنهم، ثمَّ قال: إنَّما جعل الله الستور والخدور والأبواب لتواري ما فيها، حسب امرء منكم أن يسأل عمَّا ظهر له فأمَّا ما غاب عنه فلا يسئلن عن ذلك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: التحدُّث عن ذلك كالحمارين يتشامان في الطريق»[١].

أقول: في هذه القصة موعظة لنا بالمنع عن التحدُّث بأسرار العلاقة الزوجيَّة بكلّ أنواعها.

سلبيات التدخل بالخصوصيات:

لذلك فقد جاء في النصوص الشريفة الحثّ على عدم التدخل بخصوصيات النَّاس ـ إلَّا فيما يتعلَّق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ لما في ذلك من السلبيات، ومنها:

١ ـ **إحراج الآخرين في الكلام** فقد تكون هناك بعض الأمور التي لا يريدون الإخبار عنها، وقد يلجأون إلى الكذب لعدم كشفها، وفي كلا الحالتين فإنَّ التدخل يؤدِّي إلى آثار سلبية.

٢ ـ **كشف الأسرار** الَّتي تؤذي أصحابها، وخصوصاً إذا كانت من الأسرار البيتية.

---

(١) نفس الرَّحمٰن: ص٥٥٩.

٣ ـ **العداوة والخصومة**، فتدخل البعض بمشاكل الآخرين قد يؤدِّي إلى زيادتها واشتعالها وخصوصاً إذا كانت مشاكل أُسرية، فقد كشفت الأبحاث الاجتماعيَّة أنَّ أهم أسباب الطلاق يعود إلى تدخل الأهل والأصدقاء في حياة الزوجين.

٤ ـ **إفشال السائل** من خلال إسكاته فقد قيل: «لا تتدخل فيما لا يعنيك كي لا تسمع كلاماً لا يرضيك».

رُوي أنَّ الإمام علي عليه السلام كان يخطب على منبر الكوفة فاعترضه الأشعث بن قيس وقال: يا أمير المؤمنين هذا عليك لا لك، فخفض الإمام بصره وقال: «ما يدريك ما عليَّ ممَّا لي، عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين»(١).

ورُوي أنَّ رجلاً رأى الإمام الباقر عليه السلام وهو متكىء على غلامين في ساعة حارة فجاءه قائلاً أصلحك الله شيخ من مشايخ قريش في هذه الساعة، على هذه الحال في طلب الدُّنيا؟ لو جاءك الموت وأنت على هذه الحال؟ فقال عليه السلام: «لو جاءني والله الموت وأنا في هذا الحال جاءني وأنا في طاعة من طاعات الله تعالىٰ أكفُّ بها نفسي عنك وعن النَّاس»(٢).

٥ ـ **منع الخير**، فبعض النَّاس يتدخل ليمنع الخير وهو غافل أنَّ فعله وسوسة شيطانيَّة.

رُوي أنَّ الإمام علياً عليه السلام بعث إلى رجل بخمسة أوساق من تمر فقال رجل: يكفيه وسق واحد فقال عليه السلام: «لا كثَّر الله في المؤمنين ضربك أعطي أنا وتبخل أنت»(٣).

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩.

(٢) منتهى الآمال: ج٢، ص١٢١.

(٣) الصدقة: ص١٤٤.

شخصية خاصَّة:

هناك نوع من النَّاس لا يستريحون إلَّا إذا تدخلوا في حياة الآخرين بكلِّ تفاصيلها فهم يحبون تتبع الأخبار من أصحاب العلاقة أو من غيرهم واستجواب الآخرين في عملهم ونومهم وطعامهم فيسألون: أين كنت؟ وإلى أين تذهب؟ ولماذا تفعل كذا؟ ولماذا لا تفعل كذا؟

إنَّ لهذا النوع شخصية تغضب إذا لم تعرف وكأنَّها سلبت حقّاً من حقوقها، وقد يتعدى دور السؤال والمعرفة إلى دور المشارك في الحياة، فهؤلاء يفضلون التدخل المباشر حتَّى يكونوا الحكم أو المستشار فيما يخصُّ الآخرين.

يُساعد على ذلك طبيعة المجتمع وخصوصاً المجتمع العربي الَّذي لا يهتم بأوقات النَّاس وإنَّما همَّه تضييع الوقت لذا نسمع الأشخاص الفضوليين يقولون: لنتحدَّث بكذا فنحن نتسلَّىٰ ولا شغل عندنا.

كما يُساعد على ذلك طبيعة الأُسر العربية فالأُم تزوِّج ابنتها وتظلّ تحمل همَّها وتسأل عن أحوالها مع زوجها وتتدخل بحياتها وحياته... وهكذا الجيران يتدخلون... والأصدقاء كذلك.. وكلّ ذلك بحجَّة المساعدة والاطمئنان على الأحوال.

والأعجب من كلّ ذلك أنَّ هذه الشخصيات تتدخل لتمنع الخير، فترى البعض يقول: لماذا تذهب إلى الحجّ الآن؟ ولماذا تدفع الخمس؟ ولماذا تلتزم ابنتك بالحجاب؟..

ولكن هؤلاء ـ وللأسف ـ لا يتدخلون ليمنعوا السوء بل يقولون: ما لنا وللتدخل بغيرنا.

تدخل الزوجة في خصوصيات زوجها:

تتدخل بعض الزوجات بخصوصيات زوجها في عمله وعلاقاته الاجتماعيَّة بدافع الغيرة عليه أو حبّ التملُّك والسيطرة فتسأله دائماً: أين كنت؟ ومع من؟ ولماذا تأخَّرت؟ ولماذا لا تفعل كذا؟! وافعل كذا... ممَّا يوجد جوّاً من ضيق الخناق على الزوج فينفر من كلامها وقد يضطر للكذب عليها تخلُّصاً من الإحراج...

وهذا لا يعني عدم الاهتمام بأحوال الزوج فإنَّ ذلك خلاف حسن المعاشرة الزوجيَّة، وإنَّما يعني الالتفات إلى حدود العلاقة الزوجيَّة.

إيجابيات التدخل بالخصوصيات:

حثَّ الإسلام على التدخل بخصوصيات الآخرين إذا كان ذلك لمصلحتهم من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن ذلك تدخل أهل الصلح من قبل الزوجين في حال النفور بينهما، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٥].

وممَّا ينبغي الالتفات إليه في هذا السياق أنَّ الدعوة إلى عدم التدخل بالخصوصيات لا يعني عدم السؤال عن أحوال الآخرين فإنَّ ذلك نوع من الاستخفاف واللامبالاة بحقوق الصداقة، فعن رسول الله ﷺ: «إذا أحببت أحداً فسله عن اسمه واسم أبيه، وعن منزله، فإن كان مريضاً عدته وإن كان مشغولاً أعنته»[١].

شخصية المسلم:

إنَّ المسلم هو من يحافظ على خصوصيات الآخرين، فيترك

---

(١) الصداقة والأصدقاء.

فضول الكلام والسؤال إلّا إذا اقتضى الحال وجوب الأمر بالمعروف، فإنَّ ذلك يورثه الخير والحكمة.

قيل: «إنَّ لقمان عليه السلام دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت، فلما أتمها داود لبسها وقال: نِعمْ لبوس الحرب أنت، فقال لقمان عليه السلام: الصمت حكمة وقليل فاعله، فقال داود عليه السلام: بحق ما سُمّيت حكيماً»[1].

دعوة خاصّة:

كما أنَّ لكلِّ إنسان خصوصياته الَّتي لا يرغب بأن يطّلع عليها أحد فليعلم أنَّ الآخرين مثله، فلا يتدخل بهم وفي ذلك راحة له ولهم كما قال عليه السلام.



(١) قصص الأنبياء: ص٤٥٠.

العلماء بين التوقير والتحقير

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال:

«من وقَّر عالماً فقد وقَّر ربّه»[١].

* * *

العلماء في آخر الزَّمان:

جاء في الأحاديث الشريفة أنَّ منّ علامات آخر الزَّمان ارتفاع العلم، وموت العلماء والاستخفاف بهم، والتطاول عليهم، والفرار منهم كفرار الغنم من الذئاب...

وقد خطَّط لذلك أعداء الدِّين من الكفَّار والمنافقين فقد جاء في بروتوكولات حكماء صهيون: «عُنينا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدِّين من الأميين ـ غير اليهود ـ في أعين النَّاس، وبذلك نجحنا في الإضرار برسالتهم الَّتي يمكن أن تكون عقبة كؤوداً في طريقنا، وإنَّ نفوذ رجال الدِّين يتضاءل يوماً فيوماً».

وساعد في ذلك بعض النَّاس ـ بقصد أو بدون قصد ـ فنراهم يتّهمون العلماء بدافع من التعصّب أو الحسد أو التبعية لأشخاص أو

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «العالم»، ج٣ ص٢٠٨٥.

أحزاب... فيقولون: فلان غير لائق بالمرجعية، وغير عادل، ولا يجوز الصلاة خلفه و...

وقد شاع بين النَّاس فكرة التعامل مع العالم كالتعامل مع أي فرد في المجتمع بحجَّة أنَّ النَّاس سواسية، غافلين أو متغافلين عن تفضيل الله تعالىٰ لهم بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٩].

ومن هنا كان من الضروري توجيه ثقافة النَّاس نحو دعوة الدِّين إلى إجلال العلماء وتكريمهم وتقديرهم خصوصاً أنَّنا نعيش في بلد هو «مضيعة العلماء أحياءً وأمواتاً» كما يقول السيِّد محسن الأمين رحمه الله.

وللوقوف على ذلك لا بدَّ أن نحدِّد العالِم، ثمَّ نذكر ما له من حقوق تجاه النَّاس.

من هم العلماء؟

لا ينطبق عنوان «العالم» على كل من تزيّى بثوب العلماء ولا على كل من حمل ألقاب أهل العلم، بل لا بدَّ من مواصفات خاصَّة حدَّدتها النصوص الشريفة لكي يكون النَّاس على دراية في التمييز بين علماء الخير وعلماء السوء، وبالتالي كي يتحمّلوا مسؤوليتهم تجاه أهل الخير ويحذروا من أهل الشر.

فعن الإمام علي عليه السلام: «فاتقوا الفاسق من العلماء والجاهل من المتعبدين»[١].

ومن أهم صفات علماء الخير أنَّهم يفقهون النصوص الشريفة

---

(١) بحار الأنوار: ج٢، ص١٠٦.

ويعملون بها ويدلُّون النَّاس على طريق الآخرة، ويتصفون بالأخلاق النبوية الشريفة.

قال تعالىٰ: ﴿...إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] فعن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال في الآية: «يعني بالعلماء من صدَّق فعله قوله، ومن لم يصدّق فعله قوله فليس بعالم»[١].

وعنه عليه السلام: «ومن حُرم الخشية فليس بعالم وإن شقَّ الشعر بمتشابهات العلم»[٢].

مكانة العلماء:

من الواضح أنَّ الإسلام قد رفع العلماء درجة عالية ومكانة مرموقة في الدُّنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فهم: أعلى النَّاس درجة بعد الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ففي الحديث أوحى الله تعالىٰ إلى عيسى عليه السلام: «عظِّم العلماء واعرف فضلهم فإنِّي فضّلتهم على جميع خلقي» وهم: ورثة الأنبياء فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أكرموا العلماء فإنَّهم ورثة الأنبياء»[٣].

ومدادهم أفضل من دماء الشُّهداء، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان يوم القيامة وزن مداد العلماء بدماء الشُّهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشُّهداء»[٤].

قد يُقال: لماذا هذه المكانة الرفيعة للعلماء؟

---

(١) العلم والحكمة: ص٦٩.
(٢) المصدر نفسه: ص٦٧.
(٣) المصدر السابق: ص٣٤٧.
(٤) المصدر السابق: ص٣٤٩.

الجواب: لأنَّهم حملة علم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وحصون الإسلام، وحُماة الدِّين، وقادة الأُمَّة، والأدلّاء على طريق الآخرة...

عن الإمام الكاظم عليه السلام: «... لأنَّ المؤمنين الفقهاء حصون الإسلام كحصن سور المدينة»[١].

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ مثل العلماء في الأرض كمثل النُّجوم في السَّماء يُهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر، فإذا انطمست أوشك أن تضلّ الهُداة»[٢].

تكريم العلماء:

لهذه المكانة العظيمة كان تكريم العلماء هو تكريم للإسلام والقرآن والنبي والأئمَّة عليهم السلام، فتكريم العلماء لا لأشخاصهم وإنَّما لما يمثلونه.

عن الإمام علي عليه السلام: «من وقَّر عالماً فقد وقَّر ربّه»[٣].

ومقابل ذلك يكون الاستخفاف بهم هو استخفافٌ بالدِّين، فعن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال عن حكم العالم: «... فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه فإنَّما استخفَّ بحكم الله، وعلينا ردَّ، والرادّ علينا كالرادّ على الله، وهو على حدّ الشرك بالله»[٤].

مظاهر تكريم العلماء:

ذكرت النصوص الشريفة مصاديق متعددة لتكريم العلماء، منها:

---

(١) المصدر السابق: ص٣٥٤.
(٢) منية المريد: ص٢٥.
(٣) ميزان الحكمة: مادة «العلم»، ج٣ ص٢٠٨٥.
(٤) الكافي: ج١، ص٦٧.

التعظيم، والتقديم في الصلاة وعند المعاملات التجارية، والطاعة، والاقتداء، وردّ الغيبة، والزيارة، والمجالسة، والخدمة، والنصيحة له، والوفاء، والثناء، والدُّعاء.

عن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ من حقّ العالم عليكَ أن تسلِّم على القوم عامَّةً وتخصُّه دونهم بالتَّحيَّة، وأن تجلس أمامه، ولا تشيرنَّ عنده بيدك، ولا تغمزن بعينيكَ، ولا تقولَنَّ: قال: فلان، خلافاً لقوله ولا تغتابنَّ عنده أحداً، ولا تسارَّ في مجلسه، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلجُّ عليه إذا ملَّ، ولا تُعرِض من طول صحبته فإنَّما هي بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء، فإنَّ المؤمن العالم لأعظم أجراً من الصَّائم القائم الغازي في سبيل الله، فإذا مات العالم انثلمت في الإسلام ثلمة لا يسدّها شيء إلى يوم القيامة»[١].

وعندما نعود إلى سيرة الأئمَّة عليهم السلام نجد أنَّهم تعاملوا مع العلماء من أصحابهم تعاملاً خاصّاً.

فقد كان يمدحونهم ويصفونهم بأحسن الأوصاف، ويقدّموهم على غيرهم في المجالس والأعمال، فالمعروف أنَّ الإمام الصَّادق عليه السلام كان يُقدِّم هشام بن الحكم مع صغر سنّه على كبار الشيوخ الأجلَّاء.

رُويَ عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنَّه اتَّصل بأبي الحسن عليّ بن محمَّد العسكري عليهما السلام: أنَّ رجلاً من فقهاء شيعته كلَّم بعض النصاب فأفهمه بحجَّته حتَّى أبان عن فضيحته، فدخل إلى عليّ بن محمَّد عليهما السلام وفي صدر مجلسه دست عظيم منصوب وهو قاعد خارج الدست وبحضرته خلق من العلويين وبني هاشم، فما زال يرفعه حتَّى أجلسه في ذلك الدست، وأقبل عليه فاشتد ذلك على أولئك الأشراف،

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «العلم»، ج٣ ص٢٠٨٤.

فأمّا العلوية فأجلّوه عن العتاب، وأمّا الهاشميُّون فقال شيخهم: يابن رسول الله! هكذا تؤثر عامياً على سادات بني هاشم من الطالبيين والعبّاسيين؟!

فقال عليه السلام: إيّاكم وأن تكونوا من الّذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: ٢٣] أترضون بكتاب الله عزّ وجلّ حكماً؟ قالوا: بلى.

قال: أليس الله تعالىٰ يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١١] فلم يرض للعالم المؤمن إلّا أن يُرفع على المؤمن غير العالم، كما لم يرض للمؤمن إلّا أن يُرفع على من ليس بمؤمن.

أخبروني عنه قال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١١].

أو قال: يرفع الله الّذين أُوتوا شرف النسب درجات؟

أوليس قال الله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الزمر: ٩] فكيف تنكرون رفعي لهذا لما رفعه الله؟!

إنّ كسر هذا (لفلان) الناصب بحجج الله الّتي علّمه إيّاها، لأفضل له من كل شرف في النسب»[١].

وكتب الإمام العسكري عليه السلام إلى علي بن بلال: «وقد أعلم أنّك شيخ ناحيتك فأحببت إفرادك وإكرامك بالكتاب بذلك»[٢].

(١) الاحتجاج: ج٢، ص٥٠٠.
(٢) النبي وأهل بيته: ص٤٩٣.

من مظاهر تكريم العلماء:

عندما نطالع سيرة العلماء في تكريم العلماء نجد أنَّهم كانوا يظهرون غاية التعظيم والاحترام والتقدير بحيث إنَّ بعضهم كان إذا ذكر اسم أستاذه يقول: «روحي فداه»، وبعضهم لم يرتقِ المنبر للتدريس في حياة أستاذه.

فالمعروف عن السيِّد الخميني رحمه الله أنَّه عندما يذكر أستاذه «الشاه آبادي» يقول «روحي فداه» ويقول: «شيخنا الجليل الَّذي له عليَّ حقّاً، حق الحياة ولا يمكنني باليد واللِّسان أن أودِّي واجب شكره» ويكتب الشهيد مطهري عن أستاذه: «حضرة الأستاذ العلَّامة الطباطبائي روحي فداه».

ذكر السيِّد المرعشي رحمه الله أنَّ العلَّامة الكلباسي عندما كان يأتي إلى «قم» لزيارة السيِّدة المعصومة ويصل إلى مسجد الإمام العسكري يخلع نعليه من عند الجسر، ولمَّا سُئل عن ذلك قال: إنَّ حملة أحاديث الأئمَّة عليهم السلام دفنوا في هذه المنطقة ولا أحب أن أمشي على هذه الأجساد وأنا غير محتفي[١].

تحقير العلماء:

ويقابل التكريم المذكور التحقير والتطاول والاستخفاف والإهانة، والاستهزاء، والافتراء، والإيذاء، والهتك، والوقيعة، والتسقيط، والغيبة، وسوء الظن، والاتهام، والتشكيك، والتحطيم المعنوي، إلى غير ذلك من المفردات.

وإذا كانت هذه الأُمور محرمة تجاه المؤمنين، فكيف إذا كانت تجاه العلماء؟

---

(١) سيماء الصالحين: ص٢١٦.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «... ومن كان أبلغ حرمةً لله ورسوله كان أشدّ حرمةً للمسلمين»[١].

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من احتقر صاحب العلم فقد احتقرني»[٢].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «العالم سلطان الله في الأرض فمن وقع فيه فقد هلك»[٣].

الخاتمة:

قد يقرأ البعض هذه الكلمات ثمَّ يقول: إنَّ ما ذُكر لا ينطبق على فلان؟ ثمَّ يبدأ بالكلام عليه والتشكيك به... ولذلك لا بدَّ من الالتفات إلى أنَّ الإنسان الَّذي لا ينطبق عليه عنوان العالم، ينطبق عليه عنوان «المؤمن» الَّذي تحرم غيبته؟

ثمَّ ما المصلحة من التسقيط والتشكيك ـ اللَّهمَّ إلَّا إذا كان العالم من أهل البدعة ـ.

ثمَّ أليس أغلب الأُمور المتناقلة بين النَّاس قائمة على السماع ـ والباطل أن تقول سمعت ـ.

ثمَّ لماذا يضع الإنسان نفسه في مقام التكرار والترديد لما يقوله النَّاس، والحديث يقول: «إيَّاك أن تنصب رجلاً دون الحجَّة فتصدّقه في كل ما قال».

أليس من الأجدر الاحتياط وكفّ اللّسان؟ فعن الإمام

---

(١) الصداقة: ص١٢٠.

(٢) العلم والحكمة: ص٤١٣.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٥٠.

الصَّادق ﷺ: «قولوا للنَّاس حُسناً، واحفظوا ألسنتكم، وكفُّوا عن الفضول وقبيح القول».

إنَّ المؤمن هو من يضع نفسه مع الأتقياء لا الجهلاء، لأنَّ «من أخلاق الجاهل الإجابة قبل أن يسمع، والمعارضة قبل أن يفهم، والحكم بما لا يعلم» كما عن الإمام الصادق ﷺ.

يقول السيِّد الخميني رحمه الله: «كل من يرى كتاب «جواهر الكلام» يدرك مدى جهود المجتهدين الَّذين يتطاول عليهم اليوم عدد من روّاد الأزقَّة ليحدِّدوا لهم تكليفهم».



أهم مصادر الكتاب

١ ـ **ألف حكمة لأمير المؤمنين** عليه السلام ـ ت: ابن أبي الحديد ـ ط: دار التيار الجديد.

٢ ـ **الأربعون حديثاً** ـ ت: السيد الخميني ـ ط: دار التعارف.

٣ ـ **الأمثل** ـ ت: الشيخ ناصر الشيرازي ـ ط: مؤسسة البعثة.

٤ ـ **الميزان** ـ ت: السيد الطباطبائي ـ ط: مؤسسة الأعلمي.

٥ ـ **بحار الأنوار** ـ ت: الشيخ محمد باقر المجلسي ـ ط: مؤسسة الوفاء.

٦ ـ **بهج الصباغة** ـ ت: الشيخ محمد تقي التستري ـ ط: دار أمير

٧ ـ **رسالات علوية** ـ ت: السيد عادل علوي ـ ط: المؤسسة الإسلامية.

٨ ـ **سفينة البحار** ـ ت: الشيخ عباس القمي ـ ط: دار الأسوة

٩ ـ **شواهد المبلغين** ـ ت: الشيخ أكرم جزيني.

١٠ ـ **في رحاب نهج البلاغة** ـ ت: الشيخ مرتضى المطهري ـ ط: دار التعارف.

١١ ـ **غرر الحكم** ـ ت: الشيخ الآمدي ـ ط: مركز الأبحاث.

١٢ ـ **كلمة الله** ـ ت: السيح حسن الشيرازي ـ ط: دار العلوم.

١٣ ـ **مستدرك نهج البلاغة** ـ ت: الشيخ محمد باقر المحمودي.

١٤ ـ **منتهى الآمال** ـ ت: الشيخ عباس القمي ـ ط: الدار الإسلامية.

١٥ ـ **منهاج البراعة** ـ ت: الشيخ حبيب الله الخوئي ـ ط: مؤسسة الوفاء.

١٦ ـ **موسوعة الإمام علي** عليه السلام ـ ت: الشيخ محمد الري شهري ـ ط: دار الحديث.

١٧ ـ **موسوعة أمير المؤمنين** عليه السلام ـ ت: الشيخ باقر القرشي ـ ط: مؤسسة الكوثر.

١٨ ـ **مواهب الرحمان** ـ ت: السيخ عبد الأعلى السبزواري.

١٩ ـ **ميزان الحكمة** ـ ت: الشيخ محمد الري شهري ـ ط: الدار الإسلامية.

٢٠ ـ **نور الثقلين** ـ ت: الشيخ عبد علي الحويزي ـ ط: مؤسسة اسماعيليان.

٢١ ـ **وسائل الشيعة** ـ ت: الحرّ العاملي ـة ط: دار إحياء التراث العربي.



الفهرس

البداية والنهاية

الآخرة هدف خلق الإنسان

القلب السليم

عبادة الله تعالى

رؤية الله تعالى

الحذر من النِّعم الإلهيَّة

الضيافة الإلهيَّة

المُلك

همّ الدُّنيا والآخرة

اليوم الأخير في حياة الإنسان

الفرصة الأخيرة من العمر

الباقي والفاني

من هم الأحياء والأموات؟

الطريق إلى الجنَّة

الإنسان بين الدُّنيا والآخرة أو بين المنام واليقظة

باب الجنَّة

الحسنات زاد الآخرة

الجنَّة والنَّار

الفوز بالشهادة

الزلزال الأعظم

تخفَّفوا تلحقوا

الاشتراك في الثواب والعقاب

التضحية في سبيل الدِّين

فضل الشيعة

الخلق عيال الله تعالى

معاشرة النَّاس

التوازن في الحب والبغض

حقوق النَّاس

الشماتة بالنَّاس

العطاء والبذل

القلوب

دمعة المؤمن

تربية الأولاد

الولد الصالح والولد الطالح

المال

الحاجة والاستغناء

الفقر الموت الأكبر

البلاء

الصدق والكذب

الحدِّة والغضب

نظر العين

فوائد البكور وأضرار السهر

المناجاة

حزب الله

عالم الغيب والشهادة

الخوف والفزع

الغربة

الأخلاق

المسؤولية الشرعية

الخصومة والعداوة

التدخل بخصوصيات الآخرين

العلماء بين التوقير والتحقير

صدر للمؤلف

١ ـ زيارة الإمام الحسين عليه السلام، في رحاب الإمام المهدي عليه السلام
٢ ـ كفاية الزائرين
٣ ـ ضياء المؤمنين
٤ ـ الروح بين العلم والعقيدة
٥ ـ النور المبين في فضل الصلاة على محمد وآله الطاهرين
٦ ـ خدمة الناس في سيرة أهل البيت عليهم السلام
٧ ـ المنهج العبادي للأنبياء والأوصياء والعرفاء
٨ ـ النظام الصحي بين الطب الإسلامي والطب الطبيعي
٩ ـ حياة السيد المسيح عليه السلام
١٠ ـ كيف تواجه الابتلاء
١١ ـ بحوث في الإمامة والولاية
١٢ ـ جمال السالكين السيد عبد الأعلى السبزواري رحمه الله
١٣ ـ كيف تقرأ القرآن الكريم
١٤ ـ وصايا العلماء
١٥ ـ غياث الملهوفين في التوسل بمحمّد وآله الطاهرين
١٦ ـ الشفاء في الغذاء في طب النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام
١٧ ـ الأحلام نافذة على عالم الغيب
١٨ ـ يوم القيامة ونسبية الزمن بين العلم والقرآن الكريم

١٩ ـ جواهر الأخبار في ما ورد عن النبي وآله الأطهار

٢٠ ـ مواعظ وعبر من حياة الأنبياء والأوصياء والأولياء

٢١ ـ تكريم الناس

٢٢ ـ الفضائل العلوية

٢٣ ـ الكمالات العلوية

٢٤ ـ البيت السعيد

٢٥ ـ أعمال الحج والعمرة

٢٦ ـ قضاء الحوائج

٢٧ ـ الصدقة نور في الدنيا والآخرة

٢٨ ـ الدين المعاملة وفن العلاقات الاجتماعية

٢٩ ـ الشفاء في الصيام مقارنة بين الصّوم الدّيني والصّوم الطّبّي

٣٠ ـ كيف ننفع الأموات؟

٣١ ـ ادخال السرور على أهل القبور

٣٢ ـ زجر النَّفس: المنسوب للنبي إدريس عليه السلام

٣٣ ـ كيف تحاسب نفسك؟

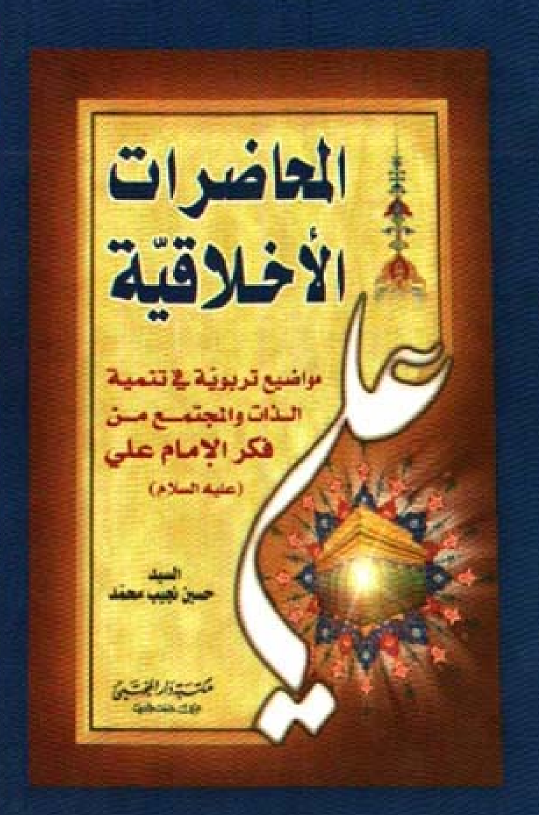
٣٤ ـ كلمات سيد الأوصياء عليه السلام لمناسبات الموت والعزاء

٣٥ ـ المحاضرات الأخلاقية

تُطلب الكتب من المؤلف: جنوب لبنان ـ عديسة

تلفـون: ٠٣/٦٤٩١٣٦

٠١/٢٧٩٥٨١





مكتبة دار المجتبى

العراق - النجف الأشرف - سوق الحويش
تلفون : ٠٧٨٠١١٩٨٨٣١ - ٠٧٨٠١٢٢٨٩٣٨



للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
هاتف: ٠٣/٩٤٦١٦١ - ٠٣/١١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٢٧٦٩٨٨
http://www.Dar-Alamira.com
e-mail:info@dar-alamira.com